

المجموعة الكاملة
لمؤلفات الأستاذ

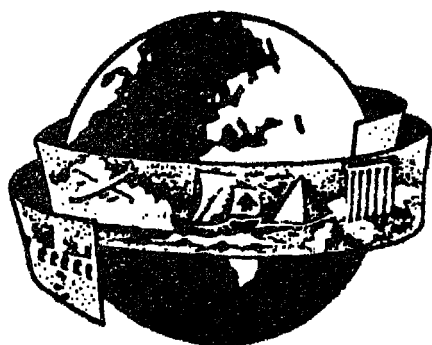
عباس محمود

العقائد

ترجمة وسيرة

7

دار الكتاب اللبناني - بيروت



دار الكتاب المصري

طباعة - نشر - توزيع

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج. ٢٠ غ
ت: ٣٩٤٢١٦٨ / ٣٩٣٤٣٠١ - فاكس: ٣٩٤٦٥٧ (٢٠٢)
ص: ١٥٦ - الرمز البريدي: ١١٥١ - بركيا: كتامصر

TELEX No: 23081-23381-22181-22481 - ATT: MR. HASSAN EL-ZEIN
FAX: (202) 3924657 CAIRO - EGYPT

المجلد الاول والعشرون

تاجبر وسين

المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود

العقائد

المجلد الواحد والعشرون

تراجم وسيرة - ٧ -

يحتوي على _____

بنجامين فرنكلين
سن ياتسن أبو الصين

دار الكتاب اللبناني - بيروت

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر،

دار الكتاب اللبناني

بيروت - لبنان

ص.ب. ٣١٧٦ - برقية (كتائب)

تليفون - ٢٥٧٤٧٠ - ٢٣٧٥٣٧

TELEX No 22865 K.T.L

LE BEIRUT

الطبعة الأولى

١٩٨١

عَبَّاسُ مَحْمُودٍ
العَقْدَانِ

بَنجَامِينُ فَرَنْكَلِين

دار الكتاب اللبناني - بيروت

هذا الكتاب وهذا الرجل

بمعلم حسن جلال العروى

المستشار العام لمؤسسة فرانكلين

صدر هذا الكتاب يوم ١٧ من يناير سنة ١٩٥٦ قصدا وعمدا ،
لا مصادفة ولا اعتباطا ؛ ففى مثل هذا اليوم من مائتين وخسين عاما
(١٧ من يناير سنة ١٧٠٦) ولد بنجامين فرنكلين العبقري الأمريكى
الفذ ، العالم ، الكاتب ، السياسى . الدبلوماسى ، الفيلسوف ، الانسان
الذى لا يقال فيه خير مما قاله كاتبنا الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد
مؤلف هذه الدراسة الرائعة .

اليوم يحتفل العالم كله باحياء ذكرى فرنكلين وتكريمه بنشر تعاليمه
وفلسفته الانسانية فى ميثاق تعاهد فيه مواطنو خمسين دولة مختلفة على
تخليد ذكرى الرجل الكبير بالعمل على نشر المبادئ السامية التى
استهدفها فى حياته . فدعوا الى العدل — فى نطاق دولى لا يعرف الحدود
والتخوم — على انماء الثقة المتبادلة بين الأفراد ؛ واحترام الكرامة
الانسانية ؛ ومحو العنصرية . وتدعيم التفاهم المشترك ؛ وتبادل احترام
العقائد المختلفة ؛ والتمسك بالحرية فى مختلف صورها ؛ والدعوة الى
اتاحة الفرص المتكافئة للجميع .. الى آخر ما أعلنته هذه الجماعة من
مبادئ وقيم خلقية هى صلب المثل العليا التى تستلهم سيرة بنجامين فرنكلين .
وهذا التكريم لذكرى فرنكلين سبقته مظاهر عديدة من مظاهر
التمجيد والتخليد فسميت باسمه عشرات المؤسسات والهيئات العلمية
والأدبية . ولعل القارئ يدرك أن هذه المؤسسة بالذات انما سميت

باسمه ولم يكن ذلك لمجرد تخليد ذكره فحسب بل لأن القائمين بها رأوا - وبحق - أن في نسبتها إليه إيضاحاً للأهداف التي تسعى إلى تحقيقها في خدمة السلام والأخوة الإنسانية عن طريق الثقافة وتقريب مستويات المعرفة الصحيحة والادراك السليم .

ومن أحدث مظاهر التكريم لهذا الإنسان العظيم ما قرره جامعة (ييل) أخيراً من نشر جميع ما كتبه فرنكلين في حياته العامة والخاصة ، في مجلدات ضخمة ستنتشر تباعاً . وقد حذت جامعة (ييل) في هذا الشأن حذو جامعة برنستون في نشر « أوراق » توماس جيفرسون الرئيس الأمريكي الفيلسوف .

إن في قراءة سير العظماء متعة وثقافة والهامة ، وأحسب أن شبابنا في مراحل تكوينه لا يستطيع أن يستغل أوقات فراغه بشكل أفضل من الاقبال على قراءة الجيد من سير العظماء ، واستلهاهم عظات حياتهم في استكشاف طريقه في الحياة . والسيرة التي تقدمها اليوم حرية بالتأمل والدراسة . وحسبك من قصة حياة أن يكون صاحبها بنجامين فرنكلين ، وأن يكون كاتبها الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد ذلك المفكر العملاق الذي تجاوزت عبقريته مع عبقرية من سبقوه ، فكانت هذه الدراسات الفنية العميقة - التي عرفت بالعبقريات - والتي أضافت ثروة أدبية كبيرة إلى المكتبة العربية .

تمحيّد

بمقدّم

عبدالله محمد العفشار

انسان وافر النصيب من ثناء الناس ، ومن ثناء الذين لا يشنون على أحد الا بمقدار ، وقلما يشنون بمقدار .

حياه فولتير فسماه « فرنكلين المجيد الحكيم » (١) .

وحياه دافيد هيوم فقال : « انه الفيلسوف الأول والأديب الأول الذى جذب أنظار أوربة الى البلاد الأمريكية » (٢) .

وحياه المصلح الناقد صمويل رومبلى فقال بعد زيارته : « بين المشاهير الذين اتفق لى أن رأيهم فى حياتى ، يلوح لى أن فرنكلين — بسيماه وحديثه — أجدرهم بالتنويه فطلعتهم الأبوية وبساطته فى هيئته وكلامه ، وجدة ملاحظاته .. تركت فى نفسى رأيا فيه أنه من صفوة الرجال الذين وجدوا فى كل زمان » (٣) .

وقال بلزاك : « انه اخترع عسود الصواعق ، واخترع القفشة ، واخترع الجمهورية » .

وخاطبه رئيس قومه واشنطن فقال : « اذا كان التبجيل اكراما للخير ، واذا كان الاعجاب اكراما للنموغ ، واذا كان التقدير للوطنية

(١) Poor Richard

(٢) بنيامين فرنكلين تأليف برنارد كوهن

(٣) مشاهير رجال العلم فى أمريكا تأليف كروثر

Famous American Men of Science by Crewther

والحب للإنسانية ، خليفة أن تلهم عقل الإنسان الرضا والغبطة ،
 فلا مشاحة يتوافر لك السلوان بالحياة التى لا تذهب سدى « (١) .
 وقال رئيس قومه فرنكلين روزفلت وهو يحيى ذكره بعد مائة
 وخمسين سنة : « ان بنيامين فرنكلين الذى تدين له الجامعة — جامعة
 ييل — بالكثير ، قد أدرك أيضا أن المبادئ الأساسية فى العلم والأخلاق
 وآداب الاجتماع على خلودها تتجدد بالتطبيق والتنفيذ على حسب
 المعيشة من جيل الى جيل ، وائنى على يقين أنه لو كان معنا اليوم لقرر
 أن الواجب الأكبر على الفيلسوف والمعلم أن يحققا المثل العليا للحق
 والخير والعدل بقسطاس الحاضر لا بقسطاس الزمن الغابر .. » (٢) .
 هؤلاء يحملون غصن التحية .

وأناس آخرون يشنون عليه وهم لا يحملون غير الميزان . وقد
 يحسنون حمله باليمين وباليسار .

قال ليونل الفين Lionel Elvin فى كتابه رجال أمريكا :

« كان للحياة فى نفسه حب وعلاقات شتى ، وكان يحسن المتعة
 باللغو ، ويجتذب اليه القلوب ويسلكها بتلك المودة التى تنجم من القناعة
 العميقة والصفاء القدير . وحق أنه كان الى العطف أقرب منه الى الشعور
 اللاعج ، والى الفطنة أقرب منه الى القريحة الشعرية ، والى الأخلاق
 العملية أقرب منه الى السريرة الصوفية ، والى الإصلاح أقرب منه الى
 الثورة والانتقال ، والى أن يعد فى زمرة أبناء الدنيا أقرب من أن يعد فى
 زمرة الأنبياء . ولو أنه قذف به الى جزيرة خالية لكان مسلكه فيها
 كمسلك روبنسون كروزو ولم يكن مسلكه ثمة كمسلك اسكندر
 سلكيرك من تصنيف كوبر . وان اختلاف الراى فى عرض هذا الخلق

(١) الأمريكى الأول تأليف برلنجيم Burlingame

(٢) كتاب برنارد كوهن .

على معيار النقد ليتوقف على مزاج الناقد وتقديره : وانما أساس النقد كله أن فرنكلين قد أفرط في التوحيد بين الفضيلة والنجاح المحترم : أو كما كتب على هامش ترجمته : ما من شيء كالفضيلة يكفل للمرء حظه .. ولكن مما يوضع له في الكفة الأخرى أنه — اذا لم يكن قد عبر علمه وجهه لخير بلاده الأمريكية ، كما جعل الدنيا كلها — مكانا أصح للعيش فيه ، وقد صعد بسجوده في سلم وطنه الجديد . وقذف بكل عن أرفع الآفاق وأبعد الأعماق في الطبيعة الانسانية . قد جعل — بفضل ما عنده في معركة الديمقراطية التي تقابل المجتمع الخاضع لسلطان الاستبداد . وآمن بأن الناس جميعا ينبغي أن يكونوا — في كل مكان — راضين سمحين أحرارا مثقفين . وان العمل لمثل هذه الغاية وحسن الابانة عنها ليس بالمطلب الصغير ولا بالأمر الهين .. » .

ومن الذين يثنون عليه من لا يحملون غصن التحيّة ولا يحملون ميزان الحساب : ولكنهم يحتكمون الى هوى العاشق وشوق المفتون . ويقولون بلسان قائلهم لورنس نبي الجسد في القرن العشرين :
« اننى لأعجب به » .

« أعجب بشجاعته الدءوب قبل كل شيء ، ثم أعجب بحصافته : ثم ببصره النافذ في غمائم البروق والرعود والكهربا ، ثم بفكاهته الدارجة : كلها خصال الرجل العظيم الذى لم يكن قط أكبر من مواطن عظيم » .
ثم يقول ، أو تقول شيعته كلها بلسانه : « انه .. طابع ، فيلسوف ، عالم ، مؤلف ، وطنى ، زوج صالح ، مواطن ، فما باله لا يكون نموذجا يقاس عليه ؟

« أترأه رائدا ؟ يا للرواد !

« لقد كان بنيامين رائدا من أكبر الرواد في الولايات المتحدة . ولكننا لا نستطيع أن نسلك معه فما هو جانب الخطأ فيه ؟ وما هو جانب الخطأ فينا ؟

« اننى لأذكر فى صباى كيف كان أبى يشتري الكتاب الذى يسمى التقويم وتظهر على غلافه صور الشمس والقمر والنجوم ، وتتخلله النبوءات عن الحروب والمجاعات ، ومعها فى الزوايا نواذر وأصاحيك تمازجها العبر والعظات ، وقد كنت أضحك ضحكى الصغيرة الغريرة من تلك المرأة التى تعودت أن تعد الكتاكيت قبل انفراج البيض عنها وما الى هذه الفكاهات ، وعلمت من ثم أن الأمانة أفضل سياسة بشىء من تلك الغرارة . وكان مؤلف هذه الشذور ريتشارد المسكين ، وكان ريتشارد المسكين بنيامين فرنكلين ، كاتباً ما كتب فى فلادلفيا قبل أكثر من مائة عام . وربما كنت حتى اليوم لا أسيغ تلك العبر والعظات ، ولا أزال ضائقاً بها كأنها الشوك فى لحم الصبى الصغير . ولأننى لا أزال أومن بأن الأمانة أفضل سياسة أرانى أبغض السياسة بحذافيرها . وانه لسواء عندى أن تعد الكتاكيت قبل مولدها وأن تعدها منهوما بمنظرها بعد خروجها من البيضة . ولقد لبثت السنوات الطوال وعانيت الوحزات التى لا عداد لها كى أخلص من ذلك السلك الشائك الذى أقام به ريتشارد المسكين أسوار الأخلاق » .

وقبل ذلك يقول لورنس عن فرنكلين والروح الانسانية : « ان الروح الانسانى غاب ألفاف ، وفرنكلين يقتطع منه حيزاً يحرقه ويدير عليه حائط البستان » (١) .

وهذا هو الشرط الناقص فى معيار لورنس نبى الجسد فى القرن العشرين ، أو نبى النزوات الحسية على التعبير الصحيح .

فلا يوافق ذوقه نظام متكشف لضوء النهار ، ولا بد من الألفاف المتشابكة على غير نسق معلوم ، ولا بد من الزوايا المظلمة واللفحات المضطربة هنا وهناك ، ولا بد من صدع الحائط حول البستان ليزول

(١) دراسات فى الآداب السلفية الأمريكية تأليف لورنس D.H. Lawrence

البستان اسما وسمة ، ولا يبقى غير الغابة ذات الألفاف ، وذات السباع ،
وحبذا لو اتسعت للأفاعى مع السباع !

ولا يطلب من كل عظيم أن يكون وفقا لشروط لورنس فيما يستحق
به المحبة والعاطفة المشتعلة . حسب العظيم أن يكون وفقا لاعجابه
وتعظيمه بسبب أو سببين ، وقد كان فرنكلين وفقا لشروط اعجابه بأسباب
كثيرة : شجاعة وحصافة وبصر نافذ خلل الغمام ، وفكاهة دارجة ووطنية
جديرة بالأعظام والاكرام .

ولا نكتهم عن أنفسنا أننا نرضى عن معيار لورنس في تقدير العظمة
بعض الرضا ولا نحس في صميم الوجدان أننا ننكره كل الانكار .
أنكون عظمة بغير نار مقدسة ؟

كلا . لا غنى عن هذه النار المقدسة في عظمة عظيم ، وليس من حق
النظام ولا النور أن يسلبها تلك النار التى لا يقر لها قرار .
الا أن العبقرية كلها نار مقدسة ، والعبقرية كلها لا يقر لها قرار مع
اضطرام تلك النار .

وفرنكلين على وفاق هذا الشرط بغير شذوذ ولا استثناء ، فلا دخان
ولا شرر ولا قعقة من الوقود المتأجج بين الضرام .
ولكن النار هناك فى الموقد المصون .

لا صاعقة تنقض على الحطام بين البروق والرمود ، ولكن العمود
هناك يتلقى الصاعقة فى أمان .

والترفة بين النارين حتم فى مقام الكلام على عبقرية فرنكلين .
أليس هو صاحب الموقد الذى نحس ناره ولا نحس دخانه وشرره ؟
أليس هو صاحب العمود الذى يستنزل الصاعقة ويروضها بعد الجراح
رياضة الفارس الخير ؟

ان العبقرية التى يعجب بها لورنس كالنار التى تلتهب فى المدخنة ثم

تطير الحرارة منها بين الجدران وبين الهواء والهباء .
ولم تذهب هذه النار بين يدي فرنكلين ، لأنه صاحب الموقد الذي
اخترعه ليحفظ النار ويثبثها على السواء بين الجدران ، ويرسل منها الى
القضاء ما تستغنى عنه الأبدان .

والصاعقة لم تذهب كذلك بين يديه ، ولكنه ساسها وقادها وأسلس
زمامها ، فهي صاعقة في طريقها بين السماء والأرض ، ولكنها من قبيل
العبقرية التي خلقت لفرنكلين !

ويوشك أن يكون التشبيه هنا واقعة محتومة لا مجاز فيها ،
ويوشك أن يكون الموقد وعمود الصاعقة من اختراع هذا العبقري
لأنهما أشبه النيران بعبقريته الطيبة الرفيعة : عبقرية تعجب النفوس
والعقول ، ولكنها لا تزوع ولا تهول .

لهذه العبقرية محلها بين العبقريات في كل زمن ، ولعلها أولى بالمحل
الأول في هذا الزمن خاصة . لأنه زمن لا تعوزه عبقریات اللهب والدخان ،
وقد تعوزه المئات من عبقریات النور والهداية والأمان .

ومن رسائل هذه العبقرية في هذا الزمن أنه زمن ضاعت فيه
الشخصية الانسانية بين التخصص والكثرة العددية ، وكلاهما « فناء »
لمزايا الانسان أشبه بفناء « النرفانا » في عقائد المنهزمين المنكرين للحياة .
ان « التخصص » قد جار على « الشخصية الانسانية » فلم يترك في
كل امرئ الا جزءا من انسان مستغرقا في جزء من المعرفة وجزء من
العناية بالعالم الواسع الذي يعيش فيه ، وليس أضر ولا أوخم من هذه
التجزئة في الزمن الذي ولدت فيه الفكرة العالمية وأصبحت علاقة العالم
الانسانى بعضه ببعض حقيقة متمكنة تتطلب الانسان كله للمساهمة
فيها ، ولا تقنع منه بجزء ناقص محبوس في أصداف المحار .

وان هذه العبقرية التي تعددت جوانبها وتشعبت شواغلها ، مع

الاتزان والاعتدال وحسن الاحاطة والاجمال ، لى الترياق الذى يشفى
من هذه الآفة ، والقدرة التى تستنهض الهمة لمحاكاتها ، ثم لا تيسسها من
بلوغ الغاية فى المحاكاة ، لأنها — بطبيعتها — تعجب النفوس والعقول
ولكنها لا ترزع ولا تهول .

وقد جارت الكثرة العددية على معالم الشخصية الانسانية فوق هذا
الجور الذى ابتليت به من داء التخصص والانحصار ، وقد تجدى هذه
العبقرية جدواها التى لا تشبها جدوى العبقريات الأخرى فى انصاف
« الشخصية » الممتازة من طوفان الكثرة العددية . لأنها من هذه الكثرة
خرجت ، ولهذه الكثرة عملت . وعلى هذه الكثرة عولت فى كل مرحلة
من مراحل النجاح وعلى كل درجة من درجات السمو والارتفاع ، فلم
يمنعها ارتفاعها من غمار الكثرة العددية أن تكون من زمانها الى هذا
الزمان مثلاً نادراً « للشخصية » الفذة التى لا تضعى فى غمار .

والصفحات التالية صور متتابعة لهذه الشخصية . أو لهذه العبقرية ،
لم نحفل فيها بسجل الأرقام ولا باحصاء الأيام . ولم نكتبها لنبدأ فيها
بسنة الولادة ، ونختتمها بسنة الوفاة ، ونمضى فيها مع التقويم شهراً بعد
شهر وعاماً بعد عام . ولكننا كتبناها كما نكتب تراجمنا عامة لنعرض
فيها لمحة بعد لمحة تتم بها ملامح الصورة بعد الفراغ من النظر إليها .
وقد يتابعها القارئ فلا يفوته مع ذلك سجل الأرقام ولا احصاء الأيام .
وانما يلزم بها حيث يعبرها فى طريقه ، ويستغنى عنها بعد ذلك اذا شاء ،
أو يقيها على حد سواء .

وسنبداً « الصورة » بترجمة مجملية ترسم مراحل الطريق ، أو ترسم
حدود النظر الى الاطار الذى يحيط بلامخها وقسماتها ، ثم نتبعها
بصورة لكل جانب من جوانب هذه الشخصية على أعماها وأوسعها ، مع
صعوبة التعميم والاحاطة بهذه الشخصية الفذة التى لم تدع شأنها من

شئون عصرها الا اشتغلت به فى وقت من الأوقات ، ثم ندع لها أن تتكلم
بلسانها وتعبر لنا عن كل جانب من جوانبها ، ولعل الكلام الذى نسمعه
منها أدل عليها من كل كلام يقال فيها .
ولنبداً بالترجمة : ترجمة العالم الكاتب السياسى الفيلسوف الانسان .

المجلد الأول
عن فرانكلين

معالم الطريق

كتب فرنكلين سيرته التي سماها المفكرات وسميت فيما بعد بالترجمة الذاتية ، وبدأها وهو ينوئ أن يخص بها أبناء أسرته للاستفادة بها في شئونهم العائلية ، ثم اطلع عليها بعض أصدقائه فأعجبوا بها وأشاروا عليه باتمامها وتعميم نشرها ، ولكنها لم تنشر في حياته ولم يحصل عليها الناشرون كاملة الا بعد مساومات ومفاوضات طويلة ، مع الذين جمعوا أجزاءها في فرنسا حيث ظهر الجزء الأول منها للمرة الأولى مترجما الى اللغة الفرنسية .

وقد كتبت هذه الترجمة على أربعة أجزاء في أوقات متعددة وأماكن متفرقة .

كتب الجزء الأول منها في انجلترا وهو في الخامسة والستين من عمره ، واشتمل بعد تاريخ أسلافه على تاريخ حياته من مولده في سنة ١٧٠٦ الى زواجه سنة ١٧٣٠ . وكتب الجزء الثاني في باسي بفرنسا بعد ذلك بثلاث عشرة سنة (أى سنة ١٧٨٤) .

وكتب الجزء الثالث بعد أربع سنوات (١٧٨٨) على أثر عودته الى فلادلفيا وبلغ به حوادث سنة ١٧٥٧ حين كان في الحادية والخمسين . والمظنون أنه أضاف اليها الجزء الرابع ما بين أواخر سنة ١٧٨٩ وأوائل سنة ١٧٩٠ قبل وفاته بفترة وجيزة .

ولا توجد بين الترجمات الذاتية ترجمة لها نصيب هذه الترجمة من الاقبال والقراءة العامة ، لأنها حديث شائق عن رجل مشهور محبوب

يروى قصة حياته ، ويحسن روايتها على النسق الذى يهم كل قارئ وقارئة كأنها قصة للتسلية ، وكأنها فى الوقت نفسه قصة القارئ فى حياته الانسانية التى تتشابه بين جميع الناس على اختلاف الحوادث والأوقات .

وهذه الترجمة تصور صاحبها أصدق تصوير فيما ذكره من أخباره وأعماله وفيما يستخلصه القارئ من بين السطور على غير قصد من المؤلف ، لأن أسلوبه فيها يفسر الناحية المهمة فى شخصية فرنكلين وفى عوامل نجاحه وسهولة مسلكه بين الناس فى كل مكان عمل فيه ، من وطنه الى انجلترا الى فرنسا ، ومن بيئة الصناع الفقراء الى بيئة الملوك والأمراء والنبلاء ، ومن طوائف الأميين وأشباه الأميين الى طوائف العلماء والحكماء وقادة الآراء .

ان الرجل لم يكسب هذا المسلك السهل بالملق والموافقة ، لأنه كان يبدى رأيه على أتمه اذا خالف سامعيه ، وكان لا يثنى على أحد بغير أسلوب العالم الذى يعنى كل ما يقوله وان تلتطف فى التعبير ، ولكنه كسب هذا المسلك السهل بتسليمه للضعف الانسانى حيث لا تجدى المكابرة ، فكان يعرف عيوبه ولا يداريها ، وكان حكمته التى كتبها فى تقويمه « نظف أصابعك قبل أن تنظر الى بقعى .. » شعارا له يتبعه ولا يلزم أحدا أن يتبعه مثله . فاذا كتب عن عيوبه خيل الى القارئ أنه برى من تلك العيوب ، واذا شرح أعماله وتكلم عن أسباب نجاحه لم يكتف القارئ أنه فخور بها كما يصنع الكثيرون من أذعياء التواضع وانكار الذات ، ولكنه يتكلم عنها ويدع القارئ يفهم أنه قادر على مثلها اذا أراد ، وأن الأسباب التى استعان بها مبسطة بين يديه لأنها فى ميسوره ومقدوره .

ومن مفتتح الترجمة الى ختامها يجرى المؤلف على هذا الأسلوب

الصريح بغير تكلف ولا مداجاة ، فيقول في مفتتح الترجمة انه كتبها ليرضى شهوة التحدث عن النفس التى تملك الشيوخ فى أخريات أيامهم دون أن يضجر أجدا من سامعيه ، لأنهم أحرار فى السماع أو الاعراض ، وانه لا يكتف عن القارئ أنه فخور بنجاحه ولا يبدأ الكلام قائلا على سبيل الاعتذار « بلا فخر ولا ادعاء » ثم يتلوه كلام كله فخر وادعاء ! .. وبمثل هذا الأسلوب يجرد الفخر من شوكتة المؤذية ويجرد التواضع من طلائه الكاذب ، ويقف « بانسانيته » الضعيفة القوية بين أيدي اخوته من الناس .

ويستخلص القارئ من الترجمة صفة أخرى كان لها ولا ريب أثرها العظيم فى ألفة فرنكلين للناس وألفة الناس اياه ، فان القارئ ليفهم من الصفحات الأولى أنه يعيش مع « مخلوق اجتماعى » من فرعه الى أصبع قدمه . وقد قيل قديما وحديثا ان الحاسة العائلية أساس الحاسة الاجتماعية وقرارها الذى ترجع اليه فى الأعماق ، وهذه الحاسة العائلية أو هذه الحاسة الاجتماعية هى التى تنضح بها كل صفحة من صفحات الترجمة من بدايتها الى نهايتها ، فانه على علمه بفقر آباءه وأجداده ، وعلى عزيمة الهجرة الأبدية التى اعتزمها مؤثرا دار الهجرة على مواطن الآباء والأجداد ، وعلى كثرة الشواغل التى تشغل السفير الأمريكى عند حكومة الدولة البريطانية فى ابان الخلاف والشقاق ، لم يمنعه هذا كله أن يبحث عن تواريخ أسلافه البسطاء وأن يتحرى منها كل ما أمكنه العثور عليه وأن يشبته كما انتهى اليه بغير صقل ولا تزويق وبغير حشو ولا ادعاء .

ويستطيع القارئ من قراءة السطور وما بينها أن يفهم أن « بنيامين » قد ورث من كل سلف مذكور حمل اسم فرنكلين بنية قوية ومزاجا كأقرب ما يكون المزاج الانسانى الى الاعتدال ، فسلك سبيله بين الناس

بغير عقدة خفية وبغير خبيثة مطوية ، واستعان بتلك البنية على احتمال ما يعيا به الكثيرون من خلائق الناس التى تطاق أو لا تطاق ، ولا وجه لاستغراب النجاح من رجل عليم بالضعف الانسانى مقتدر على المذرة مطبوع على الحاسة الاجتماعية ، سليم الأعصاب ، غير مضطرب المزاج . ونحن لا نريد فى هذا الفصل — بداهة — أن ننقل الترجمة كلها أو نلخصها ، ولا نريد كما ذكرنا فى التمهيد أن نستقصى هذه الترجمة فى سائر فصول الكتاب ، لأننا آثرنا أن نتكلم على جوانب الصورة التى ترسم لنا ملامح فرنكلين ، وندع الكلام عن وقائع الحوادث وأرقام السنين ، فيعينا فرنكلين العالم كيف كان عالما وفرنكلين الكاتب كيف كان كاتباً ، وفرنكلين السياسى وفرنكلين الفيلسوف كيف كان فى مناهجه السياسية وفى آرائه الفلسفية ، وكيف كان فرنكلين الانسان بعد ذلك انساناً حقاً فى جميع تلك الجوانب أو جميع تلك الملامح من الصورة الشاملة ، ولا يعينا ما عدا ذلك من التاريخيات التى لا تصحبها « نفسية » من هذه النفسيات .

نحن لا نريد أن نقل الترجمة أو نلخصها ، ولكننا لا نستطيع مع هذا أن نغفلها وندع النقل منها فى كتاب عن « شخصية » الكاتب الذى ألفها . فما ننقله هنا من الترجمة فانما هو الجزء الذى يكفى للإبانة عن أسلوبه والجزء الذى تنفرد الترجمة به فلا يشاركها فيه مصدر آخر من مصادر السيرة التاريخية ، وذلك هو الجزء الذى يتكلم فيه فرنكلين عن سلفه الى مولده وطفولته واختياره لصناعته على آسال من سوابق أولئك الأسلاف ، ثم تتبع هذا الجزء بالإشارة الى خطوات هذه الحياة الحافلة بين أرقام السنين ، لأنها سجل يراجع عند الضرورة كلما دعت الحاجة اليه فى متابعة فصول الكتاب ، ولا يفوتنا أن نعد من أسباب هذا الاكتفاء أن مفكرات فرنكلين ليست من قبيل التراجم التى تختصر وتلخص فيغنى

عنها الاختصار والتلخيص ، لأنها بنية حية وليست أشتاتا من الحوادث
يمسكها السمط ويأتى من يشاء فيقطع السمط حيث يشاء ، ولكنها
تؤخذ جانبا جانبا كما تؤخذ الصور من جوانبها المتعددة ، وهذا هو
جانبها الذى اخترناه لنقله بغير تصرف فيه ، للسبب الذى قدمناه .

قال فرنكلين فى النسخة الأولى من مفكراته :

« هتا سأرضى تلك النزعة المألوفة فى الشيوخ : نزعة التحدث عن
أنفسهم وأعمالهم الماضية ، دون أن أزعج بها غيرى ممن يحسبون
— رعاية للسن — أنهم مطالبون بالأصغاء الى » ، اذ كان فى وسعهم أن
يقرأوا أو يدعوا القراءة متى شاءوا . وسأعترف أخيرا بأننى سأرضى
غرورى لأننى ان أنكرته لم يصدقنى أحد . والحق أننى ما سمعت
ولا قرأت قولة لقائل فى التمهيد لكلامه انه لا يريد أن يدعى أو يغتر .
الا رأيت بعد ذلك ضربا من الادعاء أو الغرور يأتى على الأثر . وان كثيرا
من الناس ليبغضون الغرور فى الآخرين مهما يكن من وفرة نصيبهم منه ،
ولكننى تعودت أن أفصح له مكانا كلما التقيت به ، لعلنى أنه يفيد
أحيانا من يغترون ومن يتصلون بهم فى جوارهم ، وليس من العبث اذن
أن يشكر الانسان ربه على ما يسديه اليه من الغرور بين سائر النعم
التي يستمتع بها فى حياته .

« والآن أقول بعد حمد الله متظامنا بين يديه انبى مدين بما نعمت
به من السعادة لحكمته الرحيمة التي هدتنى الى الوسائل التي توسلت
بها وبلغت ما بلغت من النجاح بفضلها ، وان يقينى بهذا يدعونى الى
الأمل ، وان كنت لا أعلم الغيب ، أن تلك الحكمة الرحيمة سوف
تتولانى لاستبقاء تلك السعادة أو للصبر على ما يصيبنى من خيبة الرجاء
كما يصيب الآخرين . اذ لا يعلم مصيرى غير الله القدير على أن يجعل
فى كل شيء بركة حتى العذاب .

« ان المذكرات التى أسلمها الىّ أحد أعمامى المعنيين مثلى باستطلاع الأخبار والنوادر عن أسلافى قد زودتنى ببعض المعلومات الخاصة عن أولئك الأسلاف ، وقد علمت من هذه المذكرات أن العائلة سكنت القرية بعينها — قرية أكتون فى نورثامبتون شاير — ثلثمائة سنة ولا يعلم كم من السنين أقامت فيها قبل ذلك ، ولعلها بدأت منذ اتخذت اسم فرنكلين ، الذى كان علما على طائفة من الناس ، لقبا لها يوم ذهب الناس جميعا يقرنون أسماءهم بالألقاب فى سائر أنحاء المملكة .

« وكانوا يعيشون على نحو ثلاثين فداناً مستعنيين مع غلتها بصناعة الحدادة التى احترفتها الأسرة الى أيامه ، وكان أكبر الأبناء يتدرب من نشأته على هذه الصناعة : عادة جرى عايتها الآباء من القدم ونهج هو وأبى على مثالهم فيها .

« ولما ذهبت لمراجعة السجلات المحفوظة فى قرية أكتون وجدت فيها تسجيلات لمولدهم وزواجهم ووفاتهم منذ سنة ١٥٥٥ ولم أجد لهم تسجيلات محفوظة قبل تلك السنة ، وعلمت من تلك التسجيلات أننى كنت أصغر الأبناء لأصغر الأبناء خمسة أجيال متعاقبة ، وكان جدى توماس الذى ولد سنة ١٥٩٨ معمرًا عاش فى أكتون حتى أقعدته السن عن مباشرة الصناعة فذهب الى بانبرى من اقليم « أكسفورد شاير » ليعيش مع ابنه جون الذى كان يحترف الصباغة وعلى يديه تعلم أبى هذه الصناعة ، وقد توفى جدى ودفن بها ورأينا شاهد قبره سنة ١٧٥٨ .

« وسكن ابنه الأكبر — توماس — فى منزل أكتون ثم تركه ومعه الأرض لابنته الوحيدة التى باعت الميراث — هى وزوجها المسمى فيشر من ولنجورو — لمستر استيد مالك الأرض الآن .

« وقد كان لجدى أربعة أبناء شبوا وكبروا وهم توماس وجون وبنيامين وجوشيا ، وسأخبرك بما علمته عنهم بعيدا من مراجعى وأوراقى

معتمدا على ما وعته الذاكرة . فان لم تكن تلك الأوراق قد ضاعت فانك واجد فيها مزيدا من التفاصيل .

« نشأ توماس حدادا بصحبة أبيه ، ولكنه كان ذكيا فشجعه السيد بالمر عميد البلد كما شجع اخوته على التعلم والاستزادة من المعرفة ، فتدرب على كتابة العقود ونبه شأنه في أمور البلد وأصبح وعليه المعول في توجيه المسائل العامة بنورثامبتون وقريته التي روت لنا أخبارا كثيرة عنه ، وذاع صيته في اكتون فتولاه لورد هليفاكس يومئذ برعايته . ثم مات في السادس من شهر يناير سنة ١٧٠٢ حسب التقويم القديم قبل مولدى بأربع سنوات ، وتدل سيرته التي تلقيناها من شيوخ أكتون كما أذكرها على أمر عجب لشدة الشبه بينها وبين سيرتي ، ولو أنه مات في نفس اليوم الذى ولدت فيه لخطر لك أننى تقمصت روحه .

« ونشأ جون صباغا يشتغل على ما أظن بصنع الصوف ، ونشأ بنيامين صباغا للحريز مبتلما في الصناعة بلندن . وكان رجلا ألعيا أذكره جيدا لأنه جاءنا اذ كنت طفلا ليزور والدى فى بوستون ، وسكن معنا بالمنزل بضع سنوات ، وقد عمر طويلا ، وحفيده صمويل فرنكلين يعيش فى بوستون اليوم ، وقد ترك بعده مجلدين من نظمه يشتملان على مقطوعات منظومة لمناسباتها موجهة الى أصدقائه وأقاربه ، ومنها واحدة وجهها الى^(١) .

« واخترع طريقة للاختزال علمنى اياها ولكننى لم أستعملها قط ونسيتها الآن . وقد سميت على اسم هذا العم للعطف المتبادل بينه وبين أبى ، وكان تقيا جدا شديد المواظبة على حضور العظات من أبلغ الوعاظ يسمعا ويدونها بطريقة الاختزال ويحتفظ عنده بمجموعات كبيرة منها .

(١) لم تنشر الابيات فى نسخة المفكرات الأولى ، وعلم من أوراق أخرى أنها نصيحة باجتنب الحياة العسكرية لأن الحرب صناعة خطيرة .

وكان كذلك مشغولا بالسياسة كثيرا ولعل اشتغاله بها كان أكثر مما يلائم مركزه . وقد عثرت له في لندن على مجموعة للكراسات التى صدرت في موضوعات المسائل العامة من سنة ١٦٤١ الى سنة ١٧١٧ ضاع منها بعضها كما يتبين من ترقيمها وبقي منها ثمانية مجلدات من القطع الكبير وأربعة وعشرون مجلدا بين متوسط وصغير ، وكان رجل من باعة الكتب القديمة أعرفه وأشتري منه بعض الكتب قد عثر بها فأحضرها الىّ ، ويظهر أن عمى تركها عند سفره الى أمريكا اذ كان قد جاوز الخمسين من عمره ، ودوّن على هوامشها كثيرا من تعليقاته وملاحظاتة .

« لقد كانت عائلتنا الخاملة هذه بين السابقين الى قبول مذهب الاصلاح ولبثت على المذهب البروتستانتى خلال حكم الملكة ماري وتعرضت للمتاعب أحيانا من جراء غيرتها في مقاومة البابوية ، وكان لديهم نسخة انجليزية من الكتاب المقدس يحتالون على اخفائها بوضعها في داخل كرسى ينطوى وينبسط ويضعه جدى الأكبر على ركبتيه كلما أراد أن يقرأ على الأسرة شيئا من آياته ، وكان أحد الأطفال يقف عند الباب لينبهم الى قدوم الرقيب الموظف بالمحاكم الروحية كلما بصر به قادما من بعيد ، فينطوى الكرسى في هذه الحالة ، ويختفى الكتاب المقدس فيه كما كان . وقد أبنانى بهذه القصة عمى بنيامين وعلمت أن الأسرة كلها دانت بمذهب الكنيسة الانجليزية الى أيام شارل الثانى التى حدث فيها فصل بعض القساوسة لانحرافهم عن مذهب الكنيسة الملكية ، فاستقلوا بنحلتهم في (نورثامبتون شاير) وانضوى اليهم بنيامين وجوشيا وظلت بقية الأسرة على مذهب الكنيسة الرسولية .

وتزوج أبى — جوشيا — صغيرا فانتقل بزوجه وأطفاله الثلاثة الى نيو انجلاند بأمريكا حوالى سنة ١٦٨٢ لصدور القانون بتحريم قيام

النحل المخالفة للكنيسة في البلاد الانجليزية ، وأقنع طائفة من صحبه
بالهجرة الى هذه البلاد لما كان يلقاه من العنت في وطنه ، فاقنع هو
وصحبه بضرورة الهجرة أملا في التحرر من الحجر على عقائدهم ، وولد
له من زوجته الأولى أربعة أطفال آخرين ثم عشرة أطفال من زوجة أخرى
فتم عددهم سبعة عشر ، وأذكر منهم ثلاثة عشر يجلسون على «ثدته
عاشوا حتى أصبحوا رجالا ونساء وتزوجوا جميعا . وكنت أنا أصغر
الأبناء وأصغر الأطفال جميعا ما عدا طفلين أصغر مني ، وولدت في
يوستون بنيوانجلاند .

« وزوجته الثانية — أمي — هي آييا فولجر نت بطرس فولجر أحد
السابقين من المهاجرين الى نيوانجلاند ، وأشار اليه كوتون ماثر اشارة
مشرفة في تاريخه لكنيسة ذلك الاقليم فقال عنه — اذا لم تخنى الذاكرة — :
انه رجل انجليزى صالح مثقف .

« وسمعت أنه كتب مقطوعات متفرقة كثيرة في مناسباتها لم تطبع
منها غير واحدة اطلعت عليها منذ سنوات ، وقد نظمها في سنة ١٦٧٥ على
النسق الذي كان متداولاً مألوفاً يومذاك ووجهها الى القائمين بالحكم
في ذلك الحين حاثا فيها على حرية الضمير منافحا عن عقيدة العماديين
وجماعة الصحابين وغيرها من النحل التي كانت عرضة للحجر والاضطهاد ،
وعزا فيها مصائب الحرب الهندية والمصائب الأخرى التي ابتليت بها
البلاد الى تلك السيئة البغيضة التي يصب الله غضبه على مرتكبيها ،
داعيا الى الغاء القوانين التي سنت للتضييق على ضمائر الناس ، وقد
لاح لي أن المقطوعة كلها كتبت بأسلوب الصراحة اللائقة والرجولة
الكريمة في الذود عن الحرية ، واني لأذكر سطورها الستة الأخيرة حيث
يقول : انني لأمقت المذمة من كل قلبي ، وأناديكم من مدينة شربورن التي
أقيم فيها موقعا باسمي ، غير مسيء الى أحد منكم ، أنا بطرس فولجر . »

« وتتلذ أخوتي الكبار جميعا فى صناعات مختلفة ، وأدخلت أنا مدرسة الأجرومية فى الثامنة من عمرى وأراد والدى أن يندرنى للكنيسة لأننى عاشر أبنائه ، وقد كان استعدأدى المبكر لتعلم القراءة — ولأبد أنه كان مبكرا جدا لأننى لا أذكر زمنا كنت فيه أجهلها — موافقا لنبوءة أصدقائه الذين اعتقدوا أننى خلىق بمستقبل حسن فى الأستاذية ، فشجعه اعتقادهم على اتمام مقصده . وقد أقره عمى بنيامين على رأيه واقترح أن يهب لى كل ما عنده من مجاميع العظات الدينية ، ولكننى بقيت فى المدرسة مدة لا تزيد على السنة نقلت خلالها من وسط الفصل الى مقدمته ثم نقلت من هذا الفصل الى الفصل الذى يليه كى أتنظم فى الفصل الثالث عند نهاية السنة .

« على أن والدى وجد أثناء ذلك أن التعليم الجامعى كبير النفقة لا ينهض بأعبائه مع تكاليف عائلته الكبيرة ووفرة مطالب المعيشة التى تلائم المتعلمين ، وسرد هذه الأسباب على مسمع منى لأصدقائه تسويغا لنقلى من مدرسة الأجرومية الى مدرسة أتعلم فيها الكتابة والحساب يديرها رجل مشهور يسمى جورج برنويل ناجح فى صناعته لوداعته وطيب معشره ، ومنه تعلمت الكتابة المقبولة فى وقت وجيز ولكننى أخفقت فى تعلم الحساب ولم أتقدم فيه ، ولما بلغت العاشرة خرجت من المدرسة لمساعدة والدى فى صناعته وهى صناعة الشمع والصابون التى لم يكن قد تدرب عليها منذ صباه بل اتخذها بعد وصوله الى نيوانجلاند لأن رزقه من الصباغة لم يقيم بنفقة العائلة الكبيرة لقلّة الحاجة اليها فى نيوانجلاند ، فعملت فى قطع القنائل للشمع وصب السائل فى القوالب وملاحظة الدكان وإيصال الرسائل والطلبات .

« ونفرت من هذه الصناعة وشعرت بميل شديد الى العمل فى البحار ، ولكن والدى أبى على هذا العمل ، وظللت — لقربى من الماء — متعلقا

بالبحر فتعلمت السباحة وتسيير الزوارق وأصبح من المؤلف كلما
اجتمعت في زورق أو قارب مع زملائي من الصبية أن يعهدوا الى في
تسييره وبخاصة في الحالات المتعسرة ، وتكررت قيادتي لهم في غير تلك
الحالات فكنت أقودهم الى بعض المناوشات التي أذكر هنا مثلاً منها
لما فيه من الدلالة على الدوافع العامة وإن لم يكن مثلاً لحسن تديرها
وتصريفها .

كان في جوارنا مستنقع ملح يحيط ببركة المصنع تعودنا أن نقف عند
حافته ساعة المد لنصطاد السمك الصغار ، وطال ترددنا على تلك الحافة
حتى توحدت وجعلت تسيخ بأقدامنا . فعنّ لي أن نبنتي عليها رصيفا
نستخدم في بنائه كوما من الحجارة معداً لاقامة منزل جديد بجانب
المستنقع وصالحا كل الصلاح لبناء الرصيف الذي نريده ، وعلى هذا
جمعت بعض الرفاق — بعد انصراف العمال في المساء — وأخذنا في
نقل الحجارة كأننا سرب من النمل يتعاون اثنان منا أو ثلاثة أحياناً على
نقل الحجر الواحد حتى نقلنا الحجارة كلها وأتممنا بناء الرصيف ، وجاء
العمال صباح اليوم التالي فدهشوا لاختفاء الحجارة وعلموا أنها نقلت
الى الرصيف الذي بنيناه ، وبحشوا عن الجناة فعرفونا وشكونا الى
آبائنا ، ولم ينفعني عند أبي اعتذارى له بأنه عمل نافع ، لأنه قال لي انه
ما من عمل يخل بالأمانة يوصف بالمنفعة .

« وأحسبك تواقا الآن الى الامام بشيء من صفاته وأخلاقه . فاعلم
أنه كان ضليع البنية معتدل القامة لا بالطويل ولا بالقصير ولكنه مدمج
الجسم قوى الأركان ، ذكياً يرسم رسماً حسناً ويحيد العزف على آلات
الموسيقى بعض الاجادة ، وله صوت مقبول يتغنى به حين يوقع المزامير
على القيثارة كما تعود في المساء بعد الفراغ من أعمال النهار فيطربنا جداً
أن نصغى اليه ، وكانت له براعة في تناول الأدوات والآلات يستخدم منها

ما ليس من صناعته فيحسن استخدامه . غير أن المزية الواضحة التي كان يمتاز بها سلامة الفهم والرأى فى تناول المسائل الخاصة والعامة ، وان تكن شواغله العائلية لم تدع له قط وقتا للعمل فى هذه المسائل العامة واستغرقت أوقاته جميعا فى القيام بتعلمها والتفرغ لكسب الرزق مع قلة المورد والعائدة . الا أننى أذكر جيدا أن أناسا من الوجهاء البارزين كانوا يزورونه فينة بعد فينة لاستشارته فى شئون البلد أو شئون الكنيسة التى ينتمى إليها ويتقبلون منه الرأى والنصيحة بالتجلة والاحترام ، كما أذكر أن أناسا من أصحاب المشكلات الخاصة كانوا يسألونه النصيحة ويحتكمون إليه فيما يشجر بينهم من خلاف ، وكان من عاداته أن يدعو الى مائدته صديقا أو جارا من ذوى الفطنة يتحدث إليه ويحاول على الدوام أن يختار للحديث موضوعا يفتق أذهان الأطفال ويلفتنا بهذه الوسيلة لما ينبغى من الخير والعدل والحكمة فى تدبير شئون الحياة .

هذه النبذة من مفكرات فرنكلين معينة لنا — على وجازتها — فى تصوير الجانب الموروث من تكوينه واستعداده وعامة أخلاقه ، وتتلخص فى قوة البنية واستقامة الطبع وسداد الفطنة والاعتراف بالواقع مع الشجاعة واباء الضيم والتأهب للمخاطرة ايثارا لها على الخضوع للمذلة ، وقد تكون هذه النبذة الوجيزة معينة لنا فى تصوير الاستعداد الاجتماعى الذى ينتقل بالوراثة مع كيان البنية. ولكنه لا يظهر فى المجتمعات كافة على درجة واحدة ، بل يتوقف ظهوره على مؤاتاة الحوادث والبيئات ، ومن هذه الموروثات الفطرية الاجتماعية حسن الاستعداد للسلوك مع الناس من الأنداد والرؤساء وحسن الاستعداد للفهم والمعرفة وحسن الاستعداد للحكم على عوارض الحياة ما كان منها عاما مشتركا وما كان منها خاصا محصورا فى شئون المرء وذويه ، وقد تكون الدراية بالصناعات من المعادن « المصنوعة » كما يؤخذ من اسمها ولكنها لا تكسب فى جميع

البيئات على السواء ولا تكسب في البيئة الواحدة على درجة واحدة ، وقد يطول البحث في وراثته المزاج الذى يعين صاحبه على مطالب الحياة الاجتماعية هل هو موروث كله أو هو مكتسب كله من البيئة الاجتماعية . غير أننا نخال أن البحث قليل في صلاح المرء للسلوك مع الناس وحسن التصرف في علاقاته الاجتماعية كلما اعتدل مزاجه وسلم تكوينه واستقامت فطرته . فلا شك هنا في معاونة الأخلاق الموروثة للأخلاق الاجتماعية ولا في التفرقة بين الصالحين للحياة وغير الصالحين لها كائنة ما كانت شروط المجتمعات على الأحياء .

بهذه الوراثة — وراثته الصلاح للحياة — ولد فرنكلين وعاش الى ختام حياته فى سنه العاليه ، وقد كان هذا المزاج الموروث فيه أشبه بالبنية الصالحة لاهتضام كل طعام واستخراج كل ما فيه من غذاء ، فما كان عسيرا على غيره أن يهضمه ويستفيد منه لم يكن عسيرا عليه أن يجعله غذاء صالحا على ما يعيه من غثاثة أو مرارة ، ولم يكن يعيه أن يهيم ذلك الغذاء لغيره بعدوى الحكمة المطبوعة والسجية السمحة ، وقد يصنع ذلك مع الزملاء المنافسين كما يصنعه مع الرؤساء والمرءوسين ، ونادرتة مع جفرسون — وهو من أعظم زملائه فى قيادة الثورة الأمريكية — مثل لهذا الخلق المطبوع على الترويض والتهوين : ترويض الطبائع العصية وتهوين المشكلات الصعاب .

فقد عز على جفرسون أن يعارضه آباء الاستقلال فى كل كلمة كتبها فى الاعلان الذى أذيع به استقلال الأمة الأمريكية ، وجلس كثييا حانيا رأسه بين يديه لا يدرى ماذا يصنع بتلك الملاحظات المتناقضة وكيف يكتب ما يرضاه هذا الفريق وذاك الفريق وهم يجددون الملاحظة مع كل تعبير ، ولا ملامة عليهم فى التدقيق الشديد لأنه اعلان تاريخى توزن فيه كل كلمة بموازين الحقوق والأرواح .

فخرج فرنكلين من تلك الجلسة الغائمة بفكاهة من فكاهاته السخنة هونت على جفرسون ما كان يلقاه ونشطت به الى تجديد العناء فى الحذف والابدال والاصغاء .

قال فرنكلين : انها قصة جون تومبسون تعاد من جديد .

وسأل جفرسون : من جون تومبسون هذا ؟

فعاد فرنكلين يقول : جون تومبسون هذا صديق قديم كان يتلمذ على معلم مشهور بصناعة القبعات ثم خطر له أن ينفرد بالعمل ويفتح له دكانا يكتب له اعلانا جامعا يجتذب اليه طلاب القبعات . فكتب الاعلان وقال فيه : « ان جون تومبسون قبعاتى يصنع القبعات ويبيعها تقدا » .. وراح يعرض الاعلان على أصدقائه ليسألهم رأيهم فيه ، فقال له أولهم : انه لا حاجة به الى كلمة « قبعاتى » ما دام فى الاعلان أنه يصنع القبعات ويبيعها ، وقال له الصديق الثانى ان الناس لا يهمهم انه صانع القبعة ما داموا يجدونها أمامهم معروضة للبيع ، وقال له الثالث انه من السخف أن يقول (يبيعها تقدا) ما دام معروفا عنه أنه لم يكن من أصحاب المصارف التى تقرض على الحساب ، وقال له الرابع انه ما من أحد ينتظر منه أن يتبرع له بالقبعة احسانا أو هدية ، فما حاجته أن يقول انه يبيع القبعات ؟ وبقي الاعلان هكذا بعد كل هذه التنقيحات : (جون تومبسون . قبعات) .. فقال له الصديق الخامس انه لا حاجة الى كلمة قبعات ما دامت صورة القبعة مرسومة فى الاعلان .. واتتحت النصائح والتعديلات بقاء اسم جون تومبسون والى جانبه صورة قبعة .. وهكذا تنتهى بلاغة البلغاء كلما عرضوها على الناس للتنقيح وابداء الآراء .

وهذه القصة — وحدها — كلمات فارغة لا يقرأها أحد ويظن أنها تساوى أن ينفق فيها وقت استماعها ، ولكنها فى ذاكرة فرنكلين وضعت فى موضعها فصلحت لتفريج أزمة ودفع سامة وتجديد نشاط فى نفس

عظيمة ، ولم يستطع فرنكلين أن يصنع بها هذه المعجزة لأنه يعرف حكاية تروى ، وانما استطاع المعجزة لأنه اتخذ من تلك الحكاية أداة للطبيعة السمحة المفطورة على تذليل الصعاب وتقدير المعاذير وقبول الدنيا على علاقتها ، وأخذ الناس جملة بما طبعوا عليه من الهنات .

ونحن لا يفوتنا في معرض الكلام على الأخلاق الفطرية ، أو الأخلاق الموروثة ، أن نقرر تلك الحقيقة المشهودة التي يتوقف عليها انصاف « الشخصية الانسانية » وتقويم كل ترجمة من تراجم العظماء بقيمة صاحبها ، ونعنى بتلك الحقيقة المشهودة أن الخلق الموروث لا يلغى المزايا الفردية ولا ينقص من فضل الفرد في الانتفاع بما ورث مع اختلاف الزمن وتبدل المواطن والمناسبات التي ينتفع فيها بتلك المزايا . فاذا استطاع الفرد في الجيل الحاضر أن يستخدم مزاياه الموروثة التي كانت نافعة لآبائه قبل جيل أو جيلين فلا بد من فضل له في حسن الاستخدام وحسن الاحتفاظ بما آل اليه من تراث الأقدمين ، واذا كان الحطام الموروث قابلا للضياع أو كان الغالب عليه أن يضيع ولا يبقى فالأخلاق الموروثة تضيع كما يضيع الحطام اذا آلت الى المفرط فيها والعاجز عن صيانتها ، وقد توضع الفطنة في غير موضعها فتضر ولا تنفع ، وتجور الشهوات على الجثمان القوي فتنهكه ، وقد يكون الشعور بالقوة من بواعث الشطط والتمادى في الغواية وقد كان مساك الاعتدال في خلأثق الآباء والأجداد .

وفرنكلين لم يضيع ما ورث ولم يحتفظ به كما ورثه ، بل نماه وثبتته وقواه ، وعاش الى ختام أيامه بتروته النفسية وعليها أضعاف مضاعفة من ثمرات السنين .

رآه شاب من شارلستون يسمى فيليب ماكنزى وهو في السبعين فكتب الى صديق له يقول : « انه يقارب خمس أقدام وتسعة قراريط ،

وبدنه أضخم مما يناسب طوله ، وعينه رماديتان هاذتان كالصلب الحديد . وله رأس كبير وجبين عال وعلى خده الأيسر خال . لا يلبس الشعر المستعار وشعره الطبيعي مرسل يتدلى على كتفيه ، ومن الغريب أنه لم يخطه الشيب الا قليلا مع أنه في السبعين .. وقد تحدث الى أعظم العظماء في العالم ولكنه كان يصنئ الى تعليقاتي الغريبة كأنها تستحق الاصغاء حقا ، وقد أبدت ملاحظتي هذه بعد انصرافه لصديقي ايد روتلج فضحك وقال لى : « اياك أن تخطيء فهمه . ان الدكتور فرنكلين كان مهتما حقا وأنت لا تعرف ، فانه ليهتم بكل شئ وكل انسان .. ويعنيه من تكون أنت وماذا عملت فى حياتك » (١) .

واهتمام فرنكلين هذا الاهتمام بكل شئ وبكل انسان هو موطن العجب والاعجاب بتلك القدرة التى صمدت لمهام الحياة طوال ذلك العمر المديد ولم تبخل على مهمة منها بحققها من العناية ولا على أحد بحقه من المبالاة ، وبقي الرجل بعد هذه التكاليف جميعا وكأنه فى وهم من يراه لا يهتم بشئ ولا يكثر لخطب ولا يرى على حال من القلق والاضطراب . وليس أكثر من الحوادث والأبناء التى اعترضت هذه الحياة فى مراحل طريقها ، بل طرقها العديدة . وليس من اللازم للتعريف به أن نحصيها ونرتبها على حسب تواريخها ، فكل ما يهمنا فى ترجمة العظيم من حوادثه وأنبائه أن تصور لنا جانبا من جوانب شخصيته وسرا من أسرار عظمته واقتداره ، وسنتحرى ذلك فيما سنكتبه عن فرنكلين العالم وفرنكلين الكاتب وفرنكلين السياسى وفرنكلين الفيلسوف . ونكتفى بالسلسلة التالية من أرقام السنين ومعالم الطريق لمراجعة المواقيت كلما

(١) هذه النادرة ونادرة القبعات من كتاب ابن فرنكلين من فلادلفيا القديمة تأليف مرجريت كوسين .

دعت الحاجة إليها في مناسباتها ، وهذه هي كما تقتبسها من تقويم سيرته
في كتاب رجال أمريكا تأليف ليونل الفين ، وهو تقويم واف في بابيه لمن
يتتبع مراحل الطريق من هذه السيرة :

سنة

- ١٧٠٦ ولد في السابع عشر من يناير في بوستون .
- ١٧١٤ قضى سنة في مدرسة الإجمومية .
- ١٧١٤-١٧١٦ في مدرسة تجارية .
- ١٧١٦ مساعدا لأبيه في عمله .
- ١٧١٨ تلميذا لأخيه من أبيه ، جيمس ، في صناعة الطباعة .
- ١٧٢١ ينشئ جيمس فرنكلين صحيفة «ذي انجلاند كورانت»
رابع صحيفة في المستعمرات .
- ١٧٢٢ بنيامين فرنكلين يحرر الصحيفة أثناء حبس أخيه
لانتقاداته السياسية .
- ١٧٢٣ أخوه لا يحسن معاملته فيهجر بوستون الى فلادلفيا
ويعمل في الطباعة .
- ١٧٢٤ يعزى بالسفر الى لندن لكثراء اللوازم ويتخلى عنه
صاحب عمله الحاكم كيث ولا يعث اليه برسائل
التوصية التي وعده بها ، ويعمل في الطباعة .
- ١٧٢٥ ينشر كتابه الأول نقدا لبعض الآراء الدينية .
- ١٧٢٦ يعود الى فلادلفيا ليعمل في دكان ، ولكنه يعود الى
الطباعة .
- ١٧٣٠ ينفرد بحيازة مطبعة ، ويتزوج .
- ١٧٣٠-١٧٤٨ طباع لاجح مطرد النجاح . يصدر تقويم ريتشارد
المسكين وصحيفة بنسلفانيا جازيت ، ويتولى شئوننا

- مهمة في حياة فلادلفيا العامة ولا سيما مشروعات
اصلاح المدينة وخدماتها الاجتماعية . يشتغل بمباحثه
ومخترعاته العلمية ويؤسس في سنة ١٧٤٣ جماعة
الفلسفة الأمريكية وتناط به أمانة سرها .
- ١٧٤٨ يعتزل العمل محتفظا بمورد سنوى منه يكفل له
معيشته .
- ١٧٤٩ - ١٧٥٢ تجاربه الكهربائية الأولى ، واثباته للكهربية في الصواعق ،
واخترعه لعمود الصاعقة ، وشهرته العلمية الواسعة .
- ١٧٥١ نائب عن فلادلفيا في هيئتها النيابية .
- ١٧٥٣ نائب مدير لمصلحة البريد في المستعمرات .
- ١٧٥٤ ينوب عن بنسلفانيا في مؤتمر ألبانى للمستعمرات
ويقترح تكوين الاتحاد .
- ١٧٥٥ منظم تموين البعثة التى قادها الجنرال برادوك في قتال
الفرنسيين والهنود الحمر .
- ١٧٥٧ سافر الى لندن للنيابة عن الشعب في خلافه مع ملاك
الاقطاع في بنسلفانيا .
- ١٧٦٢ عاد الى أمريكا .
- ١٧٦٤ سافر الى انجلترا مرة أخرى .
- ١٧٦٦ نوقش علنا بمجلس النواب في مطالب الأمريكيين
بصد القانون المعروف بقانون الدمغة .
- ١٧٦٧ - ١٧٧٥ تزداد شكوكه في سياسة وزراء جورج الثالث ويزداد
اقتناعه بضرورة اعلان المستعمرات لاستقلالها ، ويثابر
مع ذلك على بحوثه العلمية وتتصل صداقته العلمية

- والسياسية والفلسفية بالعالم « بريستلى » ، ويتصل
العطف بينه وبين بيرك خطيب الأحرار .
- ١٧٧٥ يعود الى وطنه ، ويختار عضوا للمؤتمر القومى الثانى
وعضوا فى لجنته المنوط بها تحرير اعلان الاستقلال ،
ويباشر اعداد العدد العملية للمقاومة .
- ١٧٧٦ أرسل مع اثنين للنياابة عن بلده فى فرنسا .
- ١٧٧٧ نجاح عظيم ، وشهرة سياسية وفلسفية ودبلوماسية
فى فرنسا .
- ١٧٧٨ عقد المعاهدة بين فرنسا والولايات المتحدة ، وفرنكلين
هو المندوب الأمريكى الوحيد فى فرنسا .
- ١٧٨٣ أحد المندوبين فى مفاوضات الصلح مع بريطانيا العظمى ،
ويتم توقيع معاهدة الصلح بباريس .
- ١٧٨٥ يعود الى وطنه ، ويتقلد رئاسة بنسلفانيا .
- ١٧٨٧ مندوب فى لجنة الدستور .
- ١٧٨٨ يعتزل الحياة العامة .
- ١٧٩٠ توفى فى السابع عشر من شهر أبريل .

العالم

إذا وجب أن نكتفى بصفة واحدة لفرنكلين تغنى عن جميع صفاته وتنطوى فيها جميع الملكات والمواهب التى أعاتته على جميع أعماله وآرائه فتلك هى صفة العالم .

يقول كروثر فى كتابه عن مشاهير رجال العلم فى أمريكا : « انه لولا شهرته العلمية لم يكن خليقا أن يصبح عبقرى أمريكا السياسى فى باريس (١) » . وهو قول صحيح من وجوه كثيرة ، ولكننا لا نغنى هذه الشهرة التى استفادها من بحوثه العلمية حين نقول ان صفة العالم تغنى عن صفاته الأخرى إذا وجب أن نكتفى منها بصفة واحدة ، وانما نغنى أن ملكته العلمية كانت ملحوظة فى جميع أعماله على اختلافها ، فكان عالما فى سياسته ، وكان عالما فى صناعاته اليدوية والفكرية ، وكان عالما فى وظائفه الادارية ، وكان عالما فى معيشته اليومية ، وربما استطاع فى أطوار كثيرة من حياته أن ينسى أنه سياسى ، أو ينسى أنه موظف أو ينسى أنه كاتب ، أو ينسى غير ذلك من تكاليفه وجهوده ، الا صفته العلمية فانها لم تفارقه قط فى مهمة من المهام الكبرى أو الصغرى التى تصدى لها طول حياته ، ولم يكن يشرع فى مهمة منها الا كانت ملكته العلمية أسرع ملكاته الى الظهور فيها والاقتران بها الى أن يفرغ منها .

والملكات العلمية كثيرة حين ننظر اليها متفرقة فى العلماء المنقطعين لدراسات العلم وتجاربه ، وإذا قلنا عنها انها « ملكة علمية » بصيغة المفرد فهم فى هذه الحالة عنوان لصفات كثيرة قد تجتمع للعالم الواحد

وقد تتفرق بين كثير من العلماء ، ولكنها فى جمعتها لم تتوافر للكثيرين كما توافرت لفرنكلين من بواكير صباه الى ختام حياته .

فمن الملكات العلمية جمع الحوادث المتفرقة المتشابهة ، فى ظاهرة واحدة . وقد كان فرنكلين عالما فى طفولته حين رأى أباه يصلى صلاة البركة على طعام كل وجبة فسأله : لماذا لا تصلى يا أبى على الذبيحة مرة واحدة تغنيك عن تكرار الصلاة قبل كل وجبة ؟ .

ومن الملكات العلمية ملاحظة الأحوال الطبيعية التى تعرض لنا مصادفة ثم تكرار التجربة عليها للتثبت من حصولها بالاتفاق أو على التواتر والاطراد . وقد كان فرنكلين عالما فى صباه حين راقب نفسه وهو يسبح فى الماء وفى يده طيارة الورق ، فرأى أن العوم أيسر له وأسر له فى هذه الحالة من العوم بغير طيارة ، وعادو التجربة على أوضاع مختلفة حتى تثبت من تيسير الطيارة لجهود السابح فى الماء على أوضاع متعددة . وقد كان فرنكلين عالما فى اختيار الخطة التى تيسر له اتقان الكتابة ، وكان عالما كذلك فى اختيار الخطة التى يتوخاها لمراقبة أخلاقه وتهذيب نفسه والعلم بنصيبه من كل خلق من هذه الأخلاق ومقدار حاجته الى المراقبة عليه فى معيشته اليومية ، فقد كانت التجربة والملاحظة والاحاطة بالعوامل المختلفة والبحث فى جملة الفروض الممكنة بعض وسائله فى هذه المحاولات وما جرى مجراها ، وكان قياسه للنجاح الفكرى والنجاح النفسانى مرصودا عنده على الورق يقرره ويستدل منه على مبلغه من التقدم فيه ومبلغ الصعوبة أو السهولة فى هذا التقدم على توالى الأيام . أعجبه أسلوب الكاتب الانجليزى « اديسون » فى مجلة السبكتاتور فأراد أن يمتحن نفسه فى القدرة على محاكاته وأن يدرّب قلمه على الكتابة بهذا الأسلوب وهو فى أوائل عهده بالكتابة ، فاختار مقالة من مقالات الكتاب ودون معانيها وأغراضها العامة على ورقة ، ثم ترك القراءة

فى الكتاب لىنسى عباراته وألفاظه ؛ وعاد الى الورقة بعد أيام فأعاد كتابة المعانى التى دونها فيها معنى بعد معنى بعبارات من عنده لا يذكر ما يقابلها من عبارات الكتاب ، ورجع الى الكتاب بعد ذلك ليقابل بين الأسلوبين فى التعبير عن المعنى الواحد ، فوضح له الفرق بينهما ووقف على الأخطاء التى تحتاج الى العناية باصلاحها واجتنابها ، وعرف من عيوبه أنه قليل المحصول من مفردات اللغة وأنه يبحث عن الكلمة التى يؤدى بها المعنى فلا يجدها حاضرة فى ذهنه ، فعمد الى المقالات ينظسها شعرا لأنه يعلم أن الشعر يحتاج الى المترادفات من الكلمات التى تتفق فى معناها وتختلف فى أوزانها وعدد حروفها ومقاطعها ، وأنه يحتاج الى القوافى والفواصل فى سطورها المتوالية ، وأنه على ذلك سهل الحفظ والاعادة لأن الكلمة التى نبحث عنها مع العلم بوزنها وقافيتها لا تتعبنا فى البحث كما تتعبنا الكلمة المرسلة بغير وزن ولا قافية ، وكان يجرب مع هذه الطريقة طريقة أخرى فى امتحان القدرة على الترتيب والتعبير ، فكان يدون المعانى مختلطة مبثورة ، ثم يعود اليها بعد أيام ينسى فيها ألفاظها وعباراتها فيبدأ بجمعها وترتيبها ثم يعاود كتابتها بألفاظ وعبارات من عنده ، ويسجل الفروق بين أسلوبه وأسلوب اديسون كما يسجل درجات التقدم فى تجربة بعد تجربة ، فلا يترك هذا التسجيل للظن والتخمين بل يراه أمامه محصورا بالأمثلة والشواهد والأرقام ، ولا يبالغ فى الثقة بنفسه ولا فى قلة الثقة بها على الحالين ، بل يعرف عيوبه وحسناته ويقول لنا فى ترجمته لنفسه انه كان يغتبط أحيانا كلما رأى له عبارة تفوق عبارة الكاتب فى جمالها ودقتها .

وأراد فى سن الرجولة أن يروض نفسه على محاسن الأخلاق وأن يهتدى الى حظه منها ومبلغ اقتقاره الى زيادتها أو تمكينها أو تهذيبها ، فأحصى الأخلاق المثلى وعرفها على النحو الآتى :

- ١ — الاعتدال : لا تأكل حتى الشبع ولا تشرب حتى النشوة .
- ٢ — الصمت : لا تنطق الا بما ينفع الناس أو ينفعك ، وتجنب الفضول والثروة .
- ٣ — النظام : اجعل لكل شيء موضعه ، واجعل لكل جزء من أعمالك وقته وموعده .
- ٤ — العزيمة : اعزم على أن تعمل ما يلزم ، واعمل ما تعزم على عمله بغير وناء ولا تقصير .
- ٥ — القصد : لا تنفق شيئاً في غير مصلحة لك أو لغيرك ، ولا تبدد شيئاً أو تنفقه عبثاً .
- ٦ — النشاط : لا تضيّع وقتاً ، واشغل وقتك بما يفيد ، واقطع عن كل عمل لا ضرورة له ولا داعية اليه .
- ٧ — الاخلاص : لا تلجأ الى خداع ضار ، وفكر براءة وانصاف ، وتكلم وفقاً لما تفكر فيه .
- ٨ — العدل : لا تسيء إلى أحد بما يضره ، ولا تهمل منفعة واجبة عليك .
- ٩ — التقدير : تجنب الافراط والتفريط ، ولا تستسلم لرد الاساءة بما توحيه اليك بواعثها .
- ١٠ — النظافة : لا تغفل عن النظافة في شخصك ولا في ملبسك ولا في مسكنك .
- ١١ — السكينة : لا تقلق للصغائر ، ولا للحوادث التي لا تمتع ولا حيلة لك فيها .
- ١٢ — العفة : لا تطاوع شهوات الجسد في غير داع من دواعي الصحة أو الذرية ، ولا تبلغ بها مبلغ البلادة والضعف أو الاضرار بسلامتك وسمعتك أو سلامة غيرك وسمعته .

وأنبأه بعض أصدقائه أنه يوصف أحيانا بالكبرياء فأضاف الى هذه الأخلاق خلق التواضع ولم يعرفه كما عرفها بل اكتفى بأن كتب أمامه : « سر على منهج المسيح وسقراط » .

ولما فرغ من احصاء هذه الأخلاق بعد عرض الأخلاق الانسانية جميعا على ذهنه ، ورأى أن هذه الأخلاق التي اختارها هي مساك المروءة وأجدرها منه بالارتياض عليها واستدراك نقصها — جعل لها درجات يومية في كل أسبوع ، وأخذ نفسه بتقدير هذه الدرجات ومحاسبة ضميره عليها : لبدأ الأسبوع التالي على عزيمة وبصيرة بحظه من النجاح والافخاق .

وهكذا كان يصطحب مقياسه العلمى فى معيشتة اليومية وفى ملاحظاته العارضة ولا ينتهى الى حكم فيها الا على قدر معلوم وحساب مرقوم ، ومن تجاربه العارضة فى ذلك أنه رأى فى طريقه واعظا يلقي على الناس خطبة من خطبه الدينية ، وأحب أن يعرف مقدار الاقبال عليه ومبلغ أثره فى سامعيه ، فتراجع الى أقصى مكان فى الحلقة وعد خطواته وراقب انصراف الناس عن الخطيب وبقاءهم حوله ، وقدر لكن رقعة محدودة من الأرض عدد الواقفين عليها ، وعلم بذلك مكانة الخطيب .

أما كشوفه العلمية فقد كانت مقاييسه فيها تجمع هذه المقاييس وتزيد عليها خصلتين نادرتين فى زمانه ، ولا تزالان نادرتين فى هذا الزمان ، ولعلمهما من الخصال التى لا تكثر فى زمان من الأزمنة .

هاتان الخصلتان هما : توحيد القوانين الطبيعية فى أرجاء الكون ، وتفتح الذهن لكل فرض واحتمال .

فقد كان له عقل يفكر فى حوادث السماوات والأرضين على نسق واحد ولا يقيم بين الحوادث فرقا تختلف فيه قوانين الطبيعة بين مكان ومكان . فلم يجد فى تفكيره فرقا بين انتقال الكهرباء من سحابة الى

سحابة ، وبين انتقالها من جسم الى جسم فى الأجهزة المصنوعة على النمط البدائى الذى شاع بين العلماء فى القرن الثامن عشر ، ولم يجد فرقا بين حركة الهواء فى الحجرة من أثر التسخين الصناعى وبين حركة الهواء فى عواصف البحار والمحيطات .

وكان يلتفت الى المشاهدات ولا يرفض منها شيئا بغير بينة وقبل التجربة والمراجعة ، وسنقرأ له فى المختارات من كلامه أنه كان يعيب المحدثين لاستخفافهم بمشاهدات الأقدمين ، ويعيب العلماء لاستخفافهم بمشاهدات العامة والجهلاء ، فكل مشاهدة لها عنده حق من الاستماع والعناية الى أن يتحقق من صحتها أو بطلانها ، وربما انتهى الى حكم فيها ثم علق هذا الحكم على التجارب التالية التى يتبناها أصحابها أن يكشفوا من عواملها وأسرارها ما ينكشف للباحثين فى الوقت الحاضر .

ونذكر لهذه الخصائص العقلية أسبابا شتى لتعليمها والرجوع بها الى ظروفها وملابساتها .

فمن هذه الأسباب أنه كان يعيش فى عصر « نيوتن » علامة الفلك والرياضة فى عصره ، وأنه اطلع على قوانين نيوتن التى يعلل بها حركات الأجسام العلوية والسفلية ، وألوان النور المنبعث من الشمس ومن المصابيح الصناعية .

ومن هذه الأسباب أنه سليل آباء وأجداد من الصناع الذين تعودوا التجربة العملية فى تركيب المعادن والأجسام ، وقد سلمت طوائف الصناع بعض السلامة من التقاليد الخرافية التى يتوارثها المتكلمون على الغيب وعلى عوارض الخصب والجذب والوفر والشح فى محصولات الأرض ومزروعاتها ، فتحرر ذهنه من الخرافات الموروثة التى تعلل الحوادث بغير علمها المتكشفة لعقل الانسان ، وتسنى له أن يصل الى العلة المعقولة من طريق لا تعوقه فيه السوابق والغوامض والمحجبات .

وأوسعده على هذه الخصلة أنه كان من سلالة التأثيرين على السلطان الدينى فى القرون الوسطى ، وأنه لم يكن هو ولا آباؤه من المتقيدين برياسة كهنتوتية فى مذهبه أو غير مذهبه ، فلم يشعر بالحجر الذى كان يشعر به الجامدون على العقائد الموروثة من بقايا القرون الوسطى .

ويحصى كروثر ، صاحب كتاب مشاهير رجال العلم المتقدم ذكره أسبابا موضعية أو محلية هيأت له النجاح فى بحوثه العلمية ، ولم يكن على رأيه لينجح فيها لولا تلك الأسباب .

فعنده أن هجرة فرنكلين من بوستون الى فلادلفيا كان لها أكبر الأثر فى الوجهة التى اتجه إليها وفى المباحث العلمية التى توافر عليها ، لأن بوستون كانت على أيام فرنكلين معقلا للمحافظين والمتشددىن فى العقائد والأفكار التى ترتبط بالديون وعادات الاجتماع .

وعنده أن فلادلفيا كان يتوافر فيها الجفاف الذى يعين على التجارب الكهربائية ، وكانت تتوافر فيها الى جانب ذلك مواد الخامات التى تجرى عليها تلك التجارب وتصنع منها أصناف الورق كالخرق والنفايات، ولولا هذه المواد الميسرة لأحجم فرنكلين عن تجاربه الكهربائية وعن التحويل على الصحافة والطباعة ونشر المطبوعات .

وقد تقبل هذه التعليقات جميعا وتبقى بعدها بقية لا يفسرها الا انفراد فرنكلين بالعنصرية التى ميزته بين الألوف من المشاركين له فى جميع هذه الظروف وجميع هذه الأسباب .

فماذا كان فرنكلين يعلم من قوانين نيوتن وسائر القوانين الطبيعية الى جانب علم الفطاحل من أعضاء مجمع العلوم فى بريطانيا العظمى .

لقد كانوا فى مجموعهم على الأقل يحيطون بما لم يحط به من معارف عصره ، ولكنه أدرك أن الكهربا فى البروق والصواعق هى الكهربا فى الصمغ والزجاج ، وأغربوا هم ضاحكين حين أفضى البهم بهذا الرأى فلم يتحولوا اليه الا بعد سنتين .

وربما صح أن افتقاره الى العلم كان من مزاياه ولم يكن من عيوبه في تلك الآراء التي كان يسبق اليها العلماء المتخصصون ، لأنه ، كما قال برنارد جاف في كتابه عن علماء أمريكا^(١) ، لم يكن مثقفا ولكنه لم يكن مشكولا أو مربوطا (Untramell) فلم تقف عقبات الآراء المحفوظة في طريقه ، ولم تعوقه القواعد التقليدية في دراسة الآراء .. ولكن فقدان الشكال على كل حال لا يوجد لنا الجواد . فلا بد من جواد سباق وراء ذلك اللجام المخلوع أو المفقود .

ويجوز أن « فلادلفيا » ساعدت على التجارب الكهربائية ، ولا يمتنع أن يكون الجو الرطب مساعدا عليها في معرض آخر من معارض البحث والدراسة . ولقد حصل فرنكلين من بوستون على جهاز اعاره اياه صديقه الدكتور سبنس Spence الذى لا نعلم عنه شيئا غير هذه الاشارة اليه لهذه المناسبة في ترجمة فرنكلين .. وكم بين المنتقلين من بوستون الى فلادلفيا من مسافر ومقيم ؟ وكم بينهم من فرنكلين ؟ !

ان الملكة العلمية الطبيعية في هذا العقل العبقري هي التفسير الذى لاغنى عنه لجميع أعماله وبحوثه، وغير هذا التفسير تفسيرات كثيرة من قبيل ما تقدم لا يستغنى واحد منها عن هذا المرجع الأول والأخير لجميع تلك التفسيرات .

وهذه الملكة الطبيعية هي التى أوحى اليه بغير تعليم وبغير تلقين أن يضع البحث العلمى في موضعه الواجب ، فكل ما يقع تحت الحس فهو موضوع بحث ودراسة من الوجهة العلمية . وربما عاش معه في عصره — أو عاش قبل عصره — أناس من الباحثين جعلوا هذه البحوث ترفا مختارا ترتقى اليه بعض الموضوعات وتقصر دونه موضوعات أخرى ، ولكنه هو لم يكن ليفرق بين ما هو صالح للحس وما هو صالح للبحث

والدراسة ، فتراوحت مباحثه بين السحب والأمواج ، وبين درجات الحرارة وألوان الأقمشة ، وبين اصلاح النظارات واصلاح نظام الاضاءة فى المدن ، وبين التبريد بالتبخير وتهذيب الحروف الأبجدية ، ولم يتفتح أمامه موضوع بحث فأعرض عنه لأنه لا يدخل فى صدد البحوث العلمية كما يصنع الباحثون الذين لم يرزقوا. مثل هذه الهبة الفطرية .

وقد كان للخيال شأنه — كما كان للواقع شأنه — فى البحث الذى اشتهر به وأكسبه اعجاب العارفين وغير العارفين ، وهو بحثه فى الكهرباء ، واستخدامه فى الوقاية من الصواعق ، أو من غضب الآلهة كما كانوا يسمونه فى الأزمنة الغابرة .

فقد كان المعجبون به يقولون عنه انه انتزع الصولجان من عاهل الدولة البريطانية وانتزع الصولجان من رب الصواعق والبروق جوييتير اله الآلهة عند الأقدمين ، ولم يخلع الخيال على عمل فرنكلين هذا مكانة أكبر من مكائته الحقيقية التى لا مجاز فيها ، فان الوقاية من الصواعق حقيقة أعظم من خيال المتخيلين عن عروش الأساطير ، وحقيقته العظمى فوق ذلك أنه صحح العقول والعقائد فأدركت حوادث الأرض والسماء كما ينبغى أن تدرك ، وأدركت صفات الاله المعبود كما ينبغى له من التنزيه والتعظيم .

ولقد تناول فرنكلين بحوث الكهرباء وهى — على أحسن ما تكون — لعبة للتسلية ، فان هذه البحوث بدأت فى حجر الكهرباء الذى تنسب اليه قبل الميلاد بستة قرون ، وعرف طاليس (٦٠٠ ق . م .) أن الكهرباء المحركة تجذب الرغب والنشارة الخفيفة فلم يفهم منها الا أنها « ذات روح » أو ذات حياة ، ثم جاء ثيوفراستس Theophrastus فاكتفى بتسجيل مشاهداته ولم يهتد الى تفسير معقول لهذه الظاهرة . ووقفت التجارب الكهربائية عند هذا الحد الى القرن السادس عشر ، ثم تقدمت خطوة أخرى

على يد العالم الانجليزى وليام جلبرت طبيب الملكة اليصابات حين استطاع أن يثبت أن هذه الظاهرة تتكرر فى بعض المواد وأن أجساما غير الكهربيا تجذب الرغب والنشارة بعد حكها وتسخينها كالشمع والكبريت والماس وبعض المعادن النفيسة ، وأن الرطوبة تفقدها هذه القوة اذا صبت عليها السوائل ، الا الزيت فانه لا يضعف تلك الجاذبية فيها . وأن لأحوال الجو تأثيرا فى الجاذبية يختلف باختلاف الرطوبة والجفاف ، وتقدم جورىك Guericke مخترع المضخة الهوائية قليلا بالبحث الكهربى فلاحظ أن الأجسام المكهربة تتدافع أحيانا وأن الشرر يتطاير من بعضها ويصحبه صوت مسموع بمقداره من القوة ، ثم ورد خاطر التشبيه بالبرق والرعد على ذهن العالم الانجليزى وال wall ولكنه لم يفسره وترقب أن ينبغ فى العالم ذهن عبقرى يفلح فى تفسيره ، ووقفت الدراسات العلمية والاختراعات الصناعية بهذا البحث عند هذا الحد فلم تستخدم فى شيء أففع من تركيب بعض الأجهزة التى تعرض هذه الظواهر ولا تقرر بها « نظرية » عامة أو فرضا من الفروض التى تؤسس عليها العلوم .

وفى هذه المرحلة تسلم فرنكلين مباحث الكهربيا فلم يزل بها حتى وضع لها تلك الفروض على قواعدها المقررة الى هذا اليوم ، فوحّد بين ظواهر الكهربيا فى الأرض والسماء ، وعرف الكهربية الزائدة والكهربية الناقصة ، أو الكهربية المشبعة والكهربية المتعطشة وهما المعروفتان اليوم باسم الموجبة والسالبة ، وراقب خاصة التوصيل والاقتراس فصنع الطيارة المشهورة لاستخراج الكهربيا من السحاب ، ولم تكن هذه التجارب مأمونة العاقبة فى تلك المرحلة . لأن خصائص المادة الموصلة للكهربيا لم تكن معروفة بتفصيلاتها ولم تزل متفرقة مبعثرة لا تربط بينها رابطة تجمع المتشابهات منها على قاعدة واحدة ، وفى احدى هذه التجارب أوشك أن يهلك لابتلال الخيط الذى ربط به الطيارة أثناء نزول المطر ، ولولا أنه

لم يتشبع بالماء في جميع أجزائه لهلك رعدة كما هلك الأستاذ ريشمان Richmann السويدي في تجربة مثل هذه التجربة كان يجريها في بطرسبرج ، فكان استمرار فرنكلين على تجاربه — مع هذه العوارض المبهمة — مخاطرة أخطر مما يقال عنه « انه لعب بالنار » .

ونحن في عصر التحليل وتوزيع الأعمال تتساءل : هل كان فرنكلين عالما أو مخترعا ؟ هل كان يدرس العلم بعقل الباحث الذى ينقب عن الحقيقة ويضع النظريات ويوفق بين الحوادث المبعثرة ليجمعها الى قانون واحد ، أو كان يدرس العلم دراسة الصانع الحاذق الذى يخترع الآلات أو يحكم صنعها بزيادة المعرفة والتحقيق ؟

ان التفرقة بين العقليين سهلة بينة في كثير من الأحوال . فهناك العالم الذى يحسن التفكير والفهم والاحاطة بالأفكار والمفاهيم ، ولكنه لا يحسن تنفيذ الأفكار في آلات مخترعة ولا يحسن توجيه المنفذين الى صنعها واختراعها ، وهناك الصانع الذى يباشر التركيب والفك واعادة التركيب بمهارة يدوية وحيلة تطرأ في ساعته من تلك الحيل التى جعلت العرب يطلقون اسم علم الحيل على علم المكنتات ، وربما كانت هذه الحيل جميعا خفية على الصانع عند ابتداء المحاولة الأولى ثم تظهر له بالمعالجة والاختبار كأنها طرق يسير فيها حتى يراها مغلقة أمامه فيرجع عنها ويتحول الى غيرها ، أو كأنها في النهاية من قبيل المصادفة التى لم يكن ينتظرها .

وفرنكلين كان صانعا نشأ بين الصناع يعمل ويجرب ويحاول ويعتمد على التواتر كما يعتمد على المصادفة ، ولكنه في البحث عن النظريات والعلاقات بين الحوادث المبعثرة لم يكن مقصرا عن شأو أمثاله من المفكرين الباحثين ، فلم تكن تعوزه ملكة لازمة للعالم الباحث عن الحقائق والنظريات ، وكل ما يحتاج اليه هذا العالم الباحث من تفتح الذهن

وصدق الملاحظة وحسن الترجيح والموازنة بين الأسباب والاحتمالات فهو من عاداته الذهنية في مباحثه العلمية وفي معيشته اليومية ، فلم يكن ينهض من مكتب العالم ليدخل الى مصنع العامل المخترع ، بل كان مكتبه ومصنعه موضعا واحدا تشترك فيه ملكاته وخصائص ذهنه هنا وهناك .
الا أنه كان يعتقد أن المعرفة مصلحة انسانية ، وأن العلم الذى لا يتحول الى منفعة عامة لا قيمة له في العقل ولا في الحياة ، ومن رأيه أن الكشف العلمى الذى لا يوضع موضع التطبيق في المنافع العامة ولا يصلح لشيء من الأشياء هو كشف « غير صالح » على الاطلاق .

وكأنما كان خجلا من اضاءة الوقت في قدح الشرر وجذب الريش والزغب وتجريب هذه الألعاب الكهربائية على غير جدوى ، فكتب (صيف سنة ١٧٤٩) الى صديقه العالم الانجليزى كولنسون Collinson يروى له — في شيء من التهمك — كيف يعتذر الى أولئك الذين ساءهم ، أو أحفظهم ، قليلا أن يسمعوا عن تجارب الكهرباء ولا يحسوا لها أثرا ملموسا في نفع بنى الانسان ، فقال له انه خرج مع طائفة من صحبه الى نزهة خلوية تطهو طعامها على نار مستمدة من الكهرباء : « ويشتل فيها الكحول بشرارة تعبر النهر من شاطئ الى شاطئ بغير موصل غير الماء ، ويقتل فيها ديك رومى بالهزة الكهربائية وينضج على سفود تديره الكهرباء أمام نار مقدوحة من القناني الكهربائية ، وعما قليل يستطيع أن يشرب نخب الكهربيين المشهورين في انجلترا وهولندا وفرنسا وألمانيا في أكواب مكهربة ترعش الشفاه قليلا عند مساسها بفعل التيار المنبعث من بطارية كهربية » (١) .

ومنافع الكهرباء اليوم لا تحصى ولا يضارعها شيء مما كان يستخدم

(١) من كتاب بنيامين فرنكلين الأمريكى الاول تأليف برلنجيم

Benjamin Franklin The First Mr. American by Burlingame.

قبلها في الصناعة وتيسير أعمال الناس أو تيسير الأعمال للملايين من المهندسين والصناع والتجار والوسطاء بين الصناعة والتجارة ، ولكن فرنكلين استطاع أن يقنع العالم بفائدة لها تساوى جهود المئات من العلماء في المئات من السنين ، لأن العمود الذي اخترعه للوقاية من الصواعق قد وازن تلك الجهود وأربى عليها ، ولم يوازنها ويرب عليها عند الذين أصابتهم الصواعق أو تعرضوا للإصابة بها حيث يتتابع نزولها ، بل هو قد وازنها وأربى عليها عند الملايين من الذين لا يتعرضون للصاعقة ولا يعرفون منها الا اسما يهول ويتردد في مقام الانذار والوعيد ، ووازنها وأربى عليها عند أرباب الخيال الذين تصوروا جوبيتير على السحاب وتصوروا فرنكلين على الأرض ندين يتبارزان ، ويخلع الند البشرى منها سلاح الند السماوى المقدس في ملاحم الشعر ومزاعم الأساطير .

ولم يعدم المازحون قائلا يقول : « ان عمود الصواعق قد صب على فرنكلين صواعق الغضب والنقمة من عاهل في الأرض يناظر جوبيتير في السماء ، ذلك هو جورج الثالث ملك انجلترا في أيام الثورة الأمريكية . فانه كره أن يشيع في العالم اختراع رجل ثائر على التاج ولم يقدر على منعه وتحريمه لأن خوف الناس من صواعق السماء أعظم من كل خوف يخافونه من صاحب التاج ، فتوسل بكل وسيلة يقدر عليها لهزيمة فرنكلين في هذا الاختراع .

وكان فرنكلين على طريقته البسيطة قد عرف أن كهربا السحاب تنجذب الى الموصل السهل فتسرى فيه ولا تصطدم بعائق على الأرض تنفجر الصاعقة من جراء المصادمة بينها وبينه ، فاختر لجذب الكهربا السحابية وتوصيلها الى الأرض بغير عائق وبغير مصادمة عمودا قائما ينتهى الى أسلاك صالحة للتوصيل بالكهربية الأرضية ، وفضل العمود

المسنن على العمود المستدير من أعلاه ، لأنه يقلل المصادمة وبواعث الانفجار .

فلما ثبتت فائدة العمود لمنع الصواعق نشب الخلاف على الرأس المسنن والرأس المستدير أيهما أسلم في الوقاية وأصلح في تحقيق النظرية العلمية ، فأوعز الملك الى سير جون برنجل Pringle رئيس مجمع العلوم أن يفضل العمود المستدير على العمود المسنن ، ونقل المسألة من ميدان العلم الى ميدان السياسة وواجبات الولاء والطاعة ، فأجابه العالم النبيل بالجواب الذى يستحقه وألقى اليه في جوابه أن قوانين الطبيعة لا تخضع للمراسيم الملكية ، واعتزل العمل في منصبه الرفيع ايثارا للأمانة العلمية على الخطوة والجاء ، وشاعت يومئذ في انجلترا أبيات من الشعر خلاصتها أن صواعق الغضب التى تملكها أيها الملك جميعا لا تنفلك اذا أردت أن تجاوز الحد The Point .. وهى كلمة فى الانجليزية ترادف معنى السن والنقطة وتقابل فى هذا المقام معنى الدائرة والكتلة ، يريد الناظم بذلك حد العمود المسنن الذى فضله فرنكلين ووافقه على تفضيله كبير العلماء ، ومعه سائر العلماء .

ومباحثه العلمية التى لم تشتت هذه الشهرة متنوعة فى جوانب متنوعة من الحياة العامة والخاصة ، أحاطت بالعلاج الكهربى وعلاقة الصحة بالحرق والتبريد بالتبخير ، وفنون شتى من الاستشفاء بالوسائل الطبيعية ، وشملت البحث فى غازات المستنقعات وحفائر الأرض وسرعة السفن فى الماء الضحل والماء الغزير ، ولغات القبائل البادية فى أمريكا الشمالية ، وإشارات التخاطب بين النمل والحشرات ، ومستقبل الطيران ومستقبل علم الضوء على اعتبار الضوء حركة من حركات التموج فى انقضاء ، ولم يدع البحث فى التشريح ووظائف الأعضاء وأساليب التطبيب ، ولا فى الموسيقى وفن الايقاع ولا فى الألوان والأشكال ،

وجرى فى هذه المباحث كلها على وتيرته المعهودة من تسخير المعرفة للمنفعة وتطبيق النظريات على الوقائع المتداولة ، وهى عادة ذهنية لا تعيب التفكير العلمى الصحيح الا اذا كانت المنفعة المقصودة منفعة شخصية ينسى المرء فى سبيلها منافع أبناء نوعه وحقائق العلم أو قوانين الطبيعة ، وتلك هى الخلطة التى برىء منها هذا العقل العلمى المطبوع فكانت فائدة بنى الانسان أجمعين مقدمة لديه على كل فائدة ، ولم يكن نصيبه من هذه الفائدة الكبرى غير الفتات على المائدة .

وقد ظهر موقفه من المباحث النافعة فى اختراعه للموقد الذى سعى باسمه ويعرف الآن باسم موقد فرنكلين ، على ما دخل عليه بعد ذلك من التعديل والتحسين .

فهذا الموقد من الآلات التى يمكن أن تصنع بالمئات والألوف ويحتكرها المخترع فلا تباع الا من مصنعه أو باذن منه ، وكان تعويل الأمريكيين قبل اختراع هذا الموقد على كوائن المداخن التى تستنفذ الكثير من الوقود وتضيق الكثير من الحرارة المستفادة منه ، وتصيب المستدفئين بكثير من الأضرار لأنها تدفئ الجانب المواجه لها من الجسم والجانب القريب اليها من الحجرة ، وتدفع الجسم كما تدفع المكان مختل التوازن فى درجات الحرارة مع غلاء الوقود الضائع وشدة الحاجة الى الدفء والوقاية من البرد فى الشتاء ، وشدة الحاجة الى المواقد على العموم لمطالب الغذاء وغيره من اللوازم البيتية .

فاخترع فرنكلين موقدا يوضع وسط الحجرة وينقل الى حيث يشاء الساكن ويحفظ الحرارة كلها للتدفئة ويرسل الدخان الى المدخنة من أنبوبة تتركب عليه وترفع منه على حسب الحاجة ، وأراد حاكم المدينة أن يكافئه على هذا الاختراع فكتب له تسجيلا باحتكاره وقرر أن يحرم صنعه ويبيعه بغير اذن من مخترعه ، فشكره فرنكلين واعتذر من قبول

هذا التسجيل ، وقال فى اعتذاره انه ينتفع هو وأبناء عصره بمخترعات
الأقدمين ولا يؤدون اليهم ثمنا لمنافعها الجزيلة ، فمن الانصاف أن ننفع
أخواننا وأبنائنا بما نهتدى اليه من المصنوعات والمخترعات بغير جزاء .

ولم يجهل فرنكلين وهو يعتذر هذا الاعتذار أن الشهرة الأدبية غير
مضمونة للمخترعين والباحثين وليست عوضا خالصا من الحسد والادعاء ،
فقد كان أعلم بالطبيعة الانسانية من أن ينخدع هذه الخديعة ، وكان
يكتب الى صديقه جون ليننج Lining بعد ظهور العشرات من مخترعاته .
فيقول ان الحسد يأبى على المنافسين أن يعترفوا للمخترع بفضل اختراعه
وان الغزو يسول لهم بعد ثبوت تفعه أن يدعوه لأنفسهم ويكابروا فى
الدعوى فيصدقهم الحساد والجهلاء ، وانه ما من انسان مالمك لقواه
العقلية يتمنى لصديقه أو لولده أن يشتغل بالاختراع (١) .

ولعله من مصداق ما تقدم فى كل معنى من معانيه حوار الدكتور
جونسون وتلميذه بوزويل عن تعريف فرنكلين للانسان .

قال بوزويل : « أحسب أن تعريف الدكتور فرنكلين للانسان تعريف
حسن : حيوان صانع للآلات » .

والذين قرأوا مفكرات بوزويل عن أحاديث الدكتور جونسون
يعلمون أن الأستاذ لم يسمع من تلميذه فكرة الاسارع الى مخالفته فيها ،
وأنه لم يكن من عادته أن يمنح موافقته لشيء من الأشياء بغير اعتراض .
وعلى هذه العادة أجابه الدكتور قائلا : « لكن كم من الناس لم
يصنع آلة قط وهب إنسانا بغير ذراعين ، فإنه لا يقدر على صنع آلة من الآلات ؟ » .

ان تعريف فرنكلين للانسان فى الحقيقة أصدق تعريف له وأوفاه
بالشرط الجامع المانع فى التعريف ، فما من فارق بين الانسان والحيوان
أوضح وأثبت من قدرة الانسان على صنع الآلة واستخدامها ، وهذه

(١) من كتاب بنيامين فرنكلين الأمريكى الاول تأليف برنجم المتقدم ذكره .

القدرة هى المقصودة بتعريف فرنكلين لا وجه للاعتراض عليها بتفاوت الناس فيها ، فليس الاعتراض الصالح على تعريف الانسان بالحيوان الناطق أن بعض الناس لا ينطقون ولا يفكرون وأن بعضهم يولدون بكنماً أو مجانين ، وليس من الاعتراض الصالح على تعريف الانسان بالحيوان الاجتماعى أن يشذ بعض الناس ويتأبد فى الخلاء وينفر من الاجتماع .. ولكن العبرة من هذه القصة أوسع وأدق من أن يحيط بها تعليق واحد ، وكفى منها هنا أن تبرز قدرة العقل العلمى المطبوع على التعريف واقلمة الحدود والفوارق ، وأن تبرز تلك الرابطة الوثيقة فى طبيعة فرنكلين بين الانسانية وصنع الآلات ، وأن تبرز مع هذا وذاك سهولة الانكار حتى من الفضلاء !

ولم يقنع فرنكلين بخدمة العلم بفكره منفردا مستقلا عن القادرين على خدمة العلوم فى بيئته وعصره ، فأنشأ نادى « الجاتتو » الذى أصبح مجمعا للعلوم والآداب ثم أصبح بعد ذلك جامعة بنسلفانيا القائمة الى اليوم ، ونظم الجماعة الفلسفية الأمريكية كما نظم أول مكتبة عامة تقتنى الكتب بالشراء والاستعارة وتعييرها القراء ومن يحتاجون الى المراجع من أصحاب المباحث والدراسات ، وقد كافأته الجماعة الفلسفية على غيرته العلمية وجهوده فى نشر المعرفة وتمكين العلماء من نشرها بانتخابه رئيسا لها مدى الحياة ، وهو تقدير من النخبة المختارة يفوق التقدير الذى يلقاه طلاب الرياسة فى مناصب السياسة ، وكلاهما فرنكلين فخورا به متعزيا به عما كان يلقاه من حساده الأقوياء من البهخس المتعمد ونكران الجميل .

ومهما تعدد جهوده ومشاركاته فى الأدب والسياسة والاجتماع فليس من الحصر الذى يزرى بها أن نقول انها كانت فى جملتها وتفصيلها جهود العالم المطبوع ، بذلك المعنى الذى افتتحنا به الكلام فى هذا الفصل عن فرنكلين العالم ، وزبدته أن الملكة العلمية لم تفارقه قط فى تلك الجهود والمشاركات .

الكاتب

إذا كنا قد عرفنا طبيعة هذا العقل من الامام السريع بحياته العلمية فمن اليسير علينا أن نعرف خطته إذا اشتغل بالكتابة في عصر المطبعة ، فانه على التحقيق لم يكن ليستطيع أن يعفى نفسه من عمل يتصل بهذه الصناعة ، وكذلك كان كاتباً وطابعاً وناشراً ومديراً للعمل ، وسرى كيف كان كاتباً يسهم بقلمه في جميع الموضوعات التى تسهم فيها الأقلام . أما الطباعة فقد كان فيها صفاً وخفراً ومديراً للمكنات ومصلحاً لما يختل منها ، ويكاد يحسب مع المهندسين المكينين فى زمانه لأن هذه الهندسة لم تتشعب فى ذلك الزمن تشعباً يصعب عليه أن يحيط به على طريقته فى الاحاطة بكل عمل قريب من رأسه ويديه ! وأما النشر فلم يترك شيئاً يشتغل به الناشر فى عصره دون أن يتولاه ويبلغ به مداه . ويقول فرنكلين فى ترجمته لنفسه انه لا يذكر زمناً لم يكن يقرأ فيه . وهذا مع ذاكرته القوية التى أعانتها على حفظ الكلمات وإدخال المفردات والعبارات واستيعاب ذلك المحصول اللفظى ، والفكرى ، الذى يسر له الكتابة المشوقة بأسهل أسلوب .

وقد قيل عنه انه لم يوجد فى العصر الحديث كاتب كان حظه من التعليم المدرسى أقل من حظه ، وكان فضل المعلمين عليه أقل من فضله فى تعليم نفسه ، وكان عاشر أبناء أبيه فنذره لخدمة الدين ، ثم تبين أن التعليم فى المدرسة الكهنوتية يفوق طاقته فأدخله مدرسة من مدارس الأجرومية والتربية الأولية ، ومكث فى هذه المدرسة — مدرسته الثانية — من الثامنة الى العاشرة ، ثم أخرجه أبوه لمساعدته فى صناعته .

وكان الصبى المشغوف بالقراءة يلتهم كل ما صادفه من الكتب فى داره وعند أقربائه ، فقرأ الكتب التى يفتنيها أبوه فى مسائل الدين وخلافات المذاهب ومناظرات العلماء اللاهوتيين ، ووقعت له نسخة من كتاب « رحلة الحاج » للكاتب المتصوف بنيان Bunyan فقرأها وأعاد قراءتها ثم باعها ليشترى بشمنها أجزاء من مجموعة المتسبين ^(١) Chapmen Books التى تنشر تباعا وتلم بالموضوعات المنوعة من التاريخ والجغرافيا والنوادر والسير والعجائب الصناعية أو الطبيعية ، وهى قراءة توافق ذهن فرنكايين المشغول بالتوسع والتنويع .

ولم يبلغ السادسة عشرة حتى كان قد استوعب العشرات من أمهات الكتب النافعة من قبيل تراجم بلوتارك وذكريات زينوفون ودراسات لوك وشافنسبرى ورسائل ديفوى ومقالات كوتون مائر عن فعل الخير وغيرها من أشباه هذه المؤلفات القيمة التى كانت فى متناول يده ، وقد أعجب أصحاب أبيه بذكائه وإقباله على القراءة وفهمه لما يقرأ فتبرعوا باعارته ما عندهم من الكتب ، وشجعهم على اعارته باعادته كل ما يستعيره فى أيام معدودات ، ومنهم بائع كتب كان يعيره ما يطلبه كتابا كتابا فى المساء ليعيده اليه فى النهار التالى ولا يتمكن من البر بوعده الا أن يسهر على مطالعته طوال الليل الى الفجر على فور المصباح الضئيل .

والذى قرأه على هذا المنوال كثير ليس فيه كتاب واحد من كتب اللغو والفضول ، فبلغ السادسة عشرة ومعلوماته تزيد على معلومات أبناء الثلاثين من طلاب العلم والمشتغلين بالاطلاع ، وفكر فى الكتابة

(١) المتسبب كلمة يطلقها العامة على الرجل الذى يلتمس الرزق من الحرف المختلفة كالبيع والشراء والصناعة والوساطة ، ولها أصل فصيح اذا ردت الى التماس الرزق من أسبابه المتيسرة ، ولهذا ترجمنا بها الكلمة الانجليزية التى تفيد هذا المعنى .

على سبيل التجربة فأحسن اختيار المؤلف الذى يقتدى به ويوافق منحاه
وثابر على الاقتداء به والطموح الى محاكاته والتفوق عليه اذا تسنى له
سبيل التفوق ، حتى أخذ منه كل ما فى وسع تلميذ أن يستفيده على
البعد من أستاذ .

كان اختياره للكاتب اديسون صاحب مجلة السبكتاتور دليلا على
ملكة ناقدة مبكرة عرفته بملكات ذهنه ومنهج تفكيره وتعبيره ، فليس
فى الكتاب من تتراءى ملامحه جلية مفصلة فى أسلوب فرنكلين مدى
حياته كما تتراءى فيه ملامح هذا « الأب » الفكرى الذى اختاره لقدوته
بين عشرات من الكتاب .

وكان أخوه جيمس فى هذه الأثناء قد اشتغل بالطباعة وعهدت اليه
صحيفة بوستن جازيت Boston Gazette باصدارها فى مطبعته ، فأصدر
منها فى أواخر سنة ١٧١٩ أربعين عددا ثم اختلف أصحابها معه فعهدوا
بطبعها واصدارها الى مطبعة أخرى ، فخطر له أن يستقل باصدار
صحيفة يملكها ويحررها ويدير عليها أعمال مطبعته التى أوشكت أن
تتعطل وتخسر سمعتها وعملاءها أمام المطبعة الأخرى التى تنافسها ،
فأنشأ صحيفة جواب انجلترا الجديد New England Courant فى شهر
أغسطس سنة ١٧٢١ .

والحق فرنكلين بالعمل فى المطبعة متألما على أخيه فى صناعة الطباعة
وهو فى الثانية عشرة ، فلما استقل أخوه باصدار صحيفته لم يكن قد
جاوز الخامسة عشرة ولم يبق فى الصناعة عمل لم يجرب يده فيه ولم
يتقنه غير الكتابة ، فأخذ فى معالجة هذه الصناعة على منهجه الذى
شرحناه اجمالا فى الكلام على طريقته العلمية .

وكان حب الاتقان فى هذه الصناعة مطلبا طبيعيا يحسه من أعماق
نفسه ، فلم يذهب مع الغرور وتحرى الاتقان من أبوابه الصالحة ، وعلم

أنه لا يستغنى — بعد كل ما قرأه — عن المزيد ثم المزيد من القراءة ، فاقطع من قوته ليشتري الكتب التى لا تستعار ، وخيل اليه من بعض مطالعته أنه آمن بمذهب النباتيين فاقترح على أخيه أن يعطيه طعاما بغير لحوم ويضيف ثمنه الى أجره القليل ، فكان يشتري الكتب بثمان الطعام . وأدركته حصافته التى لا تغيب عنه وهو يطرق أبواب الشهرة الكتائية فأخفى اسمه واتخذ له توقيعا مستعارا باسم سيلنس دوجود Silence Dogood أى « صمتا واعمل خيرا أو واصنع معروفا » وجعله اسما لامرأة وصفها فى بعض مقالاته ، وعنّى فى جميع تلك المقالات بالتشويق واجتذاب القراء بالفكاهة والنقد الاجتماعى الذى يعجب القراء من الرجال والنساء معا لأنه يلمس شكاياتهم ويحدثهم عن مشكلاتهم وأوجاعهم ولا يحيف على طائفة لمرضاة أخرى بل يسوى بينهم جميعا فى النقد وملاحظة العيوب . ومن دأب الناس دائما أن يعجبوا بهذا التعميم فى الملامة والسخرية لأنه يصيبهم كما يصيب الآخرين ، ويقيم الكاتب أمامهم مقام الحكم العدل أو الحكم الحكيم الذى يعرف أحوالهم ولا يجور على أحد منهم أو يحاييه باخفاء ما يعرفه عن نفسه وعن صحبه من المآخذ والعيوب .

وأصلح ما يكون لهذا النقد الشامل كاتب مقنع واسم مستعار ، لأن هذا الاسم المستعار يجرده من « اللون الشخصى » الذى يدعو الى الاتهام بالحيف والمحاباة ، أو يدعو الى المنافسة والحسد وتقدير الكاتب بمظاهره الاجتماعية دون مزاياه الكتائية ، وقد خطر لفرنكلين حين أخفى اسمه أن مقالاته عرضة للاهمال والاستخفاف قبل النظر فيها ، وربما بخسها أخوه وزملاؤه الذين يراجعون معه موضوعات الصحيفة كل حق لها حتى حق النشر والاستحسان ، وصح تقديره بعد انكشاف أمره ومعرفة اسمه . فان أخاه قد توهم أنه اغتر بالسعة والاعجاب

وتطلع الى منزلة أكبر من منزلته في أعمال الصحافة ، فتغيرت معاملته وتعددت مشاجراته واضطر الأخ الصغير بعد حين الى مفارقة الأخ الكبير ومفارقة المدينة كلها ثم مفارقة الديار الأمريكية الى العاصمة الانجليزية . ومن يقرأ البقية الباقية من مقالات « سيلنس دوجود » يشعر أن النواة كلها كامنة فيها ، فقد برزت فيها ملامح الرجل التي يراها قارئه لأول وهلة في كتاباته بعد الستين وبعد السبعين والثمانين ، وكل ما جد عليها فانما هو من قبيل النمو الطبيعي للبنية المتكونة أو الصقل والتركيب للجوهر النفيس .

وقد تعلم الفرنسية بعد سن الكهولة وكتب بها أو ترجم اليها بعض كتاباته الانجليزية ، وأخلصت أستاذته فيها — مدام بويون — في امتحان أسلوبه الفرنسي فقالت انه « واضح ان لم يكن صافيا » وقال غيرها ما يشبه هذا في كتاباته الفرنسية والانجليزية على السواء ، فهي واضحة سهلة محكمة ، والنقاد متفقون على دقتها وجلائها وصحة تعبيرها عن معانيها ، ولكنهم يختلفون فيما عدا ذلك من محاسن البلاغة ومقاصد الكتابة ، ولا سيما القدرة على النفاذ الى الأعماق أو التحليق في القمم والآفاق .

وقد لخص آراء النقاد فيه كتاب مدرسى وجيز في تاريخ الأدب الأمريكي لثلاثة من أستاذة الأدب في الجامعات الأمريكية ، يغربل هذه الآراء من مصادرها المتعددة ويجهد في أمانة النقل كما يجتهد في حسن الموازنة والترجيح .

فذكر من محاسن هذه الكتابة وضوحها وسلامتها وقوة تعبيرها وما يتخللها من الصور الخلابة والفكاهة السائفة والقدرة على جوامع الكلم مع سلامة الادراك وإيراد الحقائق التعليمية في صياغة ترضى وتشوق .

وذكر من عيوبها أنها تفتقر الى جزالة الخيال والرشاقة التي اتسم بها أسلوب أستاذة اديسون والافراط في النزعة العملية المادية التي لا ترتفع الى القيم العليا ^(١) .

ونعتقد أن هذه الموازنة تلخيص عادل لما قيل في محاسنه وعيوبه الكتابية ، وأن فرنكلين نفسه لم يكن يجهل هذه العيوب ولم يشغل باله بمحوها أو انكارها ، وألقى باله كله الى محاسنهم المحققة فاحتفل بتحسينها وحافظ عليها .

وكل ما كتبه عن البلاغة الكتابية يعزز تلك الآراء عن « نزعة العملية المفرطة » واخضاعه كل فكرة تجول في ذهنه لحدود التقرير والتطبيق .

وفن الكتابة عنده كغيره من مزاوالات الحياة وضروب الأعمال وسائر الفنون : فكرة تتجمع من البحث في الغرض المقصود منها ، ثم نظرية يتأدى اليها من ذلك التفكير ، ثم تطبيق يصححه بالتجربة والمراقبة وتقدير التقدم فيه بمقياس من مقاييس الواقع المحسوس .

ومن الحوار التالي تبين مذهبه في الفكرة النظرية عن الكتابة وعن التطبيق العملي الناجح لتلك الفكرة النظرية .

قال : « كيف نحكم على جودة الكتابة ؟ أو ما هي الصفات التي ينبغي أن تتوافر للكتابة كي تعد من الكتابات الجيدة التامة في نوعها ؟ » والجواب أن الكتابة تكون جيدة اذا جنحت الى افادة القارئ بزيادة قسطه من الفضيلة والمعرفة ، وبغير نظر الى نية الكاتب ينبغي أن يكون المنهج محكما يستطرد - على انتظام - من الأمور المعلومة الى الأمور المجهولة في تحديد وتوضيح وبغير لبس ولا اختلاط ، وينبغي أن تكون الكلمات المستخدمة أقواها تعبيراً عن معانيها على شريطة أن تكون

كذلك أشيعها وأدناها الى الافهام ، ولا ينبغي أن يقال في كلمتين ما يمكن أن يقال في كلمة ، ولا حاجة الى المترادفات الا نادرا وعلى أن يكون وقعها في جملة سائعا في الأسماع ، ونوجز فنقول انها ينبغي أن تكون سلسلة واضحة موجزة لأن الصفات التى تناقض هذه الصفات لا تروق . وننظر الى المسألة من ناحية أخرى فنقول ان الرجل السيئ قد يكتب المعنى السيئ كتابة جيدة ، وانه اذا ساءت نيته قد يستخدم أصلح الأساليب والبراهين على حسب القراء للوصول الى بغيته ، وعلى هذا الاعتبار نقول ان أجود ما يكتب هو أجود ما يصيب به الكاتب مرماه .

فالكتابة الناجحة هي الكتابة الجيدة في تقدير فرنكلين ، ومقياس النجاح هو « التطبيق العملى » لفكرة مقررة ووجهة مرسومة ، وهذا هو فرنكلين كله مرة أخرى يتمثل في صناعة القلم وفي كل صناعة .

ويصادفنا في تراجم فرنكلين رأى متفق عليه بين الواقعيين العمليين والنظرين المثاليين ، وهو هذه الغاية الواقعية العملية التى يرتادها في كل مطلب يعنيه ، وربما لمسنا في كلام الواقعيين العمليين شيئا من الاعجاب في التنويه بهذه الصفة ، وربما لمسنا من الجاب الآخر شيئا من الغضاضة في تصريح النظرين المثاليين بها أو تلميحهم اليها ، ولكنهم لا يختلفون في وصفه بهذه الصفة واعتبارها احدى صفاته البارزة ، بل كبرى صفاته العقلية والنفسية بين سائر الصفات .

على أننا نرى أن النزعة الواقعية والنزعة المثالية فيه تتقاربان ، أو أنهما على الأقل لا تتنافران ولا تتعارضان ، فانه يستقصى العمل الى غاية مداه ولا يستطيع أن يدخر جهدا من جهوده يتسع أمامه المجال لبلوغ الكمال الواجب في عمل من الأعمال .

وقد نجح في الكتابة الصحفية وقرر مكانته فيها وأصبح في مجالها علما فردا لا يدانيه أحد من معاصريه ، وكان هذا النجاح خليقا أن يقنع

غيره بالوقوف عنده والاكتفاء به في صناعة الصحافة وصناعة الطباعة ، ولكنه لم يقنع به ولم يقف عنده ، ولم يدع شيئا يقدر عليه في هذه الصناعة الا حاول أن يبلغ منه ما يعينه على الاستقلال والكفاية ، حتى سبك الحروف للمطبعة ، ولم يكن في بلاده يومئذ سباكون للحروف .

وديدنه في هذه الخطة هو ديدنه في كل مطلب ، فانه يفكر في الشروط التي ينبغي أن تتوافر للمصحف ثم يأخذ نفسه بتحصيلها وتوفيرها ولا تشيه عقبة ترصد له في طريقها ، مما ينشئ أمامه النظريون المثاليون ولا يتجشمه كل عامل من المجتهدين الواقعيين ، وعلى هذه الخطة أخذ نفسه بالاطلاع على المعلومات الفلكية الضرورية لاصدار التقويم ، وفهم أن الامام باللغات مزية واجبة للمصحف الذي يريد أن يتقن عمله بين زملائه ، وبخاصة في ذلك الزمن الذي تعددت فيه لغات النازلين بالولايات الأمريكية ولم تنتشر فيه لغة واحدة للكتابة والكلام كما حدث بعد حرب الاستقلال ، فتعلم من الأسبانية والايطالية والألمانية ما يكفيه ، وتوسع بعض التوسع في اللغة الفرنسية ، وجرى في تعلم اليونانية واللاتينية على مذهبه في التعليم المدرسي متوسطا بين الاهمال والالزام ، فهو لا يهملها ولا يرى أن تفرض على الطالب فرضا ان لم يكن يشعر بالحاجة اليهما في مطالبه الثقافية ، وأحق منها بالفرض في البرامج لغات الأحياء أو اللغات الحية الشائعة بين أمم الحضارة ، وبين أبناء وطنه على التخصيص .

ومما يدخل في هذه الخطة العملية المثالية أنه يجتنب تبديد الجهود ويأبى الاسراف بطبعها فيما يبتغيه من الكماليات أو الضروريات ، وهو لا يجوز بذلك على حق الكماليات لأنه كذلك لا يسرف ولا يبذل الجهد في طلب الضروريات .

ولا يخفى على الذين اختبروا تعلم اللغات أن الصعوبة فيها درجات : أولاها درجة الفهم من الكلام المكتوب ، وتليها درجة الفهم من الكلام

المسروع لأنه يرتبط بلهجات النطق الذى لا يسهل التقاطه على السمع ساعة النطق به كما يسهل التقاط الحرف المكتوب ثم التأمل فى الكلمات على الاجمال ، وتلى هذه الدرجة فى الصعوبة درجة السماع والاجابة عليه بالكلام المقيد ، ولا سيما الكلام المصطلح عليه فيما جرت به تقاليد أبناء اللغة من المثقفين وغير المثقفين .

وفرنكلين لم يبدد جهده فى لغة من اللغات التى تعلمها لغير ضرورة ، وقد عاش فى فرنسا زمنا واتصل فيها بصفوة العلماء والمتعلمين ، وعالج الكتابة وأحسنها الى حد الرضا من طبقة المتكلمين بالفرنسية النقية فى زمانه ، ولكنه ظل الى آخر أيامه بين الفرنسيين يفهم الكلام فى المجلس ولا يفهم الكلام فى الخطابة العامة ولا سيما الخطابة السريعة التى لا تجرى مجرى الحوار على حسب المفهوم من السؤال والجواب ، والتى يترتب على فوات معنى من معانيها فوات المعانى التالية لها الى آخر الخطاب . ومن طرائفه فى هذه المأزق — وهى طريقة تدل على لطف الحيلة كما تدل على حب المجاملة — انه حضر اجتماعا عاما تعاقب فيه الخطباء وتعذر عليه أن يتابع فهم الخطب وعز عليه أن يهمل واجب التحية وينفرد بهذا الاهمال بين المستمعين ، فاحتال على الخروج من هذا المأزق بمراقبة احدى السيدات الحاضرات ممن يثق بذوقهن وفهمهن وبعدهن من الغرض فى مهيب الأهواء السياسية ، وجعل يتابعها بالتصفيق كلما صفتت وبالسكوت كلما سككت ، وهو يحسب أنه قد أحسن الحيلة وتخلص من المأزق وأدى واجب المجاملة للمتكلمين والمستمعين ، ثم علم بعد ذلك أنه كان يجامل نفسه على غير قصد منه ، وقال له حفيده انه كان يصفق للثناء عليه والتنويه بمآثره .. ! وانه كان يكثر من التصفيق كلما أكثر الخطباء من الثناء والتنويه ، وكان لا يكتفى بتصفيق السيدة ومن يصفقون معها بل يحب دائما أن يزيد عليه فضلة من عنده .. ولعله لم يخسر بهذا

الموقف الطريف الذى ساقه اليه جهله باللغة وحبه للمجاملة ، فان أذكيا
الباريسيين والباريسيات لا تقوتهم حيلته التى كشفها لهم على الرغم منه ،
ولا تضيره عندهم ولا تحرمه لديهم من ابتسامة العطف والتسلية ! .. وقد
روى الكثيرون ممن سمعوه يتكلم الفرنسية مع صفوة المجتمع الباريسى
من العلماء والنبلاء أن الخطأ فى كلامه كان أحب اليهم من الصواب ،
لأنهم يتفكهون به ويكشفون ما ينطوى فيه من حسن الاحتيال
على التعبير .

ولم يكتب فرنكلين لغير الصحافة الا القليل ، وأطول مؤلفاته ترجمته
التى كتبها لنفسه ولم يتمها الى نهايتها ولم تظهر فى حياته ، وله رسالة فى
الأخلاق كتبها فى انجلترا وسماها « مبحث فى الحرية والضرورة والسرور
والآلم » غلبت فيها عليه فلسفة العصر كله وذهب فيها مذهب القائلين بأن
الفضيلة والرذيلة لا وجود لهما فى الطبيعة التى تسيروا قوانين الضرورة
وتدار وفقا لتلك القوانين كما تدار الآلات . ثم عدل عن هذا رأى
أو عدله تعديلا يلقى للفكرة قالبها ويغير جوهرها ، فكان مذهبه الذى
صمد عليه بقية حياته ان الفضيلة أهل لأن يفضلها المختار لو أنه أحسن
الاختيار وأن الخبثاء الدهاة لو عرفوا قيمتها لأصبحوا باختيارهم فضلاء
بوحي من الخبث والدهاء .. وتعود بنا هذه المصالحة بين الضرورة
والاختيار الى تلك النزعة الواقعية التى تلاقى النزعة المثالية فى منتصف
الطريق ، فتقاربان ، أو هما على الأقل لا تتنافران .

وفيما عدا الترجمة والرسالة الأخلاقية لم يفرغ لتأليف الكتب مع
اشتغاله بالصحافة والتجارب العلمية ووظائف الحكومة التى وكلت اليه
بعد اشتهار اسمه وذيوخ مخترعاته وعلومه . وقد كان عمله فى الصحافة
أعمالا متشعبة كما تقدم ، فانها كانت تشمل التحرير والطباعة والنشر
وانشاء الصحف وتوزيعها وبيع الكتب التى يطبعها أو يستوردها من

البلاد الانجليزية ، وكانت الطباعة التى يتولاها تشمل سبك الحروف .
 وادارة المكنتات وحفر النقوش وكل صناعة طباعية يحتاج اليها الصحفى
 والناشر فى عمله . وقد عقد النية منذ فارق أخاه على أن يشتغل بإنشاء
 صحيفة يملكها ويتصرف فى ادارتها وتحريرها ، فبدأ بعد عودته من لندن
 الى فلادلفيا بشراء مطبعة نجحت فى اتقان مطبوعاتها وتوفير عملائها ،
 ثم اشترى فى سنة (١٧٢٩) صحيفة بنسلفانيا جازيت وأصدر تقويم
 ريتشارد المسكين بعد ذلك بثلاث سنوات ، وضم الى الصحيفة مجلة
 سماها المجلة العامة The General Magazine and Historical Chronicle
 صدرت فى سنة (١٧٤١) وكانت ثالثة المجلات التى صدرت فى الولايات
 الأمريكية ، وحاول فى أثناء ذلك اصدار صحيفة ألمانية يكتبها أستاذ من
 أساتذة اللغات فصدرت منها أعداد قليلة ولكنها لم تعمر طويلا لقلة
 القراء باللغة الألمانية ، ومكنته سمعته الحسنة فى الصحافة والطباعة من
 المشاركة فى بعض صحف الجنوب ثم أرادت الجماعة النياية بكارولينا
 الجنوبية أن تشجع الطباعين على انشاء مطبعة فيها فتيرعت بألف جنيه
 لمن يقيم مطبعة كاملة فى الولاية ، فاتفق فرنكلين مع أحد زملائه على اقامة
 المطبعة مشتركين فى ادارتها وأرباحها ، وحيل بينه وبين الحصول على
 المعونة الموعودة فلم يكف عن السعى حتى حصل عليها بعد وفاة الطباع
 المزاحم له (سنة ١٧٣٢) وأصبح هو وشريكه مستقلين باصدار صحيفة
 الولاية باسم « سوث كارولينا جازيت » أى صحيفة كارولينا الجنوبية .
 وكان فرنكلين كفؤا لكل صعوبة تعترضه فى أعماله الصحفية ولا سيما
 أعمال النشر والتوزيع ، ومن أخطر هذه الصعوبات التى تغلب عليها أنه
 منى بمزاحمة أندرو برادفورد مدير البريد يوم كان البريد « التزاما »
 يتولاه المدير لحسابه ولا يدخل فى عداد المصالح الحكومية ، فمنع
 برادفورد ساعاته من توزيع صحيفة فرنكلين وأوشك أن يشل حركتها

لولا ذلك الخلق المطبوع الذى أسعد فرنكلين بالأنصار والأعوان فى جميع المآزق المحرجة ، وهو خلق الكياسة وطيب المعاشرة وحسن التفاهم مع الناس من كل طبقة ، فلم يلبث أن تفاهم مع السعاة واسترضاهم بالهدايا تارة والاقناع تارة أخرى فأقبلوا على توزيع صحيفته على غير علم من مديرهم ، ونجح حيث أخفق مدير البريد .

وأعانه هذا الخلق على اجتذاب العملاء فأقبلت دواوين الحكومة على طبع أوراقها عنده ، واختاره تجار الكتب لطبع الكتب التى يوزعونها ، وكان هو يطبع من التصانيف السلفية ما يقدر له الرواج فى كل زمن ، كالمجاميع القانونية ، ومجاميع الصلوات ، ودساتير الماسونيين ، ومفكرات الطبيب والاسعاف ، ودواوين القصائد التى تصلح للمناسبات ، ونصائح الارشاد فى مشكلات الأسر وأصحاب المعاملات ومراجع الصناعة التى تجمع بين العلم والفائدة ، غير ما كان يستورده من المطبوعات الأدبية التى يقبل عليها قراء الشعر والنثر من خاصة القراء . ولم يكن يستورد منها غير العدد الذى ينفد لساعته ، ويضمن له ثقة الخاصة من قراء الإقليم وتحويلهم على مطبوعاته ووارداته .

ومن المحرجات فى صناعة الطبع والنشر ما يحسه فرنكلين بصفة خاصة لأنه على إيمانه بحرية الرأى يكره العداوات ولا يميل الى اغضاب المخالفين ما استطاع أن يرضيهم بالكلمة الحسنة والصراحة المقبولة ، وليس من اليسير على طابع أو ناشر أن يقصر مطبوعاته ومنشوراته على ما يرضى الناس جميعا ولا يسوء أحدا منهم ، وأعسر ما كان ذلك فى عصر المجادلات السياسية والدينية بين أناس من مختلف الأقدار والعقائد والميول ، فاجتهد فرنكلين فى اجتناب ما يمكن اجتنابه مما يسوء القارئ لغير ضرورة ، ولم يبال بعد ذلك أن ينشر ويكتب ما يخالف أناسا ويوافق آخرين ، وكتب دفاعه عن صناعة الطباعة توضيحا لمسلكه بين

الآراء المتضاربة ، فكاد يرضى الجميع به لو كان الى ارضاء الجميع من سبيل .

الا انه — مع حرصه على المجاملة حرص الافراط في بعض الأحيان — لم يجامل أحدا فيما يشذ عن آداب المناظرة أو يقحم المثالب الشخصية بين مباحث النقد ومناقشات الآراء ، وكان يقول كما ذكر في ترجمته : « اننى أتعاشى في تحرير الصحيفة كل اساءة شخصية من تلك الاساءات التى وصمت بلادنا في السنوات الأخيرة . وكلما ألح الملحون علىّ لنشر كلام من هذا القبيل واحتجوا كعادتهم بحرية الصحافة وشبهوا الصحيفة لتسوين طلبهم بالمركبة الحافلة التى ينبغى أن تتسع لكل راكب وكل مشترك — كان جوابى لهم أننى على استعداد لطبع كلامهم على حدة ولهم أن يطبعوا منها النسخ التى يريدونها ويشارون توزيعها ، ولكننى أنا غير مسئول أن أشارك معهم فى عمل لا أَرْضاه .

ولا نخاله كان بحاجة خاصة الى مطبعة خصوصية لطبع رسائله فى باريس ، فربما كان حكم العادة وحب الصناعة التى شب عليها سلواه فى أيام الشيخوخة وباعثه الأول الى اقتناء المطبعة الخصوصية قبل كل باعث من بواعث الأعمال السياسية أو الأدبية ، ولكن مطبعة « باسى » على هذا قد أخرجت له نخبة من الرسائل والنشرات لم تخرج مطابعه الأولى نظيرا لها أيام الشباب ، ولو سقطت هذه المطبوعات من مجموعته الكاملة لاختفى باختفائها أجمل ما كتب من الفكاهة والنقد بعد تهذيب السن وحنكة الشيخوخة والاطلاع .

« وفقا للخطة المقررة .. » .

هذه عبارة شاعت أيام الحرب الأخيرة ، فى بلاغات القيادات العسكرية ، وتعود القراء بعد تكرارها أن يفهموا منها أنها تكتب فى البلاغات التى تنذر بالارتداد من غير اعتراف بالهزيمة ! فإذا سمعوا

خبراً يبتدىء بالتراجع والارتداد بادروا الى تمامه متهمكين : نعم . وفقاً للخطة المقررة .

ترى هل كان أصحاب هذه البلاغات من قراء فرنكلين ؟
لا نظنهم قراءه . ولكنه قد سبقهم الى هذه العبارة وأمثالها ، وعود قراءه قبلهم أن يتوقعوا كل حركة كبيرة من حركات سيرته الحافلة . وفقاً للخطة المقررة ! . وعودهم أن يتبسّموا لهذه الخطة التي ترسم كل حركة من حركاته سلفاً حتى حركات الأفكار والأخلاق ! ولكنهم يتبسّمون هنا لتلك العادة المزمّنة التي لا تتغير ولا تذكر الا مقرونة بأخبار النجاح ، فليس في ابتساماتهم المتوالية شيء من التهمك أو السخرية على اخفاء الفشل بالدعوى ، بل هي ابتسامات العطف التي ترتفع الى الشفاء كلما نظر الناظر فرأى أمامه وجها قديماً يطالعه من جديد ، ويرجع اليه في كل مرة على ديدنه وهجّيره .

قال فرنكلين يصف مقدمات سيرته الطويلة : « ان الذين يكتبون عن فن الشعر يعلموننا أننا لا ننظم شيئاً جديراً بأن يقرأ الا اذا رسمنا له من البداية خطة مفصلة عن مقاصده والا تورطنا في السخف والاطالة ، وأراني أعتقد أن هذه الخطة تصدق على الحياة برمتها ، خلافاً لمنزعى الأول اذ كنت لا أتبع في حياتي خطة موحدة ولا أرى الحياة على هذه الحالة الا شتيتاً من المناظر لا تربط بينها رابطة . واني الآن لمقدم على حياة جديدة . ولا بد لي من عزائم أمضى عليها ومسالك في الأعمال أتوخاها ، كي أعيش من جميع الوجوه عيشة مخلوق عاقل . فليكن لزاماً عليّ اذن أن أتحرى القصد زماً لأبرىء ذمتي من كل زيف ، وأن أروض نفسي على قول الصدق في كل موقف فلا أدع اسناناً يتوقع من كلامي أملاً لا يتحقق ، ولا أحيد عن سنة الاخلاص في كل كلمة أفوه بها أو عمل أعمله ، وهي أحب السنن في مناقب العقلاء ، وأن أفرغ نفسي

بجهد وعناية لكل شاغل أقدم عليه فلا أنصرف بذهنى عنه سعيا وراء
الأمم الخادع فى الثروة العاجلة . لأن الاجتهاد والمثابرة أضمن وسائل
الثراء ، وعلى ألا أنبس بكلمة مسيئة عن انسان من الناس ولو فى سياق
الافضاء بالحقيقة ، بل أحاول أن ألتبس المعاذير لما أسمع من أخطاء
الناس ، وأن أذكرهم بالثناء فى كل مقام » (١) .

وعلى هذا البرنامج سار فرنكلين فى حياته الكتابية وحياته الصحفية ،
فلم يقصر عن غاية كان فى وسعه أن يبلغها ، وتقدم الى الطليعة بين كتاب
عصره فى وطنه وغير وطنه ، ونظم من حياته قصيدة لا اختلال فى أوزانها
على النحو الذى رواه عن فن الشعر فى رأى معلميه . ولا ريب أن هذه
القصيدة الحية ، بل هذه الملحمة الوافية ، أبدع قصائده من منظوماته
وأناشيده ، فلم ينظم من الشعر ما أبقاء أو تركه للبقاء ، ولم يطاوع
هواه مع عروس الشعر الا ليستعين بها على حفظ كلمات المنثور أو توقيع
الأناشيد فى مجلس من مجالس الجبور .. فلم تبق له غير قصيدة واحدة
ذات قواف متعددة ، هى الحياة على هذا الوزن الرتيب ، ومن قوافيها
المتعددة قافية الكاتب الأديب .

السياسى

يعمل فى السياسة اليوم أناس كثيرون كلهم له وظيفة سياسية ، وكلهم له عمل غير أعمال الآخرين ، وقد يقضى الواحد منهم حياة معمرة ولا يشتغل فى السياسة بوظيفة غير الوظيفة التى استعد لها بترتيبه وتعليمه .

فالوزير ، أو الزعيم ، الذى يقود رأى العام سياسى ، والسفير الذى ينوب عن دولته عند الدول الأخرى سياسى ، والحاكم الذى يدير الديوان أو يحكم الاقليم يعد من ساسة البلد ، والعالم الباحث الذى يدرس النظريات الاجتماعية ومبادئ الحكم عالم سياسى أو خبير مختص بعلم السياسة .

وهذه كلها أعمال محدودة فى العصر الحاضر ، لا يختلط واحد منها بغيره وإن كانت كلها تنتظم تحت عنوان السياسة .

ولكنها لم تكن محدودة فى عصر فرنكلين ، ولم تكن محدودة فى وطنه بصفة خاصة أبان حركة الاستقلال ، لأن الشعب الأمريكى فى ذلك العصر كان يتطلع الى زعمائه البارزين فى كل مشكلة ويتطلب منهم العمل والهداية فى كل موقف ، وكان يواجه المسائل والخطوب جملة واحدة بكل ما عنده من قوة وقدرة ، فهو يندب الرجل الذى يراه أمامه للمشكلة التى يراها أمامه ، وينتظر من الفقيه أن ينفعه فى تدبير شئون القتال ، ومن المقاتل أن ينفعه فى تدبير شئون الحكم ، ومن التاجر أن يعمل عمل السياسى ، ومن السياسى أن يعمل عمل التاجر ، ولا يملك الوقت ولا التنويع أو التقسيم الذى يتيح له أن ينتظر لكل عمل صاحبه ولكل

رجل رسالته ، فكل مشكلة لساعتها وللرجل الذى يلفت الأبصار ويقرّع
الأسماع فى تلك الساعة ، وهذه هى المحنة التى امتحنت كل معدن من
معادن الرجال البارزين فأخرجت فى معصرة الشدة خير ما فيه .

وأخرجت مع هذا فئة صالحة من الزعماء لا تفوقهم فئة من قبيلها
فى عهد من عهودها التالية ، بعد النهضة والتقدم والاتساع والارتفاع .
وكان فرنكلين واحدا من هؤلاء الزعماء المدخرين للشدائد فى
أوقاتها ، وللسياسة بجميع مقاصدها : سياسة الزعيم وسياسة السفير
وسياسة الحاكم وسياسة الباحث فى كل سياسة .

ونجح حيث طلبوا منه النجاح ، ولم يخيب الظنون فى رجاء يناط
به أو ناظته به حوادث الأيام .

فى عصرنا هذا قد تترجم السياسى ولتتمس أسباب نجاحه فى أوائل
نشأته ومبادئ تربيته وتعليمه .

وفى عصر فرنكلين نفسه ربما جاز التماس الأسباب — أسباب
النجاح — فى النشأة والتربية والتعليم . .

ولكننا لا نستغنى فى عمل من أعمال فرنكلين — خاصة — عن
الرجوع به الى الفطرة الموروثة قبل غيرها ، فلم تكن فى عصره علوم
مقررة وبرامج محفوظة لتخريج الساسة الناجحين فى كل ضرب من
ضروب السياسة ، ولو كانت هناك تلك العلوم والبرامج لما قُيّرت لنا
شيئا من نجاحه فى سياسته ، لأنه — كما قيل — لم يوجد أحد قط
كانت فائدته من المدرسة أقل من فائدة فرنكلين .

ولابد أن ننظر فى تكوينه الفطرى ، وفيما هو من قبيل هذا
التكوين ، لتفسير كل قدرة له لم يستفدها من المراتة والتعليم .

ولا يستطيع مترجم له أن ينسى فى هذا الصدد قوة البنية التى ورثها
من أبويه ، فان قوة البنية أصدق أعوان السياسى فى كل عمل من أعماله

يتطلب الهدوء واعتدال المزاج ، وكل عمل من أعمال السياسى يتطلب النفس الهادئة والمزاج المعتدل .

وحب النظام خصلة يتعلمها الانسان فى المدرسة وفى تجارب الحياة ، كما يتلقاها استعدادا بالوراثة مع البنية الطبيعية ، ومهما يكن من فضل التعليم والتجربة فى هذه الخصلة فلا شك فى اختلاف الاستعداد لها بالطبيعة الموروثة ، فقد يغنى قليل من التعليم والتجربة مع الاستعداد الطبيعى حيث يضيع التعليم الكثير والتجربة الطويلة عبثا مع فقدان ذلك الاستعداد .

ولقد كانت قوة البنية عوننا لفرنكلين على التنظيم وكابحا لدوافع الخلل والاندفاع والتقلقل بين رأى ورأى وبين نظام ونظام ، وقال عارفوه — بعد الأربعين على الخصوص — انهم لم يروه قط فى ربكة أو عجلة .. وهذه أيضا عدة من عدد النجاح فى السياسة لا يستغنى عنها ، ولا يقدر عليها أحد كما يقدر عليها الرجل المكين البنية المستقر على نظام لأعماله وأوقاته يمنع الخلط بينها والارتباك فى البدء بها والانتهاء منها ، ويمنع الربكة والعجلة تبعاً لذلك ، فلا يفقد طمأنينته ولا يفقد العاملون معه طمأنينتهم اليه .

ويلحق بالاستعداد القبرى أنه كان عاشر أبناء أبيه ، فلم ينشأ نشأة الطفل المدلل ولا نشأة الطفل الوحيد الذى يقضى أيام الطفولة بعيدا من أمثاله غريبا عن شعور الزمالة والعشرة الطبيعية . وفتح عينيه على الدنيا وهو يصاحب أطفالا أكبر منه وأصغر منه بين اخوة وأخوات من الجنسين . فلم يصعب عليه بعد ذلك أن يسلك مع الناس ، وعرف الكبار والصغار فى أخص حالاتهم وأعمها معرفة البداهة السهلة والفهم الصحيح . وكان له من كل أخ وكل أخت نموذج مختلف ينوع أمامه طبائع النفوس فلا تخفى عليه حقائق النفس البشرية على تعدد الأمزجة والطباع .

ولسنا نرى أن المقدرة السياسية كان لها الفضل كله في نجاحه حيث نجح في « وظائفه » السياسية التي لم تنحصر في مجال واحد من مجالات السياسة ، فمن قيادة الرأي العام الى المفاوضة الى الادارة والتنظيم الى مباحث الحكم وفلسفة الاجتماع — كل أولئك كان له فيه أعوان من ظروف الزمن وظروف النهضة الفكرية وظروف المجتمع الأمريكى نفسه في ابان تكوينه قبل الخلاف مع الدولة البريطانية وبعد الاستقلال عنها الى يوم وفاته .

فالنزاع بين بريطانيا العظمى وفرنسا كان له شأنه في ضم فرنسا الى جانب الثورة الأمريكية وتحريضها على الانتقام من بريطانيا العظمى لسعيها الحثيث في طردها — أى طرد فرنسا — من أمريكا الشمالية نفسها ، وقد كانت رغبة فرنسا في طرد الدولة البريطانية من تلك البقاع لا تقل عن رغبة الأمريكيين الساخطين على حكومة لندن وحكومة المستعمرات .

وهذه معاونة من الظروف لا تهمل في تقدير مساعيه وتقدير أسباب نجاحه ، ولكنها اذا وضعت في الميزان وجب أن توضع أمامها عوامل أخرى في السياسة الأوروبية كانت تميل بفرنسا الى الحذر والإنابة في تشجيع الثوار الأمريكيين ، بل كان من هذه العوامل التي تدعو الى الحذر والإنابة أمور ترجع الى فرنسا داخل حدودها ولا تمتد الى ما وراء الحدود في القارة الأوروبية أو القارة الأمريكية ، وتلك هى مخاوف القصر والنبلاء من بؤادر الثورة الفرنسية التي كانت تهددهم بالذير بعد النذير حتى قضت على لويس السادس عشر — ملك فرنسا — الذى استقبل في بلاطه فرنكلين .

ومن الظروف التي أعانت على النجاح مالا يحسب لفرنكلين في ميزان القدرة السياسية ولكنه يحسب له راجحا مرجحا في غير ذلك الميزان ، وشهرته العلمية ظرف من أكبر هذه الظروف ، وسجاياه

المحبوبة ظرف آخر لا يقل فى تمهيد الطرق أمامه وفتح الأبواب له عن الشهرة العلمية .

وهنا أيضا ينبغى أن نعاذل بين الكفتين ونضع شيئاً فى كل كفة منهما ولا نقصر المرجحات على كفة واحدة .

هنا أيضا ينبغى أن نعلم أن الظروف المؤاتية تصادف الساسة فى كثير من المهام الكبرى والصغرى ولا يحسنون الاستفادة منها بل لعلهم يعكسونها ويضيعون فرصتها بالغلطات التى يستغلها الخصوم ويحسبونها فى جانبهم من الظروف المؤاتية !

وقد كان خليفة فرنكلين فى تمثيل بلاده عند الدولة الفرنسية رجلاً من مشاهير الأمريكيين بلغ الى رئاسة الجمهورية وعده المؤرخون الأمريكيون والأوروبيون من آحاد الرؤساء النابيين ، وكانت له فلسفة سياسية ومبادئ ديمقراطية تدرس الآن بين أصول الحكم الدستورى والحرية الفكرية ، وحل هذا الخلف العظيم محل سيلفه العظيم فأحلى بالعبء القادح من اللحظة الأولى ، وكتب الى قومه يقول : انه يحل محله ولكنه لا يغنى غناؤه . ولم يكن جفرسون ممن يتلففون أو يمدحون على حساب الحقيقة والعدل باسم التواضع المكذوب .

والظروف المعاونة فى استنباط قواعد الفلسفة السياسية تشبه هذه الظروف وأمثالها فى مسائل المفاوضة الدبلوماسية . فقد كان أذكىاء العصر يرقبون هذه الفلسفة وهى تولد وتترعرع وتنمو مع الحوادث والمطالب الشعبية من جانب الطلاب وجانب المعارضين والمنكرين ، وكان له رأى عن التمثيل النيابى وحقوق الدولة فى تحصيل الضريبة وحقوق الحكوميين فى المحاسبة عليها وحقوق الطبقات فى المساواة أو الامتيازات الموروثة — قضية قائمة مسموعة الحجاج من طرفيها منجمة على حسب الحوادث بل على حسب الأفراد والأقاليم فى كثير من الأحوال ، وكان

صاحب الرأى الفلسفى يعمل « فلسفته » عملا وينفذها تنفيذا ولم يكن قصاراه منها أن يقرأها على الصفحات ويناقشها بالبراهين ، وكان جو الدولة البريطانية من أقصاها الى أقصاها يتماوج ببقايا الثورة الدستورية ويردد الأصداء القريية التى يسمعها الحاكمون كما يسمعها المحكومون ، وكانت فرنسا تنسم الأنفاس من هذا الجو وتنفسها فى صرخات فولتير وزملائه المتمردين المتحفزين ، ولم تسمع نظرية واحدة من نظريات الفلسفة السياسية التى شاعت فى ذلك العصر الا وهى لاحقة بحادثة تؤيدها أو سابقة لحادثة يوشك أن تتجسم للحس والعيان ، وهذه هى النظريات التى تستجيب لها طبيعة فرنكلين ويتقبلها ذهنه ويقيم عليها أفكاره وأعماله فى وقت واحد ، فليست الأفكار فيها الا أعمالا مفسرة ، وليست الأعمال فيها الا أفكارا مطبقة ، أو فى انتظار التطبيق .

ويوضع كل هذا فى كفتى الميزان حيثما وزنت قدرة فرنكلين ومعونة الظروف فى مساعيه السياسية وفى قيادة الرأى العام الى الفلسفة الاجتماعية ، ويوضع فى الميزان قبلها وبعدها تقدير واحد ينبغى ألا يشاه من يزن عملا من الأعمال أو سيرة من السير ، وربما كان هذا التقدير سؤالا يلقيه المؤرخ على نفسه ويجيبه ثم يفترض جوابه المعقول فى حساب المسئولين الآخرين : فاذا كان صاحب السيرة لم يعمل عمله بفضل قدرته وحدها دون غيرها ، فهل عملته الظروف وحدها بفضل قدرتها دون غيرها ؟ وهل كل عامل ينجح مثل هذا النجاح اذا وجد فى هذه الظروف ؟

ان كانت الظروف لا تغنى عن العامل فذلك هو الفضل الذى يوضع له فى ميزانه ، واذا كانت الظروف المؤاتية لا تنقطع عن الدنيا ولا تتجرد منها حادثة من الحوادث العظمى فهى لا تعلو ولا تهبط بكفة ميزان .

كانت قيادة الرأى العام من « وظائف » السياسة العامة التى نهض بها فرنكلين أو أنهض لها — على الأصح — لأنه لم يطلبها بأدواتها ولم

تكن لديه أدواتها في البلاد التي تنال فيها قيادة الشعب بالتأثير في الجماهير . فلم يكن خطيباً يملك عواطف السامعين ويثيرها ويلعب بها على هواه ، ولم يكن من عاداته أن يسرف في الوعود وأن يقول مالا يعمل ولا ينوى أن يعملهُ ساعة الوعد به في ساعة من ساعات الحماسة وهياج الخواطر والأفكار ، ولم تكن الحماسة من طباعه في علاقة من علاقاته بالناس خاصة أو عامة ومهتاجين أو هادئين ، وكان فصيحاً مبيناً في الإعراب عن رأيه والاقناع بحجته وشرح أفكاره التي استقر عليها والتي لا تزال بين التردد والاستقرار ، ولكن هذه الفصاحة المبينة ليست بالعدة الماضية في قيادة الجماهير من منصة الخطابة ، وليست على الأخص بالعدة الماضية في عصر النزاع واضطراب الأهواء وجماح المطالب إلى غير وجهة ثابتة يتفاهم عليها القادة والمفكرون فضلاً عن الأتباع المنقادين بغير تفكير .

فلما نهض فرنكلين بقيادة الرأي العام أنهض لها على الأصح من غير سعى لها وغير تدير مقصود للوصول إليها اللهم إلا أن نحسب نتيجة عمله غاية مقصودة يناط بها التدير .

فقد كانت ثقة الناس به من نتائج شهرته بالتقويم السنوي الذي سماه تقويم ريتشارد المسكين وكاد يحمل اسمه والاعجاب به إلى كل بيت في الولايات ، وكانت هذه الثقة في موطنه وبين عارفيه من نتائج الاطمئنان إلى حسن إدارته وأمانة يده وضميره ورباطة جأشه وقدرته على مواجهة الشدائد والأزمات بما يلائمها من الرأي الحاضر والفكر الهادئ والتصرف المريح الذي يرتضيه أطراف الخصومة بعد سكون الزوبعة وانقضاء النزاع والخلاف .

ولم يحاول قط ، ولا كان في قدرته ، أن يثير الجماهير بفصاحة الشارع وارتجال الدعوى الكاذبة التي لا تسأل عما تقول ولا يذكرها أحد بما قالت ولا يذكر أحداً ما سمع منها بعد حينه ، ولكنه كان يقدر على

ما هو أصعب وأخطر في مخاطبة الجماهير : كان يقدر على تهدئة الجماهير
الثائرة . وهي قدرة لا طاقة بها لأقدر الخطباء على إثارة الجماهير
الهادئة ، وكانت عدته النافعة في هذه المواقف رباطة جأشه وطيبته
المرتسمة على سيماه ونظرته الأبوية التي تعدى الناظرين بما يقابلها
فلا يملكون الا أن ينقادوا له طائعين كما ينقاد الأبناء للأباء .

ومن هذه المواقف .الثائرة أن بعض الأغرار على الحدود سمعوا
بمعركة بين السكان البيض والهنود الحمر فهجموا على قبيلة من القبائل
الهندية للاقتصاص منها وفر أبناء هذه القبيلة وبناتها الى فلادلفيا يحتمون
بها من مطاردة الناقمين المتعطشين الى الثأر والانتقام ، فثار بهم غوغاء
فلادلفيا وتعقبوهم في الطرقات ليفتكوا بهم وينتقموا منهم على السماع
بغير تمييز بين المعتدين والمسالين ، وطلب الحاكم من فرنكلين أن يقمع
الفتنة بفرقة من الجند الرديف ، فلم يعمل فرنكلين بالأمر وآثر التجربة
بالحسنى قبل الوثوب الى السلاح ، وذهب الى الثائرين منفردا أعزل
لا يحمل في يده شيئا حتى عصاه ، وكانت رؤيته كافية لتوقف الجمهور
الهائج في ثورة غضبه للاصغاء الى الأب فرنكلين ، وكنب هو عن هذا
الحادث الى صديق له في لندن يقول : « في خلال أربع وعشرين ساعة
كان صديقك القديم جنديا ومستشارا ودكتاتورا على نوع ما وسفيرا
الى الغوغاء . ثم عاد الى منزله لكره كما كان .. »

وبهذا الوقار على أسلوب آخر كان يؤدي أمانة القيادة بين كبار القادة
من فطاحل الزعماء ، فلما عهد اليه مع فئة من هؤلاء الزعماء أن يكتب
اعلان الاستقلال لم يرض عن كلمة جفرسون التي قال فيها عن حقوق
الأمريكيين « انها مقدسة لا تنكر » واقترح بدلا منها « انها ثابتة
بذاتها » لأن القول بأنها لا تنكر لا يطابق الدقة العلمية مع وجود من
ينكرونها ويقاثلون في سبيل انكارها ، ولأن القداسة في الحقوق العامة

قد ابتذلت بدعوى الملوك الذين يزعمون أنهم يتلقون السلطان من السماء ودعوى رجال الدين الذين يزعمون أن القداسة مستمدة منهم وقد يتسللون من وراء هذه الكلمة الى المطالبة بالرقابة على حقوق الشعب « المقدسة » ١ . فكانت قيادته للأمة لا تستغنى عن وقار تفكيره بين الدهماء ولا بين الزعماء .

والسياسى المفاوض يلى السياسى الزعيم فى القدرة والخبرة بأساليب المفاوضة فى كل ظرف من ظروفها ، وهى تلك الظروف التى تتناقض بين يوم ويوم وبين خصم وخصم وبين قضية وقضية .

فتولى المفاوضة فى بلده بين البيض والهنود الحمر وبين أبناء الولايات وأبناء كندا الفرنسية وتولى المفاوضة فى انجلترا نائبا عن بعض الولايات الأمريكية .

وتولى المفاوضة فى فرنسا ليستعين بها على مقاومة بريطانيا العظمى ويعقد معها معاهدة تعترف فيها باستقلال الولايات وتسجل لهذه الولايات كيائها « الرسمى » فى عالم السياسة الدولية .

وكانت عدة « السياسى المفاوض » لديه أكمل من عدة السياسى الزعيم أو السياسى الذى يقود الجماهير بالأقوال والوعود .

كانت المسألة طبيعة فيه ، وكان من مبادئه « العلمية » صيانة الجهود عن التبديد ، فلا يقدم على فضال يستطاع اجتنابه بوسيلة من وسائل التراضى أو حيلة من حيل المجاملة والتفاهم على أواسط الأمور ، وعنده انه « لا حرب حسنة ولا سلم سيئة » . بل السلم خير من الحرب ما دامت المسألة تغنى عن القتال .

وفافوض الهنود الحمر فنجح لأنهم يحسون منه دخيلة شعوره فى مسألة الفوارق بين الأجناس ، وقد كان يقول ان الفتك بأبناء قبيلة هندية انتقاما من أبناء قبيلة أخرى جور قبيح كانتقامنا من الهولنديين

مثلا لعدوان يصبينا من الفرنسيين واعتذارنا من ذلك بأنهم « كلهم بيض الوجوه .. » .

ولم يسمع الهنود منه هذا الرأي. ولكنهم كانوا يحسونه من شعوره ومعاملته وإيثاره للتراضى والمصافاة .

ولما ذهب للمفاوضة في انجلترا كان في رأسه كل حل وكل محاولة قبل القطيعة وعلان العداء .

كان في ذهنه أن تتعاون أجزاء الإمبراطورية على نمط « الكومنولث » الذى اهتدى إليه الساسة البريطان بعد الحرب العالمية الأولى ، وكان في ذهنه أن تختار للإمبراطورية عاصمة في الولايات تتبعها الجزر البريطانية كما تتبعها الولايات الأمريكية وغير الأمريكية ، وكان في ذهنه أن تنفض الخصومة بتقرير حقوق الهيئات النيابية في كل بلد وتقرير حقوق التاج على المساواة بين الجميع ، فلا يكون لبرلمان انجلترا حق في فرض الضرائب مع وجود البرلمانات المحلية ، ولا يشترك التابعون للتاج في هذه المساواة .

وهذا المفاوض الذى كان من طبعه أن يذهب مع المفاوضة الى الحد الأقصى لم يكن يذهب بها الى غير حد ولا نهاية ، فلما جاء العدوان في بلده من الهنود الحمر وظهر من العدوان انه استضعاف وسوء فهم لمعنى المسالمة والمداراة كان هو المقاتل المصر على القتال الى أن يتبدد هذا الفهم وتزول من نفوس المعتدين مظنة الاستضعاف . ولما فتح كل باب للمسالمة مع الساسة البريطان ويثس من كل حل وكل حيلة كان هو في طليعة الدعاة الى المقاومة بالسلاح وعلى رأس العاملين على توفير الأسلحة وتجنيد الفرق واتخاذ الحيلة في مواضع الهجوم والدفاع .

أما المفاوضة في فرنسا فقد كانت في نصف الطريق أكبر مجازفة ، وكانت في النصف الآخر أكبر نجاح .

برح الديار الأمريكية سرا في السادس والعشرين من شهر أكتوبر (١٧٧٦) مع ثلاثة من الزعماء لمفاوضة الدولة الفرنسية في عقد معاهدة مع الدولة الأمريكية المستقلة تمهد لغيرها من المعاهدات مع الدول الأخرى ، وبدأ الاعتراف بالدولة المستقلة الجديدة في المعاهدات الدولية ، وكان سفره على سفينة صغيرة لا تحتل زعازع المحيط الأطلسي في تلك الآونة ، وأخطر من زعازع المحيط الأطلسي رقابة الأسطول البريطاني على السفن التي تفارق الشواطئ الأمريكية ومن عسى أن يكون فيها من الثوار العاملين على خدمة الثورة ومناجزة الدولة الحاكمة ، ولا خفاء في الجزاء الذي ينتظر فرنكلين لو وقع في قبضة الأسطول المنتشر في عرض البحار ، فانه لا ينجو من الشنق بتهمة الخيانة العظمى قيصاصا منه وعبرة لأمثاله ، وما كان هذا الجزاء الرابض له ليخفى عليه قبل سفره ، فقد كان جون هانكوك Hancock يوقع اعلان الاستقلال ويقول والقلم في يده : « علينا يا صحاب أن نتعلق جميعا بعلاقة واحدة » وهي عبارة باللغة الانجليزية ترادف الكلمة العربية التي تعبر عن هذا المعنى « بالاعتصام » بجبل واحد .. فقال فرنكلين : نعم . والا تعلقنا بجبال كثيرة متفرقين !

سافر من بلاده في السبعين وهو يعلم هذا الخطر الذي يترصد له في الطريق ، ولكنه لم يصل الى « نانت » ليهبط بعض الشيء على أثر هذه الرحلة المقلقة في السفينة المضطربة حتى أحس طوابع النجاح بعينه ، وعلم أن الحفاوة التي سيلقاها من الأمة الفرنسية تفوق كل ما خطر على باله وبأل أصحابه ، واقتضى اليوم السابق لدخوله باريس دخول الفاتحين في التساؤل عن الموعد وعن الطريق والتسابق الى أقرب الأمكنة لرؤية السفير المنتظر ، فلم يبق رجل ولا امرأة من المشتغلين بالسياسة والمطلعين على أخبار الثورة الأمريكية الا خف الى طريق من الطرق التي قيل انه

سيعبرها الى مقره أو الى البلاط ، وأقبل « الدكتور » فى قبعته الفرو المعهودة والكساء الساذج يحيى المستقبلين على جانبى الطريق بإبتسامته الطيبة ونظراته الوديمة فى غير اكثار من الایماء والحركة ، وغزا المجتمع الباريسى من اللحظة الأولى ولا سيما مجتمع البلية وذوى الثقافة من أقطاب الآداب والفنون، وكان العصر عصر التنافس بالأندية أو الصالونات فكانت السعيدة من عقيلات النبلاء من تنظر بزيارة من « الدكتور » ومن تضمن دعوة الضيوف الكبار لمحدثته عندها حين تشاء ، وساعدته الشهرة السابقة والقدرة السهلة على كسب الأنصار والأصدقاء من ذوى الجاه والمنزلة العالية بين قادة الآراء ، وعلم أن هذا النجاح الأدبى غنية لا يستهان بها كائنا ما كان موقف البلاد والدواوين الرسمية ، ولكنه كان يعلم من باطن هذا الموقف أنه يناصره ويتمنى له التوفيق وانه — مع التحفظ الشديد فى الظاهر — يملئ له ويعينه فى الباطن ويستتمله فترة من الزمن ريثما تسنح الفرصة التى يرتقبها الساسة المسؤولون ، فيعلنون الاعتراف بالدولة الجديدة آمنين عاقبة العداء الصريح للدولة البريطانية ، فان هذه الدولة نفسها ستعترف لا محالة بالحكومة الثورية متى يئست من قهرها واکراهها على الخضوع .

ولم يأت هذا الأمل المرتقب بغير عناء وبغير شك وبغير تردد مخيف بين الأمل الضعيف فى النصر والخوف القوى من الهزيمة . الا أن السفير المتفائل لم ينقطع قط عن الرجاء وعن بث الرجاء فى قلوب المتشائمين ، ولم يتخذ له الجواب السريع فى حالة من حالات الشك والحيرة أو حالة من حالات الهزيمة الظاهرة التى تلجم الألسنة وتبلبل الأذهان . فلما قيل له يوما : ما الخبر يا دكتور ! ان هاو Howe قد أخذ فلادلفيا .. لم يلبث أن أجاب على الأثر : عفوا يا سيدى . ان فلادلفيا هى التى أخذت هاو .. ثم وصل الخبر المرتقب بعد عام وانهزم الجنرال برجوين فى ساراتوجا

تلك الهزيمة المنكرة التي تقرر بعدها مكان الدولة الحديثة ، وكان وصول الخبر الى باريس في الرابع من شهر ديسمبر ودعوة الوزير فرجين Vergenne وزير الخارجية الفرنسية لسفير الثورة الناجحة بعد يوم واحد من وصول الخبر ، وطلب الوزير في هذه المرة فتح باب الكلام في المعاهدة فأرسل فرنكلين نصوصها اليه بعد يوم ، ولم يأت شهر فبراير حتى كانت المفاوضة كلها مفروغا منها وكانت المعاهدة معدة للتوقيع ، فسميت معاهدة التجارة والتحالف ، واشتملت على الاعتراف باستقلال الولايات وعلى التعهد بالاتفاق على مقاتلة بريطانيا العظمى والاستمرار في القتال الى أن يتفاهم الفريقان على قبول الصلح ، ولا يعقد أحدهما صلحا مع بريطانيا على انفراد .

وأقام فرنكلين أيامه بفرنسا خلال الحرب محفوا بالأصدقاء والمعجبين من صفوة السادة والسيدات ، وكان قصر « باسى » الذى أقام فيه قبله القصاد من الأدباء والساسة المقيمين بالعاصمة الفرنسية والوافدين اليها من الأقاليم أو الأقطار الأوروبية ، وأقل من هذه الحفاوة الشاملة يثير حسد الحساد ويوغر صدور النظراء والأئداد ، ولكنه نجح هنا نجاحه الذى لم يسعد به قط عظيم نجاح مشهور ، فكان نصيبه من حسد الحساد أقل نصيب ، وكانت سقطاته التى عدوها عليه أهون السقطات .

من هذه السقطات أنه لم يحترس كما ينبغى أن يحترس من الجواسيس والعيون ، وأفرط هنا في سجية السماحة وكرامية التضيق وأخذ الأمور كلها على هينة وميل الى المغفرة والاعتذار ، وتفلسف بهذا التهاون كأنه يقصده ولا يقع فيه على غير علم واتبناه . فكتب الى صديقه جوليانا ريتشى يقول : أترانى لو تحققت من تجسس خادمى أستغنى عنه لهذا السبب اذا كنت راضيا عن خدماته الأخرى ؟ ولا جرم

تتسرب الجاسوسية اليه من هذه الثغرة ويثبت بعد ذلك أن مساعده المقيم معه في الدار — ادوارد بنكروفت — كان في خدمة الحكومة البريطانية لنقل أخباره ومراسلاته ولو لم تكن على صلة بالسياسة والمفاوضات الحكومية ، ويشاء الحظ الحسن لهذا الرجل المجهود أن تكون معاذيره على الدوام راجحة على سيئاته في أظهر السقطات . فكم له من معذرة ظاهرة في هذه السقطة التي لا مراء فيها ؟ .. لقد كان من معاذيره أن الجاسوسية لم تضره ولم تضر دولته في كثير ولا قليل ، وكان من معاذيره أنه يريد أن يعرف العالم أجمع أن قضيته بينة جلية كالشمس في رائعة النهار فلا حاجة بها الى تقية أو مداراة ، وكان من معاذيره أنه عامل نفسه كما عامل دولته في هذه السماحة التي جاوزت حدودها بغير مراء ، لأنه لم يكن يأمن على حياته ولم يكن ثمة خطر على مصالح دولته أعظم من الخطر الكبير الذي كان يترصد به حيث أقام وحيث سار أيام تلك السفارة ، ومن الحظ الحسن ولا ريب أن تحسب للانسان المعاذير كلما حسبت عليه أمثال تلك السقطات .

ويستوفى هذا السياسى الزعيم والسياسى المفاوض وظائف السياسة العامة بأرائه في شئون الحكم وقضايا الاجتماع ، وهى آراء لا تحيط بالمسائل والقضايا احاطة المذهب الجامع للقواعد والفصول ، ولكنها تعرض علينا حلا عمليا لكل مشكلة أو فكرة تجريبية عن كل واقعة ، ويؤلف منها الباحث مذهباً مجملاً اذا أراد أن يعرضها معرض الترتيب والتبويب .

ولا حاجة الى القول بغلبة الفكرة الديمقراطية على كل رأى من آرائه في الحكم وفلسفة الاجتماع والسياسة ، فربما كانت الديمقراطية شعوراً عنده قبل أن تكون تفكيراً ودراسة ، وقد كان أخوه — صاحب الصحيفة التى نشر فيها كتابته الأولى — ثائراً متطرفاً وأوشك أن

يعاقب بالسجن الطويل على حملاته العنيفة ، وكانت السخرية بالألقاب من أوائل الآراء التى نشرها الصبى فرنكلين باسمه المستعار بين الخامسة عشرة والعشرين ، وكان من سخرياته فى مسألة الألقاب أن يتخيل أسماء التوراة مضحوبة بألقاب النبلاء كاللورد آدم ، واللادى حواء ، والبارون أرميا ، والكونت حزقيال ، وكان يقول بعد نضجه وتقدمه فى تجارب الحياة ان الحسب الموروث لا يورث الخير ولا الانصاف ، وقد كره ازدواج المجالس التشريعية لأن المجلس الأعلى فى رأيه انما يختار لتغليب سلطان الأغنياء على المجتمع ، وهو لا يكره الثورة ولا يعارض حقوق الملكية ولكنه يكره سيادة الطبقة الغنية على سائر الطبقات ، ويؤمن كل الايمان بوجوب حرية التجارة واطلاق القيود للمعاملات لأنها لازمة للحضارة الانسانية لزوم حرية الفكر أو هى ألزم لها فى جملة أحوالها ، ولكنه على هذا الايمان القوى بحرية المعاملة كان يرى من حق المجتمع أن يشرف على تنظيم الملكية واقتناء الثروة لأنها كلها من صنع يديه ، فليس فى طاقة الفرد اذا انفرد بنفسه أن يحرز ملكا مصونا يزيد على ضرورات المعيشة الموقوتة ، فاذا أحرز شيئا يزيد على ذلك فانما يحزره بفضل المجتمع وضماناته الطبيعية أو الموضوعية ، فلا يحق له أن ينكر على المجتمع سلطان الاشراف على التنظيم والتشريع فى هذه الأمور ، وانما يشترط لذلك أن يكون كل حامل عبء من الأعباء الاجتماعية شريكا مسموع الرأى فى شرائع التنظيم .

وليس انكاره لسيادة العلية الغنية انكارا لرياسة العلية التى ترفعها الى مكان الزعامة فضائل العقل والأخلاق ، بل هو يذهب فى الاصلاح الاجتماعى مذهب كنفشيوس الذى يقول باصلاح الرؤساء وهم قدوة طبيعية للأتباع والمرءوسين ، وقدوتهم هذه هى التى تخلق العرف وتروض السواد على اتباعه وتجعلهم على حسب المعهود من عاداتهم

يحذرون الخروج على العرف أشد من حذرهم دخول الجحيم حيث يلقون العقاب على الخطايا والذنوب .

وتكاد عقيدة المساواة الديمقراطية تكون عنده انسانية عامة لا يخصصها بوطن ولا قوم ولا قبيل ، فلما لاحظ أن العبيد المحررين ظلوا في حياة الحرية فقراء يحترفون الحرف الوضيعة عقب على ذلك قائلاً انه لا يعتقد أن العيب أصيل في الطبيعة أو دائم لا يتغير بتغير الأحوال ، وانما يرجح انه من نقص التعليم والمرانة ، وأن الزنجى ذو ملكات حسنة واستعداد كامن للفنون ، ولذلك يحذق الموسيقى ويرع فيها ، ولو تعلم فنا غيرها لما قصر فيه .

ومن رأيه — بل من آرائه الكثيرة — أن الرق مفسدة للمجتمع الذى يشيع فيه ، لأنه يركن بالسادة الى الكسل ويغرى الأطفال بالكبرياء والتجبر فى الأسر التى تملك الرقيق ، وقد أوصى بالاعتماد على العمل المأجور وتنبتاً بشيوع ارتفاع الأجور فى العالم تبعاً لارتفاعها فى الولايات الأمريكية بعد الغاء الرقيق .

وكان من رأيه أن العمل هو معيار الثروة ، فليس الذهب والفضة معياراً ثابتاً لها لأنهما سلعة تتقلب بها الأسعار كما تتقلب بسائر السلع ، وانما تقاس ثروة الأمة بمقياس الأعمال التى تحصل عليها ، وليست هذه الأعمال وقفاً على الصناعات البدنية وما إليها ، بل هى تشمل أعمال الحضارة بأجمعها ، وكلما اقتدر المجتمع على توفير تلك الأعمال كانت قدرته هذه مقياساً لغناه .

ولهذا كان يشجع اصدار عملة الورق ويقول انها رمز للعمل وان الأغنياء يعارضونها لأنهم يملكون الذهب والفضة ويحبون أن يقيسوا الثروة بمقياس ما يملكون .

ولا يعادى فرنكلين صناعات الترف لأنها على اعتقاده حافز للهمم

وسبيل الى دوران الثروة بين العاملين والمترفين ، ورب شلن يخرج من يد أحق يذهب الى يد عاقل أحق منه باقتنائه ، فيستفاد منه في الحالتين ، وأفضل من الصناعة في قياس الفائدة على العمل أن تقوم الثروة في أساسها على المحصولات الزراعية والعمال الزراعيين .

وكان ايمانه بحق الحكم يقوم على قاعدة واحدة وهى التى نسميها اليوم قاعدة تقرير المصير . فاذا نفرت الأمة من حكومة وطالبت بحكومة غيرها فلا حاجة لها الى سند غير هذا الطلب ، ومن ثم سخرته بدعوى الدولة البريطانية أنها صاحبة الحق الذى لا ينازع فى حكم الولايات المتحدة ، لأن الأكثرين من أبنائها رعايا بريطانيون ينتقلون الى تلك الولايات ، ولأن الدولة البريطانية تولت حماية الولايات من عدوان فرنسا المجاورة لها ، فكتب رسالته الساخرة بلسان ملك بروسيا وجعل ذلك الملك يدعى مثل ذلك الحق على الجزر البريطانية لأن سكانها رعايا جرمانيون انتقلوا اليها وحكمهم فيها أمراء من الجرمان ، وتولت بروسيا حمايتهم بقمع فرنسا ومحاربتها الحين بعد الحين !

وقد كانت مبادئه الدستورية والقانونية تتسم بسمة يستطيع القارىء أن يقدرها بغير اطلاع عليها لأنها سمة الاعتدال والسماحة واجتناب الشطط فى الأحكام والقاء الفروض والتكاليف على عواتق الناس ، فكان ينكر العقوبة التى تجاوز قدر الجريمة فى الضرر أو قدرها فى الضلالة وسوء الخليفة ، وكان يؤثر فى الدستور قلة القيود والموازانات ، ولكنه لم يعلن مخالفته للمبادئ التى عارضها لأنه وازن بين دستور يصدر بالاجماع ودستور يؤيده فريق ويخالفه فريق ولو فى سبيل التصحيح والتنقيح ، فرجع عنده أن الاجماع على الدستور أجدى وأثبت لدعائه من اعلان المخالفة له فى خطواته الأولى على الخصوص .

وإذا كان هذا رأيه فى حسم الخلاف على رأى فحسم الخلاف الذى

يريق الدماء أحق منه بالجهد والحيلة ، لأنه كان يسمى الحرب لصوصية وغيلة ، وهكذا كان برنامج الداخلى فى سياسة الولايات ، وعلى هذا البرنامج استقامت أعماله فى كل سياسة داخلية أو خارجية ترتبط بالأمم الأخرى ، ومن عجائب دقته فى تقدير الأمور بأحوالها وأزمائها انه تنبأ عن عصبة الأمم وأن العالم ربما شهد بعد مائة وخمسين أو مائتى سنة هيئة يجتمع فيها المندوبون عن دول أوربة جميعا لفض المشكلات وتوطيد السلام ، وكان باينز Baynes ، وروملى Romilly فى شبابهما قد زاراه سنة ١٧٨٣ وتحدثوا فى مساوىء الحروب العالمية فقال فرنكلين انه يظن أن اقناع الملوك بارسال مندوبيهم الى مكان واحد لا يزال عسيرا ، وانهم مع الصبر قد يتفق بعضهم على منع العدوان ويرى الآخرون تقع هذا الاتفاق فينضون الى الهيئة شيئا فشيئا ولا يبعد أن تضمهم الهيئة الواحدة أجمعين بعد مائة وخمسين سنة أو مائتين (١) .

وله غير هذه الآراء فى مذاهب السياسة والاجتماع خطرات متفرقة بين الرسائل والأحاديث . أما أكثرها فقد ورد مشروحا أو مقتضبا فى رسالته عن العملة الورقية ورسالته عن زيادة السكان وتعمير البلاد :

Observations Concerning the Increase of Mankind and the Peopling of Countries.

ومسحتها الغالبة عليها هذه النظرية العملية التى تتقبل التطبيق والتنفيذ فى حينها أو بعد حين ، اللهم الا خاطرة واحدة أوشتكت أن تسلكه فى عداد الطوبيين الأفلاطونيين ، وتلك هى استغناؤه عن الأحزاب السياسية بتأليف حزب واحد من الشباب العزاب يسميهم حزب الفضيلة ويدربهم على نظام خاص يشبه نظام الماسونيين واليسوعيين ، ويرجو منهم لخير المجتمع ما لا يرجى من سائر الأحزاب .

(١) الجزء الأول من كتاب علماء أمريكا المشاهير لمؤلفه كروثر

والأداة التامة فى الوظائف السياسية انما هى أدواته فى أعمال التنفيذ والتطبيق ، وهى التى تعرف الآن باسم الوظائف الديوانية ويفرق المعاصرون بينها وبين السياسة فيسمونها بالادارة Statesmanship أو بولاية الحكم Administration ولا يعتبرونها من وظائف السياسة فى الصميم فهى على الأقل شئ غير الدبلوماسية ، وغير البوليטיقا ، وغير عمل السفير وعمل الوزير وعمل الزعيم المطالب بقيادة الجماهير .

وحيثما كان هنالك تدبير للتنفيذ العملى فصاحبنا فى عنصره على تعبير الغربيين ، أو فى مجاله ومعدنه كما نقول نحن الشرقيين .

وليكن ذلك التدبير من صناعته أو غير صناعته ، ومن مآلفاته قبل ذلك أو غير مآلفاته ، فما دام فى وسعه أن يعرف ما هو العمل المطلوب ففى وسعه أن يعرف ما هى وسائل التنفيذ وأن يدبر هذه الوسائل أصح تدبير .

والادارة خطة وتنفيذ ، وليس أطبع من ذهنه على وضع الخطط وترتيب الأعمال ، ثم على تنفيذها بالأدوات اللازمة لها بغير اسراف وبغير اهمال .

وأكثر ما يصاب المديرون بالفشل من عجزهم عن الانتفاع بأدوات التنفيذ حين تكون هذه الأدوات من الآدميين !

فليس أكثر من المديرين الذين يستخدمون الوسائل الآلية ويحاولون أن يعاملوا المشتغلين معهم من الآدميين معاملة الآلات .

ولكن فرنكلين كان يحفظ هذه الأدوات الحية جيدا ويعرف كيف يسلك معها وكيف يسلك بها فى طريقه ، ولهذا كان يفلح فى كل ادارة تحتاج الى التنفيذ بالأدوات الآدمية ، ولو لم تكن من صناعته ولا من سوابق عمله كادارة معارك القتال .

أراد الجنرال برادوك Braddock قبل كارثته الحربية فى موننجيلا

Monogahela أن ينقل معداته في مائة وخمسين مركبة وظن أن المسألة كلها مسألة أمر للفلاحين وسوق للمركبات بالخيول ، وعنده الأمر وعنده من يسوق . فلم يحصل بعد الجهد الجهد على أكثر من خمس وعشرين مركبة ، وفزع الى فرنكلين فحصل له على المركبات المطلوبة كلها بخيولها قبل انقضاء أسبوعين .

وتحدث الجنرال وفرنكلين في « الخطة » الحربية فحذره فرنكلين من مفاجآت الكمائن ونبهه الى قلة جدوى الخطط النظامية في اتقاء هذه المفاجآت مع امتداد خط القتال ، فسخر منه الجنرال وقال له ان هذا الحذر ضروري للكتائب التي تقودونها من الجنود المرابطة « ولكن هؤلاء الهمج لا خير منهم على جنود الملك المنظمين » .

ووقعت الكارثة فبادت الفرق التي كان يقودها وقتل ثلاثة وستون ضابطاً من تسعة وثمانين ، وأدرك فرنكلين الخطر الداهم فجند من السكان نحو ستمائة للدفاع عن الحدود واقامة المتاريس وأصاب في القيادة حيث أخطأ القائد المغرور ، ولم يفعل عن عمل لازم في أشد أيام الشتاء وقد ناهز الخمسين ، وكان الجنود والسكان يسمونه الجنرال فرنكلين ، ثم أبى جنوده بعد عودته الى فلادلفيا أن يفارقوه حتى يؤدوا له التحية عند منزله ، وصحبوه ، كما قال في ترجمته ، الى الباب ثم أعلنوا تحيتهم بالطلقات النارية في الهواء . فهزت الدار وحطمت أجهزة الكهرباء وهي من زجاج !

واذا كان مقام الكلام عن الخبرة باستخدام الأدوات حين تكون هذه الأدوات من الآدميين — فليس ما ينسى في هذه الحملة نفسها مشورته على الواعظ الذي شكاه اليه اعراض الجنود عن حضور الصلاة والاجتماع للدعاء ، وكان من جراية الجنود أقذاح من شراب الروم للتدفئة في الشتاء القارس ، فلما سمع شكوى الواعظ المكروب وأشفق

عليه من خوفه للهزيمة بعد هذا الاعراض — تبسم مطمئنا للواعظ الخائف وقال له : لا عليك من اعراضهم . خذ على عاتقك توزيع جراية الشراب ولا توزعها الا بعد أداء الصلاة . فلم يتخلف بعدها جندي واحد عن موعد الصلاة !

وهذه الخبرة بالادارة في الشؤون التي لم يتدرب عليها تغنى عن الافاضة في دقائق التنظيمات التي كان يتدعها باجتهاده كلما أدار عملا من الأعمال التي يتصدى لها أمثاله ولا تستغرب من مدير مطبعة أو مدير صحيفة . لأنها جميعا أعمال من نمط واحد ، ومنها تنظيم البريد وتنظيم الاضاءة في المدينة وتنظيم فرق المطافئ وتنظيم مكاتب الهيئات النيابية والهيئات العلمية التي أسهم في أعمالها ، فكل أداة لازمة لهذه التنظيمات فهي على متناول اليد من تفكيره وسجاياه : فهم صحيح ، وتقسيم متقن ، وتنفيذ مرتب ، وخبرة باستخدام الأدوات الحية والأدوات الصناعية على السواء .

« سياسى بالطبع » اذا صح هذا التعبير . والسياسى بالطبع يصنع السياسة على يديه ويصنع لكل ساعة سياستها التي تملئها الحوادث عليه .

ولا يختم الكلام عن فرنكلين السياسى قبل أن يقال ان بلاده قد أصبحت أمة متحدة بفكرة جريئة واسعة هي فكرة الاتحاد ، وقد كان فرنكلين صاحب الدعوة الأولى الى هذا الاتحاد .

الفيلسوف

كان دافيد هيوم يسمى فرنكلين الفيلسوف الأول ، ويشفع ذلك أحيانا بقوله عنه انه أول فيلسوف وجه أنظار القارة الأوربية الى عالم الفكر فى الديار الأمريكية .

وكانت الأندية الأدبية فى باريس تسميه الفيلسوف أو الدكتور ولا تردفه بالاسم فيفهم السامع أنهم يعنون فرنكلين . وكانت كلمة « الفيلسوف » كالاسم الغالب عليه بعد عودته الى بلاده فى أخريات أيامه .

ولم يكن ملقبوه بهذا اللقب مخطئين من وجهة العرف ولا من الوجهة العلمية فى عصره . فقد كان فرنكلين فيلسوفا بكل معانى الكلمة الا هذا المعنى الحديث الذى غلب على الفلسفة بعد عصره وبعد شيوع التفرقة بين المعارف الانسانية ثم شيوع التخصص فى كل معرفة منها . ولريد به الفلسفة التى غلبت على بحوث « ما بعد الطبيعة » وقضايا المنطق النظرى وكادت تنحصر فيها . فهذا هو مجال الفلسفة الذى لم يكن فيه فرنكلين من زمرة الفلاسفة ، ولم يرد أن يكون منها ، ولا نضاله كان مستطيعا أن يكونه لو أراد . لأنه مجال لا تألفه طبيعته ولا يألفه تفكيره ولا يرجى منه أن يأتى فيه بما يفيد .

كان فرنكلين فيلسوفا بمعنى الكلمة القديم ، وهو محبة الحكمة ورياضة النفس على اتباعها فى أحوال الحياة اليومية ، ولعله عرف هذه الفلسفة عملا قبل أن يعرفها علما واطلاعا . لأنه نشأ فى بيئة المتطهرين وعرف بالقدوة والبداهة أن الأخلاق المثلى نظام من نظم الحياة الدنيوية .

وكان فرنكلين فيلسوفا بمعنى يوافق معنى الكلمة الحديث ، وهو استخراج العلل والنظريات الفكرية لكل مبحث من مباحث العلم والاختراع التي اشتغل بها منذ شبابه ، فكان يقدر الرأي والعلة ثم يبنى عليهما الاختراع ، أو كان يخترع ما يخترع ثم يعمم الرأي والعلة على التشابهات من الظواهر الطبيعية ، ولولا هذه الفلسفة العلمية لما جمع بين البرق والشرارة الزجاجية في نظرية واحدة .

وكان فيلسوفا بمعنى الكلمة الذي شاع في كل زمن وجعل الفلسفة ضربا من التصوف العقلي يوحى الى صاحبه التشف والزهدي في المظاهر الفارغة التي يفتن بها المتكالبون على الحياة ، ولم يكن فرنكلين متقشفا أو زاهدا في دنياه ، ولكنه كان يطلب الشيء لعنايه لا لمظهره ، ولأنه هو يتغنيه لا لأن الناس يتغونه بالمحاكاة والتقليد .

أما الفلسفة التي تستغرق صاحبها فيما وراء الطبيعة وفي الجدل حول مباحثها فلم تكن من فلسفات فرنكلين ، لأنه كان ينفر من النظريات التي لا يحسها ولا يدركها ، وكان ينفر من الجدل كما قال في مفكراته ، وإن كانت مطالعته لسقراط قد أكسبته قدرة عظيمة في فنون الحوار ، وكادت تنحرف به الى شقاشق الجدل في بواكير حياته الفكرية .

وقد اطلع فرنكلين على كتب الفلسفة التي وصلت الى يديه في بوستون وفلادلفيا ، وقرأ منها كتاب كولنز Collins محاضرة في التفكير الحر Discourse of Free thinking وكتاب شافتسبري Shaftsbury بحث في الفضيلة أو الجدارة Inquiry Concerning Virtue or Merit وكتاب درهام Derham في اللاهوت الطبيعي Physico-Theology^(١) وغيرها من الكتب التي من قبيلها ، واطلع على أطراف من مذاهب الفلسفة الاغريقية ولا سيما مذهب أفلاطون ومذهب فيثاغوراس ، واطلع على

كتب الجدل الدينى التى وجدها عند أبيه فخلص منها جميعا الى عقيدة
عقيدة أبى العلاء فى التفرقة بين الظن والعقل اذ يقول :
كذب الظن لا امام سوى العقول . كل مقيما فى صبحه والمساء
وارتأى أن قبول العقل للعقيدة هو السند الوحيد الذى يكسبها
حق الايمان بها ، وأنه لا حق للاعتقاد حيث يكون العقل بلا عمل وبغير
مشاركة فيه .

ودان زمتنا بمذهب النباتيين ، ثم مال من مذهب النباتيين الى بقية
مذهبهم فى وصايا فيثاغوراس المعروفة ، ومنها تناسخ الأرواح وتسلسل
الأدوار . وراقه أن يشبه الأدوار المتلاحقة بعمل من أعمال الطباعة
التى كان يراؤها ، فقال ان الانسان طبقات متعددة تظهر تباعا فى كل
جيل من الأجيال الأبدية بعد التصحيح والتنقيح (١) وأنه يرجو أن تظهر
منه طبعة مصححة منقحة بعد موته ، ويود أن يذكر ما كان حيث يكون
فى مستقبل الأجيال !

وابتدا فى الثانية والعشرين من عمره بعقيدة فى الدين لم تزل تترقى
معه الى أن جاوز الثمانين ، ولخص هذه العقيدة فى رسالة من جزئين
سميها أصول العقيدة وشعائر الديانة Articles of Belief and Acts of Religion
لم يوجد منها غير جزء واحد هو الذى تترجم منه ما يلى نقلا عن كتاب
أقطاب الأدب الأمريكى الذى سبقت الإشارة اليه ، وهذا بعض
ما جاء فيها :

« والى لأرتفع بخيالى وراء نظم السيارات ، ووراء الشمسوس
الثوابت ، وأصبح فى هذا الفضاء الذى لا نهاية له وهذه الشمسوس التى
يدور حول كل منها أسراب من السيارات كسيارتنا الأرضية الى غير

(١) كتاب مشاهير رجال العلم فى أمريكا تأليف كروثر

Famous American Men of Science

نهاية ، فتلوح لى هذه الكرة الصغيرة التى نعيش عليها كأنها العدم حتى فى خيالى الكليل ، وأرى نفسى الى جانبها أقل من العدم فأحس أننى شىء ضئيل لا شأن له ولا خطر ، وأحس كذلك أنه لمن الغرور البالغ أن أتوهم أن ذلك الخالق الكامل يحفل بهذا (اللاشئ) الذى يسمى الانسان ، وانه تحقق له من الانسان العبادة ، ولكنه هو جل وعلا فوق ذلك بما لا تحصره العقول .

غير أن الناس جميعا ينظرون على شعور طبيعى يميل بهم الى القداسة أو الى التعبد لقوة عظيمة وراء الأبصار ، وقد وهب العقل للانسان بين الأحياء فارتفع به فوق سائر الحيوان الذى نعرفه فى دنيانا ، ومن ثم يبدو لى أننى مطالب بالواجب على — كائنات — أن أتوجه بالصلاة والتعظيم الى ذلك الكائن العظيم .

« وأدرك على هذا أن الاله الصمد قد خلق أربابا لا أعداد لها تعلق على الانسان علوا كبيرا وتفهم من أسباب كماله ما لا يفهم ، وتعيد اليه الشناء والجزاء على النحو المعقول .

« كما أنه بين الناس لا يبالى المصور التقدير ما يلقاه من ثناء الجهال والأطفال مبالاته بثناء العارفين وذوى الدراية بالتصوير — كذلك الأرباب التى يخلقها الاله الأعظم قد تبقى ولا تفنى ، وقد ترتفع من مقام الى مقام ، ويخطر لى أن كل رب منها له الحظ الأوفر من الحكمة والقدرة ، وأن كلا منها جعل له منظومة شمسية تدور عليها أسراب من السيارات ، وإلى هذا الرب الذى أبدع منظومتنا أتجه بالثناء والتقديس . لأنه خالق أن يشتمل على شىء من الطبائع التى أودعنا اياها ، ولأنه منحنا العقل الذى ندرك به حكمته فى خلقه فهو لا يزهد فى ثناء عباده ولا يرضى عن الجهل بفضله والاستهانة بمجده .

« وأفهم لأسباب كثيرة أنه صالح ، ويسعدنى أن أظفر بالود

من كائن على هذه الصفة من الحكمة والخير والصلاح ، فعلى " اذن أن أنظر فيما يرضيه وأبحث عما يولينى منه العون والرعاية .

» وأفهم أنه يرضى عن اسعاد خالقه كما يرضى عن الاقرار بفضلله والتوجه بالدعاء اليه ، ولا سعادة فى الحياة بغير فضيلة ، فما يرضيه اذن أن أتحدى بالفضيلة فيسعد بمخلوقه السعيد .

» ولما كان قد خلق فى هذه الدنيا كثيرا من الأشياء التى لا غرض لها فيما يبدو منها غير اسعاد الناس ، فانى لأومن أنه لن يفضب على أبنائه الذين ينعمون بتلك الأشياء ويمتنعون أنفسهم بالرياضات الحسنة والمسرات البريئة ، وأنه لن يكون من المسرات البريئة ما فيه ضرر لانسان .

» اننى أحبه اذن لصلاحه ، وأعبدہ . اذن لحكمته ، وعلى " ألا أغفل عن حمد هذا الرب لأنه حقه الذى لا أملك جزاء له غيره ، وعلى أن أصحح العزم على التحلى بالفضيلة واغتنام السعادة لأرضيه بما فيه رضى » .

هذه العقيدة الساذجة مستمدة على ما يظهر من فلسفة أفلاطون الذى كان يفترض وجود الأرباب الصغار للتوسط بين اله الكون والانسان وتعليل ما يحدث فى العالم من الشر والأذى ، وقد أعجبت فرنكلين فى سذاجة الشباب فدان بها واصطحبها فى أطوار حياته يعدلها ويكملها ، ويعرضها على مقاييسه العلمية كلما تقدم فيها خطوة من الزمن والخبرة ، فأمن بخلود الروح وحسابها بعد الموت لأنه قاسها على خلق المادة فرأى أن الأرواح أحق بالصيانة والبقاء من المصنوعات المادية ، وأن الله علمنا من حكمته أنه قادر على خلق مادة جديدة لكل جسم وكل شيء ولكنه يتجنب الشتات والبعثرة ولا يصنع شيئاً ليزيله ويفنيه ، فليس من حكمة القصد فى الخلق أن توجد الأرواح لتؤول الى الزوال والفناء .

وقد بقى معه من هذه العقيدة ايمانه بالله وبالروح وبالحساب وكتب خلاصة عقيدته الى عزرا ستايل فى الرابع والعشرين من شهر مارس سنة ١٧٩٠ أى قبل وفاته بأيام ، فقال :

« هذه عقيدتى :

« أو من باله واحد خالق للكون كله ، وأومن بأنه يديره بحكمته ،
وأنه حقيق بالعبادة ولا شيء أرضى له من صنع الخير لمخلوقاته الأخرى
« وأومن بخلود الروح ، وأن الانسان يحاسب بالعدل بعد موته على
ما صنع فى هذه الدنيا . وهذه عندى هى أصول الايمان فى الدين الصحيح
وهى فى موضع الاجلال عندى حيث وجدتها فى كل نحلة وملة .

« أما عيسى الناصرى الذى يهكم أمر الاعتقاد به خاصة فاعتقادى
فيه أن وصاياه الأخلاقية وديانته كما تركها لنا خير ما شهدته الدنيا
أو عساها تشهد ، ولكننى أرى أنها تعرضت لمختلف التغييرات
والتحريفات ، وأشك فى الاهيته كما يشك معظم المخالفين الآن فى انجلترا ،
وان كنت لا أقرر فى ذلك عقيدة محتومة لأننى لم أدرس المسألة ولم
أر ضرورة لهذا الدرس وأنا مقبل على الحقيقة أعرفها بأهون من هذا
العناء . ولست أرى ضررا فى اعتقاد من يعتقدونها اذا كان لها كما هو الراجح
أثر فى زيادة الاحترام لوصاياه وزيادة العمل بها ، وبخاصة حين أنظر
فلا أرى أن العلى الأعلى يغضب لها ويميز بين من يعتقدونها ومن
لا يعتقدونها فى سياسته للكون أقل تمييز . وأضيف الى هذا فيما يخصنى
أننى — بعد ما اخترته من كرم الله خلال حياتى هذه — لا يخامرنى
الشك أنه سيتولانى بمثله فى الحياة الآتية ، وان لم أكن أهلا له
بعملى .. » (١) .

هذه الفلسفة الدينية ، أو هذه الديانة الفلسفية ، وافقت فرنكلين
فثبت على أصولها من الثانية والعشرين الى الرابعة والثمانين ، وحرى
أن توافقه كل الموافقة وأن يطمئن اليها غاية ما يتاح له الاطمئنان فى هذه

(١) من كتاب الكتابات الترجمية جمع واختيار كارل فان دورن .

العواض والمتشابهات . لأنها فلسفة نبتت من عقله وسليقته وأوشكت أن تنبت من كيان أعمق فيه من العقل والسليقة . فان هذا الكيان المترن قد تمثل في بداهة حيوية عنده توحى اليه بخطة القصد في جميع الأمور . فهنا فرنكلين العالم الذى يعقل بداهة أن الطبيعة تأخذ بسنة « الجهد الأقل » The Least Action فلا تحيد المادة عن القريب وتتخطاه الى البعيد ولا تدع الطاقة موضعا لا مقاومة فيه لتمضى الى موضع تجد فيه المقاومة وتتعر فيه بالعوارض والموانع ، وهنا فرنكلين الهادى الرصين الذى لا يكلف نفسه ولا يكلف أحدا فى عمل من الأعمال فوق حقه من العناء وشغلان البال ، وهنا فرنكلين الفيلسوف المؤمن الذى يبنى على هذه السنة — سنة القصد — حكمة القصد الالهى التى لا تخلق الأرواح لتزيلها وتغنيها ولا تخلقها عبثا ليتساوى عندها بقاءها وفنائها بعد ظهورها فى عالم الحياة . ومن عجائب النفس البشرية أن المطبوعين على التهكم الذين يتحكمون على كل غلو فى التفكير والاحساس هم أقرب الناس الى الوقوع فى هذا الغلو الذى يعرضهم للتهكم من أناس دونهم فى الذكاء وأصالة التفكير ، ولولا ذلك لما غلا فرنكلين فى عقيدة « الجهد الأقل » حتى طبقها على الموازنة بين الدراسة والمشاهدة بغير عناء ، ففى خطابه المتقدم يقول انه لم يجشم نفسه مشقة الدراسة فى تحقيق طبيعة السيد المسيح لأنه اذا كان سيرى الحقيقة عيانا فى العالم الآخر فالرؤية أيسر عليه من الدراسة !

وكفى بهذا حجة لمن ينفى عن فرنكلين شبهة المغالطة فى العقيدة التى استقر عليها ، فان المرء ليغالط فى كل شيء الا فى الطبع الذى يتأصل منه وراء الوعى والمشئنة .

وبديهى أن عقيدة فرنكلين هذه لم تكن عقيدة الأكثرين من الخاصة والعامة بين قومه وغير قومه ، وانه ليعلم ذلك ولا يخطر له أن يزعم

ضمائر الناس بالجدل والنقاش ليقنعهم بصواب رأيه ، وليس سكوته
 هذا حبا للسلامة أو مراعاة لمخالفه ، بل هو الصواب في رأيه حين تعنيه
 السلامة وحين لا تعنيه ، وقد كان ينصح به أفاसा لم يكن لهم عنده حق
 الصداقة والنصيحة ، ومنهم من تحول عن صداقته وجافاه بعض المجافاة
 كما حدث في العلاقة بينه وبين الكاتب المفكر الكبير توماس بين Paine
 فانه قرأ كتابه المخطوط الذي سماء عصر العقل وأرسله اليه لاستطلاع
 رأيه ، فكتب اليه في الثالث من شهر يوليو سنة ١٧٨٦ يقول : « ان
 الحجج التي اعتمدت عليها في افكار الحكمة الخاصة — وان لم تنكر
 الحكمة الالهية العامة — لتضرب المعول في أساس كل دين . اذ لا باعث
 للعبادة والخوف من الجزاء أو التوسل بطلب الوقاية اذا زال الايمان باله
 يحرس ويهدى ويخص بالرضوان بعض الناس ، ولست أريد أن أناقشك
 في تلك الحجج وان كنت أحسب أنك تطلب هذه المناقشة ، وحسبى
 في الوقت الحاضر أن أقول لك ان حججك قد تبلغ من المهارة أن تقنع
 طائفة من القراء ، ولكنك لن تفلح في تغيير الاجماع الانساني على الشعور
 المتفق في هذه الأمور ، وكل ما تجنيه من نشر هذه الرسالة أن تجلب
 على نفسك الكراهية ، وأن يصيبك الضرر بفعلك ولا ينتفع به أحد .
 واعلم أن من يبصق في وجه الريح فانما يبصق على وجهه . وهب أنك
 نجحت فيما قصدت اليه فهل تخال في ذلك نفعا كائنا ما كان ؟ .. انك قد
 يسهل عليك أن تعيش عيشة فاضلة بغير معونة الدين ، وأن يكون فهمك
 الجلى لمحاسن الفضيلة ومساوىء الرذيلة مع قوة عزيمتك كفيلا بتمكينك
 من مقاومة الاغراء والغواية ولكنك قمين أن تعلم كم من ذوى الجهالة
 والضعف بين الرجال والنساء وكم من الأغرار والطائشين بين الناشئين
 تنفعهم بواعث الدين في اجتناب الرذيلة والثبات على الفضيلة والصبر
 على هذا الثبات حتى يصبح في حكم العادة التي تهم جدا في صيانتها

ومناعتها ، ولعلك أنت نفسك مدين بتربيتك الدينية لهذه العادات التي ترفعك بحق في نظر نفسك . واثق لتستطيع أن تستخدم ملكاتك البارعة وقدرتك على الاستدلال في علاج موضوع دون هذا الموضوع في مزالق الخطر فتحتل مكانك بين المؤلفين النابهين منا ، اذ ليس من اللازم بيننا — كما هو لازم بين آكلى البشر من الهوتنتوت — أن يبرهن الشاب على بلوغه مبلغ الرجال واستحقاقه للحسان منهم باقدامه على ضرب أمه .» (١) .

ومن الواجب في مقام التعريف بحقائق النفس الانسانية أن تفرق بين هذا الخلق وبين خلق الرياء الضعيف أو الكذب المزدول ، فليس أبعد من الفارق بين الرياء الذى يخدم به المرء نفسه ولا يبالى منفعة الناس والايمان بالصواب الذى ينفعهم ويحق له أن يحرص عليه . ولم يعرف عن فرنكلين قط أنه كان يرائى أحدا في عقيدة من عقائده التي يحفظها لنفسه ولا يرى من الواجب عليه أن يعلنها لغيره ، فاذا سأل سائل ذو مكانة عنده ولم يكن من الأدب في رأيه أن يهمله ويسكت عن جوابه صارحه بما يعتقد وأبلغه عقيدته على حقيقتها ، ولو أنه كان يستبيح الرياء مع أحد لاستباحه مع أبويه وهو الحريص على ارضاء الناس عامة فضلا عن حرصه على مرضاة الوالدين . فقد أبلغه أبوه ان أمه تشكو اليه أن ولدا لها يدين بمذهب الآريين وأن أخاه يدين بمذهب الكنيسة الشرقية ، وكان فرنكلين يومئذ في الثانية والثلاثين فأجاب أباه ولم يكتف معتقده ، بل قال له ولأمه بأسلوب صراح : « ما هو الآرى وما هو تابع الكنيسة الشرقية ؟ لا أستطيع أن أقول اننى أعرف الفرق بينهما حق المعرفة ، والواقع أننى قليلا ما أشغل عقلى بالبحث في هذه الفروق والخلافات ، وأرى أن الدين الصحيح يبنى بالخسار كلما

غلبت المراسم على الفضيلة ، وأن الكتب المقدسة تؤكد لى أننا نحاسب
فى اليوم الآخر على ما عملنا لا على تفكيرنا فى المذاهب ، ولن تكون
شفاعتنا أننا طفقنا نصيح : يا رب يا رب ! بل يشفع لنا ما صنعناه من
الخير لخلائق الله » (١) .

فمذهب فرنكلين فى كتمان عقيدته أشبه شىء بمذهب الجلة من
الحكماء الأقدمين الذين كانوا ينصحون بكتمان الحقائق الغامضة عن
لا يدركونها ، ولم تمنعه مخالفة السواد أن يعجب اليهم الدين والاجتماع
لسماع العظات وأداء الفرائض التى يعتقدونها ، وساءه زمنا أن يرى
سواد الناس معرضين عن الصلاة لأنه رأى منهم بوارد الاباحة والتهاوت
على المنكرات فشرع فى تنقيح كتب الصلوات ومذاكرة المصلحين من رجال
الدين عسى أن يهتدوا الى أسلوب من أساليب الارشاد أجدى فى اقناع
شعبهم من أساليبهم العتيقة التى درجوا عليها ، وسوى بين الملل والأديان
فى وجوب الاحترام فساعد أناسا من غير المسيحيين على احياء شعائرهم
فى جواره ، وقال انه لو علم أن المفتى الأعظم بالقسطنطينية يوفد الى
الديار الأمريكية رسولا من دعاة الاسلام لتلقاه بالترحاب (٢) .

ومن تناسق هذه الشخصية البسيطة أنها تطرد فى آرائها وخلائقتها ،
فما بدا منها دليل على ما استتر ، ومن عرف رأيا لها فى مسألة خطيرة
أوشك أن يعرف سائر آرائها فى المسائل الأخرى ، وهذه الفلسفة الدينية
التي آمن بها فرنكلين تغنينا عن الاسهاب فى تفصيل فلسفته الأخلاقية ،
بل ربما كان الأصح أن نقول ان فلسفته الدينية قائمة على قواعد
الأخلاقية ، لأنه يقيم الفضيلة على قواعد المصلحة العليا :
مصلحة الفرد ومصلحة النوع بأسره ، فهى مطلوبة لأنها صالحة

(١) Franklin. His contribution to the American tradition by Bernard Cohen

(٢) كتاب برنارد المتقدم ذكره .

باقية ، والرذيلة مكروهة لأنها فاسدة زائلة ، ومن وازن بين مسرات
الفضيلة وآلامها خرج من الموازنة بإيثارها على الرذيلة ، لأن آلام
الرذيلة أكثر من مسراتها ، وكثير من مسراتها زائف مدخول يجنى الضرر
على صاحبه أو على غيره ، خلافا لمسرات الفضيلة التي تصح في جوهرها
ولا يخشى منها الضرر على أحد .

ولم يكن فرنكلين مثاليا حالما في رأى من آرائه ، ولكنه لم يكن
كذلك من الاباحيين المستهترين بالمبادئ والقيم الأدبية ، بل كانت له
خطة يروض نفسه على اتباعها ويحاسب نفسه على التقصير فيها ، وقد
بلغ بهذه الخطة مرتبة الاعتدال ولم يبلغ بها مرتبة العصمة بطبيعة الحال ،
فهى فى شئون الآدميين ضرب من المحال .

كان خاطئا ولم يكن اباحيا ، وكان من خطاياه ما عرفه الناس بغير
اختياره ومنها ما عرفوه من كلامه . اذ اعترف بانقياده للشهوات فى شبابه
وعاب على نفسه أنه اتقاد لهذه الشهوات حتى ائدفع الى عشرة بعض
النساء ممن لا أخلاق لهن ولا كرامة ، وجملة ما يفهم من وصاياه ومن
معاذيره فى شئون الأخلاق الاجتماعية انه يحارب الفساد ويحسب منه
رياء المجتمع فى التمييز بين المفسدين ، فانه يأخذ المرأة بالذنب ويعفى
شريكتها منه ، وقد ينسى الحقائق فى سبيل المراسم والتقاليد ، وعليه اللوم
اذا فسد من بنيه وبناته من هو مستعد للصالح ومن هو صالح لأن
يكون عضوا من أعضاء المجتمع كالعضو السليم فى البنية الحية .

وقد نشر — وهو فى الحادية والأربعين — نبذة فى مجلة الجنتلمان
عن امرأة سيقّت الى ساحة القضاء ليعاقبها على الولادة بغير زواج ،
ووزرها فى سوء الحظ أكبر من وزرها فى سوء النية كما يؤخذ من كلامها
الذى ألقاه فرنكلين على لسانها ، وهذه فقرات منه بعد مقدمته القصيرة :
« كل ما أرجوه فى ضعة وانكسار أن تتشفعوا لى لدى الحاكم أن

يعفينى من الغرامة التى تحكمون بها على . فهذه خامس مرة — أيتها القضاة الأجلاء — أساق فيها أمامكم لتهمة واحدة . وقد عوقبت مرتين لأننى عجزت فى المرتين عن سداد الغرامة المقررة . وربما كان هذا موافقا لحكم القانون فلا أناقش فيه ، ولكن القوانين أحيانا تخطئ فيتقرر الغاؤها من أجل ذلك ، وغيرها يجثم ثقيلًا على كواهل الرعية فى بعض الأمور فيجعل من حق السلطان أن يرفع أحكامها أو يخففها .

« فاسمحوا لى أن أقول ان هذا القانون الذى أدان به مناقض للعقل فى ذاته وقاس بالنسبة الى " خاصة من جهة أخرى — أنا التى قضيت ما قضيت من حياتى فى جيرتى غير عادية ولا باغية على أحد ، وأتحدى عداتي — ان كان لى عداة — أن يذكروا اسم رجل أو امرأة أو طفل أسأت الى أحد منهم ، فإذا تركنا قضاء هذا القانون جانبًا فلست أفهم ما هى الجناية التى أعاقب عليها .

« لقد ولدت خمسة أولاد أصحاب مخاطرة بحياتى ، وقد ربيتهم بجهدى وكسبى دون أن أثقل على المدينة بمنحة أو معونة ، وكنت خليفة أن أحسن تربيتهم فوق ما أحسنت لو لم تؤخذ منى تلك الغرامات الثقيلة التى فرضت على . أفيحسب من الاجرام فى طبائع الأشياء أن أزيد عدد السكان فى وطن لا يزال فى حاجة اليهم ؟ أخال أننى أحمد على هذا ولا ألام ، وما حدث منى أننى أغويت زوج امرأة أو أغريت أحدا من الفتيان ، وما عوقبت قط على جريمة من هذا القبيل ولا اقترفت ما يشكوه أحد قط اللهم الا أن يكون مكتب العقود قد خسر الرسوم التى يتقاضاها على الزواج .

« على أننى أسأل : هل يحسب هذا من خطئى وتقصيرى ؟ اننى ألجأ الى عدالتكم وقد تفضلتم فقلت اننى مالكة لقواى العقلية ولا تعوزنى سلامة الفكر والادراك ، واننى لأكونن على غاية من النباء لو رفضت .

الزواج وآثرت الحالة التى أفا عليها الآن على الحياة الزوجية ، وقد كنت ولا أزال راغبة فى تلك الحياة ولا أشك فى صلاحى لها وحسن قيامى بمطالبها ، اذ كنت على نصيب من النشاط والقصد ولست بالعقيمة ولا بالقاصرة فى تدبير شئون الدار ، وأعود فأتحدى كائنا من كان أن يزعم أننى رفضت طلبا للزواج . بل حدث على تقيض ذلك أننى تقبلت الطلب الوحيد الذى تقدم به أول خاطب لى وأنا بعد عذراء ، ووثقت به وبإخلاصه فعبث بى وهجرنى وفى جوفى جنين .

« وأرجو أن تعلموا جميعا أن هذا الخاطب قد أصبح قاضيا فى هذا الاقليم ، ولكم وددت لو كان جالسا اليوم بينكم على منصة القضاء عسى أن يوصيكم بالرفق فى توقيع الجزاء علىّ ، وكنت اذن لا أبالى أن أذكر ما ذكرت من أمره . ولكننى أقول الآن مضطرة انه ليس بالعدل ولا بالمساواة فى الجزاء ، وانه ليس من الانصاف أن يكون المسئء الىّ والمتخلى عنى والسبب الذى أوقعنى فى كل جريرة — آمنا مترقيا الى مناصب الشرف فى الدولة التى تديننى بوصمة العار والمسبة .

« ولقد يقال لى ان الخطيئة خطيئة الدين ان لم يكن لهيئة التشريع حكم فيها . فان تكن خطيئة دين فدعوها اذن لرب الدين ، وقد حظرتكم علىّ أن أدخل كنيستكم . فما بالكم لا تقنعون بهذا الحرمان . » .

هذه فقرات من مقاله الذى نشره فى صحيفة الجنتلمان (عدد ابريل سنة ١٧٤٧) وسماه دفاع مسز بولى بيكر ، وأراد أن يعرض فيه مظلمة من مظالم المجتمع تلام عليها المجتمعات قبل ملامة الأفراد ، وأن يقدم الاهتمام بالحقائق ودواعى الفطرة على الاهتمام بالمراسم والتقاليد ، ومن كان يجاسب نفسه بسجل يومى مكتوب عما زاد أو نقص من الفضائل المطلوبة لا يظن به أن يبيح الجراح والانطلاق من نظام الحياة الاجتماعية ، وانما هو عارفي بالمعاذير حيث ينبغي أن تعرف ،

وعارف بمواطن اللوم على المجتمع حيث ينبغي أن يلام .

كان خاطئا يقع في الخطيئة ولكنه لا يبيحها ولا يعفى نفسه من الملامة عليها والعمل على استدراك جرائمها كما سيأتى في الكلام على فرنكلين الانسان ، وكان يجب السرور ولا يرى فيه حرجا من الدين ولا من الأخلاق ، بل يراه واجبا من الواجبات التى ترضى عنه خالق الكون وما فيه من منسرة وجمال ، وشرطه فى السرور ألا يضر أحدا ولا يسف بالكرامة الى مبادئ الشهوات ، فان لم يكن فيه ضرر ولا اسفاف ولا ابتذال فهو حق للانسان بل واجب عليه .

ومما عرف عنه أنه قضى زمانا لا يذوق الخمر خفيفها ولا ثقيلها ، وكان رفاهه فى مطبعة العاصمة الانجليزية يدعونه الى شرب البيرة معهم فيأبى معتذرا ويسمونه من أجل ذلك بالأمريكى شارب الماء . وقد نظم فى شبابه نشيدا لمجلس الشراب يشترك مع المجلس فى غنائه ولا يشترك معه فى شربه ، وما حرمها على نفسه لأنها حرمت عليه بحكم الدين أو القانون ، ولكنه حرمها لأن سرورها مشوب غير خالص من العقبات وغير مأمون فيه أن يسترسل مع الشارب الى الافراط والادمان .

لقد كان فرنكلين فيلسوفا بكثير من معانى هذه الكلمة فى وضعها الأول ووضعها الحديث :

كانت له عقيدة مفكر فى الدين ، وكانت له نظريات باحث فى العلم ، وكانت له مبادئ مبتدعة فى السياسة ، وكانت له آداب مرعية فى نظام المعيشة ، وكانت حياته الخاصة والعامة مدروسة من الوجهة الفكرية مروضة من الوجهة النفسية ، وبعض أولئك كليل بحسابه فى زمرة الفلاسفة المعدودين . الا أنه فيلسوف يصعب على مؤرخى الفلسفة أن يضعوه تحت عنوان واحد من عناوين المدارس الفلسفية غير مستثنى منها مدرسة البرجمية التى ظهرت فى وطنه بعد وفاته بأكثر من مائة سنة

وقيل عنها انها المدرسة النموذجية للأمريكيين ، وقيل عنه انه رائدها
الأول من العلماء المفكرين .

نعم لا استثناء للبرمجية من مدارس الفلسفة التى يحاول المؤرخ
الفلسفى أن يضع فيها فرنكلين . لأن ميزان الحقيقة عنده غير ميزان
الحقيقة فى المدرسة البرمجية ، ولأنه قد يحتوى البرمجية ولا تحتويه .
وانما تزول هذه الصعوبة اذا أردنا أن نضع الفاصل بين فرنكلين وبين
كل مدرسة فلسفية أو دعوة فكرية . فحيث لا عمل لا فلسفة لفرنكلين ،
وحيث لا توجد الفكرة المفهومة فلا عمل كذلك لفرنكلين . وبهذا ينفصل
أحيانا عن الواقعيين كما ينفصل عن المثاليين ، وأصدق ما يكون تعريف
الفيلسوف هنا تعريف الانسان فى مذهب أرسطو ، وهو الحيوان الناطق
المدنى بالطبع ، فهو حى يفكر لا ينسى وشائج القربى بينه وبين أبناء
نوعه ، وذلك هو فرنكلين الفيلسوف .
وذلك أيضا هو فرنكلين الانسان .

الإنسان

دنيوى .. عصرى .. انسانى .. نفعى .. ساخر .. طبيئته عادية ..
مستر أمريكان !

هذه كلمات وصف بها فرنكلين ، وأراد واصفوه بها أن يحصروه في قشرة بندقة كما يقولون في اصطلاحات الغرب ، فأصاب كل منهم اصابة لا خلاف عليها ، وأخطأ كل منهم خطأ لا بد أن يستدرك عند الاحاطة بصفات فرنكلين .

كل صفة من هذه الصفات لا تنبذ مرة واحدة ولا تتؤخذ مرة واحدة . فهو في الحق دنيوى ، وعصرى ، وانسانى ، ونفعى ، وساخر ، وطبيئته عادية ، ومستر أمريكان .. وهو غير ذلك استدراكا على جميع تلك الصفات .

ان الذين وصفوه أنه دنيوى أرادوا كلمة Secular ، وهى تعنى أنه رجل واقعى عملى يقيس الأمور بما يحسه ويختبره ، وأنه في خلائقه غير الرجل الصوفى الذى يعيش بين الشهود والغيب ويخوض في أعماق الخفايا والأسرار ، وغير الرجل الذى يطيل النظر فيما وراء الطبيعة وما وراء هذه الآفاق المدركة بالحواس والعقول .

وكذلك كان فرنكلين في رأى جميع عازفيه ومترجميه ، ولكنهم عند اطلاق هذه الصفة على فرنكلين ينبغى أن يوسعوا آفاق الدنيا حتى تتسع لكل شواغله العقلية والعلمية وترجع بحدودها أفقا وراء أفق حتى تصبح أوسع وأكبر من آفاق كثير من الحالمين المحسوين من الخياليين . فلم يكن هنالك شيء دنيوى لم يكن دنيويا فيه ولم يكن حاضرا بين أعماقه وآفاقه .. وليس كذلك كل الدنيويين .

وقد كان فرنكلين عصريا في نظره الى احوال زمنه ، وهذا وصف صحيح ينطبق عليه كل الانطباق ، فلم يكن في عقله بقية من بقايا الزمن السالف تحول بينه وبين النظر المستقيم الى احوال عصره ، ولم يكن في عقله هوى من الأهواء الغالبة يشط به الى المستقبل البعيد فيفهم الوقائع معلقة على شيء في الغيب المجهول : كان ينظر الى عصره ويراه بغير حجاب من بقايا الماضي ولا أحلام المستقبل ، وعلى هذه السنة بعينها يصبح عصريا بينما لو عاد الى القرن العشرين .. وقد كان هو يتمنى لو يتاح للمرء أن يعاود الدنيا بعد الموت فيراها عصرا بعد عصرا أو عصورا بعد عصور . ونخاله لو عاد الى الدنيا كما تمنى لما أدهشه شيء مما وقع فيها خلال هذه الأجيال ، الا أن تكون دهشته للسرعة والكثرة لا للجوهر واللباب . فما من شيء حدث لم يكن عنده محتمل الحدوث ، وما من نقيضة انسانية كان في ظنه أنها ستزول خلال هذه الأجيال ، ولا استثناء في ذلك للحروب العالمية ، لأنه قدر لاتفاق الدول على اتقائها مائة وخمسين سنة أو مائتين . ولا يخفى أن الاتفاق على الاتقاء غير الاتقاء الناجح وغير المنع في الواقع . فليس في العصر الحاضر ما لا يكون فرنكلين «عصريا» فيه بعد بضعة أيام ، لو عاد .

وكان انسانيا ، أو كان انسانا من فرعه الى قدمه ، فلا همجية ولا وحشية ولا ادعاء للكمال والنزاهة « الملائكية » .

انسان معتدل ، لا ملك ولا شيطان ، ولا همجية تنبؤ عنها الانسانية المهذبة المتحضرة ، ولا وحشية تنم على النكسة في خلايق الانسان .

انسان بفضائله وانسان بعيوبه ، ولكن الصفة هنا لا تكفى وحدها ولا تزال كغيرها من الصفات بحاجة الى استدراك . فاذا كان الرجل انسانا بفضائله وعيوبه فليس معنى ذلك انه انسان كسائر الناس أصحاب الفضائل والعيوب ، لأنه كان يعمل مع الفطرة في تكوين فضائله وتثبيتها ؛

وكان يتيقظ لعيوبه ويجاهد ما استطاع في اصلاحها ، وكانت الأعذار الى جانب عيوبه أرجح وأقوى من دواعي اللوم والزلل ، ويصدق هذا على أكبر السقطات كما يصدق على الهفوات الصغار .

فمن سقطاته المعيبة تلك العلاقات المريبة بينه وبين بعض النساء في شبابه ، ومنهم « دبورا » التي تزوج بها بعد معاشرته لها بغير عقد ديني أو عرفي ، وبغير تسجيل معترف به على نحو من الأنحاء .

وقد لقي جزاءه على هذه السقطات ، لأن ابنه من احداها — وليام — خذله وخذل قومه وانقلب على قضية الاستقلال ولاذ بالبلاد الانجليزية بعيدا من أبويه وذويه ، وعاشت « دبورا » مهلة من جانب المجتمع بعد نباهة فرنكلين وارتفاع شأنه ، فكانت كل دغوة الى محفل من محافل الدولة أو الأمة تذكره بتلك السقطة وتنقص عليه حياته وحياة زوجته .

ولا يهم المؤرخ هنا هذا التفكير الذي لا يد له فيه ، ولكنه يهمه أن يثبت ما له وما عليه في هذه السقطات . فقد كانت هذه السقطات كأمثالها من سقطات الناس في الضعف والغواية ، ولكنها لم تكن كسقطات الناس في المعاذير وجهود الاصلاح ، ولم يكن كل ذى سقطة قادرا على أن يتشفع أمام عدالة الضمير بأعذار كأعذار فرنكلين ، وجهود كجهوده في اصلاح الخطأ والصبر على تبعاته مختارا بغير اكراه .

لقد كان من معاذيره شدة النفور في عصره من سلطان الكهنوت على جميع المذاهب ، وكان من أسباب ذلك النفور الشديد بين المتحررين خاصة افراط المتعصبين في الخرافة وتصدى الجهلاء من رجال الدين للحكم فيما يجهلونه والاستهانة بالأرواح البريئة في سبيل العصبية التي كانوا يسمونها غير دينية أو حماسة روحية ، وقد كانوا يتوهمون السحر في كل مشتغل بالعلم ويحرقون الساحر والساحرة لأنهما من حلفاء

الشیطان «محتكر» العلوم السوداء ، على ما توهموه وتوارثوه بالتقاليد .
ومن السهل أن نتخيل شعور الرجل المطبوع على البحث العلمی
نحو هذه السلطة ، فان « رد الفعل » أمامها خلیق أن یذهب من النقیض
الی النقیض ، فیمرق من سلطانها مروق التحدى والاصرار .

ومما یشفع لفرنكلین فی سقطته أن « دهورا » لم تكن من النساء
المبتذلات ، وأنها لما تركها فرنكلین لیسافر الی لندن تزوجت من رجل
آخر ولبتت علی ذمته الی أن عاد فرنكلین من رحلته ، ولما أراد أن یصحح
خطأه لیتزوج منها حال العقد القائم بینة و بین اتمام عقد الزواج حتی
ثبت وفاة الزوج الأول ، وكان فی وسع فرنكلین — وقد اشتهر وارتفع
فی سلم المجتمع — أن یتخلی عن هذه المرأة الجاهلة الفقيرة المهملة فی
حساب الطبقة العالیة وفی حساب المتدینین من جمیع الطبقات ، ولم یکن
عسیرا علیه أن یختار له زوجا تساعده بجاه الأسرة الاجتماعی ولا تقف
فی سبيله عقبة دون المناصب العلیا بقية حیاته ، ولكنه صنع الواجب
الذی أوحاه الیه ضمیره وأثر وحی الضمیر علی المصلحة وحس الوصول .
وتستدرك صفة الانسانیة اذا نسبت الی فرنكلین علی غیر الوجه
المتقدم فی معانیها الكثيرة :

فقد كان من معانی الانسانیة ایمان المرء بخیر الانسانیة ورفضه
كل عقيدة دینیة غیر العقيدة الموضوعة ، وكان فرنكلین یؤمن بخیر
الانسانیة ویعمل له وسوی بین الناس جمیعا فی الأخوة البشریة ، ولكنه
لم ینكر وجود الاله ولا وجوب الاقتداء بفضائل السید المسیح .
وكان من معانی الانسانیة حب المسالمة وطیبة القلب ووداعة الأخلاق
وفرنكلین كان ولا ریب مسالما طیبا ودیعا الأخلاق ، ولكننا نجهله اذا فهمنا
من المسالمة انه كان یفرق من العداوة ویتجنبها بكل ثمن وكل وسیلة :
لقد كان حقا یكره المعاداة ولا یتشیرها ، ولكنه كان اذا جاءته العداوة

الى باب داره بغير داع ولغير مساءة منه لم يجفل منها وأهملها ذلك
الاهمال الذى يلهب الغضب ويؤجج سكير الحسد ويغنيه عن الانتقام ،
ولم يمزح حين قال ان الانتقام الحسن من حساده وأعدائه انما هو
الاستزادة من أسباب حسدهم وعداواتهم ، وانه فى غنى عن مقابلة
الحسد بالانتقام لأن حساده ينتقمون له من أنفسهم ، فقد كان حقا
يؤمن بهذه الفكرة كأنها فكرة علمية مقدرة بنتائجها موزونة بميزانها ،
فهو الرابع اذا تقدم ونجح ، وحساده هم الخاسرون اذا حسدوه على
التقدم والنجاح .

والذين قالوا عنه انه « نفعى » لم يظلموه فتيلا بالمعنى العرفى
أو بالمعنى الفلسفى الذى يطلق على مذهب النفعيين Utilitarianism ،
ولم يقولوا عنه ما ينكره لو سمعه ، ولا ما يستنكره الناقد الأخلاقى
على اطلاقه ، الا أن تكون النفعية على حالتين : احدهما أن يستهين المرء
من أجلها بكل قيمة أخلاقية ، والأخرى أن يقدم منفعة الشخصية على
المنفعة العامة أو على المنافع التى اصطلح عليها نوع الانسان ، كائنا ما كان
موضوع النفع الانسانى من الماديات أو الروحيات .

وليس فى مقدور عدو من أعداء فرنكلىن أن ينسب اليه حب المنفعة
على حالة من هاتين الحالتين . ولا نعيد هنا ما ذكرناه — فى الكلام على
فرنكلىن العالم — عن زهده فى جميع المنافع التى تعود عليه من تسجيل
اختراع الموقد المعروف باسمه ، ولا عن زهده فى مكاسب المخترعات
الأخرى ، ومنها الشائع المتداول كالنظارات وأعمدة الصواعق ، ولكننا
نذكر موقفه فى الأعمال الوطنية التى لا تخفى عليه عواقبها وهو من هو
فى كياسته وبعد نظره واختباره للطبائع البشرية وتجاربه لحظوظ العاملين
من العرفان بالجميل . فقد كان ينوب عن بعض الولايات فى لندن ليعرض
على حكومة الدولة وجهة نظر الولايات ويقضى لها مصالحها فى دواوين

الرياسة ، وكان يعلم ان اغضاب رؤساء تلك الدواوين يزعزع مركزه عند الولاية التى ينوب عنها لأنها لا ترجو نفعا من وكيل ينفر منه الرؤساء ويوصدون فى وجهه أبواب الشفاعة والوساطة ، فلم يمنعه علمه بذلك أن يغضب الرؤساء كلما وجب أن يخاطبهم بالحق الصراح الذى لا يقبلونه وأغضبهم فعلا مع اشتهاؤه بالمسألة والقدرة على القول اللين والعبارة السائغة ، ولما حافظت الولايات على وكالته واستجيت من جزائه بالفصل على أمائته وحسن خدمته أعفاها هو من ذلك الموقف الحرج واستعفاها باختياره ليفتح أمامها باب الانتفاع بوساطة وكيل غيره ، وقد ظهر فى أخريات حياته وبعد مماته أنه كان يحتاج الى اتفاق المال لخدمة المصلحة الوطنية ويستبطن الاجراءات التى لابد منها لاقناع المراجع المعتمدة بضرورة اتفاقه وارساله ، فينفقه من ماله الخاص وتنقضى السنوات ولا يتمكن من استرداده وهو خارج بلاده . ثم يعود الى بلاده وقد تغير الحكام والنواب وتتابعت الشواغل المستحدثة كل يوم من أيام الاستقلال الأولى ، فيلوذ بالصمت ويترك ما أنفقه غير مقتصر فى المصالح الوطنية الجديدة التى توكل اليه .

والسخرية التى ألفها الأصدقاء والشعراء من كلام فرنكلين وكتابتها سمة أدبية ونفسية فى وقت واحد ، وقد تلحق بطبيعته الواقعية النفعية التى تعرف الناس حقيقتهم وتعرف الرياء والصدق من دعاويهم ولا تنتظر منهم فى الدين والدنيا فوق طاقتهم ، وهى أشبه بابتسامة الأب لطفله الذى يريد أن يراوغه ويحتال على خداعه وهو لا يحتاج منه الى الخديعة لاستجابة رجائه أو قبول معاذيره . وقد أثرت لفرنكلين سخریات تضارع سخریات فولتير الفرنسى وسويفت الايرلندى وهما علمان من أكبر أعلام النقد الساخر فى الآداب الغربية ، ولكنها سخریات سليمة من طعنات فولتير المناضل ووخزات سويفت السوداءى الناقم ، وليست له سخرية

يفارقها العطف على المعارضين والمواقفين كذلك السخريات المسمومة التي تتخلل كتابات سويقت كثيرا وتتخلل كتابات فولتير من حين الى حين .
والطينة العادية من الصفات التي تكررت في تراجم ثقاده ومؤرخيه .
ولا كذب في وصف النقاد والمؤرخين ، وانما الكذب — أو الخطأ —
في تقدير هذه الطينة العادية التي خلق منها هذا الرجل العظيم .
ان اللبنة طينة عادية ، والقصر الذى يبنى باللبن طينة عادية ، ولكن
القصر واللبنة شيان مختلفان .
ان الرجل الذى يكون « عاديا » فى ملكة واحدة يقال بحق انه من
طينة عادية .

ولكن الرجل الذى يكون عاديا فى عشرين ملكة وفى كل ما تصدى
له من الأعمال والأفكار لا يحسب انسانا عاديا نراه بيننا كل يوم .
ان الوسط فى القوة البدنية وسط .

ولكن الوسط فى القوة البدنية وفى القوة الفكرية ، وفى القوة
الخلقية ، وفى قوة التفكير حين تتجه الى العلم وحين تتجه الى الأدب
وحين تتجه الى السياسة وحين تتجه الى الحياة العامة ، لا يقال عنه انه
وسط ولا انه فى مرتبة من العظمة الانسانية دون مرتبة العظماء المرتفعين
المخلقين فى جو واحد من أجواء القدرة والكفاية .

وهذه عظمة أحب الى الناس ، وينبغى أن تكون أحب اليهم وأرفع
لهم وأولى بالكتابة عنها لطلاب القدوة والحوافز النفسية ، فان الاقتداء
بالعظمة المحلقة فى السماوات يئس من يلمس جنبه فلا يجد فيها
الجناحين القادرين على التحليق ، ولكنه اذا رأى أمامه عظيما يمشى على
القدمين فى كل طريق يعبره أمثاله لم يئأس من الاقتداء والمساواة ، وان
لم يكن مثله وسطا فى عشرات من الكفايات والملكات .

طينة عادية نعم . وهذه هى العظمة التى يفهمها العاديون فى جميع

نواحيها ، وتنعت حولها الصلة المحكمة بين العظماء من بنى الانسان وغير العظماء .

« والمستر أمريكان » أحدث ما وصف به فرنكلين الانسان فى كتابات المعاصرين .

والذين وصفوه بهذه الصفة يعنون أنه أول نموذج للأمريكى من الأمريكيين ، وأنه لو عاد الى الحياة اليوم مع رهط من زملائه آباء الاستقلال لم يستغربه أحد ولم يستغرب هو أحدا ممن حوله ، وقد تحيط الغرابة بين الأمريكيين المعاصرين بواشنطن وآدمز وهاملتون وجفرسون وسائر القادة المدنيين والعسكريين .

وهذه الصورة صحيحة فى مجموعها فى انتظار التكملة اللاحقة بها كجميع تلك الصور التى أريد بها حصر الرجل فى قشرة البندقة . والتكملة التى تلحق بهذه الصورة أنه اذا عاد الى الحياة عاد كما كان فى أيام الحياة : مستر أمريكان فى انجلترا ومستر أمريكان فى فرنسا ومستر أمريكان فى أمريكا . ومستر آدم مع هذا حيث كان ، لا يحس القلق والغرابة فى بيئة ينتقل اليها ويقيم فيها ، فهو أمريكى مستريح بين الأمريكيين وأمريكى مستريح بين الفرنسيين وبين الانجليز وبين من شاء من العالمين . فاذا أراد أحد بقوله عنه انه « مستر أمريكان » أن يصبغه بصبغة خاصة تلائم هذه البيئة ولا تلائم تلك فهذا هو موضع النقص فى التصوير .

كان دنيويا عصريا انسانيا نفعيا ساخرا من طينة عادية ، ولم تكن فيه صفة من هذه الصفات تناقض الأخرى أو توضع لاستثنائها واقصائها . وكان انسانا لا تنتظر منه الخوارق ، ولكن الخوارق التى جاءت منه أنه كان وسطا فى أشياء كثيرة ، فكان عظيما لهذا التوسط القليل النظير . وكانت ملكة العالم هى الملكة الغالبة عليه كما تقدم فى الكلام على أعماله العلمية .

الا أننا نستطيع أن نقول عنه انه « انسان علمي » بمعنى غير ذلك المعنى ، وهو تفسير كل خلق من أخلاقه تفسيراً علمياً لا يحير الباحث ولا يدفع به في معترك النقائض والشكوك .

كل صفة فيه واقعة خاضعة للبحث العلمي والتفسير بالمبادئ العلمية حتى الطيبة والسماحة والاعتدال .

فمن مبادئ العلم ان الطاقة تأخذ بمبدأ المجهود الأقل ، وان الأداة المحكمة هي الأداة التي تصرف كل طاقة الى موضعها ولا تبددها .

فرنكلين كان « طيباً » علمياً ، وسامحاً علمياً ، ومعتدلاً في أخلاقه علمياً على جميع الأحوال .

كان لا ينتقم من أعدائه ولا يضيع جهوده في الانتقام منهم ، لأنه عمل لا حاجة به اليه .

وكان يفضل الفضيلة ويقول بعد البحث ان الخبثاء لو عرفوا فضلها لأصبحوا فضلاء بوحى من الخبثاء ، لأن الخلق الكريم بعد الموازنة بين الجهود الصالحة والجهود الضائعة أبقى الجهود وأنفعها وأحقها بالحرص عليه .

وليكن ذلك صحيحاً في عرف الناس أو غير صحيح ، فانما المهم هنا انه صحيح في التطبيق العلمى كما يطبقه فرنكلين ، وفي الجهود النفسية كما يحسها فرنكلين ، وفي هذا الانسان العلمى الذى يطبق العلم ويطابقه باختياره وبغير اختياره .

انسان لا يحير أحداً في أمره ، ولا نخال أحداً حيره في شأن من شئون الطبيعة الانسانية ، فهو لا يفرض على الدنيا لوئنا لا يراه فيها ، ولا يزال متفتح الذهن لكل غريبة من غرائبها فلا يصل اليها أو تصل اليه حتى يراها في موضعها صالحة لأن تقترن بالموجودات كلها في مواضعها .. ولما تأتى الحيرة من المفاجأة ، وتأتى الغرابة من تضيق الحدود التى تتفتح لها الأذهان ، فإن بقى الذهن متفتحاً بغير حدود فكل وارد ضيف مقبول غير محتاج الى جواز « أجنبى » أو اذن بالدخول .

الْمَحْزُوءُ الْإِثْنَانِي
مِنْ فَرَانِكِلِينَ

تمهيد

يشتمل هذا القسم على متفرقات من كلام فرنكلين في الموضوعات المختلفة التي تناولها بقلمه ، وهو قسم لا غنى عنه لتبام التعريف برجل عالم كاتب مفكر لم يعمل في ميدان من ميادينه الكثيرة الا كان لقلمه نصيب واف من ذلك العمل ، وقد كتب فرنكلين في المباحث العلمية والمسائل السياسية والاجتماعية كما كتب في شئونه الخاصة التي تعنيه وتعنى ذوى قرباه ، وكان له طابعه الذى ينم على مزاياه النفسية وملاحظه الشخصية في كل باب من أبواب الكتابة، ونحن نود أن نلم بهذه الجواب جميعا فيما نختاره من كل باب .

وسنقتبس فيما يلى نماذج من كتابته العلمية والاجتماعية ، ولكن الاستقصاء في هذه الناحية غير مطلوب في ترجمة عامة ، وانما المطلوب هنا أن نلم بما يعرفنا بطريقته في البحث العلمى والتفكير الاجتماعى ، وما عدا ذلك فمكانه المطولات المخصصة لتاريخ النظريات العلمية والمخترعات التي تولدت منها ، أو الدراسات التي تشرح أطوار المجتمع ومشكلاته وآراء المفكرين فيها على التتابع أو للمقابلة بينها في أوانها ، فاذا استطعنا فيما نختاره هنا من كتابته العلمية أن نعرف طريقة بحثه ونرقب تفكيره أثناء عمله ، فذلك سيسببنا من التعريف بهذه الشخصية في ميدان من ميادينه المتعددة ، وإذا استطعنا فيما نختاره من كتابته الاجتماعية أن نعرف ما يعيشه المجتمع وما يتوخاه من النظر في أحواله والحكم على مشكلاته فقد نمت في الصورة العامة ملاحظها التي تصور لنا هذه الناحية من ملاحظها الكثيرة .

وقد تعمدنا هنا أن نترجم له دراسة علمية في مسألة لم يحسبها من مسائله الناجحة، أو من المسائل التي نرى فيها الى مقطع الرأى بين الآراء

المحتملة، وتلك هى المسألة التى ذكرها العالم اللاتينى. القديم وسجل فيها تجربة الملاحين فى تهدئة هياج البحر بصب الماء عليه . فان دراسته لهذه المسألة — كسائر دراساته العلمية — تستجمع أسلوبه فى احصاء العوامل والفروض والموازنة بينها وتجربة كل فرض راجح منها وتقرير النتائج بمقدارها الذى حققه كل التحقيق فى غير تزييد ولا اقتصاص ، وتتمثل فيها طبيعة التردد فى قبول النتائج ما لم تكن جامعة مانعة كما يقول المنطقيون ، وتلازمها طبيعة الأمانة التى لا يستهويها حب النجاح والرضا عن النتيجة التى يرضى عنها الكثيرون .

وتعمدنا فى اختيار النبذتين الاجتماعيتين أن تكونا نموذجا لما أثر عنه من طلاقة الفكر أمام العرف الذى تقرره العادات والخرافات والايمان الأعمى بظواهر العقيدة الدينية ، وطلاقة الفكر أمام العرف الذى تثبته فى النفوس عصبية الأجناس مع الكراهية المتبادلة بين الأعداء المتقاتلين . أما كتابة فرنكلين التى توسعنا فى الاختيار منها فهى كتابته فى التقويم وكتابته التى يجمعها عنوان الرسائل ، وكتاهاما وافية بالدلالة عليه فى جميع أدوار حياته وفى جميع شواغله الذهنية وخلائقه النفسية .

فتقويم ريتشارد هو الأسلوب الذى شق به طريقه فى الحياة الأدبية والفكرية وقرر به مكائته بين أصحاب الأقلام ومكائته بين قومه على التعميم ، واستوى فيه على نهجه المختار فى الكتابة بعد استقلاله بعمله واختباره للمكائته ومواهبه ومطالب قرائه ، واعتماده على ذلك النهج العبلى الذى يتخذ الفكاهة طريقا الى الجدد، والتسلية طريقا الى الفائدة، ولم يتغير هذا الأسلوب بقية حياته فى نسق التعبير ولا موضوعات التفكير ، اللهم الا ما كان من قبيل نضج السن واتساع أفق الاطلاع . أما رسائله فهى عنوان واحد لكل ما يخطر على البال من الموضوعات التى شغل بها فى حياته العامة وعلاقاته الشخصية ، وقد شملت حياته

العامة — كما تقدم — مباحث العلم ومشاكل السياسة والإدارة وجهود
الخدمة الوطنية في داخل بلاده وخارجها ، وشملت علاقاته الشخصية
أناسا من الوزراء والشعراء ، وأناسا من العلماء ورجال الدين ، وأناسا من
الجهلاء والأغمار ، كما شملت الرجال والنساء وذوى قرباه ومن ليست له
قربة بهم غير قرابة المودة والعاطفة أو قرابة الاشتراك في المصلحة العامة.
ورب رسالة في مسألة علمية تتخللها نصيحة انسانية أو استطراد الى
البراهين على وجود الله ، ورب رسالة في الدعاية تكشف عن أعماق
نفسه من حب الخير للناس والرحمة بالحيوان في زمن لم تعرف فيه كلمة
الرفق بالحيوان ، ورب رسالة تكتب الى احدى الصحف عن مسألة
عارضة وتعتبر اليوم مرجعا من المراجع الهامة في تحقيق التاريخ والعلاقات
الدولية ، وقلما تخلو رسالة من هذه الرسائل على أنواعها من أسلوب
الفكاهة الساخرة التي تسلكه مع الطبقة الأولى بين الكتاب الساخرين
في عصره ، وتفرد به بين الأكثرين منهم براءة الطوية من الضغن والايذاء ،
وبراءة القلم واللسان من لواذع الهجاء .

وليس ما ترجمناه في الصفحات التالية كل ما يترجم لفرنكلين من الرسائل
أو الفصول ، ولكنه — فيما نرجو — نماذج كافية للدلالة عليه والابانة
عن مزاياه وملكاته ، وقد يزداد عليها الكثير من قبيلها ، ولكن الزيادة
تأتي مكررة لصفات هذه « الشخصية » التي ألمنا بها في حدود الإيجاز
والاكتفاء بالميسور .

تقويم ريتشارد المسكين

جرت عادة التقويميين في أيام فرنكلين على اصدار تقويماتهم خلال شهر أكتوبر من السنة السابقة لتاريخ التقويم ، ولما صحت نية فرنكلين على اصدار تقويمه لم يتيسر له اصداره في ذلك الوعد فتأخر الى التاسع عشر من شهر ديسمبر ، ولكنه سبق التقاويم التي ظهرت قبله الى بيوت القراء وجيوبهم وعوض ما فاته من مسافة الزمن بالأسلوب المبتكر الذي قربته الى قلوب قرائه ، فأصبح في صحبة كل قارئ منهم كأنه الصديق المؤتمن الذي يرجع اليه للاستشارة في مشكلات العيش كما يرجع اليه للسؤال عن التواريخ والمواقيت .

وقد سماه تقويم « ريتشارد المسكين » وصرح فيه بفقره وحاجته الى حظ من الرزق يرجوه من رواج ذلك التقويم ، فنجح في كسب زمالة القراء كما نجح قبل ذلك في كسب كل زمالة صالحة فيمن يلقاهم ويلقونه من الصحاب والأعوان ، ونظر اليه كل قارئ من طلاب الرزق في القارة الجديدة نظرتة الى صاحب يعرف ما يعنيه ويحتاج الى مثل حاجته من السعى والتدبير والعمل بالتجارب والوصايا من غير من ولا استعلاء ، اذ كان القارئ يتخيل ناصحه في صورة الزميل الذي يتلى بمثل بليته ويعرف الحكمة من ضنك الحياة ولا يدعى عرفانها من تفوق في الرأي أو مزية في العلم والدراسة .

قال في فاتحة التقويم الأول : « لقد كان في وسعي هنا أن أحاول كسب الخطوة عندك بدعواي اننى لا أكتب هذه التقويمات الا رغبة منى في خدمة المصلحة العامة ، ولكننى اذا زعمت هذا لا أخلص القول وهو

من زخرف المقال الذى بلغ من يقظة الناس فى هذا الزمن أنهم يقبلونه... أما حقيقة الأمر على جلالتها فهى أننى فقير جد فقير ، وامراتى الطيبة ، كما أقول لها ، جد متكبرة ، وهى تهيب بى قائلة انها لا تستطيع أن تعكف على مغزلها ولا ترائى أعمل شيئا غير النظر فى النجوم ، وتوعدتنى غير مرة أن تحرق جميع كتبى وكل ما عندى من تلك الفخاخ ، كما تسمى آلات الرصد والحساب ، إن لم أستطع أن أصنع بها شيئا ينفع أهلى ، وقد سمح لى الطابع بحصة قيمة من الريح وبدأت من ثم فى الاستجابة لما أمرت به سيدتى .. » .

ووضحت مزية هذا التقويم من سنته الأولى على سائر التقاويم بما احتواه من حشو الفراغ ونوافل الكلمات التى لا شأن لها بالتاريخ والتوقيت ولكنها ذات شأن نافع فى التوجيه والانتفاع بالأوقات ، وعابها بعض النظراء والمنافسين على ما يظهر بما فيها من النكات والمضحكات ، فأزاد فرنكلين أن يقنع قراءه بفضل هذه الزيادة وانها لا تقطع شيئا من حق القارئ فى الزاد المفيد بل تسوغ له مذاقه وتساعد على هضمه ، فقال فى مقدمة التقويم لسنة ١٧٣٩ : « لا تقلق أيها القارئ الرصين الوقور اذا رأيت بين عبارات الجد الكثيرة فى تقويمى هذا تنفة هنا أو هناك من أحاديث الهزل والبطالة . ففى كل صفحة طهوتها لك كفاية من اللحم للوفاء بنقودك ، وهنا وهناك قدد من مائدة الحكمة تعود مع حسن الهضم بالغذاء الجيد الى لبك ، ولكن المعدات المتعلقة لا تطيق الأكل خلوا من التوابل والمشهيات ، ولعلها فى الحق لا تنفع بشيء فى غير هذا الموضع ، ولكنها تعين على تناول الطعام » .

ولم يكن تقويم ريتشارد المسكين باكورة فرنكلين فى عالم الكتابة ، لأنه بدأ الكتابة كما تقدم فى صحيفة أخيه وهو فى نحو السادسة عشرة فأتى فيها بما يفوق محصول أمثاله من خبرة العمر ودرجة التعليم ،

وقد أخذ في كتابة التقويم وهو في نحو السابعة والعشرين بعد أن مضى عليه أكثر من عشر سنوات يمارس صناعة القلم ويكتب الرسائل والفصول، ولكنه اختار لعبارة التقويم — أو لمعظمها — أسلوب جوامع الكلم ، وهو أدق الأساليب وأحوجها إلى الفهم المستقيم والتعبير المحكم والايجاز البليغ مع البساطة والوضوح ، فكانت جوامع كلمه في تقويماته خير دلالة على الكاتب بلفظها ومعناها ، ورسمته لمن يريد أن يفهمه رسما لا تزيد عليه كتاباته الأخرى شيئا غير التفصيل والتوكيد .

ففي أسلوبها اللفظي دلالة على ملكة التعبير وقدرة على النفاذ إلى الجوهر واجتناب الفضول ، وفي أسلوبها المعنوي دلالة على الدراية العملية والسجية السمحة والعقل الحصيف الذي لم يقف بالمعرفة قط دون التطبيق المفيد ، فإذا صح قول القائلين ان الأسلوب هو الرجل فهو أصح ما يكون على فرنكلين ، وأصح ما يكون على فرنكلين نفسه في « جوامع الكلم » وما شابهها من الحكمة الناجزة والخبرة المركزة ، وليس من النافع أن نطيل التساؤل عن مصدر هذه القدرة على البيان الصحيح : هل كان الفضل فيها لملكة التعبير وذخيرة الكاتب من المفردات والأساليب ؟ أو كان الفضل فيها لصواب الفهم وأصالته في استخلاص المعاني الجوهرية من الحواشي والفضول ؟ فمهما يكن من فضل ملكة التعبير فهي لا تغني عن صواب الفهم ، ومهما يكن من صواب الفهم فهو مفتقر إلى التعبير المبين ، وجماع القول أن الكاتب أحسن تعبيراً لأنه أصاب فهماً وأصاب قبل كل شيء في فهم رسالة التعبير وأداته وما يعينه عليه .

ونحن نتوسع في النقل من تقويمات ريتشارد المسكين لأنه كتبها في عدة سنوات تمتد من شببته إلى كهولته ، ولأنها أدل كتاباته عليه في جوابه الخلقية والعقلية ، وما من صفة اشتهر بها هذا النابغة المتعدد

الجواب الا رأيها بارزة ناطقة في بعض كلماته التي تناثرت بين هذه التقويمات، ويكفى أن يتصفح القارئ جملة منها لتثبت في روعه صورة رجل معتدل المزاج سمح الطباع متزن العقل بعيد النظر صادق الملاحظة خبير بالموازنة بين الاحتمالات المتفرقة والأطراف المتعارضة موفور الحظ من ملكة التعبير في أسلوب يجمع بين الصواب والفكاهة ، وهكذا كان فرنكلين في جميع أطوار حياته وفي جميع ما تولاه من المهام والأعمال . وسنكتفي من أمثاله ومأثوراته في التقويمات بطائفة مما أورده الأستاذ كارل فان دورن^(١) أكبر المترجمين له والمشغولين بجمع آثاره ، ونزيد عليها قليلا مما لم يورده ورأينا فيه تنميما لمختاراته ، ثم نختم منتخبات التقويم بفصل عن كسب الثروة يدل على أسلوبه في مطولاته وفي سائر المطولات .

وهذه هي مأثوراته التي تدخل في جوامع الكلم والأمثال :
ما تلاقى الطمع والسعادة قط ، فكيف يتعارفان ؟

الفقر يطلب بعض الأشياء ، والترف يطلب كثيرا من الأشياء ،
والطمع يطلب جميع الأشياء .

في الدنيا سكيرون مدمنون أكثر من الأطباء المزمنين .

ليست الثروة لمن حواها ، وانما الثروة لمن تملأها .

هل لك فضيلة ؟ جملها اذن بزينة الفضيلة وشمائلها .

Benjamin Franklin by : Carl Van Doren. (١)

ليس أحلى من الشهاد الا المال والعتاد .

* * *

الملوك والديبة كثيرا ما تتعب حراسها .

* * *

قلب الأحقق في فمه ، وفم الحكيم في قلبه

* * *

ما من عدو بالعدو الصغير .

* * *

من يسرع في الشراب يبطيء في الحساب .

* * *

اصنع جميلا لصديقك كي تبقيه ، واصنع جميلا لعدوك كي تقربه
وتدنيه .

* * *

حيث يوجد الزواج بغير حب يوجد الحب بغير زواج .

* * *

من كان غنيا فلا حاجة به الى التقدير ، ومن كان مقترا فلا حاجة به
الى الفنى .

* * *

لا تستحسن من يستحسن كل ما تقول .

* * *

أسرة الحمقى عريقة .

* * *

انظر أمام والا وجدت نفسك وراء .

* * *

تقف الأكذوبة على قدم واحدة ، وتقف الحقيقة على اثنتين .

البطء والصمت فضيلتان من فضائل الحمقى .

انكر نفسك في سبيل نفسك .

الهرم في الشباب يكون شبابا في الهرم .

السبك والضيوف تفوح لهم رائحة بعد ثلاثة أيام .

الدهشة وليدة الغباء .

ليس للمساومة أقارب ولا أصدقاء .

من يملك الصبر يملك ما يريد .

ما من واعظ أوعظ من النملة ، وهى لا تنبس بكلمة !

لا يخلو الغائب من خطيئة ولا الحاضر من معذرة .

الفقر والشعر واللقب عرضة للساخرين .

ريفى بين محامين سمكة بين قطتين .

الحب والسلطان يكرهان الأقران .

شر دواليب المركبة أعظمها ضجيجاً .

اكتب مع العلماء وانطق مع الدهماء .

إذا شئت ألا تنسى في جدتك فاكتب ما يستحق أن يقرأ ، أو اعمل ما يستحق أن يكتب .

لا تؤجل مسعاك الحسن ولا تكن كالقديس جورج يمتطى جواده أبداً ولا يسير .

كما نحاسب على كل كلمة سخيفة نحاسب على كل صمت سخيف .

دع المسرات تتبعك .

الزمن عقّار يداوى كل داء .

إذا علمنا القدماء ما هو أفضل فليعلمنا المحدثون ما هو أوفق .

بيت بغير امرأة ولا وقاد ، جسد بغير روح ولا فؤاد .

لا القلعة ولا الحسناء تثبت طويلاً بعد المفاوضة .

زوج ابنك حين تريد ، وزوج بنتك حين تستطيع .

* * *

افتح عينك كلها قبل الزواج ، ولا تفتحها كلها بعده .

* * *

الحمقى يبسطون الموائد والحكباء يأكلونها .

* * *

تبكير في النوم وتبكير في اليقظة صحة وثروة وحكمة .

* * *

احفظ دكانك ودكانك يحفظك .

* * *

الكيس الفارغ لا يقف مستقيماً .

* * *

التجربة مدرسة غالية ولكن الحمقى لا يتعلمون في غيرها .

* * *

المفتاح المستعمل للماع .

* * *

لأجل مسمار ضاعت الحدوة ، ولأجل حدوة ضاع الحصان ، ولأجل
حصان ضاع الفارس .

* * *

الاتقال ثلاثا نكبة كنكبة الحريق .

* * *

مطبخ سمين وصية هزيلة .

* * *

ثلاثة يحفظون السر اذا مات منهم اثنان .

وهذه نماذج من حكم التقويم قد اجتهد كارل فان دورن أن يوفى بها التمثيل لما جاء منها في التقويم على مختلف السنين ، ولكن حكم التقويم على الخصوص كانت أكثر المأثور من كلام فرنكلين تفرقا بين تراجمه المطولة أو الموجزة ، وإن كان بعضها مقصورا على دراساته العلمية أو مساعيه السياسية ، وهذه طائفة أخرى منها نجعلها من هنا وهناك لندل على ملازمتها لذكره في عصره وبعد عصره وعلى اتساع نطاقها في الاعراب عن مختلف الأمزجة والأهواء :

* * *

من لا يقدر على الطاعة لا يقدر على الأمر .

* * *

تدبر طويلا في اختيار الصديق ، وتدبر أطول من ذلك في تبديله .

* * *

حسن يعمل خير من حسن يتقال .

* * *

خير لك أن تضار مرات من أن تضير مرة .

* * *

الهمة أم الحظ السعيد .

* * *

الجهل لا يعيب الانسان كما يعيبه ألا يقبل التعليم .

* * *

بم تعبد الخالق ؟ بالاحسان الى الخلق .

* * *

إذا كان رأسك من الشمع فلا تمش في الشمس .

* * *

فضيلة وحرفة خير ميراث للوليد .

القدوة الصالحة أبلغ العظات .

لا تحكم على ثروة الانسان ولا على تقواه بسيماه في يوم الأحد .

من نام مع الكلاب تيقظ مع البراغيث^(١)

أحق من يجعل طبيبه وريثه .

شجاع والحكيم يعذران حيث لا يتسع للرحمة قلب المغفل والجبان .

الفرصة أنجح غواية .

من يعشق نفسه فليس له مزاحم في الغرام .

عين المعلم أقدر من يمينه .

ساعدينى يا ذراع فليس عندى ضياع .

حراث على قدميه أشرف من سيد على ركبتيه .

ليس الكرم أن تجزل العطاء . الكرم أن تعطى في موضع العطاء .

(١) هذه الأمثال مختارة من كتاب ريتشارد المسكين تأليف دويرتى

Daugherty

أخفى الحماقات حكمة أفرطت في الدقة .

الملح مع حكماء يونان أجمل طعاما من السكر مع ندماء الطليان .

وليست هذه الحكم جميعا من ابتكار فرنكلين ؛ ولكنها خليقة كلها أن تنسب اليه لأنه يصبغها بصبغته ، ويلبسها بعصاه ، ويقولها كما ينبغي أن يقال في نظره وإن جاءت قبل ذلك في معناها على لسان غيره .
وقد أشار « فان دورن » الى الحكم المستعارة من هذا القليل فذكر منها بعض الشواهد على منهج فرنكلين في تحويل الحكم المستعارة الى أسلوبه وتصحيحها بذلك وفاقا لتفكيره وتعبيره ، ومنها الحكمة الايقوسية التى تقول : « الخزنة السنان عمال عجاف » فانه يقتبس معناها فيقول « مطبخ سمين وصية هزيلة » . ومنها الحكمة الشائعة التى تقول : « ثلاثة يحسنون النصيحة اذا غاب منهم اثنان » ، فانه يتعهدها بما عنده من فرط الأناة والحذر فيقول : « ثلاثة يحفظون السر اذا غاب منهم اثنان » .

وقس على ذلك سائر الحكم من هذا القليل وهى ليست بالكثيرة ، فقد حرص فى كل ما أثبتته من نصائح التقويم أن يتقبلها قراؤه ويشعروا بمنفعتها وموافقتها لأحوالهم التى هى فى الوقت نفسه أحواله من أكثر الوجوه ، وقد كان الأغلب الأعم من وصاياه يدور على فضيلة القصد والحزم وهما ألزم الصفات لطلاب الرزق من العصاميين والغرباء الذين لم يتأصلوا بعد فى البلاد ، ولعله لم يكن فى معيشتهم قدوة فى القصد والحرص على المال ؛ أو لعله أصاب حين قال ان القصد الذى حرمه قد تموضه من تدبير امرأته وربة بيته ، ولكنه كتب ما يود أن يتبعه ويود كل قارئ مثله لو وفق لاتباعه ، فكان لسانا ينطق بما يجيش فى كل ضمير .

قال الحكيم اللاهوتى هوثرن Hawthorne الذى خطب فى ذكره
(سنة ١٨٤٢) :

« أشك فى أن الكشوف الفلسفية التى كشفها فرنكلين على جلالتها ،
أو الخدمات السياسية التى قام بها على اتساعها ، كانت تكسبه كل هذا
الصيت البعيد الذى أحاط باسمه لولا تقويم ريتشارد المسكين فهو
أجدى من كل عمل سواه فى اذاعة ذكره بين جمهرة الناس ، فانه بكتابه
تلك الحكم التى كانت تحسب من كلام ريتشارد المسكين قد أصبح
المستشار الناصح الأمين لكل بيت فى أمريكا على التقريب ، ومن ثم
كان أعظم أعماله وداعة وتواضعا أعظمها عائدة عليه بالصيت البعيد .
ويشتمل التقويم كما تقدم على نمط آخر من النصائح المعيشية
التي تشتمل عليها التقاويم عادة ولكنها مطولة بعض التطويل يشغل بها
مكان المقدمة ويتخللها بالملح واللواذع المضحكة على أسلوبه فى الحكم
الصغار ، ومن قبيل هذه النصائح المطولة مقاله عن « السبيل الى الثروة »
الذى أضافه الى ترجمته فى طبعاتها الأخيرة ، وقد احتال فيه على إعادة
بعض الحكم القصار بلسان الرواية من باب المراجعة والتذكير .

قال فى مقدمة التقويم لسنة ١٧٥٨ . وقد سماه فى هذه الفترة تقويم
ريتشارد المسكين « فى التحسين ! » :
أيها القارئ المهذب :

سمعت أنه ما من شيء يدخل السرور على قلب المؤلف كأن يرى
المؤلفين العلماء يعنون باقتباس كلامه ، ولكنه سرور قلما استمتعت به ،
لأننى ، وإن كنت — بغير ادعاء أو غرور — قد أصبحت من مؤلفي
التقاويم المعدودين منذ ربع قرن لا أجد اخوانى فى هذه الصناعة —
ولا أدري لماذا — وجودون على بالثناء والتنويه ، وما من مؤلف آخر
عنى بذكرى فى بعض كلامه ، فلولا ما أصيبه من الخير من كتابتى لكان
نقص الثناء خليقا أن يشبطنى ويفت فى عضدى .

وآل بي الأمر الى الاعتماد على قضاء الناس وتقديرهم لعملى دون غيره ، لأنهم يشتركون كتنى وأسمع منهم من يقول حيث لا يعرفنى أحد خلال طوافى بالمدينة : « كذلك قال ريتشارد المسكين » فأشاع ذلك فى نفسى مع توالى الأيام شيئا من الرضا ، لأنه لا يدل على العناية بأرائى وحسب بل يدل مع ذلك على أننى قد أصبحت مرجعا لهم يستشهدون به ويعتمدون عليه ، وائنى لأقر هنا اننى فى سبيل الحض على ذكر تلك الحكم وتكرارها قد طالما استشهدت أنا نفسى بكلامى فى جد وتوقيع . وعلى هذا تستطيعون أن تقدرُوا مبلغ اغتباطى بالقصة التى سأرويها لكم فيما يلى :

« وقفت حصانى أخيرا حيث كانت جمهرة من الناس تتجمع فى بعض الأسواق ، ولم تكن ساعة البيع قد حانت بعد فأخذوا يتحدثون بينهم عن سوء الحال وأوما أحدهم الى شيخ من عامة الجمع نظيف البزة فسأله : بربك أيها الأب ابراهيم . ما ظنك بهذه الأحوال ؟ أليست هذه الضرائب الثقيلة وشيكة أن تقضى بالبلد الى الخراب ؟ فكيف ترانا قادرين على أدائها ؟ وبماذا تنصح لنا فى أمرها ؟

فقام ابراهيم فى مجلسه وأجابهم قائلا : « ان أردتم نصيحتى فهأنذا أمحضكم اياها فى كلمات وجيزة . لأن الكلمة فيها الكفاية للعاقل ، وكثير من المقال لا يملأ المكيال كما يقول ريتشارد المسكين .. فأقبلوا عليه يستمعون اليه ورجوه أن يكاشفهم بحلية رأيه ، فقال :

« أيها الصحاب ! أيها الجيران . ان الضرائب لثقيلة حقا ، ولو كانت ضرائب الحكومة وحدها هى التى نطالب بها لكان من الميسور لنا سدادها ، ولكننا ننوء بضرائب شتى يتضاعف ثقلها على بعضنا .

« فنحن مثقلون بضعفيها من جراء كسلنا ، ومثقلون بثلاثة أضعافها من جراء كبريائنا ، ومثقلون بأربعة أضعافها من جراء حماقتنا ، وكلها

من الضرائب التى لا يستطيع الجباة أن يخففوها عنا بالتقسيط أو النسيئة ،
فعلينا اذن أن نصغى للنصيحة الحسنة وتترقب من ثم شيئا ينفعنا ،
فإن الله فى عون من يعين نفسه كما قال ريتشارد المسكين فى تقويم
ثلاث وثلاثين .

« انها لحكومة قاسية تلك الحكومة التى تسوم رعاياها أن يفرغوا
عشر أوقاتهم لخدمتها ، ولكن الكسل يسوم الكثيرين منا فوق ذلك
لو أننا أحصينا الساعات التى ذهبت منا هدرًا فى التواني والتهاون
لا نعمل شيئا أو نعمل ما ليس بشيء من ضروب اللهو والمجانة ، وإن
الكسل ليستقم أبداننا مذ كان الركود كالصدأ يبلى منها ما ليس يبله
الجهد والتعب ، ولن يزال المفتاح العامل لامعا كما قال ريتشارد المسكين .
وكذلك قال اننا ما دمنا نجب الحياة فلا ينبغى أن نفرط فى الوقت لأن
الوقت هو قوام الحياة ، وكم من الوقت نقضيه فى غير ضرورة مستسلمين
للرقاد ناسين أن الثعلب النائم لا يصطاد دجاجة وأن تحت التراب نوما
طويلا كما قال ريتشارد المسكين .

« واذا كان الوقت أنفس قنية فتبديد الوقت على رأى ريتشارد
المسكين أسوأ ضروب الاسراف ، ولن يعود الوقت الضائع ثاية كما قال
فى عبارة أخرى ، وما نسميه الكفاية من الوقت كثيرا ما ننظر فنراه دون
الكفاية . فعلينا اذن أن نمضى قدما عاملين ، وأن نعمل ما ينبغى أن يعمل
فنتجز الكثير ولا نعانى من القلق والههم غير القليل ، وكل شيء صعب
مع التهاون والكسل سهل مع السعى والاجتهاد كما جاء فى كلام ريتشارد
المسكين ، ومن فاته التبكير حق عليه العناء سحابة النهار وأتى عليه الليل
ولما ينجز من عمله ما ينجزه المبكرون ، وما أحرى الكسل فى خطواته
البطاء أن يدركه الفقر على عجل كما قرأنا فى تقويم ريتشارد المسكين
الذى يقول هذا ويزيد عليه أن ادفع عملك ولا تدع عملك يدفعك ، وإن

التبكير في النوم والتبكير في اليقظة صحة وثروة وحكمة .

« وأحسبني أسمع بعضكم يقول : ألا يجوز للإنسان أن يسمح لنفسه ببعض الفراغ؟ فأنا قائل لك أيها الصديق ما قاله ريتشارد المسكين: أحسن استخدام وقتك ان أردت أن تنعم بقسط من الفراغ ، وما دمت لا تضمن دقيقة فلا تقذف ساعة من يديك .

« ان الفراغ وقت ينتفع به ، وفي وسع الرجل العاقل أن يجد هذا الفراغ وليس ذلك في وسع المتبطل الكسلان ، وصدق ريتشارد المسكين حيث يقول : ان حياة الفراغ وحياة الكسل شيئان مختلفان . أفتحسبون ان التهاون يعطيكم من الراحة فوق ما يعطيه العمل ؟ كلا . فان ريتشارد المسكين يقول : تأتى المشكلات من الكسل وتنجم المشقة من الراحة في غير جدوى . وكثير من الناس يودون بغير عمل أن يعيشوا على حيل ذكائهم فحسب ، ولكنهم لا يجدون الخزين الكافي من هذه البضاعة ، في حين أن الاجتهاد يأتى بالراحة والوفر والاحترام . ودعوا المسرات تتبعكم والغازل الدؤوب عنده « شلة » وافية ، واذا كانت عندي بقرة وشاة فكل عابر يقرئني التحية ، كذلك يقول ريتشارد المسكين .

وعلينا مع الاجتهاد أن نثابر وننتظم ونتنبه ، وأن ننظر في عملنا بأعيننا ولا تتكل فيه على غيرنا ، وصدق أيضا ريتشارد المسكين اذ يقول: « ما رأيت شجرة كثيرة التنقل ، ولا أسرة كثيرة الترحال ، الا كانت في ثمراتها دون زميلتها التى تنتظم على حال » .

وكذلك يقول : « الانتقال ثلاثا نكبة كنكبة الحريق » ، وكذلك يقول: احفظ دكانك ودكانك يحفظك ، وكذلك يقول : ان أردت أن تنجز عملك فامض أنت وان لم ترد فأرسل فيه من ينوب عنك ، ومن أراد أن يسعد بالمحراث فلا بد له من مقاد أو سياق ، وعين السيد أفعل من كلتا يديه ، وقلة العناية أفدح ضررا من قلة المعرفة ، واذا قصرت في مراقبة صناعتك

فأنت تفتح كيسك لهم وتتركه ، والاعتماد الكثير على الغير يجز الخراب على الكثير ، والناس في هذه الدنيا كما جاء في التقويم لا تتحقق لهم النجاة بالثقة والاتكال بل بقلّة الثقة والاتكال ، وعناية الانسان بنفسه هي المجدية عليه ، ويقول ريتشارد المسكين أيضا : المعرفة للدارس والثروة للمعنى كالقوة للجسور المقدام ونعيم السماء للصالح الورع . أو كما قال كذلك : ان أردت لك خادما أميناً وخادما ترضاه فاخدم نفسك ! . وانه لينصح بالمراقبة والاشراف حتى في صغار الأمور . اذ يحدث كثيرا أن قليلا من الاهمال يجلب البلاء الكبير ، وقد ضاع مسمار فضاقت الحدود ، وضاقت الحدود فضاقت الحصان ، وضاع الحصان فضاقت الفارس حيث أدركه العدو وقضى عليه ، من أجل مسمار في حدوة حصان .

هذا في أمر الاجتهاد — أيها الأصدقاء — وأمر عناية المرء بعمله ومولاته له بنفسه ، ولكننا حريون أن نضيف القصد الى الاجتهاد اذا أردنا أن نستوثق من ثمرة اجتهادنا . فان الذي لا يحسن الادخار كما يحسن الكسب يظل أنفه على المسن طول حياته ويموت وهو لا يساوى فلسا مما كسب ولم يدخر . وصدق ريتشارد المسكين اذ يقول : ان المطبخ السمين وصية هزيلة ، وكم من ضيعة ضاعت لوقتها منذ ترك النساء الغزل في سبيل الشاي ، وترك الرجال الحرث في سبيل الكأس .

وانه ليقول في تقويم آخر : ان أردت الغنى ففكر في الجمع كما تفكر في الطلب ، وما استطاعت فتوح الاسبان في أمريكا أن تغنيهم لأنهم بددوا أكثر مما غنموه .

فبعدا اذن للسرف وعاداته ، وأمانا اذن من الزمن وغدبراته ، اذ لا يبقى لديكم بعد الخلاص من ربة السرف ما تجدونه اليوم من علل الشكوى والتبرم بسوء الحال وثقل الضرائب وتكاليف البيوت ، وصدق ريتشارد

المسكين مرة أخرى فيما قال حيث قال : ان النساء والخمور واللعب والغرور ، تنقص من الثروات وتزيد من المطالب والحاجات ، وان تربية رذيلة واحدة تكفى لتربية طفلين ، ولعلكم تظنون حيناً ان قليلاً من الشئ أو قليلاً من الشراب أو قليلاً من النفقة يزداد على تكاليف الطعام ، أو قليلاً من البذل يزداد على ثمن الكساء أو قليلاً من الدعوات والولائم بين حين وحين لن ينجم عنه شئ كثير . فاذكروا اذن ما يقوله ريتشارد المسكين اذ يقول : حذار من تضييع القليل فان ثغرة صغيرة تفرق السفينة الكبيرة ، ومن أحب اللطائف والقطائف أقام الحجة للسائل والأفاق ، وان الحسنى يستملون الموائد والحكماء يأكلونها .

ولنختم الآن هذا الحديث فنقول : ان التجارب مدرسة غالية ولكن الحمقى لا يتعلمون في غيرها ، ولعلمهم لا يحسنون التعلم فيها بعد ذلك فاننا نستطيع أن نسدئ النصح ولا نستطيع أن نسدئ الخلق والسجية ، واذكروا على كل حال ان الذين يتلقون نصيحة لا يلقون المعونة ، وان الذى يصم أذنيه عن نصيحة الرب لا يكتبه .

وهكذا ختم الشيخ حديثه ، وانتم اليه القوم وأقروا الرأى وذهبوا على الأثر يعملون بنقيضه ، كأنما كان هذا الحديث موعظة من مواعظ المنابر في المعابد ، فما هو الا أن فتحت السوق وبدأ البيع والشراء حتى تهافتوا على السلع يبذلون فيها المال عن سعة ولا يباليون تحذيره من السرف وخوفهم من الضرائب الثقالة . وألقيت الرجل الطيب قد وعى ما كتبت في تقويماتى وهضم كل ما دوته فيها خلال هذه السنين الخمس والعشرين ، ولا بد أن الاشارة الى كرة بعد أخرى قد أسامت كل من سمعها سوى ، وان كانت قد طيبت خاطرى وأرضت غرورى ، مع علمى أننى لم أكن صاحب تلك الحكمة ولم يكن لى مقدار عشرين ، انما هى حصاد الأجيال والأسلاف .

على أننى قد عولت أن أتنفع بصداها وكنت أنوى أن أبتاع قماشا
لسترة جديدة فعدت من السوق معتزما أن ألبس سترتى العتيقة فترة
أخرى .

أيها القارىء

لأنك ان صنعت مثل صنيعى كان نفعك منه مثل نفعى ، واننى على
الدوام رهين خدمتك ..

٧ من يوليو سنة ١٧٥٧ .

رسائل

تعد رسائل فرنكلين بالمئات ، نشرت في مجموعات متعددة حسب موضوعاتها أو حسب الجهات التي أرسلت اليها ، ومنها العام الذي يرتبط بالسياسة والعلم والمصالح القومية ، ومنها الخاص الذي يرسل به أهله وذويه وخاصة صحبه ، ويقصر في الأعم الأغلب على التحية واسداء الرأي في المسائل البيتية .

وكل هذه الرسائل مما يصح أن يوصف بالكتابة الفرنكلينية ؛ ونريد بها الكتابة التي تتسم بطابع الرجل وتنم على ملامح نفسه وعادات تفكيره، وليس المراد بهذا أننا نقرأ الرسالة بغير توقعه فنعلم أنها من قلمه ، فان هذه الخصيصة ربما صدقت على الكثير من كتاباته ولكنها لا تصدق عليها جميعها ، ولكن المراد بالكتابة الفرنكلينية أننا اذا بحثنا فيها لم نخطئ فيها دلالة على خلقه أو رأيه أو شواغل عمله ، وعلى سبيل التمثيل نشير الى رسالة وجيزة مكتوبة في مسألة مألوفة في المراسلات بين الاخوة والأقارب كتبها الى أخته جين Jane أحب أخواته اليه لأنها استشارته في ارسال ابنها بينى Benny الى نيويورك ، فقال لها في أسطر معدودات: « اذا كنتم على رغبتكم في ارسال بينى فأرسلوه على أول مركب الى نيويورك واكتبوا معه سطرا موجها الى مستر جيمس باركر الطباع ... وأنا على ثقة من حسن معاملته هناك وسألتقى خيرا عنه في الأسبوع نفسه ، وأوصوه أن يكون على الدوام بشوشا مرحا مستعدا لعمل كل ما يؤمر به وكسب الرضا من كل من يعمل معه ، فهذه خير وسيلة لاقتناء الأصدقاء ، ومحبتى لك يا أختى العزيزة لحسن رعايتك لأينا في مرضه ».

فهذه الرسالة « فرنكلين » فى أكثر من سمة واحدة ، لأنه لا ينسى فيها الخصلة التى عرفت عنه فى أدوار حياته من صباه الى أواخر أيامه وهى الحرص على كسب الأصدقاء واتقاء المغاضبة والعداء ، وهى تطابق حكمته التى كررها كثيرا وفحواها أن يحسن الانسان الى الصديق ليستبقيه ويحسن الى العدو ليستدنيه أو يعيده الى مودته ، وهذا مع البر بالأهل والعناية بأداء الواجب وانجاز ما يفرضه على كل من يناط به عمل يؤديه .

ومثل هذه السمة لا نخطئها فى رسالة من رسائله العامة أو الخاصة ، فهى تمثله للقارئ حينما بما فيها من روح الفكاهة والسخرية الطيبة ، أو بما فيها من طبيعة المودة والمسألة واستنفاد كل حيلة فى سبيل التفاهم والاقناع ، أو بما فيها من الدقة والتنظيم واجتناب الاسراف والفضول ، وقد كان يكتب رسائله العامة الى الصحف على أسلوبه فى أول كتاباته منذ نشأته الصحفية الباكرة ، فبعضها فى قالب الأمثال على السنة الآخرين وبعضها فى قالب العظات الفكاهية ، وبعضها فى قالب التلخيصات المرتبة كما ترتب الدروس الملخصة ، وبعضها فى قالب الحوار بين اثنين أو أكثر من اثنين ، ويجرى حوارهم على نسق الحوار المعهود فى كتب أفلاطون ، آراء متتابعة تملأ ما بعدها ويأخذ بعضها برقاب بعض ، ثم تستدعى ردودها وأجوبتها كأنها تأتى من قبيل الحقائق المفروغ منها ، وهى كما لاحظ جامع رسائله الى الصحافة فيرنر كرين Verner W. Crane «مقنعة ولكنها ليست بالدرامية فى وضعها» (١) أى انها تقنع الفكر ولكنها لا تثير الشعور ولا تستجيش الخيال كما يحدث عند قراءة الحوار الدرامى الذى ينوع الكاتب شخوصه ويبرز فيه الأمزجة والدوافع النفسية فتستجيب لها نفس القارئ بما تثيره من دوافعه وطواياه .

وهذه الرسائل التى تترجمها مقتبسة بغير عناء فى الاختيار من أشتات رسائله الخاصة والعامة ، لا تتوخى فيها الا أن تكون معبرة عن فرنكلين فى عادة فكر أو سجية شعور أو طريقة عمل ، ولا حاجة الى العناء الطويل فى الاختيار لهذا الغرض لأن كتاباته كما قدمنا فرنكلينية بطبيعتها فى صفة واحدة على الأقل من هذه الصفات .

رد على خطباء القهوات

كتب هذه الرسالة ، بتوقيع مستعار ، الى صحيفة لندن كرونيكل London Chronicle بتاريخ التاسع من أبريل سنة ١٧٦٧ ردا على خطباء القهوات الذين كانوا يحرضون الشعب الانجليزى على قمع الولايات الأمريكية وأخذها بالعنف والصرامة بدلا من الاصغاء الى مطالبها الوطنية .

قال :

« لقد كان لأئينا خطباؤها ، وقد صنعوا لها فى بعض الأوقات خيرا كثيرا كما صنعوا لها الشر الكثير فى أوقات أخرى ، وكان أسوأ ما صنعوه من شر على الخصوص يوم نجحوا فى اغرائها بشن الغارة على صقلية فنأثت بأعبائها وخسائرها وكان من جرائر تلك الحرب أن الدولة الزاهرة سقطت ولم ترجع الى ازدهارها بعد ذلك أبدا .

« وان هؤلاء الصياحين بالدهماء بين الأقدمين يخلفهم فى العصر الحديث كتاب نشراتكم السياسية وكتاب الصحف وخطباء القهوات . « ومما يلفت النظر أن رجال الجندية المنقطعين لهذه الصناعة ، وهم أناس متصفون بالشجاعة التى لا جدال فيها ، قلما يشيرون بالاقدام على الحرب الا عند الضرورة القصوى ، بينما يتعالى اللفظ بالحرب لأتفه الأسباب من أناس كأولئك الصياحين والثائرة والمحدثين الذين هم

بطبيعتهم يهابون أو بحكم أعمالهم البدنية تعوزهم تلك النخوة التى تنبعث منها الشجاعة الصادقة ، ويبدو عليهم كأنهم أشد بنى آدم تعطشا الى الدماء .

« واننا لفى هذا الزمن الذى لم نكد فيه نتنفس فى أعقاب الحرب الشعواء المرهقة التى أهدرت الدماء والأموال على نحو لم يسبق له مثيل فى القارة الأوروبية ، نرانا أمام طوائف ثلاث من الخطباء يجتهدون اجتهادهم فى اثارتنا على أصدقائنا والاندفاع بنا الى حرب مع البرتغال وحرب مع هولندة وحرب مع مستعمراتنا .

« فأما الحربان الأوليان فليس فى نيتى أن أبحث فيما تنطويان عليه من الحكمة والانصاف ؛ اذ لا أحسب أن انجليزيا يخامرهم الشك — اذا كان الهولنديون قد أساءوا الى أجدادنا قديما قبل مائة وخمسين سنة — أن الانتقام منهم واجب فى أية لحظة كائنا ما كان مبلغ الصداقة بيننا بعد تلك الاساءة ، وأن البرتغاليين — اذا كانوا يشترون ثيابهم من الفرنسيين بأثمان أقل من أثمان الثياب عندنا — يحققون بأن نوسعهم ضربا حتى يشوبوا الى الصواب ويتخذوا لهم رأيا غير ذلك التفضيل والايثار .

« فاذا سلمنا أننا من القوة والبأس بحيث نقدر على ضرب هولندة والبرتغال معا ، لسبب أو لغير سبب ، ومعهم أصدقاؤهم الذين ينتصرون بهم أو بمعزل من أولئك الأصدقاء ، وعلينا أعداؤنا الذين يستثيرهم ذلك الصنيع أو بئامن من أولئك الأعداء ، وسلمنا كذلك أن الهولنديين أيضا خليقون أن يبضوا لنا بالنفقات اللازمة للقتال — اذا سلمنا ذلك جميعا فلا غرض لى الا أن أضع بين يدى ذوى النظر ، بكل خشوع ، فرضا يخطر على البال ، وهو أن تكون لنا على تلك الفروض وسيلة أخرى لفض الخلاف بين وزرائنا الأسبقين ومستعمراتنا بوسيلة غير قطع الرقاب ! « وكل خطوة تقودنا الآن الى السخط على أمريكا : تتطير النشرات

والصحف ويضج خطباء القهوات بالكاذب التي تقول عنها انها
ثائرة عاصية ، وتستدعى القوة والأساطيل والجحافل للذهاب اليها ،
وما يوجد منها هنالك ينبغي أن يستدعى من الأرجاء النائية لاحتلال
العواصم الكبرى ، وينبغي كذلك أن يساق رؤوس القوم الى البلاد
الانجليزية لتعليقهم على المشائق وما شابه ذلك ولماذا كل هذا ؟
لماذا ؟ أسأل لماذا ؟

نعم . أرجو أن يؤذن لى أن أسأل : لماذا ؟
وجواب لماذا هذه أن القوم ييغون اسقاط الحكومة فى هذه البلاد
واقامة أنفسهم فى مقامها .

فكيف بدأ ذلك كذلك ياترى ؟
تقول : كيف بدأ ؟ أليسوا جميعا يحملون السلاح ؟
تقول : كلا . بل هم جميعا فى سلام .
— أفلم يمتنعوا عن أداء التعويض للمصايين فى حوادث الشغب
الأخيرة كما طلبت الحكومة هنا ؟

— كلا . بل هم قد بذلوا الترضية الوافية ، وهى — على فكرة —
ترضية لم تبذل هناك لضحايا الشغب الذى حدث منكم هنا .
— أفلم يشعلوا النار فى دار المكوس والجمرک ؟

— كلا . ان القصة كلها أكذوبة ملفقة لا أصل لها على الاطلاق .
— أفلم يتردوا على القانون البرلمانى الذى ينص على انواء الجنود ؟
فلم يرسلوا الى الحكومة هنا طالبين الغاء الحجر على تجارتهم والغاء
قانون الملاحة بهذه المثابة ؟

— ان الجمعية فى ولاية واحدة — ولاية نيويورك — هى التى
أنكرت ذلك القانون ، وان بعض التجار فى تلك الولاية هم الذين
اجترأوا على ذلك الطلب . فاذا سلمنا أن الانكار والطلب خيانة عظمى ،

فهل نسلم أن خمسا وعشرين ولاية تعاقب جزيرة ولاية واحدة ؟
هلموا ننظر في سكون في معنى ذلك القانون ومعنى انكاره ومعنى
الطلب من أولئك التجار .

ان القانون قد صدر من نفس الادارة التي أصدرت قانون الدفعة ،
ولعله قد أريد به تيسير ارباب الولايات . لاختصاصها لحكمه ، ولهذا
اشتملت نسخته عند تدوينها لأول مرة على فقرة تخول ضباط الجيش
أن ينزلوا الجنود في المنازل الخاصة بأمريكا ، ولما عورضت هذه الفقرة
أشد المعارضة انتهى الأمر بحذفها والاكْتفاء باستئجار المساكن الخالية
والأُتبار (مخازن الغلال) لايواء الجنود حيث يزودون بالوقود والمصابيح
والفراش وأدوات الطبخ وتهيئة الطعام ، مع خمسة أكواب من الجعة
أو السدر أو نصف كوب من شراب الروم لكل جندي كل يوم ، وبعض
أشياء أخرى لا تؤدي أثمانها جميعا بل تتكفل بها خزانة الاقليم . وما من
وسيلة في الاقليم لجمع المال غير اصدار قانون من مجلس الولاية يوجب
تحصيله ، وعلى هذا وجب أن ينظر الى الأمر على اعتباره قانونا صدر
هنا ليعززه قانون يصدر من المجالس الأمريكية ، وقد ارتاب بعضهم
في صواب هذا الاجراء لأنهم يرون أن المجالس في أمريكا انما هي
برلمانات صغيرة وليست هيئات تنفيذية أو ديوانا من دواوين الحكومة
يعمل عمله تنفيذا للأمر الذي يصدر اليه ، فانما هي هيئات مشورة وابداء
آراء ينظر أعضاؤها فيما يعرض عليهم ليتدبروا منافعهم وضروراته ووجوه
الصواب والامكان فيه ثم يقرروا ما يقررونه حسبما يرونه ، فاذا أكرهت
هذه المجالس على سن القوانين ، على صواب أو على خطأ — اطاعة
لتشريع تسليط عليها هيئة تشريعية أخرى فلا نفع لها باعتبارها هيئة نيابية
ولم تبق لها صفتها ولا حقيقة كيانها . والحق أن القانون البرلماني نفسه
يلوح عليه أنه أحسن ذلك لأن القوانين الأخرى التي تفرض الواجبات

على الأشخاص تنص على عقوبة الرفض والاهمال وعلى الطريقة التى تتبع فى تنفيذ تلك العقوبة ، ولم يرد نص كهذا — ولا يعقل أن يرد — فى مثل هذا القانون البرلمانى عما يطلب من مجالس الأقاليم ، فوقع فى حساب الأمريكين أنه طلب تنظر فيه المجالس لتقره أو لا تقره ، كله أو بعضه ، حسب اختلاف الأحوال بين الأقاليم ، ومن ثم قبلته ولاية بنسلفانيا حيث يقل عدد الجنود على العموم ، ولم تقبله ولاية نيويورك حيث تعبر الجنود جيئة وذهابا عدة مرات بين بريطانيا والولايات الفرنسية ، وحيث يشعرون بثقل العبء عليهم من جراء تنفيذه ، ولهذا قبلت الولاية جزءا من الطلب ووجهوا خطابا الى حاكمهم سردوا فيه أسبابهم بأسلوب ملؤه اللطف والاحترام .

وان كثيرا من الناس ليبدو لهم أن هذا القانون خطأ على التحقيق . اذ ليس من اليسير توضيح سبب حسن لانزال الجنود فى مكان من الأمكنة بين مستعمرات الملك جميعا لتزويدها بشيء ما فى مقابلة لاشيء ... انهم يصطحبون معهم صرافا على الدوام ، فلماذا لا يؤدى الثمن لكل ما يحصلون عليه ؟ .

ان هذه التكاليف عبء ينفرد بحمله الاقليم الذى يتفق أن يلقى عليه ، وهو من ثم غير عادل وغير سواء ، وفى بريطانيا يلقى هذا العبء على أصحاب الخانات ويعتبر كالضريبة التى تفرض على أرباب هذه الصناعة ، وفى وسعهم تعويض الغرم بزيادة الأجر على النزلاء وتوزيع الضريبة بهذا الأسلوب على نحو أقرب الى المساواة ، ولكن الولاية التى يتفق أن تتعرض لهذا الغرم لا تستطيع أن تلقيه على ولاية أخرى معفاة منه بحكم موقعها .

الا أن خطباءنا — خطباء القهوات — ينظرون الى المسألة نظرتهم ويقررون أن هذا الإنكار الموافق لمجرى القانون عصيان يعاقب بما

يلأئمه . وانه لخليق أن يكون اجراء نادرا ذلك الاجراء الذى يجعل القانون يفرض شيئا جديدا ولا يقرر وسيلة تطبيقية ولا العقوبة التى تترتب على مخالفته ثم يأتى بعد المخالفة فيقرر هذه وتلك . فتلك فيما أرى أول سابقة من نوعها فى شئون التشريع ولا تحسب فى باب الشرائع كما تحسب فى باب الفخاخ التى تنصب للرعايا ليقعوا فيها . وكذلك يكون عصيانه ضربا جديدا من العصيان . اذ كان المفهوم من العصيان دائما أن يفعل الانسان شيئا .. وهذا عصيان يقوم على أن المرء لا يفعل شيئا من الأشياء . فان كان كل انسان يهمل شيئا فى قانون ما أو يدع تنفيذ ذلك القانون يحسب ثائرا عاصيا ، فأنى لأخشى أن يكون عدد الثوار بيننا أكثر مما نحسب ، ومنهم ، ولا نحصيهم ، أولئك الذين أهملوا تسجيل أوزان الأطباق وسداد الضريبة عنها ، وهم فيما أظن غير قليلين ، ويصح أن يضاف اليهم أولئك الذين يلبسون الحرائر الفرنسية وما شابهها من فاخر الثياب .

أما قصة الطلب أو العريضة التى سبقت الاشارة اليها فقد سمعت من بعض التجار أبناء ولاية نيويورك رأيا يقولون فيه ان القوانين التى تقيد التجارة فى الولايات لا تضر الولايات فحسب بل يتعدها الضرر الى المملكة الأم (يعنى انجلترا) .. وانهم ليذكرون الأسباب التى يبنون عليها هذا الرأى وهى جديرة أن تدرس هاهنا ، وقد يتبين أنهم على صواب فلا يستحقون الزجر بل يستحقون الشكر والثناء ، والا ففى الوسع القاء الطلب جانبا والاعراض عنه ، فليس الطلب ثورة ولا عصيانا ولكنه فى صميمه اعتراف بالسلطان لمن يتقدم الطلب اليه ، وان مقدميه من رعاياه .

يبد أن الآراء المتحيرة تخلق من الحبة قبة فى كثير من الأحيان ، وحين يكون الذئب قد عقد العزيمة على مخاصمة الحمل فلا فرق بين

وقوفه على اتجاه الماء أو على غير ذلك الاتجاه ، وما أيسر ما توجد
التعلات أو تخلق اذا لم توجد ، ولا مبالاة بالحكمة والانصاف فانهما
لمن وراء الحساب !

حادثة عن الرق

وهذه رسالة كتبها في الثلاثين من شهر يناير سنة ١٧٧٠ الى صحيفة
الاعلان العام Public Advertiser للرد على الذين ذكروا مسألة الرق
في أمريكا ليعترضوا بها على المطالبين بالحريات القانونية من الأمريكيين.
قال بعد مقدمة يذكر فيها مناسبة ارسال هذا الحديث « الخيالى »
الحقيقى الى الصحيفة :

انجليزى — انكم معشر الأمريكيين تصخبون كلما توهتمتم أن شيئاً
يمسكم فيما تسمونه بحرياتكم ، على حين لا يوجد فوق ظهر الأرض
من يعادون الحرية كعدائكم ، وما أتم الا طغاة متعسفون حيث تسنح
لكم الفرصة كما تسنح الآن .

أمريكى — وكيف كان هذا لعمرك ؟

انجليزى — اقرأ كتاب جرانفل شارب Granville Sharpe عن الرق .
فتعلم كيف كان هذا بشهادة العيان .

أمريكى — لقد قرأته .

انجليزى — وبعيشك ماذا فهمت منه ؟

أمريكى — أصارحك رأى إله فى جوهره كتاب حسن ، واننى
لأعجب بغيرة المؤلف على الحرية فى الجملة ، ويسرنى ما أرى فيه من
دلائل الانسانية . غير أنه يتكلم عن الأمريكيين عامة فيزعم أنهم
لا يشعرون بالحب الصحيح للحرية وأنهم قلما ينفرون من الاستبداد
والظغيان وأنهم قلما يتورعون عن تسليط الاستبداد والظغيان بأقصى

ما فى وسعهم من الشدة على عبيدهم المساكين ، وهذا ما لست أقره كما
أننى لا أقر النتائج التى انتهى إليها حيث يخلص من تلك المزاغم الى
انكار حق الأمريكيين فى الحرية ، ففى ذلك مجافاة للعدل وغلو فى
الانحاء على الأمريكيين ، مع اغضائه عن أخطاء بلاده ، وليس هذا فيما
أرى بالانصاف فضلا عما فيه من الاضرار بنا هذه الآونة على الخصوص ،
اذ يحاول أن يصورنا فى صورة بغیضة ويغرى بنا من يبتون النية على
ظلمنا واضطهادنا ، منكرًا حقنا فى الحرية التى ننشدها الآن .

انجليزى — وأى وزر لبلاد المؤلف فى تلك المظالم التى يشكوها ؟
وأى كلام من كلامه لا يشمل حكمه معاصر الأمريكيين عامة ؟

أمريكى — ينبغى ألا يكون كلامه عاما على اطلاقه لأن الأسس
التي يقيمه عليها ليست بالأسس العامة . وهذه انجلترا الجديدة — أكثر
المستعمرات الانجليزية سكانا فى أمريكا — قليل فيها عدد العبيد ، ومن
وجد من هذا القليل فهو فى العواصم حيث لا يعملون فى عمل شاق ..
وأكثرهم ثمة ساعة أو خدم فى المنازل ، ويقال مثل هذا عن المستعمرات
التي يقل سكانها عن سكان انجلترا الجديدة ، كنيويورك ونيوجرسي
وبنسلفانيا ، وحتى فى فرجينيا وماريلاند وكارولينا حيث يعمل العبيد
فى الزراعة لا يوجدون الا عند الأسر الغنية القديمة على مقربة من مياه
الملاحة ، وانهم لقليلون بالقياس الى الأسر التي تقيم وراءهم ويندر أن
يوجد لديها العبيد ، ولو أنك عبرت أمريكا الشمالية من أقصاها الى
أقصاها لم تجد أسرة من كل مائة أسرة لديها عبيد ، وان ألوفا من الناس
هناك ليمقتون الرق كما يملكه مستر شارب ويتورعون عن كل ما يتصل
به ويبدلون جهدهم فى الغائه . فاذا كان من الاجرام فى رأى ذلك السيد
أن يقتنى المرء عبدا فهل من العدل أن نوصم جميعا بالجريمة ؟ واذا كان
فى انجلترا واحد من كل مائة يخل بحقوق الأمانة فهل من العدل أن يقال

ان الانجليز كلهم لصوص وسراق ؟ زد على ذلك أن الذين يقتنون العبيد ليسوا جميعا قساة أو طغاة ، وكثيرون منهم يعاملون عبيدهم بالرفق والمروءة ويتكفلون بهم في حالتى الصحة والمرض كما تتكفلون هنا بالعمال الفقراء ، وما هؤلاء العمال الفقراء عبيدا بالاسم ولكنهم ما أشبههم بالعبيد حين تضطربهم الشريعة الى العمل كل تلك الساعات في خدمة ساداتهم بتلك الأجور ولا تسمح لهم بطلب المزيد أو المساومة على الأجر بل تسجنهم في بعض المشاغل ان رفضوا العمل بالأجر المقدور وقد تسجن السيد اذا قبل أن يزيدهم في الأجور ، ويحدث كذلك في الوقت نفسه أن يحال بين الصانع الذكى وبين السفر من هذه الجزيرة اذا منح في خارجها أجرا أكبر من أجره فيها .

أما وزر انجلترا في المظالم الأمريكية فليذكر سيدى أنها هى التى بدأت بتجارة الرقيق وأن تجارها من لندن وبريستول ولقربول وجلاسكو يرسلون سفنهم الى افريقية لشراء العبيد . فاذا أساء التجار استخدام الوسيلة في اقتناص العبيد ، واذا شنت الغارات لاحتجاج الأسرى ، واذا استدرج الأحرار الى متون السفن ثم سيقوا الى الأسر غيلة وغدرا ، واذا بذلت الرشى للأمراء الصغار اغراء لهم ببيع رعاياهم وهم في الحق طائفة من العبيد — اذا حدث هذا كله فهل تقع جرائم هذه السيئات كلها على عاتق أمريكا ؟

انكم تجلبون العبيد الينا وتغروننا بشرائهم ، ولست أريد أن أسوغ وقوعنا في الغواية ، ولكننى أقول انكم اذا سرقتم الناس تبيعونهم لنا ونحن نشترىهم فلتذكروا المثل . القائل ان المشتري من السارق والسارق ياء . ، وقد وضع هذا المثل للذين لا يعلمون أن آخذ الشيء المسروق في حكم سارقه ، ولكن العكس لم يكن بحاجة قط الى مثل لتوضيحه ؛ اذا ما من أحد يجهل أن اللص كمن يشتري منه في المنكر والسوء ..

وانكم لم تفعلوا هذا وتفنعوا به وتثابروا على فعله وحسب ، بل زدتكم على ذلك أنكم أنكرتم القوانين التى وضعت فى أمريكا لتصعيب تجارة الرق وفرض الضرائب الثقيلة على الموردين للأرقاء وأمرت حكومتكم بنقضها لأنها ضارة بمصالح الشركة الأفريقية .

انجليزى — ما سمعت من قبل بقوانين من هذا القبيل وضعت فى أمريكا ، غير أن القوانين التى وضعتوها وادعيتهم أنها ضرورية لحسن سياسة العبيد بل الخدع البيض ، مما استشهد به مستر شارب فى كتابته ، لاتدعونا الى حسن الصن بمروءتكم العامة أو باحترامكم الحرية ، وليست تلك قوانين آحاد معدودين ، اذ هى مسنونة برأى نوابكم فى الجماعات الممثلة لكم ، وهى لهذا خليقة أن تنسب الى الجميع .

أمريكى — ليس الأمر كذلك . ويجوز أن بعض هذه القوانين وضع فى المستعمرات التى يربى فيها عدد الأرقاء كثيرا على عدد البيض كما هو الحال فى بربادوس الآن وفى فرجينيا من قبل ، وقد تكون تلك القوانين أقسى مما ينبغى من أثر الخوف والظن الغالب بأن الصرامة هى الوسيلة الوحيدة التى تروض العبيد على الطاعة وتصون على سادتهم حياتهم . أما الولايات الأخرى التى يقل فيها عددهم ولا يخشى الخطر منهم فالأمر رقيق والعبيد فى كفالة القانون من جميع الوجوه الا أن نحسب حساب الحرية ، ويجازى الرجل الأبيض بالموت اذا قتل عبدا ملكه كما يجازى على قتل انسان كائنا من كان . ومن الواجب أن نذكر أن سرامة القوانين على قدر الغباء أو على قدر السوء فى خلائق المحكومين . وقد علمتنا التجربة هذه الحقيقة فى كل مكان . وقد يخطر لك أن العبيد قوم لطاف ودعاء يسلس قيادهم لمن يقودهم ، وانهم كذلك بعض الأحيان ولكن الأكثرين منهم على خبث وكيد وضمينة وسوء دخيلة وقسوة بالغة على أشد ما تكون القسوة ، وتجاركم وملاحوكم الذين يجلبونهم من غانة يعلمون ذلك ويعانون من تمردهم على

السفن السابحة أو المرسية على الشاطئ كل العناء ، وما ظفر العبيد بمن عداهم مرة الا أتوا عليهم أجمعين ، وكلما حدث التمرد من هذا القبيل عالجهم قومكم بما يحسبونه ضرورة لا محيص عنها من الصرامة والشدة ، وأطلقوا النار على بعضهم أو شنقوهم على ظهر السفينة ، وربما كان من هؤلاء العبيد أناس مجرمون في بلادهم يبيعهم أمراؤهم عقوبة لهم على جنائياتهم ويجعلون النفي والعبودية جزاء لهم عليها كما تجزون أنتم هنا من تدينونهم من الأشرار ، وما دامت حكومتكم لا تقبل أن تسن القوانين لخراج العبيد من البلد فهل يحق لكم أن توجهوا اللوم الى تلك القوانين التى تبدو ضرورية لحكمهم وهم فى ذلك البلد ؟ انجليزى — لكن القوانين التى تضعونها لمعاملة الخدم البيض لا تقل فى قسوتها عن القوانين التى توضع للعبيد السود .

أمريكى — هى كذلك فى بعض الولايات ، وبخاصة تلك الولايات التى ينفون اليها مجرميكم ، وان الخدم الودعاء ليعاملون فى أمريكا معاملة الرفق التى يجدونها فى انجلترا . غير أن الأشرار الذين تدينونهم وترسلون بهم إلينا لا بد لهم من القمع الشديد بعضا من حديد . وقد وضعنا القوانين فى ولايات عدة لمنع دخولهم ، وكانت هذه القوانين تنقض هنا على اعتبارها مخالفة لقانون البرلمان ، ولسنا نشكركم على اقحامهم علينا ، ونحسبها بربرية من حكومتكم أن تخلى سجونها وتسلأ بهم محلات بلادنا ، بل نحسبها اهانة من أسوأ الاهانات ، فان كانت الشرائع الرفيعة تصلح لسياسة هؤلاء القوم فما بالكم لا تبقونهم عندكم وتسوسونهم بتلك الشرائع ؟ على أنك خليك أن تذكر أن الشرائع التى ترمونها بالقسوة قد أرسلت الى حكومتكم كما ترسل جميع الشرائع الى الملك فى مجلسه فأبرمتها . فان كانت مع هذا عرضة للملام فتفضلوا أنتم واحملوا على عاتقكم بعض هذا الملام ! .

يقوسى — لا يحق لكم أن تقولوا اننا نقحم المجرمين على بلادكم ،
أذ فى وسعكم اذا شئتم أن تحجموا عن شرائهم ، ولو لم يكن من طبعكم
الطفيان ولم يكن من هواكم أن تتخذوا لكم أتباعا نسومونهم العذاب
وتشبعون بتعذيبهم تلك الشهوة فى نفوسكم ، وكان لديكم حقا ذلك
الشعور بالحرية الذى تثيرون به تلك الضجة — لما اشترتيم أحدا من
العبيد ولا من المجرمين ، ولما احتملتم شيئا كهذا الرق أن يبقى بين
ظهرانىكم .

أمريكى — الحق كما تقول أننا نستطيع أن نكف عن شرائهم ، وان
كثيرا من العقلاء ليحجمون عن شراء أحد منهم . الا أن الدنيا فيها العقلاء
وغير العقلاء ، وغير العقلاء يطعمهم الثمن البخس فى شرائهم ، وعلينا نحن
أن نكبح هذا الطمع وأن نمنع تجاركم أن يصلوا إلينا بتجارتهم البغيضة ،
ولكنكم لا تأذنون لنا فى ذلك ، ومن أجل هذا قلت انكم تقحمون علينا
العبيد كما تقحمون علينا المجرمين . وانى لیدهشنى ياسيدى أن أسمع
ملاحظتكم التى تقول فيها اننا لو كنا نحب الحرية حقا لما سمحنا لشيء
كالرق أن يبقى بيننا . فهذه ملاحظة غريبة من بريطانى من أهل الشمال
حيث الرق مشروع بحكم القانون لا يزال !

يقوسى — أحسبك تشير الى قوانين المواريث وهى لا تشتمل على
شيء من الرق ، وقد تقضت مع ذلك بقانون صدر من البرلمان .

أمريكى — كلا ياسيدى . اثنى أعنى الرق فى مناجمكم : أعنى
المساكين الذين يحفرون الأرض ليستخرجوا منها الفحم لكم . ففى تلك
الأفئاق المظلمة التى لا تطلع عليها الشمس عبيد بحكم القانون يتلوهم
فى العبودية أبناءهم من اللحظة التى يستطيعون فيها أن يحملوا السلة
الى اللحظة التى يختمون بها أعمارهم . وانهم ليباعون ويشترىون مع
المناجم وليس لهم من حرية الفكاك من هذا الأسر نصيب أكبر من نصيب

العبيد عندنا في الفكاك من مزارع سادتهم ، واذا كان سواد وجوههم مسوغا لاستعبادهم فأنتم لاتجدون حتى هذا المسوغ لاستعباد عمال الفحم عندكم . ولتذكر أنهم تحت غبار الفحم الأسود لهم جلود بيض ، وانهم أناس أمناء طيبون ، وهم فوق ذلك من أبناء وطنكم .
انجليزى — يصرنى أنك لاتنحى على انجلترا بمثل هذه الوصية .
فان عمال الفحم عندنا أحرار كسائر العمال .

أمريكى — وهل من أجل هذا تزعمون أنكم لاتعرفون شيئا من قبيل الرق في البلاد الانجليزية ؟

انجليزى — لا يوجد في انجلترا شيء كهذا بكل تأكيد !
أمريكى — أخالنى قادرا على أن أعرض أمام نظرك ما يقنعك بوجوده اذا اتفقنا أولا على تعريف الرق ما هو ؟ ولئن صح ما يقوله مؤلفكم من أن اقتناء العبيد يسلب حق المقتنى في الحرية لتكونن أنتم معشر الانجليز محرومين من هذا الحق حرمان الأمريكيين .
انجليزى — وما تعريفك للرق اذن . أرجو أن نسمعه لنعلم هل نحن متفقون عليه أو غير متفقين .

أمريكى — العبد — فيما أرى — هو كائن بشرى يسرق أو يغتصب أو يشتري من غيره أو من نفسه بالمال ويضطر لذلك الى خدمة الآخذ أو الشأرى حسب هواه مدى الحياة . وقد يباع مرة أخرى أو يؤجر لغير سيده ويضطر في هذه الحالة الى خدمة مشتريه أو مستأجره ، ولا يضطر الى اطاعة سيده وحده بل يضطر كذلك الى اطاعة أوضاع الخدام لديه ، فيحضر متى استدعاه وينصرف بأمره ويقوم حيث يرتضى له الإقامة ولو بعث به الى أقصى أطراف الأرض وأوخم الأجواء ، وعليه أن يلبس الملابس التى يختارها له سيده ولا يلبس غيرها ولو لم تكن من لباس العرف الشائع وكان الارتداء بها علامة من علامات العبودية ،

وعليه كذلك أن يتقبل الطعام الذى يفرضه له سيده أو يتقبل القدر الذى يعطيه اياه من المال بديلا من الطعام والكساء . وينبغى ألا يفارق مكان الخدمة بغير اذن مولاه وأن يخضع للجزاء الصارم عقابا له على أيسر الهفوات ، وأن يساوم الضرب بالسياط ، بل القتل ، عقابا له على الأباق من الأسر أو على عصيان الأمر .. أحسب أن كائنا بشريا كهذا انما هو عبد فى كل ما يراد من العبيد ويفرض عليهم .

انجليزى — أوافقك على تعريفك . الا أنتى على يقين ، نعم على يقين ، انك لن تجد فى انجلترا أحدا بهذه الصفة .

أمريكى — كلا . بل عدة ألوف اذا كنت قد أحسنت وصف الجندى الانجليزى أو الملاح الانجليزى بذلك التعريف . فالملاح كثيرا ما يجبر على الخدمة وينتزع من جميع روابطه وعلاقاته ، والجندى يشتري عادة بدينار وبعض دينار فى سوق التجنيد ، ولسيده أن يبيع عمله من يشاء من الأمراء الغرباء ، أو يؤجره بما يبرمه من المعاهدات ويقذف به الى حيث يرمى أو يرمى فى ألمانيا أو البرتغال أو غانة أو الجزر الهندية الغربية، وهو مقيد بالعمل مدى الحياة يصدق عليه كل حرف مما ذكرته فى ذلك التعريف ، وقد يتخطى الرق الانجليزى فى حالة من الحالات كل ما انتهى اليه من الحدود فى الديار الأمريكية .

انجليزى — وماذا تعنى ؟

أمريكى — نحن لا نستطيع فى أمريكا أن نأمر العبد بعمل لا يستقيم مع الخلق أو مع الشريعة ، ولا نستطيع مثلا أن نأمره باقتراف جريمة القتل ، ولو أمرناه بذلك لحق له أن يأبى وتقره القوانين على الاباء . غير أن الجندى مجبر على طاعة كل أمر أو يعرض نفسه للموت ، ولو كان الأمر كأمر هيرود بقتل كل طفل دون السنتين أو بقطع رقاب الصغار فى المستعمرات أو باطلاق النار على النساء والأطفال فى

بطاح سان جورج (اشارة الى مذبحه سنة ١٧٦٨) (١)
ويسلك فرنكلين مثل هذا المسلك « المنطقى » لاقناع مخالفه داخل
بلاده فى مسألة الرق كما سلكه فى مناقشة المخالفين خارج بلاده لاقناعهم
فى هذه المسألة ، وقوام الاقناع عنده فى الحالتين أن يأخذ المخالفين له بما
يديفون به ويسلمونه وأن ينبههم الى أحوالهم التى يفعلون عنها
ولا يلتفتون الى مغزاها وأن يريهم أنهم يصابون بالحجة التى يسوقونها
قبل أن يصيبوا بها غيرهم ، وهذا الأسلوب المنطقى أفعل الأساليب فى
الزام حجتهم ، لأنها فى النضال المنطقى بمثابة قتل الهجوم الى معسكر
الخصم من داخله ليشتغل بنفسه عن مهاجمة غيره .

وقد تقدم أن فرنكلين كان يقول انه يرحب برسول المفتى الأكبر من
القسطنطينية اذا طاب للمفتى الأكبر أن يوفده الى الديار الأمريكية ،
ولكنه فى الرسالة التالية يذكر أنصار الرق فى بلاده بحجة القراصنة الذين
كانوا يستخدمون شواطئ المغرب بأفريقيا الشمالية لاقتناص ركاب
السفن والاتجار ببيعهم والتعلل بالدين لاستباحة رقابهم ، وكان بعض
أنصار الرق — مستر جاكسون مندوب ولاية جورجيا — قد ألقى
خطابا فى مجلس النواب — يفند به أقوال المعارضين على النخاسة
أو تجارة الرقيق ونشرته صحيفة الفدرال جازيت Federal Gazette
فكتب فرنكلين الى الصحيفة يرد عليه بهذا الأسلوب التهكمى الذى
يشبه « محاكاة الصوت » للسخرية والتنديد ، وكان تاريخه يوم
الثالث والعشرين من شهر مارس سنة ١٧٩٠ قبل وفاة فرنكلين بنحو
ثلاثة أسابيع :

(١) من كتاب رسائله الى الصحف المتقدم ذكره .

خطاب سيدى محمد ابراهيم

سيدى محرر الفدرال جازيت.

قرأت أمس فى صحيفتكم الغراء خطاب مستر جاكسون فى مجلس النواب يستنكر به تعرضهم لمسألة الرق ومحاولتهم تحسين أحوال الرقيق ، فذكرنى خطابه هذا بخطاب ألقى قبل مائة سنة بلسان سيدى محمد ابراهيم عضو الديوان بالجزائر كما أثبتته مارتن فى سجل قنصليته سنة ١٦٨٧ . وكان هذا الخطاب معارضا لجماعة الطريقة الصوفية التى توسلت الى الديوان أن يأمر بالغاء القرصنة والنخاسة لأنهما تناقضان العدل والانصاف .

ان مستر جاكسون لم يستشهد به ولعله لم يطلع عليه ، ولهذا يبدو من براهينه وذرائعه أن عقول الناس ومنافهم تدين وتدان على منهج واحد فى جميع الأمم والأقاليم كلما اتفقت المطالب والأحوال ، وهذه هى ترجمة الخطاب الأفريقى المشار اليه .

بسم الله . الله أكبر . ومحمد نبيه ورسوله .

... ترى هل فكر أصحاب هذه الطريقة فى عواقب الاستجابة لرجائهم؟ وكيف ترانا نصل الى البضاعة التى تأتى من البلاد المسيحية ولا غنى لنا عنها اذا نحن كفنا عن شن البغارة على المسيحيين؟ ومن الذى يزرع لنا الأرض فى هذه البلاد الحارة ان لم نتخذ منهم عبيدا مسخرين؟ ومن الذى يؤدى لنا عمل الخدم فى المدن والبيوت؟ ألا يقول بنا الأمر يومئذ أن نصبح نحن العبيد المسخرين لأنفسنا؟ ألسنا هنا أحق بالرحمة من أولئك الكلاب؟

لدينا الآن خمسون ألفا فى الجزائر وحولها ينقصون يوما بعد يوم ان لم يأت المدد من جديد ، فان كفنا عن اغتنام سفن الكفرة واسترقاق الملاحين والمسافرين على متونها فلسوف تصبح أرضنا هملا لا قيمة لنا

لا نقطاع العمل في زراعتها ، وسوف تهبط أجور بيوتنا في المدينة الى نصفها وتنفد موارد الخزانة تبعا لذلك . ومن أجل ماذا كل هذا يا ترى ؟ كل ما هنالك أن نرضى أهواء طائفة من أصحاب الأحوال والبدوات يودون لو أننا أطلقنا الأرقاء الذين في حوزتنا فضلا عن تحرير المزيد من المدد الجديد .

وبعد ، فمن الذي يعوض سادتهم عن ضياعهم ؟ أنعوضهم الدولة ؟ أفى خزائنها كفاية من المال ؟ أترى يعوضهم أبناء تلك الطريقة أم فيوسعهم هذا التعويض ؟ أم هم في سبيل الانصاف الذي يزعمونه لأولئك العبيد يتجافون عن انصاف أولئك السادة المظلومين ؟ وهل نأطلقنا عبيدنا فماذا يصير من أمرهم بعد اطلاقهم ؟ ان قليلا منهم من يعودون الى بلادهم لعلمهم بالمصاعب التي تنتظرهم هنالك ، وهم لا يؤمنون بديننا ولا يسيرون على نهجنا في حياتنا ولا يتبعون عاداتنا ولا يقبل أبناء قومنا أن يدنسوا أنفسهم بمخالطة أسابهم . فهل نرانا نستبقيهم بيننا متسولين في طرقاتنا ؟ أو نرانا نترك أمتعتنا لمن يريد منهم أن يسرقها ويسلبها ؟ ان الذين نال بهم عهد العبودية لن يعملوا لكسب قوتهم ان لم يجدوا من يكرهمهم على العمل لها ، وماذا لعمري في معيشتهم اليوم من سوء أو مما يستدر الرحمة والاشفاق ؟ ألم يكونوا عبيدا في بلادهم قبل هذه البلاد ؟ أليست بلاد الأسبان والبرتغال والفرنسيين والايطاليين مسخرة في طاعة حكام مستبدين ؟ أليست انجلترا تسوم ملاحها سوم العبيد وتقبض عليهم حكومتهم كما تشاء لتحبسهم في سفن الحرب وتكرهمهم لا على العمل وحسب بل على القتال من أجل رزق قليل أو مؤونة تسد الرمق ولا تفضل في شيء . سبح به نحن للعبيد . فهل تسوء أحوالهم اذن لأنهم يقعون في أيدي هؤلاء الكلاب . بل قد ياتي الأمر أنهم يستبدلون رقا برك ، وأقول انه لرب من رقههم لانهم يعيشون هنا حيث تشرق شمس الاسلام في روعتها وبهائها ، وحيث تتاح لهم الفرصة للاهتمام الى الدين الحق

والنجاة بأرواحهم من الهلاك . أما الذين يمكثون منهم فى أرضهم فلا أمل لهم فى هذه السعادة ، ولن يكون ارسال العبيد من بلادهم الا كإخراجهم من النور الى الظلمات .

وأعود فأسأل : ماذا عسى أن يصير من أمرهم ؟ لقد سمعت من يقول انهم يرسلون الى القفار حيث تتسع الأرض لمعيشتهم ويقيمون أحرارا فى أرضهم . على أننى أحسبهم لا ينشطون لعمل قط ما لم يدفعوا اليه على الرغم منهم ، وانهم لأغبى من أن ينهضوا بحكومة حرة لحكم أنفسهم ، ولن يلبثوا أن يغير عليهم الأعراب من أهل البادية فيستعبدوهم ، ولكنهم حين يقيمون فى خدمتنا يلقون منا الرفق وحسن الرعاية على سنة الرحمة والمروءة ، وليس للعمال فى أوطانهم كما أعلم نصيب من ذلك بل هم على نصيب قليل من الغذاء والسكن والكساء ، فهم على هذا تصلح أمور الأكثرين منهم بيننا ولا حاجة بهم الى ترفيه أو اصلاح حال . اذ هم هنا فى أمان لا يجبرون على الجندية ولا على أن يعمل المسيحيون منهم فى قطع رقاب اخوانهم المسيحيين كما يحدث فيما يشجر بينهم من الحروب . فاذا كان أناس من هؤلاء المجاذيب الذين يحتجون بالغيرة على الدين فيما بيننا قد حسن لديهم أن يرفعوا العرائض تترى للافراج عن هؤلاء الأسارى فما كان ذلك من كرم فيهم ولا من مروءة ورحمة ، وانما هى أعباء ذنوبهم وخطاياهم يرزحون بها ويخيل اليهم أن هذا المطلب خليك — لما يتوهمونه من احسانه وفضله — ان ينجيهم من الهلاك وسوء الجزاء .

وما أضل هؤلاء المتهوسين حين يحسبون أن الاسترقاق محرم فى القرآن ؟ أليس أمر السادة بالرفق وأمر العبيد بالطاعة والإمانة نصا على جواز الاسترقاق ؟ كذلك لا يحرم فى الكتاب سلب الكفار لأن المعلوم منه أن الله قد وهب الدنيا وكل ما فيها لعباده المؤمنين يغتنمون ما افتتحوا منها .

فلا نستمتعن بعد الآن لذلك الطلب البغيض ، ولنعلمن أن اطلاق
الأرقاء النصرى يسلب الكساد والخراب على أراضينا ويوتنا ويحرم
الكثيرين من رعايانا الأمناء طيبات أرزاقهم فيشير القلق فى النفوس ويفرى
المتذمرين بالفتنة ويزعزع مكانة الحكومة ويعم الديار بالفوضى
والاضطراب ، ولا يخامرني الشك — لهذا — فى أن هذا المجلس الحكيم
يؤثر سعادة الأمة المؤمنة كلها على ارضاء فئة من أبناء الطريق ، ويعرض
عما يطلبون .

ولقد كان من أثر هذا الكلام ، كما أنبأنا مارتن فى سجله ، أن
الديوان انتهى الى هذا القرار :

« ان القول بأن سلب النصرى واسترقاقهم ظلم ومجافاة للعدل انما
هو على الأقل من الأقوال المختلف عليها ، ولكنه من الواضح أن الابقاء
على هذه الحالة فى مصلحة الدولة . فلا تقبل تلك العريضة بناء على هذا
الاعتبار » .

وعلى هذا رفضت العريضة .

ولما كانت البواعث المتشابهة تميل بعقول الناس الى ما يشبهها . من
الآراء والقرارات ، أفلا يجوز لنا — يامستر براون — أن نستخلص
من ذلك أن العرائض التى أرسلت الى برلمان انجلترا لالغاء النخاسة ،
ولا نذكر ما عدا ذلك من المطالب ، وشيكة أن تصير كما تصير المناقشات
فيها الى مصير كهذا المصير .

اننى ياسيدى قارئك المثابر وخادمك المتواضع^(١) : مؤرخ .

(١) اعتمدنا فى ترجمة هذه الرسالة على النص الانجليزى المنشور فى
الجزء الاول من كتاب أئمة الأدب الأمريكى طبع مكملا

معاهدة مع سيدة

وهذه رسالة من نوع آخر غير الرسائل الى الصحف وغير الرسائل الى سائر الأشخاص ، كتبها الى السيدة بريون Brillion احدى سيدات المجتمع الرفيع في باريس ، وكان يكتب اليها باللغة الفرنسية فتصحح له أخطاءه وتدربه على التعبير الفصيح في الكتابة والكلام بتلك اللغة ، وقد كتبت اليه من نيس تعاتبه لأنه انصرف عن الاهتمام بها في غيابها ووجه التفاته الى سيدات غيرها ، وكان الخطاب في صيغة المراسم الدولية ، فكتب اليها الرد في صيغة معاهدة سياسية وقدم لها بفاتحة تمهيدية (بروتوكول) فقال :

باسى ، في ٢٧ من يوليو سنة ١٧٨٢ .

يما أبعد الفارق بينك وبينى ا انك تعدين عيوبى كثيرة حتى لقد تربى على الاحصاء ، وأنا لا أرى لك الا عيبا واحدا لعله من عيوب نظارتى ا. ذاك ضرب من الطمع يوحى اليك أن تعظمى عاطفتى وتستأثرى بها وحدك حتى لا بقية فيها لواحدة من سيدات وطنك المحبوبات ، وكأنك تحسبن أنها من العواطف التى لا تقبل القسمة الا نقصت وتفرقت، وهى غلطة فى الحساب وفى النظر الى طبيعة الموقف الذى وقفنتى فيه وقضيت به على . فانك تجردين حبا من كل صلة جسدية غير ما يكون من عناق كعناق أولاد العم عند مقدمهم من الريف . فماذا بقى من العاطفة مما يسوغ لى أن أنتجه به الى الأخريات دون أن يغض ذلك أو ينقص من محبتى اياك ؟ ان خطرات الفكر والتقدير والاعجاب والتوقير ، بل العطف نفسه على موضوع من موضوعاته ليقبل المضاعفة والزيادة كلما تضاعفت تلك الموضوعات وازدادت دون أن يخل ذلك بحق صاحب العطف الأصيل أو يسوغ له الشكاية من ضرر . وانه لفى طبيعته من قبيل تلك الألحان العذبة التى توقعينها على المعزف ببراعتك الألمية ،

ويستمع لها عشرون فيغتبطون بسماعها ولا يفض ذلك من نصيبى الذى تريد أن يخصنى منها ، وقد يحق لى اذن أن أطالبك بمنعها أن تصل الى اذن غير اذنى . وسترين على هذا كيف جاوزت بمطالبك حد العدل والنصفة ، وزدت عليها اعلان الحرب علىّ ان لم أذعن لجميع تلك المطالب ، ولو أنصفتنى لكان من حقى أنا أن أشكو اليك . وها هو ذا ولدى الصغير لم يسمن ولم يكتنز كعهدى بالأطفال فى رسومك الرشيقة، بل هو يهزل ويتضوع الى غذائك المرىء الذى تنكرينه عليه أنت أمه الحنون ، ثم هأتذى تتوعدينه بقص جناحيه كى يقعد عن البحث عنه فى مكان .

ويخيل الى أن الحرب التى تشهرينها لا أغنم منها ولا تغنمين ، ولما كنت أنا الأضعف وجب على أن أصنع ما يصنعه الأحكم ، وأن أبدأ بطلب الصلح ، ولا ضمان لدوام الصلح الا أن تصاغ شروطه فى قالب الانصاف وتبادل الرضا والموافقة ، وهذه هى مواد المعاهدة التى أعرضها للقبول والابرام :

المادة الأولى

يتقرر السلام الدائم مع الحب والصداقة بين الطرفين مدام بريون ومستر فرنكلين .

المادة الثانية

لدوام هذه العلاقات تقبل المدام من جانبها أن يكون مستر فرنكلين على استعداد لتلبية الدعوة كلما خطر لها أن تدعوه الى حضرتها .

المادة الثالثة

على مستر فرنكلين أن يبقى بعد حضوره طالما سمحت له بالبقاء .

المادة الرابعة

إذا وجد معها فعليه أن يتناول الشاى وأن يلعب بالشطرنج وأن

يستمتع الى الموسيقى وأن يستجيب لكل أمر يصدر اليه من جانبها .

المادة الخامسة

عليه ألا يحب امرأة قط غيرها .

المادة السادسة

والمذكور فرنكلين يتعهد من جانبه أن ينصرف من عندها حين يشاء .

المادة السابعة

ويتعهد المذكور أيضا بالتغيب كما يشاء .

المادة الثامنة

وأن يفعل ما يشاء حين يكون في حضرتها .

المادة التاسعة

وألا يحب امرأة أخرى الا بمقدار ما عندها من دواعي المحبة .

وأرجو أن أسمع رأيك في هذه القواعد المبدئية ، وفي رأي أنها

أصدق تعبيرا عن المقاصد والنيات التي يرضاها الطرفان من أكثر

المعاهدات ، وبودي أن ألح وأصر على قبول المادة الثامنة وان لم يكن

أملى عظيما في قبولها ، وكذلك ألح وأصر على قبول المادة التاسعة وان

كنت على يأس من لقاء المرأة التي تستولى منى على حب يضارع حبي

اياك أيتها الصديقة الغريرة العزيزة^(١) .. للمخلص ب . ف .

بين العلة والمريض

وكان السيد بريون قرين السيدة بريون يشكو مرض النقرس

الذي أصيب به فرنكلين وحاول كعادته أن يلطف ألمه باستخراج العبرة

منه ، فكتب الحوار الآتي مع رسالة الى السيدة للتسرية عن قرينها في

مرضه ، وتكلم عن النقرس بضمير المؤنث وسماه السيدة على سبيل

(١) من كتاب « كتابات فرنكلين الترجمية » تأليف كارل فان دورن

Franklin's Autobiographical Writings by Carl Van Doren.

التهكم ، فترجمناه بأم النقارس لتصوير العلة في هذه الصورة بقدر
المستطاع .

فرنكلين — أه . آخ . يارب . ماذا ترانى صنعت كى أستحق هذه
الآلام القاسية .

أم النقارس — صنعت كثيرا . أكلت أكلا لما ، وشربت شربا جما ،
واستسلمت لكسل قدميك فتركتهما فى متعة الراحة الزمن الطويل .

فرنكلين — من ذا يكلمنى ؟

أم النقارس — اننى أنا نفسى أم النقارس .

فرنكلين — عدوى بعجره وبجره .

أم النقارس — لست بعدوك .

فرنكلين — بل عدوى المبين . فانك لا تقنعين بقتل جسدى
بالأمك المبرحة وحسب ، بل أراك تعملين على تشويه سمعتي الحسنة ،
وتتهمينى بالنهم والادمان ، وكل من عرفنى فقد عرف أنه مامن أحد قط
رمانى بهذه التهمة وزعم اننى أفرط فى الطعام أو الشراب .

أم النقارس — ليحكم الناس كما يحبون . فما أكثر مجاملة الانسان
لنفسه فى هذه الأيام ! وما أكثر مجاملة الأصدقاء للأصدقاء . الا أننى
أنا أعلم أن الطعام الذى لا يحسب كثيرا ، وان الشراب الذى لا يحسب
لذلك بالنظر الى اسان كثير الحركة ، لهو الافراط بعينه حين يتعاطاه
رجل قليل الحراك .

فرنكلين — اننى . أه . آخ . اننى أتريض جهد ما أستطيع ياسيدتى
أم النقارس ، واثق لتعلمين طبيعة حياتى « القاعدة » ... فكان فى وسعك
ياسيدتى أم النقارس أن تحسبى حسابها وتعفينى من الألم بعض الاعفاء ،
اذ لم تكن غلطتى أنا أن أعمل فى استقرار .

أم النقارس — أبدا . ان منطقك ولباقتك عبث ضائع ، ومعاذيرك

لا تساوى قطميرا فى هذا المقام ، فانك اذا كان عملك ساكنا مستقرا فقد وجب أن تكون رياضتك وتسلياتك متحركة ناشطة ، عليك أن تخرج للرياضة على قدميك أو على ظهر جواد ، واذا عز عليك الوقت فترى بلعب البليار ، فتعال نحاسبك على منهج حياتك وكيف تتصرف فى قضاء أوقاتك .. يكون لديك الكفاية من الوقت بعد منتصف النهار وعند الأصيل فماذا تراك تصنع فى هذه الساعات ؟ انك بدلا من شحذ الرغبة فى الطعام بالرياضة الصالحة تدأب على تسلية نفسك بقراءة الكتب والرسائل والصحف التى لا تستحق فى كثير من الأحيان أقل الثقات . ثم تتناول الغداء الفخم وتجرجع أربعة أكواب من الشاي والقشطة مع قدين من الخبز والزبدة عليها قطعة من لحم البقر مما لا يحسب فيما أرى من الطعام اليسير الخفيف على البطون . ثم تذهب الى مكتبك على الأثر حيث تكتب أو تتحدث الى الذين يزورونك فى شئون العمل ، وتمضى على ذلك الى الساعة الواحدة دون أن تروض بدنك أقل رياضة على أننى قد أغفر لك هذا لأنه كما تقول من طبيعة عملك القرير . ولكن تعال نسألك ماذا تصنع بعد الغداء ؟ انك بدلا من التمشى فى حدائق أصحابك الذين تتغذى عندهم كما يصنع أولو الفهم والفطنة ترسخ على المقعد أمام الشطرنج حيث يستطيع من شاء أن يرالك مستطردا فى اللعب ساعتين أو ثلاث ساعات . وتلك هى رياضتك الأبدية ، وهى أقل الرياضات موافقة لأصحاب العمل القرير ، لأنها لا تساعد حركة الأخلاط البدنية بل تتطلب الثبات والاتباء الطويل الذى يعطل تلك الحركة ، وكذلك تتلف بنيتك بالاستغراق فى تلك اللعبة التلسة ، فكيف يتوقع أحد أن يعيش تلك العيشة دون أن تركد أخلاط بدنه وتعرض للفساد ويصبح البدن من جراء ذلك عرضة لجميع الأدواء العضال ان لم أحضر اليك — أنا أم النقارس — بين حين وحين كي أهيج أخلاطك فأصفيها

أو أنفيها . ولو أنك في زاوية من زوايا باريس بين الأزقة التي لا تتخللها طرق الرياضة تقضى في لعب الشطرنج لجاز لك أن تتمحل تلك المعاذير ، ولكنك تفعل هذا في باسى وفي أوتيل وفي مونمارتر وفي ايبانى وفي سانوا حيث تكثر الحداثق والمنازه والنساء وينطلق الهواء النقى والأحاديث الممتعة النافعة وتستمتع بذلك كله وأنت سائر على قدميك . غير أنك تهملها جميعا حبا لتلك اللعبة التسعة لعبة الشطرنج . تعسا لك اذن ياسيد فرنكلين ! اننى نسيت نفسى وأنا ماضية في نصحك . فخذ الساعة هذه القرصة ، وخذ معها تلك ، وخذ .

فرنكلين — آه . آه . آه . هات بربك ما شئت من نصائحك بل من لواذعك ولكن بربك لا تزيدنى من هذه التقويمات والتصحيحات ! أم النقارس — على النقيض يا صاح . لن أعفيك من هباءة منها ، فانها لمصلحتك . خذ ! ..

فرنكلين — آه . آه . من الظلم ياسيدتى أن تقولى اننى لا أترىض فاننى لآخذ رياضتى في مركبتى حين أذهب الى الغداء وحين أعود . أم النقارس — تلك بين جميع الرياضات أقلها نفعا وأهونها حركة اذ تهتز المركبة على دواليبها ولا زيادة . ولك أن تحكم على مبلغ الرياضة في الحركة بمبلغ ما تحدثه تلك الحركة من الحرارة . فانك اذا خرجت للرياضة في الشتاء وقدمالك باردتان لم تلبث ساعة حتى تشعر بالحرارة في قدميك وجميع أجزاء بدنك ، واذا ركضت على ظهر الجواد فأنت في حاجة الى ساعات أربع للظفر بمثل تلك الحرارة ، ولكنك اذا جلست في مركبتك فربما قضيت اليوم كله وانتهيت الى قرارك وأنت بارد القدمين . فلا تخذعن نفسك اذن وتقضين نصف ساعة في مركبتك ثم تسمينها رياضة ، وما منح الله كل من هب ودب مركبة يمتطيها ، ولكنه منح كل انسان قدمين أكمل وأجمل وأنفع ، فاجعل من شكرك لله على هذه

المنحة أن تستخدمها وتنتفع بها . وفي وسعك أن تعرف كيف تتحرك
أخلط الجسم وأنت تنتقل من مكان الى مكان . فلاحظ أنك حين تمشي
على قدميك ينتقل ثقل جسمك كله دواليك تارة الى الجانب الأيمن
وتارة الى الجانب الأيسر وتضغط هذه الحركة على عروق القدم وتدفع
منها ما تحتويه ، ويتسع الوقت لامتلاء العروق مرة أخرى ريثما يتم
التحول من قدم الى قدم ، فيتم بذلك انتظام الدورة في الجسم ، ومن
هنا تأتي الحرارة التي تنشأ في لحظة من الزمن وتنشط الأخلط وتجرى
الزجة مجراها فيجرى كل شيء على ما يرام : تحمر الوجنتان وتتمكن
العافية .

« ولنتنظر الى صديقتك في أوتيل — تلك المرأة التي تلقت من
الطبيبة نصيبا من العلم الحق أوفر من أنصاء ستة منكم أدعياء الحكمة
الذين يقتبسونها من الكتب ، فانها حين تنوى أن تشرفكم بزيارتها
تمشي على قدميها من الصباح الى المساء وتدع أمراض الكسل كلها
تتوزع بين خيلها ، فانظر كيف تحافظ على صحتها بل على محاسنها ،
وأتم تنوون زيارة أوتيل ففي المركبة تذهبون ، ولا فرق بين المسافتين :
من أوتيل الى باسى أو من باسى الى أوتيل .

فرنكلين — انك تضجرينى بهذا الجدل .

أم النقارس — صدقت . سأمسك لسانى وأمضى في اداء واجبى .
خذ هذه الوخزة . وخذ هذه . وخذ .

فرنكلين — أوه . أوه . لا بل تكلمى . تكلمى . أتوسل اليك تكلمى .
أم النقارس — كلا . ان عندى حفنة من الوخزات حصتك في هذه
الليلة ، والبقية الى الغد .

فرنكلين — رباه . هذه هى الحمى . لقد هلكت . ألا يوجد أحد
يحمل عنى هذه الآلام .

أم النقارس — اطلب هذا من خيلك . فانها تتعب لتمشى فى مكانك .
فرنكلين — ما أشد قسوتك . تعذبننى كل هذا العذاب لغير سبب .
أم النقارس — أما لغير سبب فلا . وان لدى لثبثا وافيا أحصى فيه
جميع خطاياك فى حق صحتك ، وكلها منسطرة فى وضوح وما من وخزة
تتلقاها منى الا وعندى عليها برهان .

فرنكلين — اقرئيه اذن .

أم النقارس — انه شرح يطول ، ويأريكما بعرضها عليك .

فرنكلين — افعلنى . فكلنى أسمع !

أم النقارس — أتذكر كم مرة عزمت على التمشى فى غاب بولون
أو حديقة الصيد أو حديقةك واثبتت عن عزمك ، تزعم تارة أنه برد
وتارة أنه حر وفى ساعة أخرى أنها ريح أو أنها رطوبة أو أنها ما لست
تدرى ماذا من التعديلات ؟ تزعم ذلك وما فى كل أولئك من سبب
الا السبب الوحيد : وهو أنك كسلان !

فرنكلين — أعترف بأن هذا يحدث . لعله عشر مرات فى كل سنة .

أم النقارس — اعتراف أبتى ، والحق انه يتضاعف مائة مرة
وتسعا وتسعين .

فرنكلين — أيمكن هذا ؟

أم النقارس — نعم ممكن لأنه واقع ، ولك أن تطمئن الى صدق
كل ما أقول ، وأنت تعرف حدائق مدام بريون وتعلم أنها ما أصلحها
للسير فيها . انك تعرف الدرج الذى تعد منه مائة وخمسين من الأرض
الى المرتقى الأعلى ، وانك لتزور هذه الأسرة المحبوبة مرتين كل أسبوع
فيما بعد الظهيرة ، وانك لأنت القائل ان « التمرين » على صعود الدرج
ونزوله أكبر من التمرين على المشى فى السهول . فما كان أجمل الفرص
التي تتيح لك أن تجمع بين هذا التمرين وذاك التمرين . فهل انتفعت
بهما ؟ وكفى مرة ياترى ؟

فرنكلين — لا أقدر على الجواب الصحيح عن هذا السؤال .

أم النقارس — اذن أتولى أنا الجواب عنك .. ولا مرة ١

فرنكلين — ولا مرة ؟

أم النقارس — نعم ولا مرة . ففي أيام الصيف الماضى الجميل وصلت ثمة عند الساعة السادسة ، ووجدت ثمة تلك السيدة المليحة وأطفالها الحسان وأصحابها جميعا على استعداد لمزاملتك فى السير وامتاعك بأحاديثهم الرائقة . فماذا صنعت ؟ جلست على الشرفة وأثنت على المنظر الجميل وعانيت جمال الحدائق من تحتك ولم تخط خطوة واحدة لتهبط اليها وتسير فيها ، وعلى تقيض ذلك طلبت الشاي ورقعة الشطرنج ورسخت فى مجلسك حتى الساعة التاسعة ولعبت نحو ساعتين بعد تناول الطعام ، ولم تعد بعد ذلك إلى منزلك مشيا كى تتحرك بعض الحركة ، بل عدت اليه جالسا فى نوركبتك . فأية حماقة تلك التى تسول لك أن تظن أنك مع هذا الشطط تملك صحتك بغير زاجر منى ..

فرنكلين — الآن أو من بصواب ما قال ريتشارد المسكين حيث يقول ان ديوننا وخطايانا أكثر مما نحسب .

أم النقارس — ذلك حق ، وهكذا أنتم معشر الفلاسفة تملأون أفواهكم بالحكمة وتعملون عمل الجاهلاء .

فرنكلين — ولكن أترأك تعديتها من جنباياتى ، اننى عدت بالمركة من عند مدام بريون .

أم النقارس — بكل يقين ، لأنك قضيت اليوم جالسا ولا يسعك أن تزعم أنك قد تعبت من الجهد والمشقة ، أو أنك فى حاجة الى الترفيه عنك بالجلوس فى المركبة .

فرنكلين — فماذا تقترحين اذن ، وماذا ترين أن أصنع بمركبتي ؟

أم النقارس — احرقها ان شئت . انها تعطيك على الأقل شيئا من

الحرارة وهى محترقة ! وان كانت هذه النصيحة لا تروقك فانى باذلة لك غيرها . انظر الى الفلاحين المساكين الذين يحرثون الأرض فى الكروم والحقول حول قرى باسى وأوتيل وشايوت . انك سترى كل يوم بين هؤلاء الخلائق المساكين خمسة أو ستة من الشيوخ أو المعجزة قد انضت ظهورهم ورزحوا تحت وقر السنين فى الكدح والمشقة ، وهم بعد العمل المجهد طوال اليوم يمشون ميلا أو ميلين كى يصلوا الى أكواخهم المصدعة فمر سائقك أن يدعوهم الى المركبة ويحملهم الى بيوتهم ، فانه لعمل صالح تدخره لنجاة روحك ، ولئن عدت فى الوقت نفسه على قدميك من عند السيدة بريون ليكونن ذلك عملا صالحا تدخره لجسدك .

فرنكلين — آه . ما أثقل حديثك !

أم النقارس — نعود اذن الى شغلنا . فلتذكر دائما أننى أنا طبيبتك

خذ هذه !

فرنكلين — آه . أوه . يالك فى طبك من شيطانة !

أم النقارس — انك لتتكر الجليل اذ تقول ذلك عنى . ألسنت قد أنقذتك من الشلل بالقيام على تطبيقك ؟ ألسنت قد أنقذتك من أدواء الاستسقاء أو الفالج التى كانت وشيكة أن تقضى عليك لو لم أمنعها .

فرنكلين — أعترف بذلك ، وأشكرك على ما أسلفت ، ولكنى أرجوك الآن بربك أن تفارقينى فراق الأبد . فقد يلوح لى أن الموت أهون من علاج فيه مثل هذا الوجع ، واذكرى كذلك أننى كنت صديقك ، وأننى لم أدع أحدا لمصارعتك ومنازعتك لا من الأطباء ولا من الرقاة والمخرفين فان لم تفارقينى الآن فأنت خليفة كذلك أن تتهمى بالجحود .

أم النقارس — لا اخالنى شاكرة لك كثيرا على هذا . فاننى لأهزأ بالرقاة والمخرفين ، وانهم لقادرون وعاجزون عن المساس بى فى كثير أو قليل . وكم من طبيب حق الطبيب يعرف أخيرا هذه الحقيقة التى

تقول له ان النقرس ليس بالداء ولكنه ضرب من الشفاء ، ولا لزوم
لتعويق أسباب الشفاء ، ولنرجع — بعد — الى عملنا . خذ هذه !
فرنكلين — أوه آه . سألتك بالله الا ما تركتني وأنا واعدك منذ
اليوم ألا ألعب بالشطرنج وألا أدع الرياضة كل يوم ، وأن ألزم الاعتدال
مدى الأيام والليالي !

أم النقارس — أعلم انك ستفعل ، وأنتك تعد الوعود الجميلة
وما تلبث بعد أشهر قلائل في الصحة والعافية أن تعود الى عاداتك
ومآلوفاتك وتذوب وعودك الجميلة كما ذابت ثلوج السنة الغابرة . فلنعد
الى حسابنا ولنوازن بين كسبنا وخسارتنا ، ثم انى بعد ذلك تاركتك على
يقين من الرجعة اليك في الوقت اللازم وفي المكان الملائم . فانه لمن
مصلحتك واننى لك كما تعلم لنعم الصديق !^(١) .

الرفق بالحيوان

وكتب فرنكلين الى السيدة هلقيتس Helvétius قرينة الفيلسوف
المعروف رسالة بلسان قططها حين علم أنها تنوى أن تتخلص منها بمشورة
بعض أصدقائها من القسس لأنها تغير على أبقاص الطير التى تربىها فى
قصرها ، فأرسل اليها هذه العريضة بلسان القطط تتوسل اليها أن تبقى
عليها . فقال :

حضرة السيدة النابهة العلية الشأن والمقام .

بلغتنا الساعة نبذة من خبر مرعب نغص علينا سعادتنا التى نلعم بها
فى حظائر الطير والغاب لديك . بلغنا انك لما سمعته من بعض الوشائيات
من أعدائنا (الأب موريليه والأب روس) قد حكمت علينا بالنفى وأنا

(١) من كتاب الخزعبلات The Bagatelles تأليف ريتشارد اميشر

سنعتقل بوسيلة شيطانية ونحبس في باطية ويقذف بنا الى أعماق النهر حيث تترك فيه لرحمة الأمواج ، وانا لنسمع في هذه اللحظة التى نكتب فيها هذه العريضة المتواضعة ضربات المطارق فى أيدي الحوذية الذين عهد اليهم بصنع الآلة الجهنمية التى فيها هلاكنا .

ولكن — سيدتنا على الشأن — أسمحين أن يقضى علينا هكذا دون أن يستمع للدفاع من جانبنا ؟ وهل تريننا وحدنا من الذين تطعمينهم وتغذيهم نحرم ما فى صدرك الحنون من العطف والشفقة ؟ انا نرى يدك الكريمة كل يوم تطعم مئات الفراخ والكنار والحمام التى لا عداد لها كما تطعم عصافير الجيرة أجمعين وأسراب الشحارير فى غاب بولون ، بل تسخو بالطعام والشراب حتى للكلاب فى هذه الرحاب . فهل نحن وحدنا نحرم هذه الخيرات من يدك ولا يكفيننا هذا بل نصبح دون غيرنا هدفا للقسوة التى لا مكان لها بين مآثرك وسجايك ؟ .. كلا .. ان سجايك التى انطوت عليها فطرتك البارة ستعيد الى قلبك من عواطف الحنان ما هو أشبه بهذا الحنان .

وآسفاه ! ما هى جرائمنا التى اجترحناها ؟ . انا نتهم — وما أكثر ما تفعله الوشائيات والتهم — انا نأكل الفراخ الصغار ونغير من حين الى حين على الحمام ونرقب طيور الكنار حتى تدنو منا فنقبضها وندع الفيران تعيش فى دارك آمنة مطمئنة !

لكن هل يكفى مجرد الاتهام للادانة بالاجرام ؟ انا لنستطيع أن ندحض هذه التهم جميعا فى غير عناء ، وينبغى أولا ألا ننسى أنها لا تقوم على بينة أو برهان .

فاذا سلمنا أن هناك بقية من أجل الحمام وريشها تقدم فى معرض البينة على ادانتنا فهل تصلح هذه البينة للادانة أمام محكمة من المحاكم على وجه الأرض كلها ؟

إن الجرائم يخلقها العوز والحاجة ، ونحن بحمد الله في رحابك ثمانى عشرة قطة نعم بالخير الجزيل ولا نشعر بالعوز ولا بالحاجة . فهل يعقل مع هذا أن نخدش اليد التي تطعمنا ؟ ألم تبصرى بعينيك فراخك تدنو منا وتأكل معنا من صحافنا ولا تعترضها حركة مسيئة من جانبنا ؟ وإذا قيل لك اننا لا نلتهم الفراخ ونحن نحس رقابة الأعين علينا ، واننا تحت جناح الظلام نجترح ما نجترح من جرائمنا فانما هم أعداؤنا الذين يستترون بجناح الظلام لافتراء الأقاويل علينا . ويحق لنا أن نرميهم بذلك لأنهم ينسبون إلينا الجرائم الليلية التي يدحضها مسلكنا في وضوح النهار .

وقد يقول أعداؤنا ان حظائر سيدتنا العلية الشأن تكلفها خمسة وعشرين لويزا ذهباً (أى ستمائة ليرة في العام) وأنها لا تأكل منها أكثر من خمسين يحسب ثمن الواحدة باثنتى عشرة ليرة لحسن تديرها وعنايتها بنفقتها . ! فأين تذهب البقية ياترى ؟

ولنا أن نسأل (أولاً) هل عدت الفراخ وسلمت إلينا فنحن مسئولون عنها ؟ وهل نحن دون غيرنا موضع الشبهة بين أولئك الأعداء المحيطين بها وأولهم أبناء آدم وحواء الذين يخالون أن الفراخ لم تخلق في هذه الدنيا الا ليأكلوها ؟ في كل يوم من أيام الآحاد يقدم على باب غاب بولون وفي منتديات أوتيل مئات من صحاف اللحم المفروم . أفلا يجوز أن يكون بعض فراخك قد تسرب في لطف الى تلك المنتديات ؟ ان كان ذلك كذلك فلم نكن نحن يقينا من يتولى تسليمها الى أصحاب المطاعم والحانات ..

وبعد فنحن لا نريد أن نقف موقف الاعتذار لسارقى الدجاج ، ولكنك — سيدتنا — تسمحين لنا أن نلاحظ أن فراخك على اختلاف الأسباب التي تنقصها وتقلل من عددها انما يجرى هذا النقص فيها على سنن

الطبيعة ويعود عليك بالراحة والرضا . لأنه يحد من تكاثر نوعها وزيادتها على مقدارها ، ولو أنها تركت تنمو وتتكاثر بغير حد مقدور لم يبق في رحابك متسع لها ولم تترك لك فترة للراحة من رعايتها .

أما الحمام فلم يسمح لنا أن نقول ان فراخا عدة من نسل «كوكو»^(١) قد غابت حقا ، ولكن هذا — مع عطفك عليه الى الحد الذى يبيح له أن يحطم خزفك الغالى ما دام يلقط الحب من يدك — لن يرضيك عن ظلمنا واتهامنا في غير بينة . فأين هو الدليل الذى يثبت علينا أننا اعتدينا على ولد واحد من ذريته ؟ وهل يحدث بين نوعنا ونوعه أن تتقارب وتتلاقى ؟ ألا يزال على تأيه عنا والتجأه الى السقوف والقمم لا تقائنا مما يجيز لنا أن نغضب لكرامتنا ؟ . اننا لنرجو أن تفتش حظيرة الغاب في الربيع القادم ونحن كفيلون في حالة الكشف عن جريمة من جرائم الغيلة أن نسلم الجناة الى أيدي العدالة . لكن الحمام ليست مثلنا نحن معاشر القطط المساكين مرتهنة بالأرض التى ولدنا عليها ، وقد تلوذ بالهواء وتطير الى مكان قصى غير هذا المكان ، وربما غار بعضها من ايثار فريق منها لديك على فريق فغادرت الديار طلبا للمساواة في وكن جمهورى من أوكان الطيور ، مؤثرة هذا الفرار على البقاء في الديار ، على مشهد من كبرياء (كوكو) الثرثار .

أما التهمة التى رمينا بها من أجل طيور الكنار فانك لترين عفوا بغير عنت أنها محض سخافة وتلفيق . فان فتحات القفص الكبير الذى تقيم فيه أضيق من أن تتسع لمدخلنا ، وربما خطر لنا من باب اللعب واللهو أن نزع بأيدينا خلالها فلا تقدر على اخراجها بعد ذلك بغير جهد ومشقة ، وقد يحدث أحيانا أن نسرى عن أنفسنا بالنظر الى تلك الخلائق الصغيرة البريئة ولا نذكر أننا ندين أنفسنا باهدار قطرة واحدة من دمها .

(١) اسم فرخ من الحمام محبوب عند مدام هلفيتس .

ولسنا نحاول أن ندافع بشئ هذا الدفاع عن أنفسنا فيما يخص العصفير والشحارير والزرارير التى تتمكن من اقتناصها . الا أننا نسوق فى مساق المعاذير أن عدوينا الأبوين طالما اشتكيا هذه الطيور واستكرا منها تلك المتائف التى تصيب بها أشجار الكراز والثمرات ، وكثيرا ما سمعنا الأب موروليه يصب اللعنات على الشحارير والزرارير التى تغير على كرومك بغير رحمة ، وتصنع مثل صنعة بتلك الكروم . ونحن نرى — سيدتنا عليّة الشأن — أن العنب أهل لأن تأكله الشحارير كما تأكله الآباء ، وأن حملتنا على النابهين المجنحين تذهب سدى ان كنت مع هذا تشجيع النابهين بغير ريش على انتهاب أضعاف ما ينتهبه المجنحون .

واننا لنعلم أننا متهمون كذلك باقتناص البلابل التى تفرد تفريدها الجميل كما يقولون ولا تنتهب شيئا من البستان . ويجوز أننا من حين الى حين نظرف حلوقنا بلقمة سائغة من هذا النصيب ولكننا نؤكد لك أننا نفعل ذلك عن جهل منا بعطفك على هذه الفصيلة وانها لمشابهتها بعض العصفير والزرارير الأخرى يلتبس علينا الأمر بينها ولا ندعى لأنفسنا من الخبرة بفن الموسيقى ما نفرق به بين الزقاء والغناء فناكلها ونحن نحسبها من تلك الزمرة المستباحة لنا . وقد سمعنا من قطة عند الموسيقار بيشينى Piccini أن الخلائق التى لا تحسن من الأصوات غير المواء ، لن تكون حكما خيرا بأصوات الغناء ، وعلى هذا فمول فى تسوينج ذلك « الاعتداء » .

على أننا منذ اليوم سنبدل غاية الوسع فى التمييز بين الجلكيين وهم العصفير وبين البشينيين وهم البلابل فيما يروى العارفون^(١) ولا نلتبس الا العفو عن خطئنا اذا اتفق فى جولة من جولاتنا بين الأعشاش أن نعر

(١) نسبة الى جلوك Gluck الموسيقي الألمانى وبيشينى الموسيقي الايطالى وكان لهما حزابان متناظران فى أندية باريس ومعاهدها الفنية .

على طائفة من البشيين لم يثبت لها الريش بعد ولم يسمع لها صوت في الغناء فلا تميز بينها وبين طائفة الجلكيين .

وخاتمة التهم التى نرمى بها — سيدتنا على الشأن — أننا نترك دارك عرضة لذلك الجيش من الفيران يغير عليها فى أمان ، ويقال انها تقرض المقادير الجمة من السكر والحلوى وتعدو على كتب علمائك وحكمائك وتجترىء حتى على قرض أخفاف وصيفتك القديمة الآنسة لويلييه وهى تلبسها وتمشى فيها . !

ويقال فى سياق الاتهام ان العناية الالهية التى ترعى جميع خلائقها فى الحقيقة على السواء لم تخلق القبط الا لاصطياد الفيران . فان هى قصرت فى هذه المهمة فلا جزاء لها على التقصير فى رسالتها الالهية غير الاغراق .

والحق — ياسيدتنا العلية الشأن — انه لمن أيسر الأمور أن تنكشف هذه التهمة عن أهواء أعدائنا وأغراضهم الشخصية .. فان السيد كابانيس نزيل قصر ك الذى لا يزال على استعداد لاختلاس قالب من السكر كلما سنحت له الفرصة لذو مصلحة عظيمة فى اقناعك بجسامة جشع الفيران كلما قرضت قطعة من السكر أو شرعت فى لحس قدر من المربى قبل أن يصل اليها ، غير أنه يفتر عن القسوة — لا عن الغرض فحسب — اذ يقضى علينا بالموت لأننا لا نحول بين تلك الخلائق الصغار التى تغتنم ما تقدر عليه من الفرصة لاستغلال خطة النهب التى يقتربها — على جلالته قدره — كل يوم بغير أسف وبغير ندم .. أفى وسعه يا ترى أن يشتت فى قسوته وراء هذا الشطط لو أننا نحن كنا مثله ومثل الفيران من آكلات السكر والمربى ؟ ألا يظهر من هذا جليا أن النهم وحده هو الذى يوحى اليه بمثل تلك البواعث النفسية المنكرة ، وهل تسمحين أنت أن تفسحى لها مكانا فى صدرك الحنون ؟

أما كتب الأب دى لاروش وزميله العالم الآخر الذى اطلعنا على خطابه فى الأكاديمية فى صحيفة لففت بها الرقائق التى أنعمت بها علينا من لحم المعجل ، فأى ضرر ياترى فى اقدم الفيران على قرضها من حين الى حين ؟ وما هى جدوى ذلك الاطلاع الواسع على أولئك العلماء ؟ أقما يحق لهم أن يعلموا — وقد عاشوا معك — انه لا جدوى من كل معرفة ؟ انهم يعلمون انك طيبة خيرة بغير اطلاع على المقولة فى أصول الأخلاق ، ويعلمون انك مليحة الشمائل بغير اطلاع على كتاب مسجلنا التاريخى منكريف الذى سماه صناعة الارضاء والاعجاب ، ويعلمون أنك سعيدة بغير اطلاع على مقولة السعادة التى ألفها النعس موبرتويس Maupertius . وانهم لشهود يوميون على مبلغ جهالتهم وهم العلماء بكل تلك المعارف عاجزون عن تحصيل تلك المعرفة التى تعرفينها جيدا وهى القدرة على الاستغناء عن كل معرفة . ان علمك بالهجاء كعلمنا ، وان خطك يشبه كثيرا أنايش أيدينا ، وانك تخطئين فى هجاء كلمة السعادة ولكنك تستمتعين بالشيء نفسه ، دون أن تعلمى كيف تكتب حروفه ، تلك المتعة التى لا يقدرّون هم — مع كل ما عندهم من الكتب — أن يستخرجوها من صحائفها . وأنت بعد تفيضين عليهم من عظمة جهالتك ما يحيط بهم ويطويهم بين آكفافها . فليس فى مستطاع الفيران كما أثبتنا بالبرهان أن يصيبوهم بضرر بليغ . وأما أخفاف الوصيفة فان الفيران لم تكن لتدركها لو لم تكن الوصيفة تمشى كأنها نائمة ، والعجب منك — سيدتنا — أن تقضى علينا بالموت لأن وصيفتك تمشى بخطوات حلزون !

وهذه البراهين على قوتها ليست هى عذرنا الوحيد بين يديك من التلف الذى توقعه الفيران بما فى دارك . آه أيتها السيدة العلية الشأن .. بأى ضمير يجوز اتهامنا فى حين نراك أنت تصحبين كلبك المتعطشين

الى دماننا فلا نجترىء على الاقتراب منك لأداء واجب التحية التى تنبغى لسيدتنا ؟! كلبان اثنان ! يكفى هذا ياسيدتنا وأنت لا يخفى عليك أنهما من نوع تربى على بغضنا ويمثلونا الرعب كلما استمعنا الى نباحهما على مقربة منا .. كيف يجوز لأحد أن يظلمنا باللام اذا ابتعدنا من الأماكن التى تقيم فيها حيوانات بهذه الضراوة وهذه الكراهية المطبوعة لنا وهذه القدرة على اهلاكنا وهى طليقة لا يكبح لها عنان ؟! .. ولو كان الخطب خطب الكلاب الفرنسية وحدها لأمكن أن تخف وطأتها ويهون الخوف من ضراوتها . ولكنك تدخلين فى خدمتك — على خلاف الأوامر من الرقيب العام — كلبا من فصيلة البل دوج تأتين به من البلاد الانجليزية التى تكرهنا ضعفين لأننا قطط ولأننا فرنسيات ! وحسبنا ما نراه كل يوم من أثر بغضائه فى ذنب أخينا المبتور لينوار Le Noir ، ولا شك أن غيرتنا على خدمتك وأذواقنا التى ركبت على اشتها الفيزان كانت قميئة أن تؤلف منا طوائف للصيد فى مسكنك لو لم تكن منفيين منها بالخوف من أولئك الأعداء الذين تبيحين لهم السيطرة عليها ، فلا يلومنا أحد بعد الآن على التلف الذى يحيق بدارك من غارة الفيران ونحن على ما نحن عليه مجردون من كل وسيلة لقمعها واقضائها .

وآسفاه . لقد ذهب ذلك الزمان . ذهب ذلك الزمان الذى كان ذلك القط الفاخر بومبون Pompon يسيطر على هذه الأماكن جميعا وينام فى حجرى ويضطجع على وسادتك ، وكان ذلك الكلب زميرا الذى يسمى اليوم سعيه لاسقاطنا يتزلف الى ذلك المجدود الذى يحتل الآن مكانه . لقد كنا يومئذ نجوس خلال الدار وأذنا بنا مرفوعة فى الهواء ، وكان المرحوم بومبون ينزل أحيانا الى مشاركتنا فى قسمة الأرانب التى كان صاحب الجلالة يبعث بها الينا عقب عودته من رحلات الصيد ، وكنا

في ظل تلك الحظوة الفاخرة تسعد بالأمن والسعادة .

ونعود فنكرر الأسف على تلك الأيام التي خلت ، وعلى العهد القبطي الذي خلفه هذا العهد الكلابي ، وقد كانت الحظوظ حظوظنا في أيام دولته ، فأما اليوم فكل ما نملكه من العزاء أن نذهب الى ضريحه ونروى بدموعنا غصون البان التي ترفرف على مشواه الأخير .

آه . أيتها السيدة العلية الشأن . لتكن ذكرى ذلك القط الحبيب باعثة في صدرك على الأقل شيئا من الرأفة بنا ، ونحن لا ندعي أننا من زمرة لأنه كان منذورا للعفة من صباه ، ولكننا من نوعه على كل حال ، ولا يزال طيفه يحوم حول هذه البقاع ويدعوك أن تنقضي ذلك الحكم الدموي الذي يتوعدنا ، وكل ما تسدينه إلينا من البقايا الصالحات موقوف منذ اليوم الى أواخر أيامنا على المواء لك بوفائنا الدائم ، حافظين ذكراه الى أبنائنا وأبناء أبنائنا جيلا بعد جيل .

شواغل الشيخوخة

وكان الاقتصادي الانجليزي جورج هويتلى صاحب كتاب أصول التجارة صديقا لفرنكلين يهتم مثله بالمسائل الاجتماعية الانسانية ، فكتب اليه في الخامس عشر من شهر نوفمبر سنة ١٧٨٤ خطابا يعتب فيه على تأخير الرسائل ويتناول فيه بعض المسائل التي تعرف من جواب فرنكلين مايو سنة ١٧٨٥ بعد نبذة وجيزة أرسلها اليه قبل ذلك ، واستهل الجواب المسهب بالاعتذار وأتبعه بالرد على المسائل الأخرى . قال :

« كتبت اليك بضعة أسطر منذ أيام ومعها الوسام ، وكان ينبغي أن أكتب اليك أكثر من ذلك لولا أنني فوجئت بفضولى شغلنى الى مساء ذلك اليوم ، فاحتملتته جهدى كما أرجو أن تحتملنى جهدك الآن .

فلعلى أفيض فى ثرثرة الفضول بما أجيب به الآن .

لا أعرف كلمة الفونس Alphonsus التى أشرت اليها مستشهدا بها على صوابك فى التشدد اذ تأبى أن تتقبل علة الشيخوخة عذرا من تأخير المراسلة . فما هى تلك الكلمة يا ترى ؟ انك على ما أرى لا تشعر بالداعى الى ذلك الاعتذار وان كنت كما قلت لى تصعد الى الخامسة والسبعين .. لكننى أنا أصعد الى الثمانين ، أو لعلى أنحدر اليها ، وأدع الاعتذار الى أن تبلغها أنت عسى أن تكون أدنى الى قبوله والايمان بصحته ، وتراه أنت صالحا للارتفاع به يومذاك .

وأوافقك على أن النقرس سىء وان الحصة أسوأ ، وأحسبني سعيدا لأننى لم أجمع بينهما معا فى وقت واحد ، وأدعو معك أن تعيش وتودع الحياة بمنجاة من هذه وذاك . الا أننى أزعم أن صاحب القبرية التى أرسلتها الي على خطأ فيما أوصى بكتابته على قبره وهو : « لم يحفل مقدار ذرة أن يقول القائلون خيرا أو شرا فى ساكن هذه الحفرة » .. فانه لمن طبيعة الانسان حيا أو ميتا أن يحب ذكره بالخير ، ولا أخاله معفى من هذه الرغبة والا لما شغل نفسه بما يكتب على قبره .. ولقد كان — كما يظهر من قبريته — يحب أن يقال انه رجل ساخر من أصحاب النكتة .. أوليس جديرا منه بمثل هذا الشغلان أن يقال ما كان صدقه أو أطيبه من انسان ! وتعجبني أكثر من هذا خاتمة الأنشودة التى عنوانها أمنية الشيخ التى يذكر فيها الناظم انه يتمنى فى الشيخوخة البيت الدافئ فى بلدة من بلاد الريف والجواد الطيع والكتب الممتعة والرفاق الموافقين من ذوى البشاشة والذكاء ، وفطيرة فى يوم الأحد وقنينة من الجعة وأخرى من خمر برجندى الى أن يقول ويعيد هذه المقولة فى ختام كل قطعة :

وليتنى أملك شعورى كالملك المطلق ، وأزداد فى الحكمة والخير كلما

نقصت قواى ، ولا قرس ولا حصاة ، الى أن تحين الوفاة .
ولقد أضاف الى تلك الإمانى أمنيته الأخرى قائلا : « وبالشجاعة
التي لا تهن ولا تضعف ليتنى أواجه اليوم الأخير ، وليت خيار الناس
يقولون بعد اليقظة فى الصباح أو بعد الشراب فى المساء : لقد ذهب بغير
نظير ، لأنه حكم شعوره حكم السادة المطلقين ! » (١) .

على أنها محض أمنية . وماذا تغنى الأمانى ! ان الأمور لتجرى كما
يتفق لها . وقد أنشدت ذلك النشيد ألف مرة فى شبابى ثم بلغت الثمانين
فاذا بالمحظورات الثلاثة قد اصطلحت على فتعرضت للنقرس وللحصاة
ولم أملك شعورى كالمملوك المطلقين ! وكأنتى تلك الفتاة المترفة التى
نذرت ألا يكون زوجها من طائفة القسس ولا من الكنيسة المشيخية
ولا من أبناء أيرلندة . فلما تزوجت اذا بالثلاثة يجتمعون فى واحد :
قسيس أيرلندى من الكنيسة المشيخية .

وانك لترى اذن اننى أتمنى — لسبب معقول — ألا أكون فى الحياة
الأخرى كما كنت فى هذه الحياة وحسب ، بل أفضل وأسعد ولو قليلا .
ولى رجاء فى ذلك لأننى كشاعرهم أو من بالله ، ويؤيد هذا الرجاء أننى
أرى فى آيات خلقه دلائل القصد والتدبير ، وهى ظاهرة فى ابداعه وسيلة
التناسل والتجديد التى تعمر عالمه بالنبات والحيوان بدلا من خلقها كل
مرة من جديد ، وظاهرة كذلك فى جعل الأشياء قابلة للرجوع الى عناصرها
الأولى كى تصلح لاستخدامها فى تركيب بعد تركيب بدلا من خلق مادة
جديدة فى كل حين ، وهكذا قد يتركب الخشب من التراب والهواء والنار
ثم يعود بعد انحلاله ترابا وماء وهواء ونارا . وكلما نظرت فلم أر شيئا
يفنى ولا قطرة ماء تضيع فى العمار لم يسعنى أن أتصور فناء الأرواح

(١) صاحب هذه الابيات فلكى انجليزى هو والتربوب walter pope

توفى سنة ١٧١٤ .

ولا أن أعقل أنه يدع الملايين من العقول تزول وينشئ في مكانها عقولا أخرى بادیء ذی بدء كأول مرة . ولهذا أرى نفسی فی الدنیا وأعتقد أنني باق فیها على صورة من الصور ، وانی على كل ما فی الحیاة الانسانیة من النقائص والنقائص لا أمانع فی اخراج طبعة جدیدة منی ، على أمل فی تصحیح الأغلط التي كانت تشوب الطبعة السابقة .

— أعید الیک مذکرتک عن الأطفال الذین تلقاهم ملجأ اللقطاء فی باريس من سنة ١٧٤١ الى سنة ١٧٥٥ وقد أضفت إليها السنوات السابقة منذ سنة ١٧١٠ مع بیان تسجيلات التنصير واحصاء السنوات اللاحقة الى سنة ١٧٧٠ ، ولم أستطع العثور على غیر هذا الاحصاء ، وفي الهامش ملاحظات على التدرج فی الزیادة من اعتبار الطفل عاشرا الى اعتباره ثالثا بین الموالید . وقد مضت خمس عشرة سنة منذ ذلك التاريخ فلا یبعد أن النسبة قد وصلت اليوم الى النصف ! فهل من الصواب تشجیع هذا النقص فی حاسة العطف الطبیعیة ؟ اننی لقییت طیبیا هنا یتهم نساء باريس بقلّة الصبر أو قلة القدرة على الارضاع ، ویؤكد لی ذلك قائلا انک یتستطیع أن تعرف ذلك من النظر الى صدورهن السویة ! فلیس فیها نمو أكبر من النمو الذی تراه على ظهر کفی ! ومنذ ذلك الحین یلوح لی أن کلامه لا یخلو من الصدق وان الطبیعة أحست أنهم لم ینتفعن بالأثناء فكفت یدها عن ملئها ، هذا وان تكن الحالة قد تغیرت بعض الشئ منذ تکلم روسو بفصاحته المعجبة عن حق الأطفال فی البان أمهاتهم فأصبح بعض النساء من العلیة یرضعن أبناءهن ویجدن فی أئدائهن اللبن اللزیم للرضاع ، وأسأل الله أن تهبط « البدعة » الى الطبقات الدنیا فتبطل تلك العادة التي مردن علیها : عادة القاء الأطفال الى الملاجئ زاعمات فی غیر اکثراث ان الملك أقدر على تربیتهم وتموینهم منهن .

وقد اتصل بی من ذوی ثقة ان تسعة أعشارهم یموتون على الأثر مما

يفرج عن الملاجئ التى لا تكفى مواردنا لولا ذلك للاتفاق على البقية .
أما فيما عدا النسوة القلائل من العلية اللائى أشرت اليهن ، وفيما عدا
غيرهن ممن يضعن أبناءهن فى المستشفيات فالعرف الشائع أن يدعى
بالمرضعات من الريف ليعهد اليهن فى تربية الأطفال هناك . وفى المدينة
مصلحة تعنى بالكشف على المرضعات واعطائهن الشهادة التى تثبت
صلاحهن لهذا العمل ، وكثيرا ما نراهن عائدات الى قراهن يحملن طفلا
على كل ذراع ، ولكن الفئة التى تبلغ بها الطيبة أن تربي أطفالها على
هذا النحو قد تعوزها النفقة التى تكفى للتربية ، وتمتلىء السجون
بالآباء والأمهات المقصرات فى هذا الواجب وان يكن من العادات المستحبة
هنا أن يؤدى المحسنون غرامة أولئك الآباء والأمهات لتسريحهم من
السجون ، وحذا لو أفلح المشروع الجديد الذى يدبر الوسائل لتسكين
الفقراء من تربية أطفالهم فى البيوت ، اذ لا مرضع كالأم ، أولا كثير من
المرضعات يغنين غناءها ، أن وجدن . ومتى بقى الطفل فى حجر أمه أياما
ولم يعجلوا بارساله الى الملجأ تمكن حبه من قلوب أبويه وبذلا من الجهد
فوق ما يبذله لكسب الرزق والاتفاق عليه . وانها لمسألة تعرفها أنت
خيرا من معرفتى ، فحسبى ما ذكرت عنها الآن ولا أزيد عليه الا ملاحظة
مقتبسة من تاريخ مجمع العلوم تشنى على ملاجئ اللقطاء .

— يسير مصرف فلادلفيا سيرا حسنا على ما سمعت ، وما تدعوه
معهد سنسناتى ليس بمعهد من معاهد حكومتنا بل جماعة خاصة ألفها
الضباط فى الجيش السابق وتكرهها جمهرة الشعب من أجل ذلك حتى
يغلب على الظن أنها ستتحل ، وكان المظنون أنها محاولة لانشاء طبقة
وراثية كطبقة النبلاء ، وأوافقك على أنها خطأ ثم أزيد على ذلك ان كل
« التشريعات » الموروثة خطأ وسخافة ، فانما الشرف شرف الأعمال
الفاضلة لمن يقوم بتلك الأعمال وليس من طبيعته أن ينقل من انسان الى

انسان ، واذا صح أن ينقل من وارث الى وريث وجب أن يقسم بين جميع الوراثين وقل نصيب كل وارث تبعا لتقدم العهد وازدياد العدد ، ودع عنك ما يحدث من الاقتضاب والانتقاع أثناء الطريق .

وظهر أن دستورنا — أو مواد اتحادنا — غير مفهومة لديك ، فلو كان المؤتمر — الكونجرس — هيئة دائمة لكان من الخطر ودواعي الحذر تخويلها السلطان ، غير أن أعضاءها ينتخبون كل سنة ولا ينتخبون ثلاث سنوات على التوالي ولا ثلاث سنوات في خلال سبع سنوات ، ويجوز على كل منهم أن يستعاد اذا كانت دائرته الانتخابية غير راضية عن مسلكه ، وكلهم من الشعب ويعودون أخيرا الى الشعب بغير صفة دائمة تميزهم الا كما تمتاز حبات الرمل في الساعة الرملية ، ومثل هذه الجماعة لا يسهل أن تكون خطرا على الحرية العامة ، وأعضاؤها خدام الشعب يجتمعون معا لخدمة الشعب ورعاية مصالحه فلا يتيسر لهم أداء واجباتهم ما لم تكن لهم القوة الكافية لحسن أدائها ، وليست لهم رواتب مجزية غير الأجور اليومية التي قلما تساوى نفقاتهم ، وهم لقلة حظوظهم من المناصب والرواتب والمعاشات التي تعطى في بعض البلاد لا يدعوا الأمر معهم الى الدس أو الرشوة أثناء الانتخاب .

واننى لأتمنى لانجلترا — العجوز — توفيقا كهذا التوفيق في نظام الحكومة ولا أراه . فان قومك يحسبون دستورهم أفضل الدساتير في العالم . ويظهرون الازدراء بدستورنا ، ولعله من أسباب الرضا أن يحسن الانسان ظنا بنفسه وبكل ما ينتسب اليه ، وأن نعتقد أن ديانتنا ومليكننا وربة بيتنا خير الديانات والملوك وربات البيوت ، ومما أذكره أن ثلاثة من جرينلاند ساحوا نحو سنتين في أوربة برعاية المرسلين المورافيين فزاروا ألمانيا والدنمرك وهولندة وانجلترا وسألتهم في فلادلفيا وهم قافلون الى بلادهم الأمريكية عما اذا كانوا بعد ما شاهدوه من معيشة الرجل الأبيض

بصنع يديه يؤثرون البقاء بيننا ؟ فكان جوابهم انهم مسرورون بما شهدوه من المناظر الكثيرة ولكنهم يؤثرون المعيشة بين قومهم وفي ديارهم ، وهى لعمرك أرض صخرية لم يجد المورافيون بدا عن زيارتها من ثقل الطين فى سفينتهم من نيويورك لزرع الكرب فيها .

— أشك فيما بلغ مستر دونالد عن تركيب النظارة التى اخترعتها لقوله انها تصلح لأناس دون آخرين . ويخيل الى أن القول بأن التحديق الذى يصلح للقراءة لا يصلح للنظر البعيد صواب ، ولهذا كان لى من قبل نظارتان أبدل بينهما فى السباحة لأننى أقرأ حيناً وأحب التطلع الى المناظر حيناً آخر ، ووجدت هذا التبديل متعباً لا يسعبنى فى كل وقت فقطعت الزجاج ووضعت نصفاً من كل نوع فى الحلقة الواحدة ، واستطعت بهذه الوسيلة أن أدير بصرى علواً أو سفلاً مذ كنت أستمع على وضع النظارة فوق عيني ، ووافقتنى ذلك على الخصوص فى مقامى بفرنسا حيث وجدت أن النظارة التى ترىنى صحاف الطعام أمامى لا ترىنى وجوه الجالسين على الجانب الآخر من المائدة وهم يتحدثون الى . ولا يخفى أن الأذن اذا لم تكن قد تعودت على تمييز لهجة الكلام فى لغة من اللغات فنظرة العين الى ملامح المتكلم تساعد على الايضاح ، وهكذا أصبحت أفهم الفرنسية بمساعدة النظارات .

— انى أشرح لترجمة رسالتك الشخص الوحيد الذى أعرف أنه يفهم الموضوع كما يفهم كلتا اللغتين ، وهذا عندى هو شرط المترجم والا تعذر عليه اتقان الترجمة ، وهو الآن مشغول بعمل لا يمكنه من الاشتغال بترجمة الرسالة ، وسيفرغ منه قريباً .

— أشكر لك تعليقاتك وأود لو أحصل على غيرها من الكراسات المطبوعة .

— واننا على الدوام مرحبون بالأطفال فى أى وقت تشاء أن ترسلهم

الينا . وكل ما ألاحظه أن لندن تستوعب عددا كبيرا من أبناء الريف ،
فمن الحق أن يتسع الريف لمن يعرضهم من أولئك الأطفال ، وهذا مع
كثرة الذين ينزلون عن حريتهم الانسانية ليعملوا حينا عمل الخدم
أو يعملوا طوال العمر عمل الجند — برهان في نظري على ازدحام
جزيرتكم . ومع هذا نراها تخاف من المهاجرة .
وداعا أيها الصديق العزيز ، واثني على الدوام صديقك المخلص .

الأعداء في الوطن

وكتب اليه صهره ريتشارد باخ يقول ان آرثر لى ووالف ازداد من
أهل بنسلفانيا المقيمين في باريس يسوءون سمعته ويشهرون به لأنه اتخذ
« تمبل » حفيده سكرتيرا له مع أن أباه كان مواليا لبريطانيا العظمى ،
فأجابه فرنكلين بهذا الخطاب :

باسى -- فى الثانى من شهر يونيو سنة ١٧٧٩ .

اننى مستريح البال من ناحية تلك المساعى التى يقوم بها (ل)
(ر) للاضرار بى فى العدو الأخرى من المحيط ، ومطمئن الى عدالة
المؤتمر — الكونجرس — وأنه لن يصفى الى تهمة توجه الىّ دون أن
أعلم بها قبل ذلك ويتسع لى الوقت للإجابة عنها ، واثني لأعلم أن ذينك
السيدى ينطويان لى على أسوأ النيات وان لم أسئ الى أحد منهما
أو أمسه بما يسوغ له أن يشعر بالمساءة . غير أن السمعة الكبيرة
التي تحيط بى والمحبة التي ألقاها من القوم هنا والتوقير الذى يقابلوننى
به ، بل التحيات التي يخصوننى بها تحزن ذينك السيدى التعسفين :
التعسفين حقا بما اشتملت عليه طواياهما من الظلام والحقْد والغيرة
والشبهة والحسد والضعف . وان النفس الطيبة ليكفيها ما تجده من
الحزن لمصائب الآخرين . أما الذين يزعجهم كل حظ طيب يتملأه غيرهم

فلن يسعدوا قط ولن يستريح لهم بال ، وليس بى من حاجة الى الانتقام من أمثال هؤلاء الأعداء غير أن أتركهم حيث أوقعتهم طبائعهم الناقمة مجتهدا أن أحافظ على الخصال التى تجعلنى أهلا للرعاية والتقدير ، وكلما دامت لى السمعة التى يحيطنى بها الناس أدمتهم فى تلك اللعنة التى يترغون بها ، ولا يخطر لى أن أغير من خصالى كى أخفف عنهم بعض ما يعانون .

ويدهشنى أن أسمع أن وجود حفيدى تمبل فرنكلين معى يستوجب النعمة منى والسعى فى اقصائه عنى ، وأحسب بحق أننى أحسنت بحمايتى هذا الفتى أن يصبح من زمرة المحافظين الانجليز وإبقائه الى جانبى فى زمرة خدام الجمهورية الأحرار ، وأرى من مبادئه الحرة واستقامة خلقه ودأبه على العمل وفطنته المبكرة وكفايته النادرة أنه وشيك أن يكون عظيم النفع لوطنه ، وكفى أننى فتقدت ولدى فهل يريدون فوق ذلك أن أفقد حفيدى ؟ اننى شيخ فى السبعين عمدت الى رحلة شتوية باذن الكنجرس وليس معى من يتولى العناية بى سواء ، ولا أزال هنا فى بلد أجنبى يكلؤنى برعايته البنوية اذا مرضته ويغمض عينى ويحرس ما عندى من بقية تراث اذا حم الأجل .

أن أدبه فى معاملتى ونشاطه ودأبه فى عمله يرضينى ويفيدنى ، وسلوكه فى عمل الأمانة على السر — السكرتيرية — لا غبار عليه ، واننى لوائق أن الكنجرس لا يفكر فى الفصل بينه وبينى .

واننى كذلك لعظيم الغبطة بولدنا « بن » ^(١) وأراه خليقا أن يصبح رجلا ذا شأن . وقد انتفع من المدرسة الداخلية التى هو فيها جهد ما ينتفع بالتعليم فى تلك المدرسة ، وقد فكرت فى المدرسة التى تفضلها بعد هذه الخطوة فاستقر عزمى على ادخاله مدرسة أعلى منها بمدينة جنيف ، والفرصة حسنة لأننى أعرف سييدا من أهل المدينة له ولد فى مثل سنه

(١) ابن ريتشارد باخ صاحب الخطاب .

يتعلم فى تلك المدرسة بعينها ، وقد وعدنى أن يتكفل برعايته وتبادلت معه فى هذا الصدد رسائل أبحث بها اليكم مع هذا الخطاب ، وقد سافر « بن » فرحا وفهمت أنه سعيد جدا بهذه النقلة الى المدرسة الجديدة . ولقد أوحشنى غيابہ عنى أيام الآحاد وفى نيتى اذا عشت أن أذهب الى سويسرة فى الربيع القادم لأراه وأرى فى الوقت نفسه تلك الولايات الثلاث عشرة المعجوز فى البلاد السويسرية .

والحمد لله اننى ماض على صحة ورضا ، واننى أكبر وأشيوخ ، ولكننى فيما أظن لم يصبنى تغيير كبير فى السنوات العشر الأخيرة ، ويعاودنى النقرس من حين الى حين ولكنهم يقولون انه الى العلاج أقرب منه الى انحراف المزاج ، والله يبارككم ويتولاكم ..

جواب على تحذير

وحذره هارتلى من أعدائه وأوصاه باتقاء الخطر على حياته ، فكتب اليه فرنكلين كما جاء فى خطاب نشره حفيده يقول فيه : « شكرا لك على تحذيرك . غير أننى قاربت النهاية من عمر طويل ولست أبالى كثيرا بما بقى منها ، وانما هى عندى كالفضلة من الثوب يقول البائع للشارى الذى يلح فى المساومة عليها : خذها كما تريد أو بالثمن الذى تريده ولا خلاف بينى وبينك عليها فما هى الا بقية ! وربما كان أنفع شئ يصنع بالشيخ الذى بلغ هذه المرحلة من العمر أن يحشر فى زمرة الشهداء .

بيان عن خدمات وطنية

وكتب الرسالة التالية الى شارل تومسون سكرتير الكنجرس على أثر اشاعة بلغته عن أناس يزعمون أن الحكومة وضعت بين يديه أموالا

كثيرة قد تأخر حسابها ، وكانت الحقيقة على عكس ذلك ، اذ كان الكنجرس يرجىء حساب به ولا يعطيه ما استحقه بخدماته ، ويسأل فرنكلين صديقه عن الوسيلة المثلى لانجاز المحاسبة وتوفية تلك الحقوق :
فلادلنيا في التاسع والعشرين من نوفمبر سنة ١٧٨٨ .
صديقى العزيز القديم .

أرسل مع هذا خطابا الى رئيس الكنجرس فى الوقت الحاضر أرجو أن تراجع وتبلغنى ما تراه اذا عن لك فيه ما يدعو الى الملاحظة أو التنقيح ، واننى أعتمد كثيرا على نصيحتك الأخوية لأنك تعلم ما لست أعلمه عن الأشخاص والأحوال ، وأظن أن فى الوقت متسعا قبل تأليف الكنجرس الجديد للتنقيح الذى تشير به ، على أن يكون تقديم الخطاب — اذا قدم — الى الرئيس القديم .

وستجد فى خطابى الى مستر باركلى اشارة الى « أعمال هامة لم أثبتها فى حساب الكنجرس وأرجو من انصافه أن يكون لها اعتبار فى التقدير » . ولكى تكون على علم بهذه الأعمال أبعث اليك مع هذا الخطاب ببيان مجمل عن الخدمات التى قمت بها للولايات المتحدة ، ومنها أعمال نافلة لا تتصل بوظيفة السفارة ، كعمل القضاء فى البحرية ، وعمل القنصلية قبل وصول مستر باركلى ، وعمل الصرف لمراجعة قوائم المصارفة وسفاتها ، وعمل السكرتيرية عدة سنوات ، وسائر هذه الأعمال التى لم أتناول شيئا عنها وكانت لها مكافآت ترسل الى السفراء الآخرين . وأصارحك اننى آمل — كما جرت العادة فى القارة الأوربية — أن يمنح السفير بعد اعتزاله منحة يستعين بها على اصلاح شئونه الخاصة التى لاشك أنها تصاب بالضرر أثناء غيابه واقطاعه عن مباشرتها فى وطنه ، ورجائى أن يتفضل الكنجرس بمنحى قطعة من الأرض فى أقاليم الغرب يستفاد بها وتبقى لذريتى شرفا وذكرى ، ولا أخال الا أن

الكنجرس صانع شيئا من هذا القبيل عند النظر في خدماتي وأعمالي كما أرى من تقديرهم السخى لخدمات مستر لى فى انجلترا قبل ذهابه الى فرنسا ، وهى خدمات وأعمال كان لى ولمستر بولان Bollan معاونة فيها ولم نحصل على مثل هذه المكافأة عنها . وقد كوفىء مستر لى بعد عودته بمنصب حسن كما كوفىء صديق مستر جاى Jay وان تكن هذه المكافأة زهيدة بالقياس الى انعام الملك على مسيو جيرار Gerard عند عودته من الديار الأمريكية .

أما فى أمرى أنا بعد عودتى فما أبعد الاختلاف !

رجعت من انجلترا سنة ١٧٧٥ فتفضل الكنجرس على بوظيفة مدير مصلحة البريد مشكورا على فضله ، وهى وظيفة أحسب أن لى بعض الحق فيها منذ توليتها تحت التاج فأصلحت نظامها وضاعفت مواردها ، وتركتها لصهرى بعد سفرى الى فرنسا يقوم فيها بوظيفة الوكيل ، ولم يمض غير قليل بعد سفرى حتى حولت هذه الوظيفة الى مستر هازارد . وقد عن للادارة الانجليزية قبل ذلك أن تحرمنى هذه الوظيفة فحفظت لى الحق فى اعفاء رسائلى الصادرة والواردة من الأجر كما جرى العرف فى معاملة المديرين الذين يعتزلون الوظيفة لسبب لا يمس كرامتهم . أما فى أمريكا فان هذا الأجر قد طلب منى وبلغ نحو خمسين جنيها ، لكثرة الرسائل التى ترد الى على اعتبارى مديرا سابقا لمصلحة البريد .

ولما أخذت معى جفدى تمبل الى فرنسا رأيت — بعد تعليمه الفرنسية — أن أخرجه فى دراسة القانون والاشتغال بعمله ، ثم استبقيته لعمل السكرتيرية بعد أن وعدت بهذه الوظيفة وتكررت تجربتى للسكرتيرين وتكررت خيبة الأمل فيهم ، ولم تزل تتكرر بعد عودتى الى أمريكا ، حتى فات الوقت الذى يشتغل فيه بالدراسة المطلوبة وانتظمت حياته على غير نظامها ، فلما رأيت أنه — لطول مراتته فى الأعمال

الدبلوماسية — جدير بوظائفها ، وهو رأى يشاركنى فيه ثلاثة من الزملاء ندبوه بغير طلب منى للعمل معهم خلال المفاوضات فى شئون المعاهدات ، رشحته فى خطاب الكنجرس لوظيفة السكرتيرية فكان الرد الوحيد الذى تلقيته على هذا الرجاء الوحيد الذى تقدمت به أمرا بوقف التعيين وانتداب الكولنل همفرى سكرتيرا فى مكانه ، وهو سيد قد يكون له العلم بالشئون الحرية كما هو الواقع ولكنه لم يختبر العمل فى الشئون السياسية ولا يعرف الفرنسية ولا عهد له بالمسلك اللازم فى هذه المهمة .

واننى أفضى بهذا كله اليك — شخصا — افضاء صديق الى صديق لأننى لم أعود الشكاية العامة ولا أريد أن ألجأ اليها بعد الآن .
واننى لو استطعت أن أعلم — مقدما — أن الكنجرس سيعاملنى هذه المعاملة التى لا مجاملة فيها ويستكثر على توجيه الشكر الى — لم يكن من شأن هذا أن يوهن من عزمى أو من غيرتى فى خدمته وتأييده ، وقد أعرف بعض الشئ عن أطوار هذه الهيئات التى تتغير حيناً بعد حين ويأتى فيها خلف لا يعلم ما قد علمه السلف من خدمات أسديت الى الهيئة ولا يشعر بواجب الجزاء عليها ، مع بعد القائمين بالخدمة فى بلاد أجنبية وامعان واحد أو اثنين من الحاقدين وذوى النية السيئة فى الدس والتأثير على عقول الأعضاء الآخرين ، وان كانوا من أهل الاخلاص والانصاف والمروءة . ولهذا أوتر أن أطوى هذه الخواطر فى أطواء النسيان والكتمان .

وانى لألتمس المذدرة منك — يا صديقى — لما جشمتك من متاعب هذا الخطاب ، واذا حاق بك يوما ما يقال عن نسيان بعض الجمهوريات للعاملين فى خدمتها فاذكر على الدوام أن لك صديقا قديما تكشف له عن ذات صدرك فى شخص الخادم المطيع المتواضع .
فرنسكلين

وبعد هذا التمهيد تلخيص لخدمات فرنكلين كما أجملها في ملحق خطابه لتذكير صديقه ، وهى كما يلى :

— فى انجلترا قاوم قانون الدمغة وكتابته فى الصحف ومناقشاته فى البرلمان من الأسباب التى يظن أنها انتهت بإلغاء ذلك القانون .

— عارض قانون المكوس ، ولم يتمكن من وقف تنفيذه ولكنه أقنع مستر تونزند بحذف مواد كثيرة منه ، ومنها الملح بصفة خاصة .

— وكتب فيما بعد ذلك رسائل شتى يفند بها دعوى البرلمان أنه يملك حق تقرير الضرائب فى المستعمرات .

— عارض جميع القوانين الجائرة .

— قام بمفاوضات سريتين مع الوزراء لإلغاء تلك القوانين وشرح ذلك فى محضر مكتوب ، وقدم فى سياق واقترح — على تبعته ومع المخاطرة بالنتيجة — عوضا عن الشاى الذى تلف فى حالة نفاذ الإلغاء .

— اشترك مع مستر بولان ومستر لى فى جميع الطلبات التى قدمت الى الحكومة لهذا الغرض ، وطبع عدة نشرات على نفقته ينتقد بها اجراءات الحكومة ، واستهدف بذلك للسخط والنفور والاتهام أمام المجلس الخاص ، وعزل من وظيفة يتقاضى منها ثلثمائة جنيه فى السنة ، وهى وظيفة مدير البريد ، واضطر الى الاستقالة من جميع أعمال التوكيلات ومكافأتهما ، وهذا بيانها :

جنيه

٥٠٠ من بنسلفانيا

٤٠٠ من مساشوسيت

١٠٠ من نيوجرسى

٢٠٠ من جورجيا

وصدرت الأوامر الى الولاة الملكيين أن يكفوا عن توقيع كل ترخيص

بالصرف لحساب مرتباته من خزانة الدولة ، ولم تكن الولايات قد عزلته من توكيلها ، ولكنه — مع العلم بضغينة الحكومة الانجليزية عليه — تعذر عليه أن يخدم الولايات وييسر مصالحها لدى تلك الحكومة ، وأحس أن الواجب يقضى عليه باعتزال التوكيلات فاعتزلها ليفسح مجال العمل فيها لمن هم أقرب الى القبول عند الحكومة الانجليزية ، ويحمي نفسه أن يلجئها الى عزله .

ولما قفل الى أمريكا حض على الثورة وعين رئيسا لجماعة « سلامة الوطن » ونظم وسائل الاستيلاء على فيلادلفيا ومقر الكنجرس .

— أرسله الكنجرس الى مركز القيادة العام على مقربة من بوسطن مع السيدين هاريسون ولينش سنة ١٧٧٥ لتسوية بعض المسائل مع الحكومات الشمالية والجنرال واشنطن .

— فى سنة ١٧٧٦ أرسل الى كندا مع السيدين شاس Chase وكارول عابرا البحيرات قبل ذوبان الثلج ، فعمل مع زميله فى كندا على ازالة بعض الشكايات مما كان له أثر فى ضم الشعب الى قضيتنا ، وقدم هناك الى الجنرال أرنولد وبعض خدام الكنجرس مبلغ ثلثمائة وثلثة وخسين جنيها ذهباً من ماله على ذمة الكنجرس كانوا فى أمس الحاجة اليها وكان لها نفع كبير فى تلك الآونة فى الحصول على الأزواد لجيشنا .

وقد كان حين تكليفه بهذه المهمة يجاوز السبعين . فشقت عليه مصاعب الرحلة ، اذ كان يتنقل بين الغابات فى ذلك الفصل القاسى من فصول السنة ولم يكد يبل من مرضه حتى أمره الكنجرس بالسفر الى فرنسا ، فسلمهم قبل سفره كل ما استطاع جمعه من المال بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف جنيه ، وكان ذلك مشجعاً لغيره على اعادة أموالهم لخدمة القضية العامة .

ولم يساوم على المكافآت ولكنه وعد — باقتراع الأصوات —

بمبلغ خمسمائة جنيه مساهمة مع نفقاته ومبلغ ألف جنيه لوظيفة السكرتيرية ومصروفاتها .

ولما أرسلته الهيئة النيابية في بنسلفانيا الى انجلترا سنة ١٧٦٤ بمثل هذه المكافأة سمحوا له بمكافأة سنة مقدما لتكاليف السفر وتعويض الخسائر التي لحقته من جراء الانقطاع فجأة عن مباشرة مرافقه الخاصة ولم يمنحه الكنجرس مثل هذه المنحة بل أنزله في سفينة رثة لا تصلح للملاحة في البحار الشمالية ، وحدث فعلا أنها جنحت عند عودتها ، مع سوء تدبير الطعام له على متنها حتى بلغ الشاطئ وهو يكاد لا يقوى على الوقوف على قدميه .

وان خدماته للدولة وكيلا ثم وزيرا مفوضا معروفة للكنجرس كما هي معروفة من رسائله ، وربما كانت خدماته الاضافية مجهولة فلا داعية الى ذكرها .

ثم مضى في عمله ولم يعين له السكرتير الموعود . وقام ببعض الأعمال قبل انفصال زملائه ثم قام بها جميعا بعد انفراده بمعونة حفيده الذي سمح له أولا بمقابل للكساء والسفر والسكن ثم بمرتب لم يزد قط على ثلثمائة جنيه في السنة (الا حين عمل في السكرتيرية للجنة الصلح) وهو فرق في المرتب على مدى سنوات مقداره سبعمائة جنيه كل عام .

— وعمل وحده بوظيفة القنصل عدة سنوات الى حين وصول مستر باركلي وبعد وصوله فترات من الوقت لاضطرار ذلك السيد الى التغيب في هولندا وبلاد الفلاندر وانجلترا ، وحدثت خلال ذلك محاولات متتابعة لاختلاس دفعة ثانية وثالثة بعد سداد الدفعة الأولى ، وكانت قوائم الحساب عن هذه الدفعات ترد مع كل سفينة وكل بريد وتستوجب الرقابة المتوالية . ولم يستطع مستر فرنكلين أن يسافر للرياضة والراحة كماداته قبل ذلك مما عرضه للاصابة بمرض قد لازمه بقية حياته .

ونوجز البيان فنقول انه على دأبه وصبره طوال حياته لم ترهقه الأعمال كما أرهقته خلال السنوات الثمان التى قضاها فى فرنسا ولم يعتزلها مع ذلك حتى شهد بشائر الصلح وتمت هذه البشائر بخير . ثم ألقى نفسه فى الثمانين من عمره وهى السن التى تخول من يبلغها بعض الحق فى الراحة والاستقرار .

الطيران والحروب

وقد شهد فرنكلين تجارب الطيران الأولى حول باريس وسمع المتفرجين وهم يرقبون المنطاد كأنه لعبة من لعب الفراغ ويتساءلون : وما فائدة هذا ؟ وبأى شىء تنفعنا هذه النفاخات الكبيرة ؟ فكان من جوابه لهم أن يسألهم : وما فائدة طفل وليد ؟ وفى هذا السؤال كل الجواب على الذين لا يعرفون الصبر على المخترعات حتى تنمو وتؤتى ثمرتها ، ولكنهم يعرفون أننا نربى الطفل الوليد الذى لا نفع له فينفع نفسه وينفع غيره اذا أحسننا القيام على تربيته ، ومما كتبه فرنكلين على أثر مشاهداته الأولى لتجارب الطيران خطاب الى صديقه العالم الهولندى جان انجنهوز Ingenhousz الذى كان يصاحبه فى رحلاته العلمية بشمال انجلترا نظر فيه نظرة بعيدة الى مستقبل الطيران فى الحروب قبل أن تستخدم المناطيد والطائرات فى ميادين القتال بأكثر من مائة وثلاثين سنة فقال فى خطابه من باسى بتاريخ السادس عشر من يناير سنة ١٧٨٤ :

« ليس فى المسألة سر . ولست أشك أنك اذا أرسلت رسولا من قبلك أمكنه أن يشاهد مناطيد منتجلفير وشارل المختلفة ويطلع على جميع التعليمات المطلوبة ، واذا أردت أنت أن تصنع منطاداً فمن الضروري ومن الأوفى فى رأى ، أن تبعث من عندك برسول ذكى لهذا الغرض ، اذ يخشى ألا يلتفت الى بعض الملاحظات أو يسهو عن العلم بها فتحبط

التجربة ويؤدي حيوها فى هذه المسألة التى يكثُر حولها الترقب والاستطلاع الى تعريضك للملأمة الشديدة والمساس بسمعتك . فانه لمن الضرر الوخيم تجميع الناس فى المدن الكبيرة وضواحيها ثم مصادمتهم بالخيفة والغضب . وقد حدث فى بورفو أخيرا أن شخصا زعم أنه صنع منطادا يصعده فى الهواء وأخذ تقودا من أناس كثيرين ولم يستطع أن يرفع المنطاد فهاجت عليه هائجة الناس وعمدوا الى بيته فهدموه وهموا به ليقتلوه .

وظاهر — كما رأيت — أنه اختراع هام يوشك أن يتجه بالشئون الانسانية وجهة جديدة ، وقد يكون من آثاره أن يقنع ذوى السلطان بخطل الاقدام على الحروب لما فى حماية بلادهم من المصاعب — بعد هذا الاختراع — على أقدرهم وأقواهم ، ولعل خمسة آلاف منطاد يحمل كل منها جنديين لا تبلغ تكاليفها ثمن سفن خمس من سفن القتال ، وأين هو الأمير الذى يتسنى له أن يملأ أرضه بالجنود فى كل مكان حتى يعجز عشرة آلاف جندي هابطين من السحاب عن اصابته بأخطر النكبات قبل أن يتمكن من حشد القوة اللازمة لصدهم والتغلب عليهم ؟

ومما يحزن أن تحول العصبية القومية — كما بدا لك — دون قيام الانجليز بالتجربة ، فانهم على براعتهم فى فنون الصناعة قمنا أن يسبقوا غيرهم الى اثنان هذا المخترع والانتفاع بكل ما يعود به من الفائدة .

ان منطاد شارل وروبرت كان ممثلا حقا بالهواء الساخن ، ولوفرة المقدار اللازم كان العمل فى ملئه متعبا عظيم النفقة يحتاج الى يومين أو ثلاثة ليلا ونهارا لانجازه . وللمنطاد صمام عند أعلاه يفك بشد الحبل الذى يربطه كلما أريد اطلاق جزء من الهواء استعدادا للنزول ، والراكبان يقذفان بجزء من الرمل الذى يوازن الهواء اذا أراد الصعود بعد ذلك ، ولا بد أن يكون مقدار كبير من الهواء قد انطلق من المنطاد

لموازنة أحد الراكبين ساعة نزوله ، ولخفة المنطاد بعد نزوله تكفى البقية فيه لحمل زميله ، وهما لا يحملان في المنطاد نارا كما يفعل مسيو منتجلفير في منطاده الذى يفتح من أسفله ويوقد فيه التبن لاستبقاء ناره . وهذا الطراز من المناطيد أسرع امتلاء وأقل نفقة ، ولكنه يستلزم مضاعفة الحجم لرفع الثقل نفسه ، اذ كان الهواء المشعشع بالحرارة لا يقل ثقله عن نصف ثقل الهواء الجوى ، على حين أن الهواء الساخن يقل عن ثقله عشر مرات ، وقد كشف مسيو مورفو الكيمى الشهير بمدينة ديجون هواء ساخنا لا تزيد كلفته على جزء من خمسة وعشرين جزءا من كلفة الهواء الساخن الذى يحدث من صب الزيت أو الزاج على برادة الحديد ، ويقال انه مستخرج من فحم البحر ولم يذكر وزنه بالنسبة الى غيره^(١) ..

ثمن الصفارة

وهذه رسالة من رسائله الى السيدة بريون ضمنها حكاية من الحكايات « المثلية » أو الحكايات التى تستوحى من مغزاها بعض المعانى الأخلاقية أو الاجتماعية ، وكانت شائعة فى ذلك العصر يؤلفها الكتاب وغير الكتاب لتزجية الفراغ بما يشبه امتحان الذهن بالأحاجى السهلة والألفاظ الخفيفة ، وتتلى هذه الرسائل عادة فى السهرات والاجتماعات كأنها مادة من مواد السر والفكاهة ، وقد كتب فرنكلين هذه الرسالة الى صديقه جوابا على رسالة منها تصف فيها نعيم الفردوس كما تتخيله ، فقال بعد أسطر فى التمهيد والاعتذار من تأخير الجواب :

« .. أعجبني وصفك لجنة الفردوس وبرنامجك الذى درستته

(١) هذه الرسالة والرسائل الأربع التى تقدمتها مترجمة من النصوص التى اشتملت عليها مجموعة الكتابات الترجمية لجامعها فان دورن .

للمعيشة فيها . وأترك كثيرا على ما ختمت به الوصف حيث تقولين اننا — فى الوقت نفسه — ينبغي أن نستخلص فى هذه الدنيا كل ما نستطيع من خير ونعمة . وأرى أننا جميعا قادرون على أن نستخلص منها فوق ما ننال من خيرها ونعانى أقل مما نمانيه من شرها لو جعلنا بالنال الى شىء واحد : وهو ألا نشترى الصفاير بأكثر من أثمانها .

.. وتساألينى ماذا أعنى ؟ وأنت تحبين الحكايات .. فاسمحي لى أن أقص عليك احدى حكاياتى حين كنت فى السابعة من عمرى ، فقد حدث فى بعض أيام الأعياد أن امتلا جيبى بأنصاف البنسات من هبات أصدقائى فذهبت توا الى دكان اللعب واشتريت منه صفارة سمعت بعض الأطفال فى الطريق يصفر بها ، فأعجبتنى وبذلت فى ثمنها كل ما احتواه جيبى .

ورجعت الى المنزل فطفقت بين جوانبه نافعا فى صفارتى راضيا عن نفسى مزعجا كل من فيه من اخوانى وأخواتى وأبناء عمى ، فلما سألونى عن هذه الصفقة وأخبرتهم بها قيل لى اننى بذلت فى الصفارة أربعة أضعاف ثمنها ، وذكرونى بالطيبات التى كنت قمينا أن أنعم بها لو لم أبذل فيها فوق ما تستحقه وضحكوا من حماقتى وغفلتى وأكثروا من الضحك حتى بكيت غما وأسفا وساءنى من التفكير فى الخسارة أضعاف ما سرنى من الصفارة .

ونفعتنى العبرة فلم تبرح ذاكرتى بعد ذلك ، ولم أزل كلما أغريت بشراء شىء لا حاجة بى إليه أعود فأقول لنفسى : لا تبذل فى الصفارة فوق ما تساويه ، وإدخرت نقودى !

ثم كبرت واختبرت الدنيا وراقبت أحوال الناس فلقيت الكثيرين ممن يشترون الصفارة بأضعاف ثمنها ، وأصبحت كلما رأيت انسانا يطعم فى الخطوة لدى البلاط فيبدد وقته فى التردد على الحشم والحاشية ويفقد

راحتة وحريرته وفضائل نفسه وربما فقد أصدقاءه في هذا السبيل —
أعود فأقول : هذا الانسان يغالى بقيمة الصفارة ويبدل فيها أضعاف
ما تساويه .

وكلما رأيت انسانا مشغوعا بالشهرة يزج بنفسه في مشاكل السياسة
ويغفل عن مصالحه فيجر على نفسه الخراب بهذه الغفلة — أعود كذلك
فأقول : وهذا انسان آخر يشتري الصفارة بأضعاف ثمنها .

وكلما عرفت بخيلا يحرم نفسه أطايب العيش وغبطة الاحسان الى
الناس ومنزلة التقدير والرعاية بين قومه ومتعة المودة والصدقة بينه وبين
خاصته — أعود فأقول لنفسى : يالك من مسكين ! انك أيضا تشتري
الصفارة بأضعاف ما تساويه .

وكلما التقيت بانسان من طلاب الشهوات والمسرات يذهل عن تهذيب
نفسه وعقله ، أو عن تدبير ماله من أجل متعة جسدية تستغويه وتجور
على جسده — أناديه في ضميرى : أيها المخدوع ! انك تجنى الألم من
حيث تنشُد اللذة وتعطى الصفارة ثمنًا لا تستحقه .. !

وقد أرى انسانا مفتونا بالمظهر والزينة مأخوذا بغواية البيت الأنيق
والأثاث الأنيق والعتاد الأنيق مما لا يطيقه ولا تحتمله ثروته وقد يوقعه
في الدين ويسوقه الى السجن ، فأقول : وآسفا . انها الصفارة يشتريها
أيضا بهذا الثمن الثقيل .

وقد أرى الفتاة الحلوة الجميلة تتزوج من الرجل السيء القبيح
فأقول : يالها من شقوة وخيبة . انها تعطى الصفارة أضعاف ما تأخذ منها .
وجملة القول ان معظم الشقاء الذى يتلى به بنو الانسان انما يجنيه
عليهم ذلك التقدير الباطل لقيم الأشياء ، وذلك البذل المضاعف في
ثمن الصفارة .

على أننى أرفق بهؤلاء البائسين فلا تنسينى هذه الحكمة التى أشدق بها أن فى هذه الدنيا كثيرا من المغريات ، ومنها تفاحات الملك حنا التى لا تباع لحسن الحظ . ولو أنها كانت مما يباع بالمزايدة لخشيت أن أجز على نفسى الخراب لأشتريها وأعود فأبذل فى الصفارة قينة لا تساويها^(١) .

رسائل شخصية

وهذه رسائل متفرقة فى موضوعات عائلية أو عامة كتبها الى أقربائه وصفوة أصدقائه ، ومنها هذه الرسالة الى أخته تعزية لها فى موت أخيه : فيلادلفيا فى ١٢ من فبراير سنة ١٧٥٦ .

أختى العزيزة :

أشاطرك الحزن فى مصابنا بموت أخينا العزيز . ولكن بيننا مزيد من الحب كلما أصبنا بنقص فى العدد .

وقد عدت الآن من بعثتى العسكرية ووقتى مشغول بأعمال الهيئة النيابية ، وكأننا العناية الالهية تطلبنى بصنوف شتى من الواجبات ، فلا أعلم الآن ما سيأتى بعد ، ولكنى أجد أن شواغلى تزداد كلما بحثت عن الفراغ وتطلعت الى الاعتزال .

وانى أفهم ان « بينى » يميل الى ترك « انتيجوا » . وربما كان على حق ، ولا مانع عندى .

محبتى للأخ وللأطفال ، واننى يا أختاه العزيزة .

.....

(١) هذه الرسالة مأخوذة من كتاب الخزعات ، وفى هامشها يقول جامع الكتاب ان التفاحات فى الحقيقة كمثریات مسمومة أهدها قس الى الملك حنا صاحب (المجناكارتا) لأنه علم أنه يهيم باغتصاب راحبة مصونة .

وكتب اليها هذه الرسالة تعزية في موت ابنتها سارة :
فيلادلفيا في ١٠ من يوليو سنة ١٧٦٤ .
أختي العزيزة :

نحن جميعا نشاطرك الحزن في موت كريمتك . وقد كنت أراها دائما
على خلق عذب محبوب وشماثل طيبة تضاعف الحزن عليها في نفس
الأخ ونفسك فوق ما تحتلان ، وكل ما نملكه من العزاء في مثل هذا
المصاب أن نؤمن . بأن الله يعلم ما هو أصلح وأجدر ويقدر على صنع
الخير مما يبدو لنا أنه شر . وانها لسعيدة تلك السعادة التي لا يشعر بها
أحد منا وهو ب قيد الحياة .

وكتب اليها في مسألة من مسائل العقيدة تعنيها بعد الاطلاع على
بعض الكتب التي أرسلها اليها من البلاد الانجليزية :
لندن في ٢٧ من يوليو سنة ١٧٧١ .

وصل الى خطابك الكريم المؤرخ في العاشر من شهر مايو ..
ويلوح لي انك تحسین احساسا شديدا بخطئك في التعجل باتهامي حتى
ليحق لي أن أقول انه الآن دورى في الأسف لملاحظة ذلك الخطأ ، فقد
تعادلت الحسبة اذن فلندعها ولا نعد الى التفكير فيها .

ويخيل الى أننى ذكرت ثمن الكتب في رسالة سابقة ونسيتها الآن
ولكننى أظن أن ثمنها ثلاثة شلنات لكل كتاب .

ولا ريب أن هناك اختلافا في أمر وجودنا قبل هذا الوجود ، وأحسب
أن هذه الفكرة قد صدرت عن حسن نية ، لتبرئة حكمة الله من تعاسة
الخلق في هذه الدنيا بغير جريمة لحقت بهم في دنيا قبلها ، وربما كان هذا
من الفضول بغير داع لتأييد قصة السفينة .. واذا كان الاله قد شاء
أن يلقي عليها سترا فقد يكون الاجترار على كشف ذلك الستر من قبيل
التطفل واللجاجة ، ولعل نجاحنا في هذه المحاولة لا يربى على نجاح أبويننا
في محاولة المعرفة الممنوعة يوم أكلا من الشجرة .

ولست أعنى بقولى ان بنى آدم بعضهم شياطين لبعض الا أنهم — لا ارتقاءهم على غيرهم من الخلق — لا يعذبهم الخلق الآخرون كما يعذبون أنفسهم . ومن جانبى أنا أرانى أتقبل الدنيا على علاقتها وأرى أن أشك فى حكمتى كلما فكرت فى وجوه صلاحها واصلاحها ، وانى لأبصر من الحكمة فيما أدرك من خلق الدنيا ونظام تدبيرها ما يلهمنى أن هناك حكمة تعادلها فيما لست أدركه وأتقصاه . ومن ثم لا تكون الثقة التى عندى بالله دون الثقة التى عند سائر المسيحيين الأبرار .

ويسعدنى أن التفاهم الحسن مستمر بينكم وبين آل فيلادلفيا ، وقد كان أبونا حكيما جد حكيما ، وكان من عادته أن يقول انه لاشئ أكثر من ظهور أسباب النفور بين المتحايين على البعد اذا اقتربت بهم الديار . ولهذا لم يكن ليستحسن زيارات الآل فى الأماكن البعيدة ، لأنها تطول ولا يمكن أن تقصر الى الحد الذى يتركهم على المودة والوئام حين يفترقون . وقد لمست برهانا على ذلك — العلاقة بين أبى وأخيه بنيامين ، فقد كنت يومئذ طفلا ولكنى كنت أحس الفرق بين عبارات المودة فى رسائلهما قبل اللقاء وبين المناقشات والمجادلات التى تنشعب بينهما اذ يقيمان فى مسكن واحد . غير أنك أنت أدنى الى الصواب فيما تختارينه من التوفيق آتة بعد أخرى لاسداء النصيحة من بعيد فى شئون الآخرين ومراقبتهم ، وكله خير ما دام يفضى الى خير .

وأذكر انك أشربت فى احدى رسائلك الى النظارات ورغبتك فى ارسال بعضها اليك ، وليس لدى هذه الرسالة الآن فلماذا أبعث اليك بزواج من كل مقاس من الواحد الى الثلاثة عشر ، وستعرفين المقاس الذى يوافقك بامتحان زوج بعد زوج على كلتا عينيك فى النظر الى مطبوعة دقيقة ، واعزلى ما لا يوافقك لكيلا تعودى الى تجربته مرة أخرى ، وانك لتجدين النظارة التى توافقك بالتجربة والمقارنة على مهل ،

وهو الأمر الذى لا يتيسر فى الدكاكين حيث يعجل الناس باختيار النظارات فترهق أبصارهم وتضرهم ، وأشير عليك بتجربة كل عين على حدة ، اذ قلما يوجد بين الناس من تتساوى لديهم العينان ، ويكاد كل ناظر يعتمد على احدى عينيه فى القراءة والعمل لضعف فى عينه الأخرى ، أو لأنها أصلح للنظر البعيد . ولهذا تفيد النظارة المتساوية تلك العين المهملة ولا توافق العين المعول عليها ، ومتى عرفت ما يوافقك من النظارات فاحتفظى بالأقوى منها للمستقبل حين تحتاجين إليها مع الزمن ، وقدمى ما تستغنين عنه هدية للأصدقاء .

أما الخطأ الذى أوما إليه فرنكلين فى مقدمة الخطاب السابق فقد يظهر من خطايه التالين ، وأولهما بتاريخ الثلاثين من شهر ديسمبر سنة ١٧٧٠ .

قال : « سنحت لى الفرصة ، أثناء انتظار السفينة أكثر من وقتها المعهود — أن أكتب اليك بعد ما فاتنى ، على ما أظن ، أن أفعل حين رجوت ابن عمنا وليامز أن ينوب عنى فى الاعتذار اليك .

وصل الى خطابك الكريم . المؤرخ فى الخامس والعشرين من شهر سبتمبر على يد السادة الفتیان الذين حببوا أنفسهم الىّ والى كثير من معارفنا بمسلکهم الحميد . وقد حقق « جوشيا » أمنية قلبه بالتتلمذ على مستر ستانلى الذى استجاب رجائى بعد طول انقطاعه عن التدريس فقبل أن يعلمه بعض الدروس وسرّ من سرعة فهمه وتقدمه ، ويبدو لى أن جوناثان فتى ذو قيمة رصين منتظم يميل الى العمل والتدبير ، وهى مخايل النجاح فى الأشغال ، وانى فى صحبتهم لجد سعيد .

أما الاشاعة التى ذكرتها — وأخبرنى جوشيا فحواها وهو أننى عزلت من وظيفة مدير البريد من أجل كتاب أرسلته الى فيلادلفيا — فربما كان أساسها أن بعض الرؤساء قد ساءهم كتابتى أمثال تلك الكتب ولاح

عليهم انهم يريدون أن يعبروا عن استيائهم على ذلك المنوال ، ولكن
أناسا من أصدقائي أشاروا برأى غير هذا الرأى على غير علم منى ،
فاضطر خصومى الى القناعة بثتمى—عن سعة—فى الصحف واستشارتى
بذلك الى الاستقالة . ولا اخالهم يفلحون فى هذه الاستشارة ، لأننى
لا أملك تلك الفضيلة المسيحية فضيلة التسليم ^(١) . فمن أراد أن يحتل
مكانى فليأخذه عنوة !

ولقد سمعت عن عظيم من العظماء كان ديدنه فى أمر الوظائف
ألا يطلبها وألا يرفضها ، وأضيف اليه كذلك ألا يستقيل منها ، وقد قلت
لأصدقائى اننى ترقيت الى تلك الوظيفة على درجات من الوظائف التى
هى دونها ، وكانت مواردها قبل ولايتى لا تأتى بمرتبتها فأصبح المرتب
بعد ولايتى لا يعطى الا اذا أتت به مواردها ، وكانت فى السنوات الأربع
الأولى لا تقوم بتكاليفها حتى بلغ دينى ودين زملائى عليها تسعمائة
 وخمسين جنيا فاجتهدت اجتهداى حتى وصلت الى ما هى عليه الآن من
 الوفرة والفائدة ، واعتقدت من ثم أننى صاحب نوع من الحق فيها ، وقد
 قمت حتى الآن بالأمانة والصدق على أعمالها مما أَرْضى عنى الرؤساء
 كل الرضا ، وهو غاية ما كان يطلب منى فى هذه الوظيفة . أما الكتب التى
 أنفذتها الى فلادلفيا فقد كتبتها فعلا قياما بواجب آخر وهو واجبى نحو
 وطنى ولا شأن له بعملى فى ادارة البريد ، وان مسلكى فى هذه المسألة
 لشبيه بمسلكى فى مسألة سابقة لها حين كان الرؤساء يهيمون باحتضانى
 واعتناقى لمساعدتى اياهم فى الغاء قانون خاص بالايراد ، ولا يزال
 شعورى اليوم كشعورى بالأمس فى أمر هذه القوانين التى لا يجوز أن
 تصدر هنا لتطبيقاتها فى أمريكا ، وانها اذا صدرت وجب السعى الى الغائها
 على الأثر ، ولست أعتقد أننى مطالب بتبديل شعورى كلما خطر لصاحب

(١) هذه الكلمة بالانجليزية تفيد معنى الاستكانة والتسليم للمقادير .

الجلالة هنا أن يغير وزراءه ووكلاءه ! وقد كانت هذه عبارتي التي فهمت بها لهذه المناسبة ، ثم سمعت أنهم — وان حسبوني حقيقا باللوم وفهموا أن الموظف مطالب بمجاراة الوزير على رضا منه أو على غير رضا — وقد عادوا فنظروا الى مسلكي الطيب وخلقى الشخصى كما تفضلوا فوصفوه ، وقرروا من ثم ألا تنتزع الوظيفة منى .

وجائز أنهم ينكصون عن رأيهم هذا ويعزلوننى ، ولكننى على ثقة أن شيئا من هذا لن يبدل من خطتى السياسية ، وخطتى التى اطمأنت اليها دائما هى ألا أحيد عن خطة فى الشئون العامة رعاية لشأن من الشئون الخاصة ، بل أمضى قدما فى عمل الصواب الذى اعتقده وأدع المصير بين يدى العناية الالهية . وقد كان مما يسّر لى أن أستقيم على النهج فى صباى أننى كنت صاحب صناعة وكنت أعلم أننى أقنع بالقليل فى معيشتى ، ولم يكن من همى يومئذ أن أجمع ثروة كبيرة وأن أذهب مع الأطماع ، قانعا بما أكسبه من الكفاية من موارد عملى . والآن أخال أن الاحتفاظ بحريتى ونزاهتى أيسر على بعد ان بلغت النهاية من مراحل عمرى وقلّت النفقة التى بقيت للبقية منها ، وأن ما أملكه الآن ببركة الله وحسن القصد فيه ليكفينى ، الا اذا وقع من الكوارث العظمى ما ليس فى حسابى ، فلا حاجة بى الى الزيادة عليه من موارد وظيفة أو ادارة .

أبعث اليك فى هذه الفرصة الكتابين اللذين كتبت عنهما ، وثن كل منهما ثلاثة شلنات ، وقد كنت فى زيارتى السابقة للندن قبل خمس وأربعين سنة أعرف النساة تفكر تفكير مؤلفك اسمها « اليف » أرملة أحد الطباعين ، وماتت على أثر سفرى من انجلترا فكان من وصيتها لولدها أن يلقى علانية فى قاعة صولتر خطابا يؤكد فيه أن هذه الدنيا هى الجحيم الحق مقر العذاب والعقاب للأرواح التى أذنبت فى حياة أفضل من الحياة فنفيت الى الأرض لتجزى على ذنوبها فى أسلاخ الحيوان على اختلاف

أنواعه ، واقتضى زمن طويل منذ اطلعت على الخطاب المطبوع الذى كان يستشهد بالكثير من آيات الكتاب المقدس ، ومرماه أننا سنتذكر بعد الموت ما كنا عليه قبل الولادة. وإن كنا ننسأه أيام المقام فى هذه الدنيا، وإننا نذكر كذلك ما لقيناه من العقاب لنعتبر به. ويعتبر به سوانا ممن لم يذنبوا مثلنا فلا يقعوا فى الخطيئة اعتبارا بما أصابنا .

والواقع أننا نرى هنا أن كل حيوان من الحيوانات الدنيا له عدوه الذى ركبت فيه الرغبات والغرائز والأسلحة التى تمكنه من تخويفه وجرحه والقضاء عليه . أما الانسان — وهو أرفعها جميعا — فبعضه لبعض شيطان ، وتلك حال تستدعى فرضا كفرض السيد اليف مع الايمان بكرم الله وعدله فى قضائه للتوفيق بين هذا الايمان وكرامة العزة الالهية . إلا أن عقولنا لا تذهب بنا بعيدا حين نسومها أن تبحث عما كان قبل وجودنا أو ما سيكون بعد هذا الوجود لقلة التواريخ والوقائع التى بين أيدينا . وإنما يعطينا الوحي معرفتنا للضرورة بهذا ويقصد غاية المقصد على الخصوص فيما أعطانا من المعرفة عما كان قبل وجودنا .

— أرجو أن تتابعى الكتابة الى أصدقائك بفلادلفيا ، ومحبتى لأبنائك ، وعلى العهد .. أخوك المحب الودود .

وكتب اليها ينفى اشاعة عن تعيينه فى وظيفة انجليزية أثناء قيامه بالوكالة عن بعض الولايات الأمريكية :

لندن فى ٢٨ من يولييه سنة ١٧٧٤

« .. ان الاشاعة التى أشرت اليها وقيل فيها اننى اقترحت أن أتخلى عن توكيلاتى وأقطع عن وطنى انما هى أكذوبة خبيثة كما قلت فى خطابك وليست بالاشاعة الكاذبة وحسب بل هى سخيفة مضحكة . اذ هى تفترض على الأقل اننى لا أعرف من الحساب ما أفرق به بين ثلثائة ألف ١ وانهم ليعاودون الاشاعة هنا حينما بعد حين زاعمين أننى ألتبس

الوسائل للعودة الى وظائف الحكومة ، ولعلمهم يتمنون ذلك وينتظرونه .
فلينتظروا اذن الى يوم الدين .

ان الله لأعلم بسريرتى ، واننى لآسف أن أقبّل أحسن الوظائف التى
ينعم بها الملك هنا ما دامت تلك الأفاعيل الجائرة تسلط على وطنى .
وثقى أننى لن أصنع شيئا يمسنى فى نظرك أو ينقض المسلك الأمين الذى
سلكته حتى الآن فى الأعمال العامة ، وقد احتفظت بوظيفتى السابقة
حتى عزلت منها ولم أعتزلها لأننى لم أكن قد تلقيتها مكافأة من الحكومة
بل ارتقيت اليها بحق الخدمة فيما دونها والأمانة فى تلك الخدمة ، فجازلى
أن أعتبرلى حقا فيها أو حقا عليها ، ولم أشأ أن أيسر لهم الأمر بالاستقالة
لكى يبوء منهم من أراد أن يبوء بمسبة حرمانى منها ، وقد شرفونى
باخراجى من تلك الوظيفة فليكن حذى الآن ألا يحملونى المسبة
باعدتى اليها .

وكل هذا أكتبه اليك أنت . أما الدنيا فربما خطر لها أن هذه
التصريحات والتوكيدات أمر لا يقبل التصديق ومحض ادعاء يدعيه
المرء لتفخيم شأن نفسه . فلا تطلعى أيتها الأخت العزيزة أحدا على هذا ،
فانما أكتبه اليك لمرضاتك وراحة ضميرك مما عسى أن يساوره من
القلق لسماع تلك الاشاعات .

وكتب اليها بعد انتخابه رئيسا للجمعية فى فلادلفيا يعرب لها عن
شعوره بالاجماع على انتخابه :

فلادلفيا فى ٤ من نوفمبر سنة ١٧٨٧

وصل الى "منك أخيرا كتاب كريم سرنى بما علمته من تمتعك بالصحة
وأنك اتخذت العدة للشتاء كما أنبأتك . ومطالبك مستجابة محترمة ،
وقد يتعذر على أحيانا أن أعرف ما تحتاجين اليه فأرجو ألا تحجمنى أبدا
عن اخبارى بكل ما فى وسعى أن أعمله لاسعادك فى حياتك .

لقد عازمت من قبل أن اعتزل العمل في الهيئة النيابية سنة أخرى
كى يتسع أمامى الوقت للسفر الى بوستون في الربيع . الا أننى أذعن
للإجماع الذى انعقدت عليه آراء بنى وطنى فأقرونى مرة أخرى على
كرسى الرئاسة ، وتم لى الآن أكثر من خمسين سنة في الخدمة العامة .
لما أخبرت صديقك الطيب دكتور كوبر أننى أمرت بالسفر الى فرنسا
بعد أن بلغت السبعين ، وقلت له ان « الجمهور » قد أكل لحمى ويريد
اليوم على ما يظهر أن يأكل عظمى — أجابنى قائلاً : انه يجذب منهم حسن
الذوق . لأن أطيب اللحم ما جاور العظم كما جاء في الأمثال ، ولا بد لى
أن أعترف لك بأننى مغتبط بذلك وأحسب أن أختى العزيزة حقيقة أن
تسر باختيارى للمرة الثالثة بعد طول التجربة ، وان بنى قومى يتفقون
باجماع الأصوات — ما عدا صوتى — على توجيه هذا التشريف الى ،
وهو أكبر ما يملكونه من تشريف . وان هذه الثقة العامة بغير قيد ولا حد
من شعب كامل لأعز عندى وأرضى لكبريائى من أرفع ألقاب النبلاء . فان
الأشرطة والحمائل التى يعلقونها حولهم قد تضى على أصحابها شرف
الألفاظ والأسماء ، ولكنها لن تمنحهم لباب الشرف الصميم ^(١) ..

(١) رسائل فرنكلين الى أخته مأخوذة كلها من مجموعة رسائل بنيامين
فرنكلين وجين ميكوم Mecom طبع جامعة بوستون سنة ١٩٥٠ .

خرافات وحكايات ذات مغزى

نشأت الخرافات ، أو الحكايات الموضوعية ذات المغزى ، فى أوقات متقدمة قبل الميلاد بعد قرون ، وعرفتھا الأمم الشرقية والغربية بأنواعھا المتعددة ، ومنها الحكايات التى توضع على ألسنة المخلوقات عاقلة كالمخلوقات الآدمية مع اختلاف الشكل والفترة كالجن والملائكة والمردة والأقزام ، ومنها الحكايات المنتحلة التى تنسب الى بعض الأشخاص التاريخيين أو الذين تدعى لهم صفة تاريخية لاجراء الحكمة القديمة على ألسنتهم ، وكل هذه الأنواع كانت معروفة قبل القرن السابع عشر فى البلاد الغربية ، ولكن هذا القرن — ولا سيما النصف الأخير منه — قد خص بظاهرة منفردة بين القرون الأخيرة وهى شيوع هذه الحكايات فيه بجميع أنواعھا وانتقال الكثير منها الى مجال النقد الاجتماعى والآراء التعليمية التى تنزع منزع الحرية وإعادة النظر فى حقائق الحياة ، وقد نبغ بين منتصف هذا القرن ومنتصف القرن الذى يليه أعلام بارزون فى هذا الفن من الأدب والحكمة من أمثال لافوتتين الذى كان يلقب بايسوب الفرنسيين وأمثال جون جراى الذى كان يلقب بايسوب الانجليزى ، ونبغ فى هذه الفترة أمثال فولتير وسويفت الذين اتخذوا من القصص المخترع وسيلة لنقد المجتمع وكشف عيوبه منقولة الى أناس بعيدين أو أزمنة بعيدة لا تخفى على القارئ وجوه الانتحال والاختراع فيها ، وتعليل هذه الظاهرة فى أواخر القرن السابع عشر ليس بالأمر العسير ، لأنه الزمن الذى تفتحت فيه العقول لحرية التفكير ولم تبلغ مداھا من الحرية دفعة واحدة ، بل بدأت بالتلميح

والكناية وتدرجت منهما الى التصريح الذى بلغ حد التهجم فى كثير من الأحيان ، وهذه الحكايات بأنواعها أداة صالحة للنقد المستور والحرية الفكرية المقنعة ، يقبلها المنقودون ولا يتذمرون منها لأنها تسليهم بالفكاهة ولا تخص أحدا منهم بالهجوم الصريح عليه ولا تهدد مصلحة معلومة تهديدا يخشى منه أو تعرف عقباه .

وفرنكلين كمادته سريع الى اقتباس كل وسيلة من وسائل المعرفة والتعليم « الأبوى » الذى يهدى الجميع ولا يجرح أحدا مقصودا لذاته ، وقد اقتبس هذه الوسيلة وتوسع فيها كما نرى من بعض رسائله السابقة ، واقتبس الخرافة والحكاية ذات المغزى بأسلوبها القديم مع تجديدها بالاتجاه بها الى الحكمة الواقعية فى زمنه ، وقد اخترنا منها هذه الحكايات الأربع لأنها من حكاياته المعبرة عنه وعن شواغل ذهنه وحياته على التخصيص ، فمنها حكاية عن الثورة الأمريكية ، وحكاية عن حدود العقل الانسانى فى طموحه الى أسرار الكون وأصول الحياة وصفات الخالق ومقاصده فى خلقه ، وحكاية عن عمر الحى كيف يتساوى فيه الدهر الطويل واليوم الواحد عند نهاية الأجل ، وحكاية عن السباحة الدينية لها تاريخ خاص بين هذه الحكايات ، وهى حكاية ابراهيم الخليل وخواره مع ربه فى أمر الكفرة الجاحدين ، فهذه الحكاية قد وقع عليها فرنكلين فى بعض مطالعاته ويمزوها بعضهم الى السعدى الشيرازى شاعر الفرس المعروف ، ويقال ان السعدى نفسه سمعها من أصحاب الاسرائيليات ولم يزعم فرنكلين قط أنها من تأليفه ولكنه كان يداعب ضيوفه ويسألهم أن يفرقوا بين الأسلوب الذى وضعها فيه وبين أسلوب الكتب الدينية التى احتواها العهد القديم ، وكان يقول لطائفة منهم أمام بعض القسس انه سيقرا لهم الاصباح الحادى والخمسين من سفر التكوين ، ولاوجود لهذا الاصباح فى الكتاب ، لأنه ينتهى بالاصباح الخمسين ! ولكنها

دعابة من دعاياته وعادة من عاداته في محاكاة الأساليب ، وكان يعالج هذه المحاكاة في ابان تعلم اللغة الفرنسية ليمتحن نفسه قبل أن يمتحن غيره .
وقديما صنع ذلك ، كما مر بنا ، بأساليب اديسون وغيره من الكتاب المحدثين ، ولعله لم ينس هنا نزعته القديمة الى مذهب الربوبية Deism وآراء الربوبيين في طبيعة الوحي الالهى الذى يتنزل على طبيعة البشر ، فانهم يعتقدون أن مضامين العهد القديم تسجيل توفر عليه الكتاب والحفاظ لاثبات ما وعوه من الأقوال المهمة على ألسنة الرسل والأنبياء .
وقد أثارت حكاية ابراهيم هذه ضجة لطيفة في ابان تأليفها والقائها ، ثم أثارت بعد ذلك ضجة أخرى بعد طبعها وجمعها ، وسؤل الحسد لأناس من شائيه أن يتهموه بالسرقة الأدبية عمدا لظهور هذه الحكاية بين أوراقه المجموعة ، وعملت الخصومة السياسية عملها في تكبير هذه التهمة فنشرت في مجلة الخزانة البريطانية British Repository في عدد شهر مايو سنة ١٧٨٨ حملة صحفية ترميه فيها بالسرقة والادعاء ، ونفى صديقه فوجان Vaughan هذه التهمة بخطاب أرسله الى المجلة ونشرته في عدد تال ، وكتب فرنكلين نفسه الى فوجان يمزج مقاله ويعيد قوله في المجلة انه ينسبها الى نفسه وليس له فيها من عمل غير الصياغة وما أضافه الى ختامها من الوعد والوعيد ^(١) . فالحكاية — لما أحاط بها من هذه الحواشي جميعا — أحق الحكايات ذات المغزى بالنقل في هذا السياق .
وهذه هي الحكايات الثلاث :

ملك الغناب

كان للأسد ملك احدى الغابات جند من الكلاب الأمناء مخلصون له ولدولته ، وعلى أيديهم اتسعت تلك الدولة وهابها من حولها جميع الأعداء .

(١) صفحة ١٥٣ من كتاب الخزعبلات Bagatelles

الا أن الأسد — ذهابا مع نصيحة السوء من مشيريه — نفر من أولئك الجند ودانهم بالتهم دون أن يستمع اليهم وأمر ببكره وفهوده ونموره أن تغير عليها وتفتك بها فتكا ذريعا ، وشكا الكلاب فلم يؤبه لهم ورفضت شكاياتهم بغير اكتراث . فلم يكن لهم بدّ من الذود عن أنفسهم وحماية حوزتهم ، وفعلوا مستبسلين .

وكانت منهم فصيلة مدخولة النسب من سلالة الذئاب والثعالب أفسدتهم وعود الملك بالمكافآت الجزيلة فخذلوا سلاتهم وذهبوا الى معسكر الأعداء .

واتصر الكلاب أخيرا فانعقد الصلح بينهم وبين الأسد أن يصبحوا أحرارا وألا يكون له عليهم يعد ذلك من سلطان .

وتعذر على الأوشاب المدخولين أن يرجعوا الى السكن بين الكلاب فراحوا يلحون في طلب المكافأة الموعودة ، واجتمع من السباع مؤتمر كبير للنظر في هذا الطلب ، فاتفق الذئاب والثعالب على عدالة الطلب وأن الوعود الملكية لا بد من نفاذها ، وعلى كل مخلص من رعاياه أن يسهم في تمكين صاحب الجلالة من الوفاء بتلك الوعود .

وخالفهم الحصان وحده فجهر برأى جرى يجعل بما في طبعه النبيل من الشجاعة والطلاقة ، وتصدى لهم قائلا : « ان الملك قد أساء نصحاء السوء مشورته وأوغروا صدره على رعاياه الأمناء ، وان وعود الملوك ينبغي أن تنفذ حقا اذا وعد بها من يصدقون الخدمة وكان في انجازها منفعة للجميع ، ولكنها اذا استنفرت رعاياه بعضهم على بعض فهي باطلة من مبدئها ، ومن جزاء المحرضين عليها والذين اقترفوا جرائم العدوان والغيلة من جراء ذلك التحريض أن يلقوا أشد العقاب بدلا من المكافأة وحسن الثواب ، ولننظر كيف تقصت قوتنا وهيض من بأسنا بما أصابنا من فقدان كلابنا ، فاذا زينتم للملك أن يحسن الى الذين قتلوا اخوتهم

أقمتم بذلك سابقة تغرى من طغى بأمثال تلك الوعود وأصبحت كل مكافأة ينعم بها أولئك الناشزون المنحرفون توكيدا لها وتشجيعا عليها ، وتعرض الخيل والبقر كما تعرض الكلاب لشر الوقعة فيما بينهم والانتقام بين صفوفهم ، وتتابعت الحروب الأهلية فى ديارنا حتى لا أمان ولا حرية فى هذه الغاب ، ويجيق بنا الضعف فلا حيلة لنا غير الخضوع والالتقياد لكل طاغية يحلو له أن ينكل بنا وينعم بافتراسنا حين يشاء . ولم يخل المؤتمر من عقل وحكمة ، فأصاخ الى رأى الصراح ، وقضى برفض ذلك الاقتراح .

أبو معشر الساحر

كبر الفلكى الطيب أبو معشر فكف عن العمل ، ولأذ بقمة الجبل ، وتجنب عشرة الناس وأنس الى أصحابه من المردة والجان الذين يحبونه ويرفهن عنه الوحدة بالأحاديث والأسرار ، وما فيها من معارف وأخبار . وزاره بلوييل المريد ذات مساء ، وهو مارد عظيم تعلو هامته سبعة فراسخ وينبسط جناحاه على رحاب دولة شاسعة ، فاستراح فى لطف وهينة على ذؤابات الشجر فى الوادى وأسند رأسه الى جبل قلبون ، واستقبل خيمة الساحر الكبير بوجهه المنير .

وتحدث اليه الساحر حديث الخشوع والتقوى عن حكمة العلى الأعلى وعما فى مقاديره من الخير والبركة ، وقال للمارد ان نعمته سبحانه وتعالى أجل من أن يحصيها ، وأنه يركض عقله الى أقصاه ، ولا يدرك به الشأو فيما ينقب عنه ويتقصاه .

قال بلوييل : على رسلك أيها الصديق ولا تسرف فى أمر تلك المزية التى تسميها بالعقل والحكمة ، فانك لو علمت أصلها ولمست مواطن ضعفها كنت الى الخجل منها أدنى منك الى الزهو بها والالتكال عليها .

قال أبو معشر : ألبتني اذن بما لا أعلم ، واكشف عني غشاء الجهالة ،
وسدد فهمي بنور الهداية .

قال بلوييل : تأمل يا أبا معشر في سلم الخلق من القيل الى الصدفه ،
وانظر الى درجة منها بعد درجة تجددها قريبا من قريب حتى لا فجوة
بينها ولا تكاد تلمح الفارق بين منازلها ودرجاتها . وان الناس عامة
ليجهلون ما يجهلون ، ولكنك أنت — أبا معشر — أهل لأن تعلم ما فوق
القيل من منازل ودرجات الى غاية الغايات من العظامم والطيبات . فلا
فجوة هناك بين خلق وخلق ، بل هي درجة فوق درجة وأفق يعلوه أفق ،
لا يدركها البصر ولا يستوعبها الضمير ، ولا يرتفع اليها الطرف الا ارتد
وهو حسير (١) .

ذبابه الربيع

وألف فرنكلين هذه الخرافة ، أو هذه الحكاية الرمزية ذات المعنى ،
بعد رحلة خلوية الى جزيرة مولان جولى Moulin Joli بنهر السين ،
مع السيدة بريون التي كانت مشغولة — كسيدات المجتمع الباريسى
كله — بالحرب الموسيقية بين المدرسة الألمانية والمدرسة الايطالية ، وكان
في الرحلة معها طائفة من العلية المهذبين تحدثوا في مسائل شتى من مسائل
الأدب والفن والفلسفة ، وكتب فرنكلين هذه الحكاية ليضمنها عبرة
الحياة بعد اليوم الذى قضوه في النزهة أو بعد الأجل المحدود للأجيال
الذباب التي تظهر في موسم الربيع وتكثر في جزر الأنهار الفرنسية
ولا يطول بها العمر وراء اليوم الذى تولد فيه .

قال وهو يهدى الحكاية ، أو العبرة ، الى تلك السيدة :

(١) الحكايتان من كتاب الخرافات الكبرى جمع كمروف

تذكرين يا صديقتي العزيزة أتني في ذلك اليوم السعيد الذي قضيناه في الحديقة البهجة والصحبة الحلوة عند مولان جولى — قد تنحيت هنيهة عن الزمرة وتخلفت وراءها قليلا منفردا بنفسى ، وقد رأينا أثناء ذلك عددا كبيرا من « الهياكل العظمية » لذلك الذباب الذى يسمونه تارة « بالمنا » وتارة بذباب الريح ، وقيل لنا ان أجيالا منه تحيا وتموت وتتعاقب فى مدى النهار الواحد ، وصادفنى جمع من هذا الذباب منعقدا على ورقة من أوراق الشجر مستغرقا فى الحوار والجدل ، وأنت تعلمين أننى بالسنة هذه الخلائق الدنيا خير ..

ان اشتغالى بالسنة هذه الأحياء لهو العذر الذى أعتذر به من التقدم البطيء فى تعلم لسانكم الجميل ، فأصغيت — بداعى الفضول — الى حديث المؤتمر ولم يتيسر لى أن أستوضح جلية القول من كل حديث لأنهم كانوا فى اندفاعهم وحمية شبابهم يتكلمون كل أربعة أو خمسة فى وقت واحد . الا أننى أدركت من كلمة هنا وكلمة هناك أنهم يتناقشون فى المفاضلة بين الطينين الذى يسمع من إحدى مدارس الذباب الفئائية والطينين الذى يسمع من المدرسة الأخرى ، وكانوا مستغرقين فى هذه المناقشة كأنهم على ثقة من امتداد العمر بهم شهرا أو يزيد ..

قلت فى نفسى : ما أسعد هؤلاء القوم ! وقلت كأننى أخاطبهم : لاشك أنكم تعيشون فى ظل حكومة رفيقة عادلة لا تشغلکم بالشكايات والمظالم عن الاسترسال فى أمثال هذه الأحاديث عن الموسيقى الأجنبية التى تبحثون فى محاسنها أو عيوبها ، وأدركت بصرى عنهم فلمحت واحدا منهم أشيب الرأس منفردا على ورقة أخرى يناجى نفسه نجاه أعجبنى وراقنى فدوته على الورق لساعته .

كان هذا الحكيم الذبابى يقول : « ان حكماء أمتنا الذين عاشوا قبلنا منذ عصر بعيد يقولون ان هذا العالم الفسيح المسمى بالمولان جولى

لن يعمر أكثر من ثمانى عشرة ساعة ، وآخالهم على حق فيما يقولونه لأن هذا النهر العظيم الذى تتولد منه الحياة كلها قد مال فى حياتى الى جانب البحر المحيط حيث يفرق لا محالة وينطفئ وتخدم معه شعلة الحياة فى كل مكان ويدع هذا العالم الكبير مطويا فى غمرة البرد والظلام !

ولقد عشت سبعا من هذه الساعات — عمرا طويلا ولا ريب ، لأنه لا يقل عن أربعمائة وعشرين دقيقة ، وما أقل الذين يعمرون منا مثل هذا العمر الطويل ! لقد أبصرت بعينى أجيالا تولد وتحيا وتموت ، وصحابتى اليوم انما هم الأبناء والحفدة لمن كانوا صحابة لى فى ريعان الشباب ولم يبق منهم أحد أراه وآأسفاه .

وانى لا محالة لاحق بهم عما قريب ، فاننى — وان كنت فى صحة وعافية — لن أخرق قانون الطبيعة ولا مطمع لى فى البقاء بعد سبع دقائق أو ثمان . فما غناء هذا العناية الذى عانيته وهذا الشهد الذى جمعته على هذه الورقة حيث أتركه ولا أنعم بمذاقه ! ما غناء الغزوات السياسية التى غزوتها فى سبيل هذه الجماعة على تلك الأجمة . ما غناء الفلسفة ومعضلاتها التى تعمقت فيها عسى أن أفيد بها أبناء النوع كله ! وما غناء القانون فى السياسة بغير أخلاق !!

ان جيلنا الحاضر من ذباب الربيع لو شيك أن يخالطه الفساد والمنكر خلال لحظات ويصبح كغيره وغيره من سكان تلك الأجمات فى ضروب الفساد والشقاء ! أما الفلسفة فما أقصر الخطى التى خطوناها فى مضارها ! وما أصدق قول القائلين : ان الفن لطويل وان العمر لقصير .

ويواسينى أصدقاى فيذكرون لى السمعة التى سأتركها من بعدى ويقولون لى اننى استوفيت حكم الطبيعة وحكم المجد أجمعين . فماذا تجدى السمعة ذبابة قد فנית وليس لها من وجود ، وماذا يبقى من التاريخ كله بعد الساعات العشر والثمان ، وبعد فناء الدنيا وفناء المولان

جولى نفسها فى غيابة الظلام والخراب ؟ .

اننى — بعد السعى الحثيث والدأب الطويل — لم يبق لى من متعة
فى العمر غير التدبر فى تلك الأيام الطوال التى أحسنت فيها المقصد والنية،
وغير الأحاديث التى أبادلها نخبة من الذبابات الطيبات ، وغير ابتسامه
من حين الى حين ، أو أغنية فى يوم بعد يوم ، تجود بهما الحبيبة الحسناء .

ابراهيم والضيف الكبير

.. وحدث بعد هذه الأشياء أن ابراهيم جلس على باب خيمته قريبا
من وقت غروب الشمس .

ونظر فرأى رجلا حنته السنون مقبلا من ناحية البرية ، متوكئا
على عكاز .

ونهض ابراهيم واستقبله وسأله قائلا : بحقك أن تأوى الى خيمتى
اغسل قدميك وتستريح طول الليل وتمضى الى سبيلك عند الصباح .
ولكن الرجل قال : لا .. وقال انه سينام تحت تلك الشجرة .

وكرر ابراهيم الدعوة وألح عليه كثيرا ليقبل دعوته ، فقبل ودخل
معه الخيمة وصنع له ابراهيم خبزا فطيرا وأكلا معا .

ولما رأى ابراهيم أن الرجل لم يحمد الرب ولم يتوجه اليه بالصلاة
سأله : ما لك لا تعبد الرب العلى الأعلى خالق الأرض والسماء ؟
وأجاب الرجل فقال : اننى لا أعبد الاله الذى تتحدث عنه ولا أسبح
باسمه . لأننى اتخذت لنفسى ربا يقيم معى فى بيتى ويزودنى بجميع
الأشياء .

وثارت ثائرة ابراهيم على الرجل فقام ودفع به الى البرية مشيعا
باللطمات والضربات .

وفى منتصف الليل نادى الرب ابراهيم قائلا : أين الرجل الغريب ؟

وأجاب ابراهيم فقال : انه لا يعبدك ولا يسبّح باسمك ، فأخرجته
لأجل هذا من خيمتى ودفعت به الى البرية .

وقال الرب : هل أصبر عليه أنا هذه السنين المائة والثمانى والتسعين
أطعمه وأكسوه ولا أبالى عصيانه لى وتأتى أنت صاحب الخطيئة
فلا تصبر عليه ليلة واحدة ؟

وقال ابراهيم : لا يحم غضب الرب على عبده . لقد أخطأت وأتوسل
إليك يارب أن تغفر لى خطيئتى .

ونهب ابراهيم وخرج الى البرية وبحث عن الرجل بحثا شديدا
فوجده وعاد به الى الخيمة فأكرمه وتلفظ له وشيعه فى اليوم
التالى بالهدايا .

وتكلم الرب مرة أخرى مع ابراهيم قائلا : من أجل خطيئتك هذه
يتعذب أبناؤك أربعمئة سنة فى أرض غريبة .

ولكن من أجل توبتك أنقذهم وأخرجهم أقوىاء بقلوب فرحة
وخير كثير^(١) .

(١) من كتاب الخزعبات Bagatelles

علميات

الزيت على الماء

والرسالة الآتية كتبها فرنكلين الى السيد بنجامين بروننج من علماء انجلترا الطبيعيين في عصره ، يطلعه فيها على تجاربه في تهدئة البحر الهائج بصب الزيت على الماء ، وقد تليت هذه الرسالة على مجمع العلوم البريطاني في الثاني من شهر يونيو سنة ١٧٧٤ ثم نشرت في مجموعتها الفلسفية ، وقد ترجمناها من « الكتابات الترجمية » التي سبقت الإشارة اليها .

لندن في السابع من نوفمبر سنة ١٧٧٣ .

سيدى العزيز :

أشكر لك ما أبلغتني من ملاحظات صديقك العلامة في كارليسيل ، وقد كنت في صباى أبتسم حين أقرأ كلام بليني Pliny عن عادة الملاحين في زمنه أن يعالجوا تهدئة الأمواج في العاصفة باراقة الزيت على البحر ، وهى عادة أشار اليها مع اشارته الى استخدام الغطاسين للزيت ، ولكننى لم أتلقت الى تهدئة الهواء العاصف برش الخل فيه ، وأرى كما يرى صديقك أن المتأخرين أفرطوا في السخرية من معارف الأولين ، وأرى كذلك أن العلماء أيضا يفرطون في السخرية من معارف العامة ، ومن الأمثلة على ذلك أن التبريد بالتبخير تجربة عرفها العامة منذ زمن طويل ، وأما تهدئة الأمواج بالزيت فهى من الأمثلة على كلا الأمرين .

ولعلك لا تأبى أن أبسط لك كل ما سمعت وعلمت وعملت في هذا

الصدد ، وهأنذا أستأذنك في أن أبسطه بين يديك :

فى سنة ١٧٥٧ كنت فى أسطول مؤلف من ستة وتسعين شراعا يتجه الى لويربورج ، ولاحظت أن مؤخرة سفينتين فى الأسطول هادئة على نحو يلفت النظر ، على حين لاحظت الاضطراب فى السفن الأخرى بمهب الريح التى أخذت فى الهبوب . وحزت فى الاختلاف بين المنظرين وأفضيت بحيرتى الى الربان سائلا عن سر هذا الاختلاف ، فقال لى ان الطباخين على ما يظهر قد أفرغوا فى البحر بقايا الماء الوضر فأسلست قليلا جوانب السفينتين ، وكان فى اجابته مسحة من الاستخفاف بهذا الجهل لأمر من الأمور التى لا يجهلها أحد ، ولكننى استخففت أيضا بالتفسير الذى أبداه وان لم يكن فى وسعى أن أعثر على تفسير خير منه ، ثم تذكرت ما قرأت فى بلىنى فعولت على تجربة أثر الزيت على الماء عند سسوح الفرصة الملائمة .

وعدت الى البحر منفردا سنة ١٧٦٢ ، فلاحظت أولا ذلك الهدوء العجيب فى الزيت الذى كان على ماء المصباح المترجح الذى علقته فى الكبينة كما وصفته فى أوراقى ، وطفقت أنظر اليه وأظنه ظاهرة ليس لها تفسير . وكان معى من الركاب ربان قديم لم يهتم بالملاحظة لاعتقاده أن الظاهرة من قبيل ظاهرة الزيت الذى يراق على الأمواج لتهدئتها ، وهى كما قال عادة البرموديين كلما أرادوا اصابة سمكة يحول اضطراب الموج دون رؤيتها ، ولم أكن قد سمعت بهذه العادة قبل ذلك فكنت مدينا له بما أخبرنى عنها وان كنت لا أوافقه على التشابه بين ظاهرة المصباح وظاهرة الموج لما بينهما من الاختلاف فى العمل والنتيجة . اذ كان الماء فى احدى الحالتين هادئا حتى يوضع الزيت عليه فيضطرب ، وكان الماء فى الحالة الثانية مضطربا حتى يوضع الزيت عليه فيهدأ .

وأخبرنى السيد نفسه أن العادة متبعة بين الصيادين من أهل لشبونة كلما عادوا الى النهر وأبصروا على حوافى القوارب طفاوات يخشون أن

تغمرها ، فانهم فى هذه الحالة يفرغون زجاجة أو زجاجتين على ماء البحر فلا يطغى على القوارب ويمرون بسلام .

ولم تسنح لى فرصة لتعزيز هذا الخبر حتى تحدثت مع شخص آخر من الخبرة بالملاحة فى البحر الأبيض المتوسط ، فأخبرنى أن الغطاسين هناك اذا احتاجوا الى النور فى القاع وحال بينهم وبينه اضطراب سطح الماء نفثوا من أفواههم قليلا من الزيت بين حين وحين فصعد الى السطح وهدأ الماء فنفذ منه النور ، وجعلت أقلب هذه المعلومات فى ذهنى وأعجب لخلو كتبنا فى التجارب الفلسفية من الاشارة اليها .

وألفيتنى أخيرا فى كلافام ، وفيها بركة لاحظت يوما من الأيام أنها مضطربة الماء فأرقت عليها قليلا من الزيت ورأيت أنه ينتشر على سطحها بسرعة مذهشة ولكنه لم يؤثر فى تهدئة الماء ، لأننى أرقته فى اتجاه الرياح حيث كان معظم الموج فعادت به الرياح الى الشاطئ . فقصدت بعد ذلك الى الجهة التى تهب منها الرياح ويتموج عندها الماء وألقيت ثمة قليلا من الزيت لا يزيد على ملء ملعقة من ملاعق الشاى ، فما هو الا أن وصل الى الماء حتى سكن على الأثر الى مدى عدة ياردات وراح ينتشر وينتشر حتى بلغ الجانب الآخر مهدئا تلك الرقعة كلها — قرابة نصف فدان — كأنها صفحة مرآة .

بعد ذلك تعودت أن آخذ معى — كلما ذهبت الى الخلاء — قليلا من الزيت فى تجويف القصبة العليا من عصاى لأكرر التجربة حيث تنهيا لى الفرصة ، فوجدتها ناجحة على الدوام .

وقد لفتنى فى جميع هذه التجارب شىء واحد بصفة خاصة ، وهو هذا الانتشار الواسع السريع القوى الذى تنتشره قطرة واحدة من الزيت على صفحة الماء ، ولا أعلم أن أحدا اهتم بهذه المشاهدة قبل الآن . فان قطرة الزيت اذا وضعت على مائدة من المرمر المصقول أو على مرآة فى

وضع أفقى تلبث فى موضعها ولا تنتشر الا قليلا .

الا أنها اذا ألقيت فى الماء لا تلبث أن تنتشر على صفحته عدة أقدام وترق جدا حتى تنعكس عليها ألوان الطيف الى مدى غير قصير ، ثم لا تزال ترق وراء هذا المدى حتى لا تبدو للنظر الا ما يكون من أثرها فى تهدئة الموج ، وكأنما يحدث بين أجزائها تدافع مشترك فى اللحظة التى تقع فيها على الماء ، ويكون ذلك التدافع من القوة بحيث يعمل عملا فى الأجسام العائمة على صفحة الماء من قبيل القش أو ورق الشجر أو الحتاتة ، مضطرا اياها أن ترجع عن القطرة كأنها ترجع عن مركز حركة الى مدى غير قريب ، ولم أتبين بعد مقدار هذه القوة ولا قياس المدى الذى يمتد اليه أثرها ، ولكنى أحسبها مسألة من مسائل البحث وأود أن أستطلع سرها .

وقد سافرت الى الشمال تلك السفرة التى سعدت فيها بلقائك فى أورماثويت Ormathwaite فزرنا النابه الشهير مستر سميتون على مقربة من ليدز ، وهممت أن أريه التجربة على بركة صغيرة بجوار بيته فقال لنا تلميذ ذكى من تلاميذه — وهو مستر جيسوب — انه شهد هنالك ظاهرة غريبة منذ وقت قريب ، وكان يهم بأن يغسل فى الماء قدحا من أقداح الشاي يضع فيه الزيت فألقى منه على الماء بضع ذبابات غرقت فى الزيت ، فما كادت تصل الى الماء حتى أخذت تتحرك وتدور دورة سريعة كأنها حية ناشطة وان كان قد لمسها فعلم أنها ليست كذلك ، فاستخلصت من ذلك على الأثر أن الحركة آتية من التدافع الذى أشرت اليه ، وأن الزيت الذى يرسله جسم الذبابة الاسفنجى تدريجا يدفع تلك الحركة الى الاستمرار ، وعاد التلميذ فوجد فى الزيت بعض الذبابات الفرقى كررنا التجربة عليها وأردت أن أستوثق من أن الحركة لم تحدث من رجعة الذباب الى الحياة فأجريت التجربة على الفقات وقطع الورق مقصوفة على شكل الواو فى حجم الذبابة المألوف فوجدنا التيار يدفعها

ويدير الواو الى الجهة المضادة ، وليست هذه تجربة بيتية بين جدران حجرة ، لأنها لا يمكن أن تعاد في ماء جردل أو اناء على المائدة ولا بد من صفحة كبيرة على وجه الماء تتسع لامتداد قطرات الزيت القليل . أما الطبق أو الاناء فان قطرة الزيت الصغيرة فيه اذا أُلقيت في الوسط شاعت على وجه الماء كله طبقة وضرة صادرة من القطرة وتوقف صدورها لمجرد وصول الطبقة الى جوانب الاناء ، ومنعتها تلك الجوانب أن تتخذ شكلا غير شكل الزيت بمنع الامتداد من مصدرها .

وقد ذهب صديقنا سير جون برنجل بعد ذلك الى سكوتلاند فعلم أن الصيادين الذين يعملون في صيد سمك الرنجة يستطيعون رؤيتها على بعد وأنهم ربما ساعدهم على الرؤية مادة زيتية تنبعث من أجسامها . وأخبرني سيد من جزيرة رود أنهم لاحظوا هناك في ميناء نيوبورت أن الماء يظل ساكنا ما بقيت فيه سفينة من السفن التي تستخدم في صيد الحيتان ، وربما كان ذلك لأن الآنية التي يودعونها دهن الحوت يرشح منها الدهن الى الماء الذي يفرغونه من سفنهم وينتشر على صفحة الماء في الميناء فيحول دون اثاره الأمواج عليه . وسأحاول تفسير ذلك المانع :

فالظاهر أنه لا توجد بين الماء والهواء طبيعة التدافع التي تمنع اتصال أحدهما بالآخر ، ومن ثم نجد في الماء بعض الهواء ويعود الهواء بمثل ذلك المقدار الى الماء اذا استخرجناه بالمضخات ، وعلى هذا يمكن أن يمر الهواء على صفحة الماء الساكنة ويحدث فيها الثنايا التي تتكون منها الأمواج ، ومتى برزت موجة — بالغة ما بلغت من الصغر — على وجه الماء لم تهبط على الأثر فترك الماء الى جانبها على سكونه ، بل يكون هبوطها سببا لبروز موجة أخرى بغير اختلاف في احتكاك الأجزاء ، واذا أُلقي في الماء حجر نشأت منه موجة واحدة حوله في أول الأمر ويتركها

فيرسب في القاع ، ولكن هذه الموجة تهبط فتبرز الى جانبها موجة أخرى فموجة غيرها الى أمد بعيد .

والقوة الصغيرة اذا تكررت كان لها أثر كبير . فالاصبع اذا لمست جرسا كبيرا لمسة واحدة لم تحركه الا حركة يسيرة ، ولكنها اذا لمست مرة بعد مرة بالقوة نفسها زادت الحركة حتى يصل الجرس الى أعلى ذروته بقوة لا تستطيع الذراع كلها أن تقاومها ، وكذلك الموجة الصغيرة الأولى التي تظل الريح مؤثرة فيها تزداد في الامتداد وان كانت الريح لا تزداد في القوة ، وترتفع ثم ترتفع فتتعد قواعدها حتى تشمل مقدارا كبيرا من الماء في كل موجة وتندفع في حركتها بقوة شديدة .

أما اذا وجد التدافع المتبادل بين أجزاء الزيت ولم يوجد التجاذب بين الزيت والماء ، فالزيت الذي يراق في الماء لا يماسك في الموضع الذي ألقى فيه ولا يمتصه الماء ، وينطلق ممتدا بغير عائق فينبسط على صفحة واسعة تحول — فضلا عن ملاستها — دون احتكاك الهواء مباشرة بالماء ، ويستمر هذا المانع مع امتداد الزيت حتى يبلغ من الامتداد غايته القصوى فيضعف أثره ويزول .

واننى أتخيل الآن أن الريح متى هبت على ماء مغطى على ذلك النحو بطبقة من الزيت لم يسهل احتكاكها به ذلك الاحتكاك الذي يبرز الموجة الأولى ، بل تنساب فوقه وتدعه ساكنا كما كان ، وهى تحرك الزيت قليلا ولا شك ، ولكنها حركة بين الزيت والماء تساعد على الانسياب وتمنع الاحتكاك كما يمنع احتكاك أجزاء الآلات ، ولهذا يذهب الزيت الذي يراق في اتجاه الريح الى الواجهة المقابلة ، اذ كانت الريح في هذه الحالة لا تتمكن من اثارة الخلجات الأولى التي تتكون منها الأمواج ، فتبقى البركة كلها على حالها من الهدوء .

وفى وسعنا اذن أن نقمع الموج حيث نريد اذا وصلنا الى المهب الذي

تنشأ منه أوائلها ، ويتعذر ذلك في البحر المحيط أو يحدث في الندرة القليلة ان حدث ، الا أنه قد يتيسر بعض العمل لتخفيف دفعة الأمواج حين نكون في وسطها فنمنع انكسارها كلما وافقنا ذلك . اذ لا يخفى أن الريح كلما هبت من جديد نجم وراء كل موجة خلجات صفار تزعج صفحتها وتهب للريح أن تأخذ بمقبضها لتدفعها دفعة أقوى ، وهذا المتقبض لا يتهب للريح بمنع الخلجات الصفار ، وربما لم يتهب كذلك عند تزيت صفحة الموجة فتدفعها الريح الى أسفل بدلا من تحريكها الى جانبها وتعمل بذلك على تهدئة الموج بدلا من استمراره .

وهذا — على اعتباره من قبيل التخمين — لا قيمة له ان لم يكن صب الزيت في وسط الأمواج ذا بال ولم يفسر بعد بتفسير غير هذا التفسير .

ان الريح عندما تهب متوالية بحيث لا تسرع الموجات الى تلبية فعلها تكون رؤوسها خفيفة فتندفع وتتكرر كالرغو الأبيض ، وان الأمواج عادة ترفع السفينة ولا تدخلها ، ولكن هذه الأمواج المرغية المزبدة اذا تعاظمت وارتفعت قد تغمرها وتعرضها للخطر العظيم .

وليس لدينا تجربة تثبت لنا أن هذا الخطر يمكن منعه وأن ارتفاع الأمواج في البحر الزاخر مما يمكن تخفيفه ، لأن ملاحظة بلينى عن تجارب الملاحين في عصره لم يلتفت اليها . الا أنني حادثت أخيرا صاحب السعادة الكونت بنتنك الهولندي ، وابنه الربان بنتنك ، والأستاذ العلامة اليماندا ، وأريتهم تجاربى في تهدئة الأمواج العالية على رأس البستان الأخضر فذكر لى الكونت خطبا تلقاه من بتافيا عن انقاذ سفينة في زوبعة بصب الزيت على الماء ، وودت لو حصلت على نسخة من هذا الخطاب فسمح لى الكونت بها بعد ذلك ، وهذه هى نبذة من الخطاب المؤرخ في الخامس من شهر يناير سنة ١٧٣٠ يقول فيها مستر تنجناجل للكونت بنتنك :

« انه على مقربة من جزائر بول وأمستر دام لم يوجد ما يستحق التبليغ الا ما حدث من اضطرار الربان طلبا للسلامة أن يصب الزيت على الماء لمنع تدفق الأمواج فيها فكان لذلك أثر بيّن ونجونا بفضلله ، ولما كان الربان قد حرص على صب الزيت قليلا بعد قليل فشركة الهند الشرقية مدينة بنجاة سفينتها لست قنينات من زيت الزيتون ، وقد كنت على ظهر المركب عند اجراء هذه التجربة ولم يحملنى على الكتابة بها اليك الا ما وجدته من شك القوم فى نفعها وضرورة العلم بهذا النفع واقرار هذه التجربة بشهادتنا وشهادة الضباط فى السفينة ، مما تيسر لنا بغير مشقة » .

لهذه المناسبة رويت للربان بنتنك فكرة خطرت لى أثناء الاطلاع على رحلات ملاحينا المتأخرين ، وبخاصة حين يذكرون الجزر الجميلة الخصبة التى يتوقون الى الارساء بها اذ يلجئهم الى ذلك الدوار والمرض ثم يحول البحر المضطرب دون بلوغهم شواطئها ، والفكرة التى خطرت لى أنهم يستطيعون الارساء بها اذا ترددوا جيئة وذهوبا على مسافة قريبة من الشاطئء وصبوا الماء أثناء ذلك مع اتجاه الريح الساحلية ، فربما هبطت الأمواج قبل وصولهم الى الشاطئء وهدأت حركتها العنيفة هدوءا يمكنهم من الوصول اليه اذ يكون فى الأمر من الفائدة ما يساوى قيمة الزيت المصبوب .

وتفضل السيد ، الذى أثرت عنه الغيرة على تحقيق كل ما فيه المصلحة وان لم يلتفت الى مخترعاته الذكية الالتفات الواجب لها ، فدعائى الى بورتسموث حيث يرجى أن تسنح الفرصة للتجربة على شواطئء سبتهيد، وتلطف فزاملنى فى الرحلة ووعد باعطائى الزوارق اللازمة لتلك التجربة. وعلى ذلك ذهبت الى بورتسموث حوالى منتصف أكتوبر الماضى مع بعض الصحاب ، وهبت ريح ساحلية بين مستشفى هسلار والموقع

القريب من جليكر ، فخرجنا من السفينة سنتاءور في زورق طويل وصندل متجهين الى الساحل ، وكان ترتينا هكذا : الزورق الطويل على مسافة ربع ميل من الساحل ، وفئة من الصحبة نزلت على الساحل وراء الموقع القريب من جليكر وهو مكان محمى من فاحية البحر ، ثم جاءت واستقرت على مكان مواجه للزورق الطويل حيث يتسنى لهم أن يراقبوا صفحة الماء ويلاحظوا ما يطرأ عليها من التغيير بعد صب الزيت ، وكانت فئة أخرى على الصندل على اتجاه الريح من ناحية الزورق الطويل في موضع وسط بينه وبين الساحل تذهب وتجيء وهى تصب الزيت على الماء من قدرة فيها سداة مفتوحة أوسع قليلا من ريشة الأوزة ، فلم تسفر التجربة عن النجاح الذى رجوناه ولم يلاحظ فرق محسوس على الموج بجوار الساحل غير أن ركاب الزورق الطويل شاهدوا مرأ هادئا على طول المسافة التى كان الصندل يصب الزيت عليها يتسع كلما اقترب من الزورق الطويل ، وأقول انه ممر هادىء ولا أعنى أن صفحة الماء كانت مستوية ، بل أعنى أنها مع ارتفاع الموج فيها لم يكن ثمة أثر للخلجات الصغيرة التى أشرت اليها آنفا ولا للزبد الذى يعلو فوق رؤوس الأمواج ، وان يكن فى متجه الريح والجانب المقابل له كثير من تلك الخلجات ، واتفق مرور زورق منشور الشراع هناك فاختار الممر طريقا للعبور .

وقد يفيد وصف التجربة التى لم تنجح عسى أن تصحح التجربة فى مرة أخرى ، ولهذا وصفتها بالتفصيل وأرجو أن أضيف الى وصفها تعليلا لحبوطها وخيبة الأمل فيها .

يلوح لى أن عمل الزيت على الماء « أولا » أن يمنع ارتفاع موجات جديدة بهبوب الريح ، و « ثانيا » أن يمنع اندفاع الموجات التى ارتفعت فعلا بقوتها الأولى فلا تحدث موجات أخرى ترتفع مثل ارتفاعها كما يحدث لو لم يكن على صفحة الماء زيت مصبوب . الا أن الزيت لا يمنع

التموج الذى يحدث لسبب آخر أو قوة أخرى كقوة الحجر الذى يسقط فى بركة ساكنة لأن الموج يرتفع اذن بقوة الحجر الدافعة « الميكانيكية » التى لا تستطيع الصفحة المزينة أن تمنعها كما يمتنع اتصال الهواء بالماء واثارة الأمواج فيه .

والموجات التى ترتفع بقوة الريح أو بغيرها تعمل عملا واحدا فى الارتفاع والهبوط كما يعمل الرقاص بعد انقطاع عمل القوة التى دفعته الى الحركة الأولى ، وهى حركة تسكن مع الزمن ولكن لا بد لها من زمن على أية حال .

وعلى ذلك يمكن أن يضعف الزيت على البحر الهائج دفعة الموج الذى على صفحته فيهبط لامتناع التأثير الجديد الذى يطرأ عليه ، ولكنه لا بد من مرور زمن قبل ظهور الأثر على مثال ما يحدث عند هدوء الريح فجأة ، فان الأمواج لا تهدأ فجأة بهذه السرعة بل تأخذ فى الهدوء شيئا فشيئا حتى تنقطع الريح .

ونحن كذلك وصلنا بصب الزيت على الماء الى تهدئة الأمواج التى ارتفعت قبل ذلك ، ولم يكن منتظرا أن تتم هذه التهدئة على الأثر حتى تستوى الصفحة كل الاستواء ، ولا بد للحركة التى بعثتها أن تستمر بعض الوقت وأن تصل الى الساحل بقوة وسرعة ان لم يكن على مسافة بعيدة فلا يلاحظ عليها ضعف محسوس ، ويجوز أننا — على مسافة أبعد من تلك — كنا نحس للتجربة أثرا أكبر من ذلك لو أننا بدأنا عملنا على مسافة أبعد من الساحل ، أو يجوز أن الزيت الذى صببناه لم تكن فيه الكفاية ، وتظهر النتيجة فى التجارب التالية .

ولقد شكرت الربان بنتنك لمساعدته الطيبة الرضية ، ولا أنسى فضل مستر بانكس والدكتور سولاندر والجنرال كارنوك والدكتور بلاجدين الذين اشتركوا فى التجربة فى ذلك اليوم المضطرب المزعج وصبروا على

الدأب فيها صبرا لا باعث له غير زيادة المعرفة ، وبخاصة تلك المعرفة التي
تنفع الناس في مواقف الشدة والحرص .
وبودي لو أطلعت صديقك الألعى مستر فارس على هذه الرسالة
مع تبليغه تحيتى واحترامى ، وائنى ياسيدى العزيز مع تقديرى
الخالص ... الخ الخ .

اجتماعيات

والاجتماعات التى كتبها فرنكلين تتسم — كسائر كتابته — بسمة الساحة الفطرية التى تنظر الى الحقائق من وراء حدود الأجناس والألوان، وتعرف فى الوقت نفسه حدود الطاقة الانسانية فلا تنسى الأعذار وهى تحكم على الذنوب ، ولا تجهل الضرورات وهى تتكلم على الواجبات ، ونجتزئ من هذه الاجتماعيات بفصلين : أحدهما عن الهنود الحمر ، والآخر عن المرأة الخاطئة .

قال بعنوان : « فى شئون المتوحشين المقيمين بأمريكا الشمالية » : نسميهم متوحشين ، لأن عاداتهم تخالف عاداتنا التى نحسبها غاية الدمالة والأدب ، وانهم ليحسبون عاداتهم كذلك .

وأخالنا لو درسنا عادات الأمم المختلفة بغير تحيز لم نجد شعبا قط يبلغ من خشوته أن يتجرد من قواعد الأدب والمجاملة ، ولم نجد شعبا قط يبلغ من أوبه ومجاملته أن يخلو من بعض الخشونة .

ان الرجال الهنود فى صفرهم صيادون ومقاتلون ، وهم فى كبرهم نصحاء مستشارون ، لأن أمور الحكم كلها تجرى بينهم وفاقا لمشورة الحكماء ، فلا سلطة ولا سجون ولا شرطة تكرهمهم على الطاعة ، ولهذا تراهم يمارسون صناعة الكلام ، فأبلغهم أكبرهم نفوذا بين قومه .

والنساء الهنديات يحرنن الأرض ويطهون الطعام ويرضعن الأطفال ويربينهم ، ويحفظن للخلف مآثورات السلف .

وهذه الشواغل التى يشتغل بها الرجال والنساء معدودة بينهم من الأمور الفطرية الموقرة . وهم — لقلّة مطالبهم الصناعية — يجدون

متسعا من الوقت لتهديب المحادثة والسر، وينظرون الى أسلوبنا المجهد في المعيشة نظرتهم الى ضعة الرق والخسة ، كما ينظرون الى التعليم الذى تفخر به كأنه تقاهة وعبث بغير جدوى ، وقد شهدنا مثلا على ذلك فى معاهدة لانكستر بينسلفانيا سنة ١٧٤٤ بين حكومة فرجينيا والأمم الست الهندية . فبعد التفاهم على المسائل الهامة أبلغ المندوبون عن حكومة فرجينيا جماعة الهنود مشافهة أن فى وليامبرج كلية ذات رصيد مخصص لتعليم أبناء الهنود ، وان رؤساء الأمم الست اذ راقهم أن يرسلوا الى الكلية فئة من أبنائهم — ستة مثلا — فالحكومة هناك على استعداد للعناية بهم وتوفير لوازمهم وتعليمهم كل ما يتعلمه أبناء البيض .

ومن آداب الهنود المرعية أنهم لا يجيبون مقترحا عاما لساعته ، اذ يرون فى ذلك شيئا من الاستخفاف به وأنه غير جدير منهم بالبحث والمراجعة ، ويستهلون المقترح ريثما ينظرون فيه ليدلوا بذلك على اهتمامهم بأمره ، ووفقا لهذا العرف طلبوا المهلة لليوم التالى كى يجيبوا عن ذلك الاقتراح ، فلما كان الموعد أعرب مدرة القوم عن شعورهم العميق بلطف الحكومة الفرجينية فى عرض تلك المنحة الكريمة لأنه يعلم أن البيض يكبرون شأن التعليم فى الكلية ، وأن توفير المطالب لأبناء الهنود فى تلك الكلية يكلفها كثيرا من النفقة ، وأن الاقتراح ولا شك ينم على حب الخير ويستوجب منهم الشكر الجزيل .

قال : الا أنكم — بما لكم من الحكمة والخبرة — تعلمون أن الأمم المختلفة تختلف فى النظر الى الأشياء وتقديرها ، وانكم لا تلموننا اذا كانت آراؤنا فى ذلك النمط من التعليم لا يتفق لها أن تطابق آراءكم . وقد بلونا ذلك بعض الشئ منذ سنوات حيث تخرج نفر من شبابنا من كليات الشمال وحذقوا فيها جميع علومكم ، ثم عادوا الينا لا يحسنون العدو ، ولا يعرفون شيئا عن الحياة فى الغابات ، ولا طاقة لهم بالصبر على

البرد والجوع ، ولا دراية لهم ببناء كوخ أو اقتناص غزال أو الغلبة على عدو ، وقد ساء نطقهم بلغاتنا فلا هم قادة مقاتلون ، ولا هم نصحاء مستشارون ، ولا هم على الجملة صالحون لأمر من الأمور .

على أننا لا نبخسكم حقكم من الشكر على منحتكم الكريمة لأننا لم نتقبلها ، ولكي نعرب عن شعورنا بها نقترح على السادة الفرجينيين أن يرسلوا إلينا نحو اثني عشر من أبنائهم نعني بهم ونعلمهم على نهجنا وندرجهم على كل ما تدربنا عليه ، ونخرج منهم رجالا أشداء .

والهنود — لتعودهم عقد المجالس والمجتمعات للمشاورة — قد كسبوا القدرة على حظ عظيم من النظام واللباقة في إدارتها . فيجلس الشيوخ في الصف الأول ، ويجلس المقاتلون في الصف الثاني ، ويجلس خلفهم النساء والأطفال ، وعمل النساء في هذه المؤتمرات أن يعلقن في ذاكرتهن كل ما يجري وكل ما يقال فيها ويحفظنه تراثا للأبناء لأنهم لا يعرفون الكتابة .

فالنساء سجلات المؤتمرات ، يحفظن من شروط المعاهدات ما قد مضى عليه مائة سنة ، وتقارن بينه وبين المكتوب عندنا فنرى أنه مطابق له كل المطابقة .

وصاحب الدور في الكلام عندهم ينهض قائما فيصفي إليه المستمعون في هممت وسكون ، ومتى فرغ من كلامه وجلس في مكانه تركوه بضع دقائق يتذكر ويتأني لعله أن يكون قد نسي شيئا أو خطر له بعد الجلوس ما يستدركه من مقاله فينهض ثانية ويقول ما أراد ، وانهم ليحسبون المقاطعة — حتى في المحادثة الدارجة — غاية في سوء الأدب والنبو عن المجاملة . فما أبعد هذا مما نشاهده من نظام المناقشة في المجلس المهذب مجلس النواب البريطاني .. اذ ينذر أن يمضي يوم دون أن يعرض فيه ضرب من الاختلاط يبح صوت الرئيس وهو ينبه المتناقشين فيه الى

النظام . وما أبعد هذا مما يحدث في كثير من الجماعات المهدبة على القارة الأوربية ، اذ تحس أنك مضطر الى اتمام عبارتك على عجل والا قاطمك في وسطها أولئك الذين يحادثونك ولا صبر لهم على كبح لجاجتهم في الحديث ، ثم لا يتاح لك أن تعود ثانية الى اتمامها .

والحق أن مجاملات الحديث عند هؤلاء القوم قد بلغت حد الافراط لأنها لا تسمح لهم بمناقضة كلام يسمعون أو تفنيده ، وهم — بذلك — يتجنبون المنازعات ولكنهم لا يظهرون لك حقيقة ما يريدون ولا يعربون عن أثر لكلامك في نفوسهم ، وقد طالما شكوا المرسلون المبشرون من هذه العادة وعدوها احدى العقبات الكبار في طريق رسالتهم . فان الهنود ليستمعون في صبر وأناة الى حقائق الكتاب التي تشرح لهم ويردون عليها ردودهم الممهودة من علامات الموافقة والاستحسان ، ويخطر لك انهم قد آمنوا وصدقوا ولا شيء من ذلك هناك ، وانما هي مجاملات وتقاليد .



ومن أخبارهم في ذلك أن قسا سويديا جمع زعماء القبيلة المعروفة بسكويها نا ، وخطب فيهم شارحا لهم أسس الوقائع التاريخية التي تقوم عليها دياتتنا ، كسقوط أبوينا لأكلهما من تفاح الجنة ، وظهور السيد المسيح للتكفير عن هذه الخطيئة وما عمله من العجائب واحتمله من الآلام . فلما فرغ من كلامه نهض خطيب هندي ليشكره ، فقال : « ان ما أخبرتنا به شيء حسن ولا ريب ، وانه لمن القبيح حقا أن يؤكل التفاح بدلا من تخميره واستخراج الشراب منه ، واننا لشاركون لك ما تجشمت من مشقة لتبلغنا هذه القصص التي سمعتموها من أمهاتكم ، ونود في مقابلة ذلك أن نروى لك طرفا مما سمعناه نحن من أمهاتنا .

كان آباؤنا الأولون ولا غذاء لهم الا من لحوم الحيوان ، وكانت

حبالاتهم في الصيد لا تنفع فجاءوا وأوشكوا أن يهلكوا جوعاً ، وانهم
لكذلك اذ أفلح اثنان من شباننا في اقتناص غزال فأوقدا نارا في الغاب
ليشويها بعض لحمه ، ثم جلسا يأكلان منه فلاحتهما على تلك القمة
التي تلمحها بين جبالنا الزرقاء فتاة حسناء هبطت من السماء واستوت
على ذلك المكان ، فقال أحدهما لصاحبه : لعلها قد شمت رائحة الطعام
فجاءت تلتبس نصيباً منه تأكله ، فلنعطها اذن ذلك النصيب . وقدمتا لها
اللسان فالتذت مذاقه وقالت لهما : ان الهدية التي تفضلتما بها لمجزية
أحسن الجزاء . فتعاليا الى هذا المكان بعد ثلاثة عشر شهرا تجدا فيه
شيئا ينفعكما في الطعام وينفع أبناءكما الى الجيل الأخير ، فعادا كما قالت
وأدهشهما أن يجدا في المكان نباتا لم تقع عليه أعينهما من قبل ، ولم
يزل ذلك النبات ينمو بيننا ونتنفع به أحسن انتفاع . وقد نبتت الذرة
حيث مست يمينها الأرض ، ونبت اللوبياء حيث مست الأرض بشمالها ،
ونما التبغ حيث جلست عليها .

وامتعص القس الطيب من سماع هذه القصة الفارغة وقال لهم : ان
ما حدثتكم به هو الحق المقدس وأنتم تحدثونني بعد ذلك بالثرهات
والأباطيل . وساء الهندي أن يسمع منه هذه الكلمة الجافية فقال له :
ان أصحابك يا أخانا لم ينصفوك بحقك من التعليم ولم ينشئوك النشأة
الحسنة في آداب العرف والمجاملة . ولقد رأيت أننا سمعنا أقاصيصك
فصدقناها ، فما بالك أنت لا تقابل منا ما سمعت بالتصديق ؟

ويغد الواحد منهم الى مدنتنا فيتكوف الناس حوله ويحملقون في وجهه
ويتطفلون عليه حيث يجب أن ينفرد بنفسه ، وهم يعيرون ذلك ويعدونهم من
الخشونة وسوء الأدب والنقص في عرف التحية والمجاملة ، ويقولون اننا
نتطلع كما نتطلعون ونحب الفضول كما تحبون ، بيد أننا نخشى لئلا نراكم
وراء الآجام ولا نعترضكم في الطريق أو نتطفل بأصطحابكم حيث تسرون .

وان لهم لآدابا متبعة في دخول القرى التى يقدون عليها ،
فلا يستحسنون من القادم أن يدخل الى القرية فجأة بغير استئذان ، وهم
لهذا يقفون على رأى من أهل القرية ويصيحون ولا يتقدمون خطوة
حتى يأتيهم من يدعوهم للدخول ، وقد جرت عاداتهم أن يستقبل
القادمين اثنان من شيوخ القرية يهديانهم الطريق الى بيت خال يسمونه
بيت الغرباء ثم يذهبان من خص الى خص يبلغان القوم بمقدم الضيوف ،
وانهم ربما كانوا فى حاجة الى طعام وراحة ، فيرسل كل منهم ما فى وسعه
من زاد ومن جلود يستريحون عليها ، فاذا استوفوا راحتهم جاءوهم
بالتبغ يدخنونه وبدأوا بالحديث سائلين عنهم وعن وجهتهم وما هم
قادمون من أجله ، وينتهى الأمر أحيانا بعرض الخدمة عليهم لاصطحابهم
وتموينهم مسافة الطريق بغير أجر ولا ثمن .

وهذه الضيافة التى يعدونها بينهم من الفضائل العالية مطلوبة من
آحادهم كما تطلب من جماعاتهم ، وقد أخبرنى مترجمنا « كونراد ويزر »
بالقصة التالية فقال : انه نشأ بين الأمم الست وحذق لغة الموهوك ، وانه
فى رحلة من رحلاته بين بلاد الهنود يحمل رسالة من حاكمنا الى مجلس
« اوننداجا » زار مسكن « كناستيجو » أحد أصدقائه الأقدمين ، فعاقبه
الرجل وفرش له الفراء ليجلس عليه ووضع أمامه فولا مسلوقا ولحما
وقدحا من شراب الروم مشعشا بالماء ، فلما استراح وأخذ فى التدخين
بدأه « كناستيجو » بالحديث وسأله عن أحواله فى السنوات التى افترقا
فيها وعن وجهته والمكان الذى أقبل منه والغرض الذى خرج من أجله ،
فأجابه كونراد عن هذه الأسئلة حتى أوشك الحديث بينهما أن يفتر
ويتعثر ، فقال له الرجل : ايه كونراد . انك عشت طويلا بين البيض
وعرفت شيئا من عاداتهم ، وقد زرت أنا اقليم « ألبانى » ولحظت أنهم
يغلقون دكاكينهم يوما فى كل سبعة أيام ويتجمعون فى منزل عظيم . فهلا

حدثتني عن ذلك الاجتماع ما مقصدهم منه وماذا يصنعون فيه ؟
قال كونراد : انهم يجتمعون هناك ليتعلموا الآداب والطيبات الماثورة
قال الهندي : لست أشك في أنهم أخبروك بما تقول لأنهم أخبروني
بمثله . غير أنني أشك في مقالهم وأصارحك بأسباب شكى . ثم استطرد
قائلا :

ذهبت الى « ألباني » كي أبيع جلودي وأشتري ما أحتاج اليه من
الأغطية والسكاكين والبارود وشراب الروم ، وأنت تعلم أنني تعودت
أن تكون معاملتي مع هانس هانسون ولكنني في هذه المرة أردت أن
أجرب غيره من التجار . على أنني زرت هانسون بادىء الرأى وسألته
بكم يشتري جلد السمور ؟ فقال انه لا يزيد في تقديره على أربعة شلنات
لرطل الواحد ، غير أنه لا يستطيع أن يتحدث الى في أمور المعاملة لأنه
اليوم الذى خصصوه لتعلم الآداب والطيبات الماثورة ، وانه سيذهب
الى الاجتماع اذ كان لا يقدر على مباشرة عمل من الأعمال .

قال الهندي : فذهبت معه ، وألقيت ثمة رجلا يلبس السواد أخذ
يخاطب الناس في غضب شديد ، فلم أفهم ما قال ، ولكنني رأيته ينظر
الى والى هانسون فظننت أنه غاضب لرؤيتي هناك ، فخرجت وجلست
الى جانب الدار وأشعلت قصبتي لأدخن منتظرا حتى ينفذ الجمع ،
وظننت كذلك أن الرجل قد ذكر شيئا عن السمور وخطر لى أن الاجتماع
كله يدور على هذه الحكاية . فلما انصرف المجتمعون لقيت تاجرى
وقلت له : ايه يا هانس ! أظنك قد فكرت في الأمر وزدت في تقديرك على
الشلنات الأربعة . فأجابني قائلا : كلا ! أنا لا أستطيع أن أعطيك هذا
الثلث ولا أزيدك على ثلاثة شلنات وستة بنسات . وانطلقت أتحدث
الى غيره من التجار فالفيتهم جميعا يعيدون هذه النغمة بعينها : ثلاثة
وستة بنسات ! ثلاثة وستة بنسات ! ووقر في خلدي من ثم أنني على حق

في شبعتي وأنهم مهما يزعموا من سبب لتلك الاجتماعات وأنهم يلتقون فيها ليتعلموا الآداب والطيبات المأثورات فانما السبب الصحيح أنهم يجتمعون ليخدعوا الهنود عن ثمن السمور ، واذا تأملت قليلا — ياكوتراد — فلا شك أنك تثوب الى رأيي وتعلم أنهم لو كانوا يجتمعون ليتعلموا الآداب والطيبات المأثورات لكانوا قد تعلموا طرفا منها قبل ذلك . الا أنهم على جهلهم القديم ، وأنت تعلم عاداتنا معهم اذا قدم منهم أحد الى أكواخنا كيف نعامله كما نعاملك ونجفف ثيابه ان كان بها بلل وندفئه ان كان به برد ونسبط له الطعام من اللحم والشراب ليفتأ ظمأه ، ويشبع جوفه ، ونفرش له الفراء لينام ويستريح ولا نقاضه أجرا على شيء من هذه الأشياء . ولكننا اذا ذهبنا الى بيت من بيوت البيض في « ألباني » والتمسنا لحما أو شرابا سألونا : أين تقودك ؟ فان لم تكن معي تقود طردوني وصاحوا بي : أغرب من هنا أيها الكلب الهندي !

فأنت تبصر اذن أنهم لم يتعلموا تلك الطيبات الصغار التي تتعلمها نحن بغير حاجة الى اجتماعات وخطابات ، لأن أمهاتنا يعلمننا اياها ونحن أطفال ، ومحال أن تكون اجتماعاتهم هذه لغرض من تلك الأغراض التي يدعونها ، أو أن يكون لها أثر فيما يزعمونه ، وكل ما فيها أنها حيلة يحتالونها لخداع الهنود عن ثمن السمور (١) .

(١) من كتاب الخزعبلات المتقدم ذكره .

محاكمة السحرة في جبل هولى

وهذه نبذة مترجمة من كتاب أئمة الأدب الأمريكى Masters of American Literature ونشرت أولا فى صحيفة بنسلفانيا Pennsylvania Gazette بتاريخ ٢٢ من أكتوبر سنة ١٧٣٠ .

* * *

« فى يوم السبت الماضى ، عند جبل هولى ، على مسافة ثمانية أميال من برلنجتون ، اجتمع نحو ثلثمائة انسان للتفرج على تجربة أو تجربتين فى أشخاص متهمين بالسحر الأسود ، ويظهر أن المتهمين قد اتهموا بأنهم جعلوا خراف جيرانهم ترقص على أسلوب غير مألوف، وجعلوا خنازيرهم تتكلم وتشد المزامير مما أفزع رعايا جلالة الملك الأمناء الوادعين فى الاقليم . وقد أصر المدعون على ادعائهم أن المتهمين لو وضعوا فى كفة ووضع الكتاب المقدس فى كفة لخف ميزانهم وثقلت كفة الكتاب ، وأنهم لو أغرقوا مقيدىن طفوا على وجه الماء عائمين .

وأراد المتهمون أن يظهروا براءتهم فقبلوا التجربة واقترحوا أن يوضع معهم اثنان من أشد المدعين اصرارا على الادعاء ، وعلى هذا تم الاتفاق على المكان والزمان وأعلن عن الموعد فى صحف الاقليم .

وكان المدعيان رجلا وامرأة ، والمدعى عليهما كذلك رجل وامرأة ، وانهقد الجمع وتلاقى الفريقان فدارت المشاورة بينهم قبل البدء بالتجربة وتفاهموا على الابتداء بالوزن واختاروا جماعة من الرجال لتفتيش الرجال وجماعة من النساء لتفتيش النساء ، تحققا من تجردهم جميعا من الأوزان الزائدة ولا سيما الدبابيس .

وبعد البحث والتفتيش جىء بنسخة ضخمة من الكتاب المقدس يملكها قاضى البلد ، وفتحت طريق فى وسط الزحام من دار القاضى الى مكان الميزان الذى علق بمشئقة أقيمت فى مواجهة الدار ليراها ربات الدار دون أن يخرجن لمخالطة الدهماء ، وتوسطت المكان حلقة على حسب المؤلف . ثم خرج من الدار رجل طويل وقور يحمل الكتاب بوقار كوقار السياف الذى يمشى فى لندن أمام عمدتها الكبير .

ووضع الساحر أولا فى كفة الميزان حيث تلى عليه اصحاب من أسفار موسى ، ثم وضع الكتاب فى الكفة الأخرى التى كانت مهبطة على الأرض وأرسلت على الأثر . فما كان أعظم دهشة الناظرين حين أبصروا اللحم والعظام تهبط والكتاب العظيم يعلو ويرتفع ويرجحها اللحم والعظام بكثير ، وتكررت التجربة مع الآخرين فكانت أثقالهم كذلك أعظم من أثقال كتب موسى والأنبياء .

وانتهت هذه التجربة ولم يكتف بها الجمع بل أرادوا أن يتمموها بتجربة الاغراق فى الماء . فتقدم الجمع فى موكب وقور الى البركة حيث جرد المدعون والمتهمون من ثيابهم الا ما يستترهم وقذف بهم فى النهر مقيدىن بالحبال وفى وسط كل منهم حبل يمسك به بعض الواقفين على الحافة ، وكان المتهم نحيفا هزيلاً فلم يرسب لأول وهلة وبعد لآى ما غاص فى جوف الماء ، وجعل الآخرون يسبحون خفافا على وجه الماء . وقفز ملاح على الحافة فوق ظهر الرجل المتهم يظن أنه يهبط به الى قعر البركة، ولكن الرجل المقيد عاد الى الظهور قبل الآخر بهنية وجيزة .

ولما أخبرت المرأة المدعية أنها لم تغطس فى الماء ، وأنها ستعاد اليه عادت وطفت مرة أخرى خفيفة كما كانت فى المرة الأولى ! فراحت تقول ان المتهم قد سحرها وطفف وزنها وأنها تريد أن تعيد التجربة كرة أخرى بل مائة مرة حتى ترغم الشيطان على الخروج منها .

أما المتهم فقد رأى أنه يطفو على الماء فتزعزعت ثقته ببراءته وصاح:
لئن كنت ساحرا ليكون ذلك على غير علم منى .
وكان ذوو المسكة من العقل بين المتفرجين قد آمنوا أنه ما من أحد
يلقى في الماء مكتوبا الا طفا على وجهه ما لم يكن عظاما في جلد ولا شيء!
وأنه يظل كذلك حتى يذهب نفسه وتمتلىء رئتاه بالماء . الا أن الرأي
السائد بينهم كان يميل الى الظن بأن فضول الكساء على أجساد النساء
تساعدهن على العوم ، فلا بد من تجربة أخرى وهن عاريات في الموعد
المقبل من مواعيد الصيف .

خاتمة

قليل من القراء من يعلم أننى دخلت مدرسة (الصنائع) بيولاقل لدراسة الكهرباء والتلغراف ، وأقل منهم من يعلم الصلة بين اتجاهى الى هذه الوجهة وبين اسمين من كبار المخترعين الذين بدأوا حياتهم بالعمل فى الصحافة والكهربا ، هما فرنكلين واديسون .

ولست أذكر على التحقيق متى سمعت لأول مرة باسم فرنكلين واسم اديسون ، ولكننى أذكر جيدا أننى لم أعرفهما من كتاب أو من دراسة علمية ، وانما سمعت بهما من موظف فى التلغراف شديد الاعجاب بهما ، على أثر حادث من حوادث المصادفات ، تناولته الصحف بالتعليق السياسى فى ذلك الحين ، ولم تعره شيئا من الاهتمام من الناحية العلمية .

كان ذلك الحادث، على ما أذكر الآن، سقوط صاعقة على بناء مجلس الوزراء ، وكنت لا أزال يومئذ فى بلدتى أسوان لم أبحر مدرستها الابتدائية ودار الحديث عن الصاعقة وعن التعليقات السياسية عليها ، وتحدث الموظف بالتلغراف من جيرائنا عن رجل يسمى فرنكلين ورجل يسمى اديسون : كلاهما عامل صغير بدأ حياته بالعمل اليدوى فى الصحافة ثم اخترع باجتهاده أكبر المخترعات فى الكهرباء ، ثم جرى — فى شئ من اللفظ المبهم — ذكر عمود الصواعق وذكر الفنغراف ، وفضل العاملين الصغيرين فى كل من هذين الاختراعين .

وقام بذهنى أن أصنع مثل هذا الصنيع يوما من الأيام ، فلم أزل حتى دخلت مدرسة (الصنائع) فى نحو الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرى ، وشعرت يومئذ كأننى أفسر حلما قديما كاد يذهب بين

الوعى والنسيان ، وكاد فرنكلين اذن يتوجه بحياتى وجهة غير وجهتها ، يوم كان اسم فرنكلين يحضرنى مقرونا بالكهربا ولا يحضرنى منه شىء من سيرته الطويلة فى الكتابة والتفكير والسياسة .

ووقع فى يدى بعد ذلك كتيب من سلسلة كبيرة تلخص التراجم والمؤلفات لأعلام النوابع فى الثقافة الغربية فبدأت به قراءة تلك السلسلة لأنه مكتوب عن صاحبنا القديم فرنكلين .

ومن تحكم الذاكرة أننى أذكر حتى اليوم منظرين من مناظر السيرة التى لخصها ذلك الكتيب الصغير .

أحدهما منظر الطفل الجائع فرنكلين يقضم رغيف الخبز وتترصد له طفلة فى طريقه لا تزال تداعبه وتلح فى مداعبته وتوقع فى روعه أنها تريد أن تخطف الرغيف من يديه ، حتى يوشك أن يبكى من الغيظ الذى لم يكن يكرهه كل الكراهية على ما يظهر !

والمنظر الآخر منظر الحوار بين فرنكلين ورجل من رجال الدين تلقى من يديه عارفة مشكورة ، فإذا هو يشكره بالنيابة عن الله كأنما هو غريب عن الموضوع لا شأن له بين المحسن والمحسن اليه ، ويأبى فرنكلين أن يفوت على الرجل روغانه هذا من واجب الشكر ، فيقول له انما أعطيتك أنت يا أبتاه !

وأقول ان بقاء هذين المنظرين دون غيرهما من مناظر تلك السيرة فى ذلك الكتيب الصغير انما كان من تحكم الذاكرة فيما تأخذ وفيما تدع ، لأننى حين توسعت فى قراءة فرنكلين ، وفى القراءة عنه بعد ذلك ، وجدت فى السيرة الحافلة مناظر لا تحصى مما يصح أن يعلق بالذاكرة ويغضى على منظر الرغيف المهدد ومنظر القس الرائع من الشكران ... ولا أحسب ، على هذا ، أن أظلم الذاكرة كل الظلم ، فلعل هذين المنظرين يجمعان من فرنكلين فى نفس القارىء الشاب ، ما لم يجتمع من منظرين غيرهما فى الكتيب الصغير .

وقرأت بعد ذلك كثيرا من فرنكلين وعن فرنكلين ، ولم أنس قط أنه كاد يوجه حياته وجهة أخرى في يوم من الأيام .

ثم دخلت السجن ودعوت بكتاب أتعلم منه اللغة الفرنسية بغير معلم ، واخترت القراءة في الجزء المخصص للمطالعة قبل الجزء المخصص للأجرومية ، فلم أقلب من الكتاب صفحة بعد صفحة حتى التقيت بصاحبنا القديم فرنكلين في الصفحة الرابعة والسبعين من الكتاب (١) .

والقصة قصة اللقاء الأول بين فرنكلين والعالم الفلكي الفرنسي الكبير دى بايلى De Bailly ، وهى أعجب ما قرأت من نوادر هذا الرجل العجيب .

« فرنكلين مندوب المستعمرات الأمريكية الثائرة على الوطن الأم ، وفد الى باريس سنة ١٧٧٧ ، ورأى الفلكى دى بايلى من واجبه أن يزور الأمريكى النابه ، فاستقبله فرنكلين بترحاب غاية فى المودة وبادله بضع كلمات من التحيات التى تتبادل فى مثل هذا المقام ، وجلس بايلى على مقربة من الفيلسوف الأمريكى وترقب بكل عناية ما يفوه به من الأسئلة ، وانقضى نصف ساعة وفرنكلين لا يفتح فمه ، وأخرج بايلى علبة السعوط وقدمها الى جاره دون أن ينبس بكلمة ، فأشار فرنكلين بيده اشارة معناها أنه لا يتعاطاه ، واستمرت هذه المساجلة الصامتة ساعة كاملة ، فنهض دى بايلى واستعد للانصراف ، وبدا على فرنكلين كأنه فرح بلقاء فرنسى يستطيع أن يلوذ بالصمت ويمسك لسانه ، فأخذ بيده وشدها شدة حميمة وهو يقول فى حماسة بينة : حسن جدا ياسيد بايلى . حسن جدا وتوثقت بينهما المودة بعد ذلك فأصبحا من خيرة الأصدقاء » . ولم أكد أصدق ما قرأت ، واتهمت جهلى بالفرنسية فاخترت فرصة

من فرص السجن أعرضا فيها على زميلنا الأستاذ حسن النحاس ، فقال لي : اننى فهمت منها الصواب .

ان موضع العجب فى القصة أن فرنكلين لم يشتهر فى مجالسه بشيء كما اشتهر بلباقة الحديث والسر وأفانين الكلام المستحب بين الجسد والفكاهة ، فما الذى ألجأه الى ذلك الصمت مع العالم الفرنسى الكبير ؟ لا أعلم ، ولم أجد من سيرته مع هذا العالم أو مع غيره ما يجلو لى سر هذه « الصمتة » الغريبة ، ولكننى عرفت منها حقيقة لا ريب فيها : عرفت منها أن هذا الرجل يستطيع أن يشع من حوله جو المحبة والمودة وأن يمحو من ظن جلسيه كل احتمال للجفاء والفتور ، ولولا ذلك لانصرف العالم الفرنسى من حضرته وهو عدو مبين ، ولم ينصرف — كما قالت القصة وقال التاريخ — صديقا من أخلص الأصدقاء المقربين .

ثم حان الأوان وشرعت فى كتابة هذه السيرة وأنا أحس كأننى جددت الصلة الفكرية بصاحب قديم ، وتبينت من مراجع السيرة كلما أمعنت فى تصفحها أنها بنت أوانها ، اذا كان لكتابة السير أوان مفضل عدا ما تستحقه كل سيرة من التسجيل والتحليل .

فنحن فى عصر التجزئة والتفتيت أحوج ما نكون الى مثال كامل لانسان لم يمزقه التخصص شلوا شلوا بين شواغل العقل وشواغل الحياة . ونحن فى عصر الطغيان على « الشخصية » الفردية أحوج ما نكون الى مثال من غمار الناس لم يستغرقه الغمار ولم يمسح ملامحه المتميزة بين أمواج التيار .

ونحن فى عصر النبوغ العصامى نحتاج الى عظمة تقرب العصامية لمن يهابها وتيسر القدوة لمن تروعه هالات العظمة فى أعلام التاريخ فيحجم عن الاقتداء بها ويحسب نفسه من غير معدنها .

فالعظمة في هذا العصامي من « طينة عامة » حيثما واجهتها كما قال فيه أصدق مترجميه . الا أنك تواجهه من جهات شتى فتلمح في كل منها تلك العظمة التي تحسبها من الطينة العامة ، وتعرف كيف تكون العظمة الانسانية أحيانا « كالسهل الممتنع » في بلاغة البلغاء ، يفريك بالمحاكاة والاقتماد ولا تعرف كيف يمتنع عليك الا وقد تمكن منك الاغراء .

وفيما لقي هذا الرجل العظيم من العرفان تشجيع أى تشجيع .
وفيما لقي هذا الرجل من الانكار عزاء أى عزاء ، وربما كان العزاء من سير العظماء أجدى وألزم من التشجيع .

لقد كرمته معاهد العلم في أمم الحضارة بأشرف ألقابها ، وعرفت له أمته مآثره في جهاده فاستقبلته كما يستقبل الفاتحون ، ومحضته من الاكبار والاعجاب ما ييسط العذر للحاسدين . فلا عذر لمن يحسد هذا الرجل الا أنه استحق الحسد بفرط ما استحق من اكبار واعجاب .

ولو أن عظيما بين أبناء آدم وحواء ينجو من الحسد لنجا منه هذا العظيم الذى غض من كبريائه باختياره فلم يدع فيه بقية لمن ينكر عليه الكبرياء ، ولو أنكرك عليه عرفان العارفين بالقدر الكبير .

مات ولم يشكره مجلس الأمة الذى كان له فيه أنداد وزملاء ، ولبس عليه الحداد مجلس الأمة الذى لم يعرفه الا بالسماع . مجلس الشيوخ يرضن عليه بالشكر ومجلس النواب يلبس السواد ثلاثين يوما حزنا عليه . لعله لو لم يحسد هذا الحسد لقليل انه لم يبلغ من عرفان قومه غاية ما يستطيع .

واليوم وقد أخذ الفناء ما أخذ ، وأبقى الخلود ما أبقى ، لا يضار المحسود بما أصابه كما يضار الحاسد بما أصاب ، ولو كتب لفرنكلين أن يعود الى الدنيا كما تمنى أن يعود كل مائة عام ، لما تمنى — بخبرة الحياة والموت — أن يتبوأ من دنياه مكانا أرفع مما تبوأه بعمله وذكره .

عَبَّاسُ مَحْمُودٍ
العَقَائِدُ

سَنَ يَاتِسَنَ أَبُو الصَّيْنِ

دار الكتاب اللبناني - بيروت



سن ياتسن
(أبو الصين)

كلمة عن كلمة

يسمى سن ياتسن بأبي الصين
ويحق لأبناء الصين الحديثة أن يلقبوه بهذا اللقب . لأنه في الحق قد ولد
الصين ولادة جديدة . فهو أب لها بكل معاني الأبوة الروحية .

ومن فضول القول أن نقول إن الولادة الروحية هي ولادة فكرة ، ولعلها
فكرة واحدة تنطوي فيها جميع الأفكار .

وفكرة سن ياتسن التي ولد بها الأمة الصينية مولداً جديداً هي هذه الكلمة
التي جعلناها تحت عنوان الكتاب .

هي : ما أسهل العمل ، وما أصعب الفهم .
أو هي في صيغة أخرى من صيغها إن العمل سهل ، وأما الصعب فهو
فهم ما تعمل .

كانت الصين كلها تقول غير هذا قبل قيام هذا الزعيم بدعوته
كأنتم تقول نقيض هذا من طرف الى طرف ، فالصعب عندها هو
العمل ، والسهل عندها هو الفهم ، وما يتبعه من شروح .
وكانت حكمتها الخالدة : ما أسهل الفهم ، وما أصعب العمل ، أو ما
أسهل الكلمات وما أصعب الأعمال .

ومن الكلمات ما يلخص حضارة كاملة .

وأصدق ما يكون ذلك على الحضارة الصينية : تلك الحضارة التي قامت
على تقديس الأسلاف وتوارث الحكم من أفواهم أحقاباً أحقاباً ، وأعقاباً بعد
أعقاب .

وقد تلخصت حضارة الصين كلها في طلب المعرفة .

وتلخصت المعرفة كلها عندهم في طلب الدعة . فلا شيء أدل على الحكمة وعلى المعرفة من إعفاء النفس من الجهد الذي لا يجدي ، وأي جهد يجدي في عالم لا يتغير ولم يتغير منذ ألوف السنين : حرب بعد حرب ، وعرش يسقط وعرش يقوم ، وحال تتداولها الأيام على وتيرة واحدة ، وشروط معروقة تذهب وتعود . وعمل معروف النتيجة آخر المطاف ، ونتيجة الأمل هي نتيجة اليوم ونتيجة الغد ، ووراءك الماضي مكشوف للنظر إن كان المستقبل أمامك غير مكشوف .

ولقي أبو الصين العنت الأكبر من تلك الحكمة الموروثة ، حكمة الإيمان بصعوبة العمل وقلة جدواه ؛ فكلهم يقول إذا لقيهم شارحا لهم مصائب وطنهم : نحن نفهم ما تفهم يا صاح . نحن نود أن نعمل لو تيسر العمل ، ولو كان بالعمل جدوى ، ولو كان كل ما هنالك أننا نفهم مصائب هذا الوطن المسكين .

إليك عنا يا صاح : ما أسهل الكلمات وما أصعب الأعمال .

فلما جاهد الرجل جهاده كانت علامة نجاحه الأولى ، بل علامة نجاحه الكبرى ، أنه وجد من الأعوان أناساً يؤمنون بسهولة العمل متى فهموا ما ينبغي أن يعملوا ، ثم عمل شيئاً ولا شك ، وإن لم يعمل كل شيء . ولكن الذي عمله لم يكن إليه سبيل لو ظل الناس يرددون حكمتهم القديمة في الفهم اليسير والعمل العسير .

وأسهب الرجل غاية الإسهاب في الفهم . أسهب غاية الإسهاب ، وفصل غاية التفصيل ، ووهم من يسمعه أو يقرأه أنه لا يحسن إلا أن يفهم ويعين التفهيم ، وأنه غارق في الأحلام ، غارق في بحار من الكلام ، وهكذا وصفه الذين عاهدوا أنفسهم ليصغرن كل كبير من بعض نواحيه ، فعاثوه بأنه « حالم » . . . ولو أنهم بحثوا عن عظمة له أعظم من أحلامه لما وجدوها ، بل لو أرادوا أن يتخيلوا عملا له بغير الحلم لما استطاعوا أن يتخيلوه .

إن سن ياتسن قد بدأ عمله بالدعوة الى إسقاط أبناء السماء .

فلو لم يكن حالماً كيف كان يخطر له هذا العمل على بال ؟

إن أبناء السماء كانوا يحكمون أربعائة مليون من النفوس الآدمية ، وكان لهم أعوان من الدول الكبرى يأبون أن يسقطوهم ، لأنهم عاهدوهم على تسليم الغنائم والمزايا ، وعلموا أن سقوطهم ضياع لكل غنيمة وكل مزية ، فمن كان ينهض لإسقاط هؤلاء فهو يحلم ، ولو لم يكن قادراً على هذا الحلم لما كان قادراً بعد ذلك على عمل .

وهذه هي عظمة الرجل !

وبهذا يعاب عند الذين يجهلون كيف يعيرون ، ولكنهم مع هذا يعيرون ، لأن العيب سهل . أما العسير حقاً فهو التعظيم والتقدير . !

وسقطت أسرة أبناء السماء في حياة الرجل ، فمن شاء ان يقول إنه عامل جد عامل فقد صدق . ولكن العمل والحلم سواء عند القادرين على هذه الأعمال ، وعلى هذه الأحلام .

وما استطاع الرجل أن يعمل هذا العمل إلا لأنه استطاع ان يوقع في الأذهان أن العمل سهل متى فهموا ما ينبغي ان يعملوه .

ولعلمهم لم يفهموا كل ما أراد ، ولم يعملوا كل ما كان ينبغي أن يعملوه ، فصح بذلك دعاؤه الأول والأخير . إن الفهم عسير جد عسير .

لقد كان سن ياتسن حالماً حقاً ، ولو لم يكن حالماً حقاً لما كان له عمل في قومه . وفي هذه الصفحات تفسير حلم عظيم لأنه حلم رجل عظيم ، استطاع أن يحلم لأمة كاملة حيث لم تستطع قبله أن تحلم لنفسها ، وقلما استطاع أحد أن يحلم لأمة كاملة الا كان له في تاريخها عمل خالد وأثر مقيم .

لمحة تاريخية

وهذه اللوحة التاريخية التي نقدم بها سيرة زعيم الصين إنما هي إشارة اتجاه من العصور القديمة الى العصر الذي عاش فيه الزعيم ، نرسمها سريعاً بمقدار ما تلزم لتوضيح عمله وابرار دواعيه ، ولا نقصد بها أن نحيط بالتاريخ كله مفصلاً أو مجملًا ، لأن الإحاطة بتاريخ الصين - ولو بمجرد سرد العناوين الكبيرة - عمل يستغرق المجلدات الطوال .

واهم إشارة من إشارات الاتجاه أن الصين وحدة وطنية لا نظير لها في العالم ، خلافاً لما روجته سياسة الاستعمار في القرن التاسع عشر لتسويغ قسمتها بين الدول الطامعة فيها . فقد كان الساسة المستعمرون يقولون كلما احتجت حكومة من حكومات الصين على اقتطاع جزء منها أن سيادة الأمة الصينية لا وجود لها ، لأن البلاد التي يطلق عليها اسم الصين إنما هي اصطلاح جغرافي لا يشمل على سيادة وطنية واحدة .

ولا يصدق هذا القول على الصين الصميمة حتى من الوجهة الجغرافية ، لأنها في الواقع بلاد ذات وحدة جغرافية بينة وحدود أرضية فاصلة ، يكفي ان يخترقها المهاجرون ليقال إنه دخل من بلاد الى اخرى وانه يقتحم ارضاً لا تستباح بغير اقتحام .

فمنذ اقدم العصور وجدت الصين الصميمة التي تحيط بها الجبال والسهوب والأنهار ، ووجدت فيها الأرض التي تصلح للزراعة والأرض التي تجاورها غير صالحة للزراعة ولكنها صالحة للمرعى والصيد ، يسكنها أهل البداوة الذين يعتمدون على أهل الحضارة ويلازمونهم ملازمة الجوار ، وإن كان جواراً يجور فيه أحد الفريقين على الآخر حيناً بعد حين ، حسب تقلب الأحوال بين الخصب والجذب والرواج والكساد .

وأقوى من الوحدة الجغرافية في تكوين الوحدة الوطنية وحدة السلالة القومية ، وأقوى من الودحتين جميعاً وحدة التاريخ المتصل والثقافة المتشابهة ، ولم تجتمع هاتان الودحتان لأمة من الأمم كما اجتمعت لأمة الصين .

فإذا صرفنا النظر عن قبائل الاصلاء الذين يتفرون هنا وهناك فالصينيون جميعاً من سلالة واحدة هي السلالة المغولية ، ومقامهم بتلك البقاع يرجع الى العصر الحجري الأول ، بل يرجع الى عهد انسان بكين Sinanthropus الذي عثر عليه الحفريون بجوار بكين وزعم بعضهم انه هو الحلقة المفقودة بين القرد والإنسان ، وقدروا أنه عاش في تلك البقاع قبل مئات الألوف من السنين ، فإنهم يقولون ان في السلالة المغولية مشابهة من انسان بكين في خصائص الجمجمة والأسنان لا توجد عامة شائعة بين جميع السلالات البشرية ، وأن الجنس المغولي قريب اليه لأنه تطور منه مباشرة في مدى التاريخ المجهول .

وقد أسلفنا ان وحدة التاريخ والثقافة أقوى من وحدة السكن والسلالة . لأن اختلاف التاريخ والثقافة قد جعل من السلالة المغولية الواحدة شعوباً متفرقة يعادي بعضها بعضاً ويتعالى بعضها على بعض تارة بصفات الحضارة وتارة بصفات الفطرة والفروسية .

فالجنس المغولي الذي أقام في البلاد المخصصة بين غرب الصين وجنوبها قد شملته ثقافة واحدة منعزلة بين ثقافات الأمم الإنسانية حيث كانت من امم الشرق والغرب أو امم الشمال والجنوب . فلا توجد لغة كاللغة الصينية ولا كتابة مثل كتابتها ، ولا تشبه هذه اللغة فروعاً من اللغة المغولية الأخرى كاللغة التركية او لغة القبائل في آسيا الشمالية . فهذه الفروع تتولد فيها الكلمات بالالصق والإلحاق ، ولكن اللغة الصينية يتوقف فيها معنى الكلمة على ترتيبها في الجملة وعلى اختلاف نغمتها الصوتية ، وكتابتها كذلك كتابة رمزية صوتية وليست كغيرها من الكتابات التصويرية أو المقطعية الحرفية .

هذه الوحدة الثقافية تساندها الوحدة التاريخية في عصور بالغة في القدم . فإن تاريخ الصين الصميمة واحد منذ تلك العصور التي يتداخل فيها الزمن

المجهول والزمن المعلوم . بل هو واحد قبل أن تصبح أقطار الصين دولة متحدة . فإن وحدة الدولة ووحدة التاريخ شيان مختلفان . فإذا شمل التاريخ عشرة أقطار ينازع بعضها بعضاً فذلك تاريخ واحد ، وإذا توحدت الدولة وتعاقبت عليها ثقافات متعددة فتلك عدة تواريخ .

وقد مضى تاريخ الصين القديمة على وتيرة واحدة بثقافة واحدة ، حتى في الطوارئ العارضة على حكومتها حقبة بعد حقبة . فإنها يشبه ان تكون دورة واحدة تتكرر على نسق واحد ، فلا يشعر الناس بالغرابة عند قيام دولة وسقوط أخرى ، لأنها تجري على النحو الذي تعودوه وانتظروه وتوارثوا رواية أخباره حتى كاد ان يتساوى فيها العلماء والجهلاء .

تقوم الدولة حتى ينهاكها الترف وسوء الحال في الرعية ، فتسقطها ثورة من تلك الرعية او غارة من أهل البداوة المحيطين بها على تربص الطامع الذي ينتهز الغرة ، وهكذا تتعاقب الحكومات الوطنية وغير الوطنية ، فما قام به ناس من الرعية فهو حكم وطني ، وما قام به مقتحم من الشمال أو الغرب الجنوبي حيث تحوم القبائل المتربصة فهو حكم اجنبي ، وتكررت علامات السقوط حتى أصبحت من العلامات التي يسهل التنبؤ عنها قبل وقوعها ، فما استقرت قط حكومة حاربها الأساتذة والفلاحون ، وما سقطت قط حكومة أيدها هؤلاء وهؤلاء . لأن الأساتذة هم ملاك الدواوين والإدارة في تلك الأقطار الشاسعة ، والفلاحين هم الطاعمون المطعمون ، فإذا تعطلت الدواوين وتعطلت موارد العيش فلا بقاء لدولة قائمة ، وإذا انتظمت الدواوين وطعم الفلاح واعطى الشعب طعامه فلا ضير على الدولة القائمة وان عدا عليها المغير من خارجها ، فانها تدفعه فلا يشق عليها دفعه عن أرض لا عون له فيها .

قام على حكم الصين على هذه الوتيرة نحو عشرين أسرة ، من عهد السادة الخمسة الى عهد أسرة المانشو التي سقطت في سنة ١٩١٢ وقامت على آثارها الجمهورية .

ولكن الصين لم تحكمها دولة واحدة الا في عهد الأسرة الرابعة وهي أسرة

شوا التي تولت الحكم من سنة ١١٢٢ الى سنة ٢٢٥ قبل الميلاد ، ولم تتمكن من توحيدها الا قبيل سقوطها بزمان وجيز ، ومن نقائص التاريخ ان هذا التوحيد قد مهد لسقوط الأسرة من حيث لا تحسب ، لأنها وزعت نبلاءها على الأطراف ليحكموها ويصدوا غارة المغير عنها ، ونجح هذا التوزيع في أيام قوة الدولة وقوة العاهل الأكبر ، لأنه كان يدعو اليه الولاة كل سنة ليحاسبهم على أعمالهم في ولاياتهم ، وكان يخرج للطواف كل خمس سنوات على جميع الولايات . فانتمت الدولة وكانت هيبتها في نفوس الكبار والصغار زاجراً للولاة ومهيماً على سيرتهم الظاهرة والباطنة في أقصى الأطراف .

فلما ضعفت الحكومة المركزية زادت في ضعفها جرأة الولاة عليها ، فوثبت على العرش أسرة جديدة هي أسرة شين ، وافتتحت عهداً بالقضاء على نظام الاقطاع ، وخطر لعاهلها القوي « شين شيه هوانج تي » أن يستعيز من قوة الولاة في الأطراف بقوة الحجر والقرميد ، فبنى حائط الصين المشهور لصدد الغارات عنها من الثغرات المفتوحة ، وبالغت هذه الأسرة في تعقب البقايا المتخلفة من الماضي حتى امرت باحراق الكتب وتحريم النظر فيها ، وقيل في وصف سياستها العجيبة انها أقامت سوراً بين الماضي والمستقبل كما أقامت سوراً على مواقع الأرض بين الصين وجيرانها .

ثم تعاقبت الأسر على هذه الوثيرة ، تارة على اتصال وتارة على انفصال تتخلله الثورات وتنقطع فيه علاقة الولايات بالحكومة المركزية ، وقد تبقى الأسرة المغلوبة مسيطرة على بعض الولايات والأسرة الجديدة قائمة بالحكم في العاصمة الكبيرة ، حتى كانت أسرة « منج » ختام الأسر الوطنية في بكين (١٤٠٣ - ١٦٤٤) وكانت أسرة المانشو فيها ختام الأسر الأجنبية (١٦٤٤ - ١٩١٢) .



هاتان الأستراتان هما الأستراتان الحديثتان اللتان ادركتا العصر الحديث من القرن الثامن عشر الى القرن العشرين ، وفي عهديهما اتصل الغرب بالصين ونشأت العلاقات بينها وبين الحضارة الأوروبية ، سواء من جانب السياسة أو من

ولكنها على حداثتها تعتبر كل منها نموذجاً لأمثالها من أقدم العصور ، قيامها كقيام غيرها من الدول الوطنية أو الدول الغربية التي طرأت على البلاد من الشمال او من الغرب الجنوبي ، منذ الوف السنين ، ومحاسنها كمحاسن تلك الأسر الخالية ومساوئها كمساوئ تلك الأسر ، بلا اختلاف بين السابق واللاحق كأنما وقف الزمن عن التقدم والتغير من الأسرة الأولى الى الأسرة الأخيرة قبل الجمهورية .

وكل ما سجله التاريخ من الوقائع او الأساطير فقد تكرر في كلتا الأسترتين على قرب العهد بنشأة الثانية منهما او الأولى ، بالقياس الى الدول التي تقادمت عهدها قبل الميلاد او بعده ببضعة قرون .

كانت أسرة يوان التي سبقت اسرة منج مغولية من أرض الشمال ، فنبتت بذور الثورة عليها في الجنوب ، وانتشرت الدعوة المعادية لها على يد جماعة البشنيين الأبيض ، وهي جماعة سرية تتحلل الصبغة الدينية لمداواة اغراضها السياسية ، وكان زعيمها يدعي ان بوذا نفسه عائد الى الدنيا لاقتلاع جذور الأجنبي الغاصب ، وأنه تلقى الوعد بعودته وحياً من السماء .

ثم جاء الانقلاب على يد « شويوان شانج » ابن الفلاح الذي جعلته الروايات التاريخية بطلا من أبطال الأمة وكادت روايات القصص الشعبي ان تجعله شخصاً من شخوص الخرافات ، ومن القصص التي يتداولها الشعب عنه انه كان ملحوظاً بالعناية الإلهية منذ صباه ، وأنه كان مدخراً للملك وهو يرعى الماشية لرجل من أصحاب الضياع والكراع ، ومن رعاية الآلهة له انه أولم لأصحابه وليمة وذبح فيها ثوراً من قطعان مولاه ، ثم غرس ذنبه في الأرض وقال لمولاه حين سألته عنه انه غاص في الأرض وأراه موضع الذنب المغروس ، فلما راح الرجل يجذبه ليظهر بهتان الراعي المختلس ثبت الذنب في موضعه وسمع من باطن الأرض خوار كخوار الثيران .

ويروى عن « شويوان شانج » هذا انه تنسك وتعلم علوم النساك

والحكماء ، واطلع من ثم على أسرار جماعة البشنيين الأبيض ، فقاد ثورتهم وأقام نفسه ملكاً على إقليم « وو » حيث كان يقيم ، فزاحمه على الملك ابن صياد وحشد مراكب الصيد لقتاله ، ولكن الآلهة لم تخذله فقهر مزاحمه واحرق مراكبه في موقعة كبيرة على بحيرة « پويانج » إلى جنوب النهر العظيم ، ثم انهار ملك العاهل المغولي في بكين بعد حملة « شويوان شانج » عليه .

وليس في تاريخ هذا البطل الوطني من غرابة في خبر من أخباره غير القصص الخرافية .

أما ارتقاء راع ابن فلاح الى سرير الملك فلم يكن غريباً قط في ماثورات الصين القديمة والحديثة ، إذ كانت الثورات على الإجمال من قبل الفلاحين والأساتذة ، فإذا اجتمع لابن فلاح علم النساك والحكماء فترشيحه للملك يجري مجرى العادة عندهم في معظم الثورات ، ومن حكمة الصين أن الملك تفويض من السماء ، فمن ملك فهو مختار السماء وابن السماء ولا يعبد قومه كما يتوهم المتوهم من هذه التسمية ، ولكنه ينسب الى السماء لانه يختارها لحكم البشر ، ولا يزال قائماً بالأمر ما دام مختاراً من السماء ، فإذا سقط فتلك آية السماء على نبذه وإبطال اختياره ، ولم يكن نادراً في الصين ان يرتفع العواهل من حضيض الأرض الى عروش ابناء السماء .

وجرى على هذه الأسرة ما كان يجري على الأسر الوطنية او الأجنبية من قبلها ، فازدهرت ايامها على عهد الملوك الفرسيين كلها من ذوي الأيد والحكمة ، ثم آل الأمر فيها الى الخصيان والحواري وسماسة الشهوات ، فاستبد بالأمر الخصي « وان شن » في عهد ملكها السادس الذي كان يناديه بالأستاذ لأنه رباه من طفولته ، وكان يأمر الرؤساء والعظماء اذا خاطبوه ان ينادوه باسم الأب الجليل ، فطاشت سياسة القصر ووغرت صدور الرعية من الخاصة والعامة ، وعاد المغول الى الطمع في العرش ، ومكنهم منه تقلص الدولة وضياع الأقاليم منها واحداً بعد واحد ، واضطرار ملوكها الى مضاعفة الضرائب لتعويض الخسارة والإنفاق على جيوش الدفاع ، فاتفق الفلاحون والأساتذة كرة أخرى

على خذلان الدولة القائمة ، ولاإثبات الدولة في الصين يتفق عليها هؤلاء وهؤلاء .

وطالت المناوشات بين الدولة المدبرة والدولة المقبلة حتى انتهت آخر الأمر بقيام الدولة المانشوية ، واستقر لها الحكم شيئاً فشيئاً مع استمرار المقاومة في الجنوب ، حيث تشتد المقاومة الوطنية دائماً لأنه موطن الصين الصميم ، ولأنه معقل الحضارة على الدوام لما ورثه من الأسلاف وما يستفيدة من معاملة الأمم الأخرى التي لا تني ترسل اليه بالسفن والمتجرين يتزودون من موائنه ويحملون السلع من بلادهم اليه .

واتخذت دولة المانشو خطتين مختلفتين في سياسة الجنوب على الخصوص : سياسة من جهة الثقافة وسياسة من جهة العادات والأخلاق . فاجتهدت في اقتباس الثقافة الجنوبية ، لأنها لم تستطع ان تنكر مزية الجنوب فيها ، وأمرت باستنساخ جميع الكتب النادرة فملأت بها خزائن القصور ، وقربت اليها العلماء والمتعلمين للإشراف عليها ومدارستها ، وفتحت لهم أبواب الدواوين يرتقون الى مناصبها بالامتحان جرياً على السنة الموروثة من زمن بعيد .

أما من جهة العادات والأخلاق فقد كانت تنظر الى الشعب الصيني نظرة المترفع المحتقر ، لأنها اعتقدت فيه النعومة والتأنث وضعف المراس ، فحرمت على ابناء الشمال ان يتزوجوا من بنات الشعب او يزوجوا بناتهم لأبنائه ، وفرضت على الصينيين ان يرسلوا ضفائهم كمايفعل المغوليون ، ودارت الأيام دورتها وعاد الخصيان الى صولتهم وتحكمت جارية بعد جارية في العواهل القاصرين ، وتيقظت النخوة الوطنية بعد حين فرجعت جماعة البشنيين الأبيض الى نشاطها الأول ، وقادها في هذه المرة زعيم يتستر وراء الدين ليخفي مقاصده السياسية التي لم تكن واضحة كل الوضوح ، وكانت المسيحية قد دخلت الصين فادعى « هونج » قائد الجماعة انه اخو السيد المسيح ، وحرم الأفيون والخمر وقضى في عقوبة الزنى بالموت ، وعرفت دعوته باسم دعوة « التايننج تيان كو » اي مملكة السلام السماوية ، فعامله الغربيون المسيحيون معاملة الدجالين لأنهم

لم يقبلوا هذا المذهب من المسيحية ، وعامله الصينيون المحافظون معاملة مارق لأنه يعيب عقائدهم الوطنية ، وجاء المغامر الأمريكي وارد Ward والمغامر الإنجليزي جوردن Gordon في طلب الفتوح المجهولة ، فدخلوا في خدمة الأسرة المالكة ودربوا لها الجنود المنظمة للقضاء على الثورة ، وتم القضاء عليها بتأييد السياسة الاستعمارية ، لأنها خشيت مغبة انتصار الثورة على بلاط بكين ، ومعه كانوا يعقدون العقود لاستغلال الأسواق والموارد وتثبيت مزايا المعاهدات .

كان إخفاق الدعوة الى مملكة السلام السماوية نكبة على الصين في ظاهر الأمر لأنها أطالت اجل الأسرة المالكة التي افسدت البلاد ووقفت وقفة المستئس العنيد لتحول دون اصلاحها وتبديل أي نظام فيها من النظم العتيقة التي جمدت عليها .

ولكن هذا الاخفاق انما كان نكبة في الظاهر ، نعمة في الواقع ، لأن الصين انما كانت في حاجة الى ثورة يعرف دعائها ما يعوز البلاد وما يكفل لها السلامة والتقدم ، ولم تكن الدعوة الى مملكة السلام السماوية اهلا لهذه المهمة الضخمة ، بل لعلها كانت نكبة اخرى تخلف النكبة التي ابتليت بها من الأسرة المالكة ، وتستدعي بعد ذلك علاجاً أقوى من علاج الجمهور على القديم .

وكأنما ادخر القدر لهذه المهمة ثورة اخرى تدرك الصين ضرورتها بعد يقظة قاسية من فعل الحوادث تفتح عيونها وتلمسها بأيديها مواضع العجز والقصور منها ، وتلك هي ثورة « سن ياتسن » الذي لقب خقاً بأبي الصين الحديثة .
إن تاريخ هذه الأمة الكبيرة حافل بالعبر التي تكاد تغني عن عبر التاريخ كله ، وأولها عبرة الثقافة المستقلة .

فالثقافة المستقلة قوة ومفخرة ، والثقافة المستقلة ضعف ومهانة ، وفي التاريخ أمثلة كثيرة على هاتين الحقيقتين ، ولكن ليس منها مثال اجسم ولا اجلى من مثاليهما في تاريخ الصين الحديث .

كانت امة مستقلة الثقافة ، وكانت تفخر بهذا الاستقلال وبحق لها ان

تفخر به على من حولها ، لأنها لم تكن ترى حولها غير الهمجية والبربرية والجلافة والجهالة ، وكانت هي قد كشفت الإبرة المغناطيسية والورق والمطبعة والبارود وصناعة الحرير والأنسجة والعملية الورقية وملاأت خزائن الكتب بتصانيف الحكمة والمعرفة وآداب السلوك ، وكان كل من يغشاها من الخارج يعزز رأيها ويزيدها احتقاراً لغيرها واغتراراً بمناقبها وفضائلها ، ومن جاءها زائراً من أهل الاطلاع والاستطلاع لم يجد فيها علماً أرفع من علم بلاده وعاد وهو يعجب بها كما تعجب بنفسها .

وظلت على هذه الثقة بارتقائها فظلت هذه الثقة قوة لها وحقاً صحيحاً من حقوقها .

فلما جمدت ثقافتها لاستقلالها بنفسها ، وتقدمت ثقافات الأمم الأخرى لتجاوبها وتنازعها واخذ المتأخرين من المتقدمين فيها - صارت الحال بها الى نقيضها ، وأصابها من تلك الثقة كل سوء تخشاه ، وهي لا تعلم مبعثه ومآتاه .

ترفعت عن التعلم من غيرها ، وجاءها الرحالون الغربيون من طلاب الغنائم والفرص فشهدت من أخلاقهم ما لا يشجعها على محاكاتهم والافتداء بهم : غش وإسفاف وعريضة وتهالك على المنفعة ورضاً بالدنس طمعاً في الغنيمة وغلظة تبدو للصيني المذهب على الخصوص ، لأنه عاش على آداب السلوك وجعلها قوام الأدب كله وشرط الحضارة الأول في كل انسان على نصيب من الكرامة .

والى هنا كانت على حق في اغترارها بثقافتها واستقلالها بعلومها ومعارفها . ولكنها شهدت الى جوار ذلك ما يوقظ نائم الكهف لولا ان نوم الغرور اثقل من نوم الكهوف .

شهدت على مقربة منها في الهند شركة تجارية تدك عروش الدول العريقة بسلاح البارود الذي هي كشفتته وهي اولى باستخدامه .

وشهدت فئة من سياح البرتغال في ارضها تستخدم المدفع فتهمز به الجموع

الكثيفة المتألبة عليها .

وشهدت بعد ذلك معارك لم تغن فيها الشجاعة ولا العدد أمام هذا السلاح .

وكان قليل من هذا كله كافياً لإقناعها بضرر اكتفائها وقناعتها بما عندها ، وإيقاظها للخطر المحدق بها من أقرب الجهات وأبعدها .

ولكن نوم الغرور كما قلنا أثقل من كل نوم ، وبخاصة غرور ذوي السلطان الذين لا يقال لهم الا ما يحبون ان يسمعهو .

فبلغت الحضارة الغربية اوجها وهم غافلون عنها .

ولبت عاهل بكين يؤمن في قرارة نفسه بأنه عاهل العالم كله ، وان ملوك العالم كله اتباع له وعيال عليه ، لا يثنيه عن اخضاعهم عنوة الا ان الأمر مفهوم بالبداهة لا يستحق المشقة ولا يرجى من ورائه غنم جديد .

والى نهاية القرن الثامن عشر كان عاهل بكين « شيان لونج » يعتقد ويقول ان بلاده في غنى عن العالم كله ، وان العالم كله مفتقر الى بلاده ، وكتب الى جورج الثالث ملك انجلترا حين خاطبه في تبادل العلاقة التجارية « ان مملكتنا السماوية تحتوي كل شيء في وفر وغزارة ولا تحتاج داخل حدودها الى مطلب من خارجها ، فنحن في غنى عن جلب المصنوعات من البلاد البربرية بديلا من مصنوعاتنا ، ولكن الشاي والفخار من مملكتنا السماوية مطلب لازم للأمم الأوروبية ولكم ... » .

وكتب اليه جواباً على خطاب آخر : « ان مملكة جلالتك في مكان سحيق وراء البحار ، ولكنها تدرك واجباتها وتعمل بالقوانين ، ولما كنتم من ذلك المكان السحيق تبصرون مجد دولتنا وتعجبون في احترام وتوقير بكمال حكومتنا ، فقد انفذتم الينا بالكتب والرسائل للنظر فيها ، ونحن نرى أنها مملدة بما ينبغي من روح الإعظام والإكرام ، ونرغب من أجل هذا في قبول ملتهمسكم وإجابة أمانيتكم ، ونقبل كل ما أرسلتموه من هداياكم . أما رعاياك الذين تعودوا منذ

سنوات ان يتجروا مع مملكتنا فنود ان نقول لكم ان مملكتنا السماوية تشمل بالاخصان والعطف جميع الأفراد والأمم وتلاحظ رعاياكم بعين السباحة والرأفة ، فلا محل إذن لما تطلبه لهم حكومة جلالكم . . . » .

ولما أراد السفير الانجليزي اللورد مكارثي ان يرفع اوراقه بنفسه الى عاهل بكين في عاصمته قيل له استكباراً لوقوف امثاله في حضرة ابن السماء ان تسليم الأوراق للوزراء فيه الكفاية ، فلما الح وعاود الإلحاح قيل له انه لا يؤذن لمثله بالوصول الى العاهل الا اذا سجد امامه ولمس الأرض بوجهته تحت قدميه ، وطالت المفاوضات واستخدمت الرشوة والترضية حتى سعى رجال البلاط في إتمام المقابلة والاكتفاء من السفير بالركوع أمام ابن السماء كما يركع أمام مولاه ، وقيد السفير في موكب رفعت عليه الأعلام ونقشت عليها عبارة معناها أنه سفير من ملك اجنبي وفد على ابن السماء لتقديم الجزية ورفع فروض الطاعة الى سدته السماوية .

وانقضى قرن على هذه المراسلة وبلاط ابن السماء مصر على عقيدة « الاكتفاء » مؤمن بأن الصين في غنى عن العالم كله بما تحتويه بين حدودها ، فلا يفيدها العالم بثقافة ولا حضارة ، ولا تحمل بها غير سياسة واحدة وهي سياسة العزلة والمقاطعة ، وبلغ من التشدد في اتباع هذه السياسة ان الذي يعلم أجنبياً لغة الصين أو كتابتها كان يعاقب بالموت ، وأن الذي يوجد لديه شيء مستورد من الخارج يتعرض لعقاب الخائن المتهم بالمروق .

كان هذا هو الوهم الذي جمدت عليه أمة الصين ، ولبت البلاط جامداً على هذا الوهم بعد ان زالت غشاوته عن أعين المصلحين المخلصين .

كانت الصين في حاجة الى شعور يناقض هذا الشعور ، كانت في حاجة الى من يعلم أنها محتاجة الى غيرها في كثير ، وأن آفتها من جودها على حالها واكتفائها بما عندها ، وكانت الثورة باسم مملكة السلام السماوية صرخة مريض ولم تكن وصفة طبيب ، فلما سكنت خيل الى الكثيرين أن المريض ميت بعلته ، ولكنه في الواقع كان ينتظر ثورة اخرى تجمع بين صرخة المريض ووصفة

الطبيب ، وتلك هي ثورة سن ياتسن باسم السيادة القومية ، وجاءت هذه الثورة
ترياقاً صادقاً لأنها لمست الآفة في مكانها : آفة الاكتفاء يداويها العلم بالحاجة الى
كل شيء من الحضارة الحديثة .

الصدمة

كانت الصين كما تقدم مستريحة الى كفايتها وعزلتها .

وكانت على خطأ مزدوج في هذه الراحة الموبقة ، فلا هي مكتفية ولا هي قادرة على العزلة ، ولو أنها شاءت ان تعتزل العالم لم يشأ العالم أن يعتزلها ، فهي طالبة مطلوبة من حيث تجهل ما تطلبه وتجهل ما يطلب منها .

وكل صدمة كانت قمينة بإيقاظها من تلك الغيوبة السادرة فهي خير وبركة ، أياً كانت عواقبها وأياً كان الثمن الذي تشتري به تلك اليقظة .

فلم تكن هناك عاقبة أشأم من بقائها على غفلتها والعالم يتقدم من حولها ويتحضر لابتلاعها .

نعم . لم تكن مطامع الدول المستعمرة نفسها اشأم من راحتها ومن غفلتها .

فقد شاء حسن الحظ لهذه الأمة الكبيرة أن المطامع فيها كثيرة متعددة ولولا ذلك لضاعت في جوف دولة او دولتين ، وتأخرت يقظتها زمناً بعد القرن التاسع عشر ، وربما مضى القرن العشرون وهي ضائعة عاجزة عن الاستقلال بسيادتها .

كانت مطمع الدول القريبة والبعيدة ، فعلى مقربة منها اليابان والولايات المتحدة وروسيا القيصرية ، وبعيد منها إنجلترا وفرنسا وسائر الدول التي في غرب القارة الأوروبية ، ولكنها كانت قريبة منها بمستعمراتها في آسيا الجنوبية وما جاورها .

وكل هؤلاء كانوا يطمعون فيها .

وهذا الذي أنقذها وجعل الصدمة أنفع لها من الراحة الموبقة والغيوبة السادرة .

فهي اكبر من ان تلتهمها دولة واحدة ، والطامعون فيها أكثر من أن يتفقوا على تقسيمها ، وأنفع لهم أن يتفقوا على سلامتها ويقنعوا باستغلال مواردها ما استطاعوا ، وهو ما سموه بعد ذلك بالباب المفتوح ، وقدروا يومئذ أنه باب مفتوح للدخول وحسب ، ولم يقدروا أنه كذلك مفتوح للخروج .

كان من الواجب للصين أن تصطدم بالواقع وقد اصطدمت بالواقع صدمة كبيرة ، ولكنها لم تكن أكبر منها ولم يكن شرها أكبر من شرور الكفاية التي كانت مخدوعة بها ، أو شرور الراحة التي كانت سادرة فيها .

لم يكن ساسة الصين يجهلون العالم الخارجي او يجهلون وجود القارات الأخرى ، وكثيراً ما فرق السياح على قصر ابن السماء وحدثوا القوم عن بلادهم وأقوامهم حديثاً يشوق ويعجب ، ولكنه لا يهم ولا يزعج ، وغاية ما يثيره في النفس أنه كان كالقصص التي يسمعها الأطفال عن الأمم النائية ما كان منها موجوداً حقاً أو كان من صنع الخيال وأكاذيب الرواة .

وكان أبناء السماء ينهزمون أحياناً ولكنهم كانوا ينهزمون أمام أبناء سماء آخرين .

وربما انهزم جيش من جيوشهم في وقعة مع الدول القريبة ، فلا ينتهي خبر الهزيمة الى أقصى البلاد ، ولا يقع من نفوس السامعين له إلا كموقع الهزيمة التي يمنى بها الشرطة في كفاح عصابات المجرمين ، ثم تنهزم العصابة أو تنجلي هاربة الى مأمنها ، وتجري الأمور بعد ذلك في مجراها القديم .

ويظل ابن السماء ملكاً على كل ما تحت السماء .

ويظل الصينيون أقوى الأمم وأرفعها وأوحدها بوصف الحضارة بين البرابرة والمستوحشين .

ولم تنقطع سفن التجار عن موانئ الصين الجنوبية والشرقية منذ عرف

الناس فن الملاحة ، فلما وفد على تلك الموانئ تجار الغرب في القرن الثامن عشر وما بعده لم يكن هنالك ما يستغربه القوم : أناس يطرقون الأبواب في طلب القليل من الفتات ، فليأخذوا ما طاب لهم صدقة واحساناً من سيد العالم ، وملك القريب والبعيد من البلاد .

إلى أن كانت حرب الأفيون .

فإذا بالواردين على الأبواب يطلبون بل يأمرؤن ، وإذا بهم يتكلمون بأسماء ملوكهم ويناصون برؤوس ملوكهم هؤلاء رأس ابن السماء .

ومن سخرية القدر ان تكون يقظة الصين من حرب الأفيون ، وقد كان وشيكاً أن يدخلها في خدر أعمق من خدر الراحة والغرور .

ولم يكن الأفيون في نشأته آفة صينية كما شاع بين الناس الى الزمن الأخير .

فما كان الصينيون يزرعون شجرته ولا كانوا يستخدمون ثمرتها في غير العلاج .

ولكن التجارة الأوربية هي التي جلبته الى بلادهم من البلاد الآسيوية الأخرى ، ولم تفتن حكومة الصين لضرره أول الأمر فسمحت ببيعه وحصلت عليه في موانئها ضريبة الدخول الى ما قبل نهاية القرن الثامن عشر (١٧٩٦) فتهافت عليه الأغنياء وسرت عدواه الى الفقراء فأقبلوا عليه وبذلوا فيه ثمن القوت وفضلوه على ضرورات المعيشة ، فتنهت الحكومة بعد فوات الأوان وأمرت بتحريمه ومصادرة المضبوط منه في موانئها أو في داخل بلادها ، فعمد التجار الى تهريبه وضاعفوا ثمنه على تجار البلاد الداخلية وضاعف هؤلاء ثمنه على طلابه ، وقيل إن تجار الموانئ تسلموا من المهريين في سنة واحدة (١٨٣٨) ما قيمته أكثر من أربعة ملايين من الجنيهات ، وباعوها بأضعاف هذه القيمة الى تجار الريف ومدخنيه ، وهي ثروة ضخمة اذا لوحظ على الخصوص أن المهريين كانوا يتقاضون الثمن فضة خالصة قبل تسليمه في عرض البحر حيث كانت تجرى صفقات البيع والشراء .

وعهدت الحكومة الصينية الى رئيس من رؤسائها مشهور بحماسه في حرب هذه الآفة أن يشرف على شواطئ كانتون ليمنع الوارد منه قبل تهريبه الى داخل البلاد ، وكان هذا الرجل الأمين - واسمه (لين تسي هسو) والياً قبل ذلك على بعض الأقاليم فاشتد في تعقب المهربين والمدخنين وعرف له ربات البيوت اللاتي فجعن في أزواجهن وأبنائهن هذا الفضل فكن يحطن به ليلشمن أهذاب ردائه حيث وجدنه ، فتابع هذه الشدة في رقابته على الموانئ ، ولم يقنع بهذا بل أطلق جواسيسه على مخابىء هذه التجارة الخبيثة حتى جمع منها ذات مرة ما يساوي مليون جنيه ، فأتلفه علانية على مشهد من الأجانب والوطنيين .

ونشط « لين » في بناء المعاقل والمخافر على الشواطئ والتلال ، وأرسل الى القنصل الانجليزي يطلب منه أن يسلمه خلال ثلاثة أيام كل ما في المستودعات الانجليزية من الأفيون المخزون ، وأن يستكتب التجار وثيقة يتعهدون فيها بالامتناع عن توريد هذه البضاعة والا ضرب الحصار على كانتون وأجلى منها كل تاجر لم يوقع على تلك الوثيقة ، فلم يقبل القنصل طلبه وأجاب على هذا الحصار بمظاهرة بحرية على ثغرة النهر الغربي لإغلاقها في وجه السفن التجارية ، ثم اعلنت انجلترا الحرب على الصين والمفاوضات جارية بين الطرفين ، فلم تقو الجنود الوطنية على مقاومة الأسطول وأرسل البلاط يطلب الهدنة ويدعن لشروط الصلح بين الطرفين ، فانعقدت بينهما معاهدة نانكين (١٨٤٢) التي استولت انجلترا بموجبها على هونج كونج وأرغمت الحكومة الصينية على فتح جميع موانئ كانتون للتجارة وتحويل القناصل حق النظر في قضايا رعاياهم بغير استثناء للمهربين وبغير اشارة الى تحريم تجارة الأفيون ، وجوزي الموظف الأمين بعزلة وانتداب خلف له ممن يرضى عنهم القناصل والتجار .

ولم تنته مشكلات الأفيون بهذه الحرب الباغية وهذه المعاهدة الجائرة ، فقد أعقبتها حرب الأفيون الثانية (سنة ١٨٥٧) ونشبت هذه الحرب الثانية لأن المراقبين الصينيين حجزوا زورقاً يسمى بالسهم Arrow ورفضوا إعادته الى

القنصل البريطاني حين احتج على حجزه وطالب الحكومة الصينية بإعادته .
وحجة الحكومة الصينية أن الزورق وطني وأنه لم يكن يرفع الراية البريطانية
ساعة تفتيشه وحجزه ، فاشتركت إنجلترا وفرنسا في انذار الصين وطالبنا
بالمزيد من الحقوق والامتيازات ، ومنها اقامة السفراء بالعاصمة واحتلال
الأماكن التي تختارها الدولتان على الشاطئ ، وهجم الأسطول البريطاني
والأسطول الفرنسي معاً على كانتون وتقدما بعد احتلال موانئها الى تينتنس ،
وأملى الفائذان على الحكومة الصينية شروط المعاهدة التي سميت باسم
تينتنس ، وذهب المندوبون المفوضون الى بكين لتوقيعها وضموا اليهم
مندوبين من روسيا والولايات المتحدة ، فثارت نائرة الشعب والموظفين عليهم
في الطريق واعتقلوهم رهائن بالعاصمة ، واشتعلت النار في بعض الاماكن
الأجنبية خلال الصدام بين الجماهير المتظاهرة وجنود الدول ، فأرسل
القناصل في طلب المدد وتقدمت الجيوش الدولية بعد وصول المدد البحري
والبري الى بكين ، فلاذت الأسرة المالكة بالفرار وأمر القواد بتدمير القصر
الإمبراطوري المعروف بقصر الصيف ، وكانت فعلة وحشية ضاع من جرائها
كثير من التحف والذخائر التي يعد ضياعها خسارة على الإنسانية ، ولم يرجعوا
حتى ارغموا الحكومة المنهزمة على توقيع معاهدة جديدة والتسليم بامتيازات
دولية اخرى غير الامتيازات السابقة ، ومنها الترخيص لمن شاء من الأجانب ان
يتنقل داخل البلاد تحت حماية دولته ، وتبادل السفراء ، وفتح ثمانية موانئ
لإنجلترا وستة لفرنسا ، ونقص الرسوم الجمركية وتأجير شبه جزيرة كولون
لإنجلترا ، عدا الغرامات الثقيلة والتعويضات المجحفة التي اكرهت الحكومة
الصينية على أدائها أقساطاً مقدرة يشرف المندوبون الأجانب على طريقة
سدادها ، وزاد الطين بلة ان الروس طالبوا لأنفسهم بحصة من الغنائم لأنهم
توسطوا في الصلح وتعديل شروط الاتفاق ، فاستولوا على الأقاليم التي تقع الى
شمال نهر التنين الأسود وشرق نهر اسوري ، مقابلة للغنائم التجارية التي لم
يسهموا فيها .

وانشئت مصلحة الجمارك على تنظيم جديد فطالبت كل من إنجلترا

وفرنسا بخمس الرسوم خالصاً بغير كلفة ، وتركنا ثلاثة اخماس الرسوم للحكومة الوطنية مع تكاليف الإدارة والحراسة .

واستمرت المطالبة بالامتيازات الجديدة على أثر كل احتكاك بين الأجانب والوطنيين ، وما أكثر أسباب الاحتكاك في هذه الأحوال ، بين اجانب متغربين يغالون في إذلال الوطنيين اعتماداً على حماية قناصلهم ، وبين وطنيين يشعرون بالغربة والهوان في ديارهم ، وقلما كانت تنقضي أيام دون حادث يسميه الأجانب حادث اعتداء وتعصب ويسميه الوطنيون حادث دفاع وكرامة ، ثم تكاثرت هذه الحوادث بعد تغلغل المبشرين والمرسلين في الأقاليم الداخلية ، ومنهم من يقضي الإنصاف بالاعتراف لهم بالفضل في محاربتهم الصادقة لآفة الأفيون ، ومنهم من يقضي الإنصاف أيضاً بملامتهم على حماية الأشرار وطرء القانون ممن يتهمهم الوطنيون بالمروق وخدمة السياسة الأجنبية ، فقد كان المجرم من هؤلاء يعرف مصيره اذا حوسب على جريمته أمام قضاء بلاده فيظهر التحول الى المسيحية ويكسب بذلك حق الياز بالمعاهد الأجنبية ، فلا تمتد اليه يد القضاء في ذلك الملاذ .

وتفاقت أضرار المعاهدات الجائرة فلم تنحصر في الهوان وسلب السيادة بل سرت هذه الأضرار الى ضرورات المعيشة بين الأغنياء والفقراء على السواء . لأن الدولة احتاجت الى مضاعفة الضرائب لسداد الغرامات والتعويضات مع قلة مواردها الجمركية بعد اقتطاع الخمسين منها لإنجلترا وفرنسا ، ولأن البضائع الأجنبية تدفقت على أسواق الصين عند الشاطئ وفي الأقاليم القاصية تباع فيها بالسعر الرخيص لقلة الرسوم التي تؤديها ، وتفضل على المصنوعات الوطنية لجودتها وسهولة الحصول عليها ، فبارت المصنوعات اليدوية وتعطلت المعامل التي اجتهد أصحابها في إنشائها لمجاراة المعامل الحديثة ، وحل الوسيط الأجنبي محل الوسيط الوطني في معاملات التجارة الكبرى ، وأطبقت هذه المصائب الاقتصادية على الأمة بعد مصائبها السياسية المتلاحقة فترأت لها أشباح الخراب في كل مكان .

وتدرجت الدول من امتيازات الموانئ الى امتيازات المواصلات ،

فتسابقت انجلترا وروسيا وفرنسا والمانيا على انتزاع الامتيازات بمد السكك الحديدية وتحصيل مواردها ضمانا للقروض اللازمة لمدها ، وسهلت دعوى الحملات التأديبية وانتزاع البلاد عقوبة للحكومة الوطنية ، فاستولت فرنسا على أقاليم من الجنوب ، واستولت اليابان على اقاليم من الشمال واستولت امريكا على الفلبين وصارت الدولة الصينية مقصورة على تلقي الضربات والتسليم بضياح حق بعد حق ، واحتمال خسارة بعد خسارة .

ولقد كانت هذه الضربات المتعاقبة تحزفي نفوس الأذكيا والعارفين من أهل الصين ، ولكن ضربة منها لم تبلغ من الايلام والإزعاج ما بلغت هزيمة الصين أمام اليابان سنة ١٨٩٥ .

فإن الصينيين عاشوا ألوف السنين وهم ينظرون الى جيرانهم من الشرق نظرة الاحتقار والاستخفاف ، فلما انهزمت دولتهم امام اولئك « الأقزام » المحتقرين وقيل لهم لانهم لم يتمكنوا من الظفر بجيوش ابن السماء الا لانهم تعلموا الصناعة الحديثة من الأساتذة الغربيين ، أصبح احتقارهم المفرط للمنتصرين عليهم اعجاباً مفرطاً بالصناعة التي كانت سبباً لهذا الانتصار . وهرعت جموع الطلبة الى مدارس اليابان وأوربة وامريكا يتعلمون فيها سر هذه القوة التي يعنولها جبين أكبر الأمم وأغرقها في الحضارة والحكمة والسلطان .

وتشعب أنصار النهضة الحديثة شعبتين : إحداهما تحاول الإصلاح بالأداة الحكومية وزعيمها (كانج يوي) وتلميذه (ليانج شي كاو) الذي قاد حركة الترجمة من الآداب الغربية .

والأخرى ثورية يائسة من صلاح الأداة الحكومية مع قيام أسرة المانشو على عرش الصين ، وصاحب الرأي الأول والأسبق في هذه الدعوى الثورية هو سن ياتسن بطل هذه السيرة .

ولم تكن الدعوة الأولى - دعوة الإصلاح بالأداة الحكومية - خلواً من حجتها المعقولة ، لأن الإمبراطور الفتى كان على رأي ابناء جيله في ضرورة الإصلاح ، وكان يطلع على المصنفات المترجمة والصحف المجددة ويؤمن

بصواب ما تدعو اليه ، وكاشف اترايه من أمراء الدولة ورؤسائها بعزمه على إعلان الدستور وتجربة الحياة النيابية ، وكانت الفترة مواتية للشروع في هذه النهضة ، لأنها وافقت هدنة من عدوان الدول بعد ان تبين لها أن التنافس بينها سيقودها الى الحرب لا محالة ، فأسرعت الولايات المتحدة وبرزت في الميدان هذه المرة باسم السلام والمصلحة الدولية ، ووجهت (سنة ١٨٩٩) مذكرة الى إنجلترا وفرنسا والمانيا وإيطاليا وروسيا واليابان تقترح فيها تأمين الصين على سيادتها والاتفاق على احترام هذه السيادة وتطبيق سياسة الباب المفتوح بروح العطف والانصاف ، ونزول الدول عن امتيازاتها الجمركية في مناطق نفوذها ، ثم أعلن الوزير هاي سياسة الباب المفتوح على هذا الأساس في السادس من شهر سبتمبر (سنة ١٨٩٩) .

إلا أن الدعوة الثورية كذلك لم تكن خلواً من حجة معقولة بل حجج معقولة متعددة ، لم تزل الوقائع تؤيدها وتدحض حجج المعارضين لها ، وثبتت لطلاب الإصلاح جميعاً أن باب الصين المفتوح للإصلاح باب واحد ، وهو الباب الذي تخرج منه أسرة المانشو الى غير رجعة .



من مألوفات التاريخ اذا شاخت الأسر المالكة وحقت عليها كلمة الزوال أن ينجم منها ملك او عضو بارز من أعضائها يبطل الحيلة فيها ويدحض كل عذر يتعلل به أنصارها المتعللون للإبقاء عليها .

ويكاد الناظر في سير هؤلاء الملوك أو الأمراء ان يحسب لهم دوراً مرسوماً لا يحيدون عن أدائه لتعجيل سقوط الأسرة وقطع الألسنة التي تماري في عيوبها واستحالة الخلاص منها .

وقد كان من الجائز ان يخلص الحكم للعاهل الشاب المغلوب على أمره (كوانج هسو) فيحاول تجربة الحياة النيابية ويجتهد في محو عوامل الفساد والانحلال وتشجيع عوامل التقدم والإصلاح ، ولكنه لو فعل ذلك لما بلغ منه شيئاً غير تخدير حركة الثورة بضع سنوات ، وغير تأخير البناء الذي لا بد أن

يؤسس على أنقاض العهد القديم ، لأن البناء لا يقبل التكملة من طراز يخالف كل المخالفة في التقسيم والتدعيم .

في وسع الأسرة المالكة - عند هذه المرحلة - ان تخرج منها من يقضي عليها ، وليس في وسعها أن تخرج منها من يدعم بناءها ويطيّل بقاءها .

وقد اخرجت أسرة المانشو معول الهدم على اقوى ما يكون في صورة شيطانية إنسية تقوم مقام الوصية على العاهل الشاب ، فملكّت أزمة الدولة كلها في إبان هذه الكوارث ، وكانت هي نفسها كارثة الكوارث التي غطت عليها جميعاً وحولت جهود المفكرين الى غاية واحدة بدلا من التفرق بين شتى الغايات : تلك الغاية الواحدة هي إزالة الأسرة المالكة واختتام العهود الملكية جميعاً في أقدم الدول الآسيوية عهداً بالعروش والنيجان .

كانت الوصية « تزوهسي » جارية ذات حظوة عند العاهل الراحل وكانت قد أتقنت كل ما تتعلمه الجوّاري من فنون الرسم والموسيقى والمعارف التقليدية ، وزعم الزاعمون أنها كانت تستظهر حكمة كُنُفشيوس وقصائد الشعراء المتقدمين ، وأنها كانت تنظم شعر الغناء وشعر الأمثال وتساجل فيهما الأدباء والشعراء ، فلم يكن لهذه الثقافة كلها من ثمرة غير تمكين غرورها وتشديد ما في نفسها من التعصب على الثقافة الحديثة ، وبخاصة حين علمت أنها ثقافة تشل يدها على السطو والتبذير وتضطرها في سياسة القصر والأمة ان تقف عند حد محدود ، يسمى بحد الديمقراطية والدستور .

فلم تكد تعلم بميول العاهل الفتى حتى أسرع الى حاشيته من حزب الإصلاح فأبعدتها وكرهته إكراهاً على إلغاء أوامره التي أعلن بها بعض الحقوق الدستورية ، وجعلته يحس الخطر على حياته اذا سولت له نفسه ان يتمرد على سلطانها .

وجاوز الأمر عندها مقت الدستور الى مقت كل مقترح يأتي من جانب حزب الإصلاح ، فوضعت يدها على المال المجموع لإنشاء السفن الحربية التي ظهر من هزائم الصين المتوالية أنها في ميسس الحاجة إليها ، فأنفقته كله

على تشييد قصر في حديقة واسعة تقضي بها ليالي السمر واللهو ومن بعدها
الطوفان !

لو كان لهذه الوصية على عرش الصين دور مرسوم ، وكان دورها
المرسوم ان تجهز عليه وتفض الأنصار من حوله ، لما استطاعت ان تعمل
للنجاح في هذا الدور غير ما كانت نعمله وهي تحسب أنها تدعم العرش وتقوي
سلطانه وتشل أيدي المتآمرين عليه .

فلم يبق احد من المفكرين يعتقد إمكان الإصلاح مع بقاء هذا النظام
العتيق ، وانقلب دعاة الإصلاح من طريق الحكومة القائمة الى صفوف اعدائها
الألداء . ولولا حماية السفارات لأولئك الدعاة حين لاذوا بها لمثلت بهم كما
مثلت بغيرهم من أنصار الحياة النيابية وتجديد نظام الحكم ونشر التعليم
الحديث .

وانفقت الآراء جميعاً على حصر العلة كلها في الأسرة المتداعية ، فلم
يبق لها من نصير غير طائفة من غلاة المحافظين ، تطوعوا للدفاع عنها سخطاً
على عدوان الأجانب لا جهلاً بعيوبها وجرائمها ، فكانت حركتهم المشؤومة
نكبة فوق النكبات المطبقة ، وعجلت بسقوط الأسرة من حيث أرادوا لها
التماسك والبقاء .

تطوعت بهذه الحركة جماعة « آي هوشوان » أي الملاكمين
المستقيمين المتألفين ، هم الذين اشتهروا باسم « اليوكسرز » بين
الأوربيين .

وراحت هذه الطائفة تعرض ألعاب الملاكمة والمسابقة والطعن بالمدى
والخناجر وتستهوون بها طلاب الفتوة من الشبان ثم تتدرج في تلقينهم مقاصدها
السرية وهي بعبارتها الدينية « طرد الشياطين المتطفلين ، ثم أخذت شيئاً فشيئاً
تجهر بمقاصدها هذه وتهتف علانية بتأييد القصر ولعن الأجانب الشياطين .
وادعى أحد زعمائهم أن إله الحرب « كوانج كونج » جاءه في الحلم وأنبأه بقاء
الأجانب جميعاً بعد أيام . وادعى زعيم آخر أن التينينات الخمسة الساهرة على

مدخل نهر تاكو أنباته أنه ما من دارعة أجنبية تجترىء على الدنو منه إلا غرقت .
بمن فيها .

وزينت السخافة للوصية الخرقاء أن هذه الحركة كفيلة بقطع دابر
الأجانب وطرد بقيتهم من البلاد ، ولم تخف مما ألأتها لها بل أرسلت (في
العشرين من شهر يونيه سنة ١٩٠٠) الى السفارات تشهر الحرب على أجانب
العالم أجمع وتنذر السفراء وأتباعهم بمغادرة العاصمة خلال أربع وعشرين
ساعة . وزحف الملاكمون بعماثهم الحمر وسيوفهم المشهورة فاقتحموا
معاهد الأجانب وقتلوا من فيها وضربوا على السفارات حصاراً دام نحو
شهرين ، ثم وصلت جيوش الدول - أمريكا واليابان وروسيا وإنجلترا وفرنسا
وألمانيا والنمسا وإيطاليا - فارتفع الحصار وانقلبت الحرب الى مذبحة وحشية
لا تذكر الى جانبها وحشية العصابات من الملاكمين وغوغاء الطريق .

أما تلك الخرقاء التي أغرقت عاصمتها في بحر من الدم فقد حلت
العاهل الناشئ معها وهربت الى الغرب مستخفية ، ولم تنس صغائرها
الأثوية في تلك المحنة الدامية فلم تبرح العاصمة حتى أغرقت الجارية الأثيرة
عند العاهل الصغير ، لأنها همت باللحاق به خوفاً عليه .

ثم أملت شروط الصلح فإذا هي تقضي بتسليم زعماء الثورة فسلموا ،
وبهدم جميع المعازل على طريق العاصمة فهدمت ، وبفرض غرامة تبلغ
خمسة وستين مليون جنيه ، فدفع منها ما حضر وبقيت أقساطها عبثاً على
كواهل الأمة أربعين سنة بعد ذلك التاريخ .

هذا مثال من الفارق بين حركات الشمال وحركات الجنوب في البلاد
الصينية ، فالغالب على حركات الشمال حيث يضعف أثر الحضارة انها عصبية
جامحة تندفع ولا تدري عاقبة اندفاعها ، والغالب على حركات الجنوب حيث
طالت آماد الحضارة وتتابع الصلة بالعالم الخارجي انها تمهد بالثورة لنظام
معلوم .

وقد أنجزت الوصية الخرقاء دورها المرسوم فقطعت جبهة قول كل

خطيب ، وبطل اللجّاج بين طلاب الانقاذ في بقاء الأسرة او زوالها ،
وتمهدت السبل لدعوة الجنوب فوجد سن ياتسن أسماعاً صاغية لرسالته
الكبرى ، ولم تمض على هذه الحوادث عشر سنين حتى ذهب آخر عرش لأبناء
السماء .

المعتقدات والعادات

على أثر الفتنة التي قام بها الملاكمون - خاصة - راجت في الغرب تهمة التعصب الديني وتذرع بها الساسة لتسويغ حملات التنكيل والانتقام التي كان أولئك الساسة يشفقون من سريان أخبارها بين الأمم الغربية ويضطرون إلى إثارة الشعور لمدارة أهوالها وفظائعها . فقد كانت أخبار حرب الأفيون تقابل في الغرب بالنفور والاشمئزاز وتصور النزاع بين الدول والصين في صورة نزاع بين أمة تحمي نفسها من آفة خبيثة وطائفة من التجار الجشعين يكرهونها على فتح أبوابها لتلك الآفة ولا يباليون بالربح الحرام من أي مصدر تلقفوه ، ثم يجدون من ورائهم جيوشاً وأساطيل تخضع الأمة المغلوبة لمآرب أولئك التجار .

فلما تكررت الثورات والمنازعات ألقى المستعمرون أنفسهم في حرج شديد مع أقوامهم ، وراحوا يبحثون في حجة تسترهم وتسوغ حملاتهم فلم تسعفهم حجة في ذلك الوقت غير حجة التعصب الديني وساعدهم على اشاعة هذه الحجة أن الملاكمين ينتحلون المصطلحات الدينية وإن المصابين من الأجانب كان معظمهم من المرسلين والمبشرين .

إلا أن العارفين بالصين كانوا يستغربون هذه الدعوى ولا يخفى عليهم ما وراءها من التضليل والافتراء . لأن التعصب الديني الذي يغري صاحبه باستباحة دماء المخالفين شنشنة لم تعرف عن أهل الصين ولم يحدث قط في تاريخهم اضطهاد لأصحاب دين من الأديان إلا لباعث من بواعث السياسة ، إذ كان القوم يدينون بعبادة الأسلاف وليس من دأب الإنسان أن ينزع أحداً في أسلافه أو يجبر أحداً على مشاركته فيهم ، وكل عقيدة غير عقيدتهم في أرواح

الآباء والأجداد وفي أرواح الآلهة البيتية عامة فهي من قبيل آداب السلوك التي يعاب من يهملها كما يعاب من يهمل أصول التهذيب والمروءة في الأمم الأخرى ، ولا يتعدى الأمر ذلك إلى القتل والاضطهاد .

ومن الدلائل البارزة على هذا الخلق في أهل الصين عامة أن زعيمهم الأكبر سن ياتسن كان يدين بالمسيحية ، ومثله تلميذه الكبير شيان كاي شيك الذي خلفه زمنًا على قيادة الأمة . وما كان لأهل الصين أن ينظروا الى الزعيمين بغير نظرة الاحتقار الذي يتعرض له الصابثون المرتدون عن دين آبائهم لو كان التدين عند الصينيين على مثال التدين عند الأمم الأخرى . انما الدين عند القوم آداب سلوك قبل كل شيء ، وقوامه الأول توقير ارواح الأسلاف وأرواح الأرباب الموكلة بأمر البيت ، فكل بيت فيه معبده ، وكل قبيلة فيها هيكلها ، ولكل ان يوقر أسلافه ولا ضير في ذلك على غيره ، فلا موضع بينهم للعداوة والشحناء من أجل العبادة والمعبودات .

ولا يفهم الصيني من إيمانه بالمسيحية او البوذية أو الإسلام انه مرق من دين آبائه وأجداده ، فإنه ليحافظ على قداستهم بعد إيمانه بتلك الأديان ولا مانع عنده من التردد على هياكلهم والصلاة أمام أضرحتهم في المواسم العامة أو الخاصة ، ولهذا ذهب سن ياتسن الى ضريح أسرة « منج » ليؤدي صلاة الشكر ويؤكد عهد الولاء بين يديه ، وهكذا كان يفعل الصينيون الذين دانوا بالمسيحية على أيدي المرسلين اليسوعيين في القرن الثامن عشر ، فقد رخص لهم أولئك المرسلون في أداء فرائضهم البيتية وفي تسمية الله باسم السماء باللغة الصينية ، ولبثوا على ذلك حتى نمي إلى كنيسة روما أن القساوسة يقبلون شعائر الوثنية فحرمت عليهم قبولها في كنائسهم ومحافلهم ، ولكن المسيحيين الصينيين لم يتحولوا عن دينهم ولم يزل منهم من يرتضي الدين الجديد على أنه طريق من طرق شتى الى الصلاح والاستقامة ، وشعارهم في هذا شعار البدوي الذي قال :

خذا بطن هرشى أوقفها فإنمــــا كلاجاني هرشى لهن طريقــــ

كان هذا شأنهم في كل زمن ، وكان هذا شأنهم يوم رحل ابن بطوطة الى بلادهم وروى ما روى عن كاهن منهم أو ساحر « يذكر النبي صلى الله عليه وسلم ويقول لو كنت معه لنصرته ، ويذكر الخليفتين عمر بن الخطاب وعلي ابن أبي طالب أحسن الذكر ، ويجاري الشيعة في كلامهم عن معاوية ويزيد » .

وكان هذا شأنهم كما تحدث عنهم الرحالون الغربيون في أواسط القرن التاسع عشر (هوك جاليت من سنة ١٨٤٤ الى سنة ١٨٤٦ Huc Galet) فإنهم عرضوا المسيحية على أناس من كهان التبت فاستحسنوها وقالوا إنهم لا يخرجون من اعتقادها واعتقاد البوذية ، وكل ما يوصينا بالخير فهو خير .

فيؤمن الصينيون بالإنسان الأول (بان كو) وأنه هو الذي فرق السماء والأرض أول مرة ، وقدر للسماء أن تعلو كل يوم عشرة أقدام ، وللأرض أن تكشف كل يوم عشرة أقدام ، وأن تطول قامته هو كل يوم عشرة أقدام ، فلما انقضت عليه ثمانية عشر ألف سنة أصبحت السماء بهذا الارتفاع وأصبحت الأرض بهذه الكثافة ، وسالت الدموع من عيني (بان كو) فجرى النهران الكبيران في الصين ، وتنفس فانطلق الهواء ، وتكلم فقصف الرعد ، ولمح بعينه فومض البرق ، ومات فاستحالت عظامه جبالا واستحالت عيناه شمساً وقمرأ واستحال شعره نباتاً ، وسال شحمه فزخرت منه البحار وفاضت سائر الأنهار .

وإيمانهم بالسماء (تيين) هو في الواقع إيمان بإنسان عظيم ، لعله عندهم سلف الأسلاف أجمعين ، فهم يكتبون اسمها في صورة رجل يشير بيديه الى الأعلى ، ويذكرونها أحياناً باسم الإله الرفيع ، ولم ينسبوا اليها خلق الدنيا في عقائدهم القديمة ، بل تدرجوا في نسبة الخلق اليها حتى ثبتت هذه العقيدة بعد دخول الأديان الكتابية الى الصين .

والقوم عمليون ارضيون في شعائرههم الدينية قلما يتعمقون بها او يحلقون في الآفاق العلوية ، فلآله الأرض « شي » أولى عندهم بالقرابين لأنها

تعطي الثمرات وتنطوي فيها الأجساد بعد الممات ، ولها في كل قرية أكمة من التراب ترمز اليها ويتجه اليها الزراع بالقربان والدعاء ، ورمزهم القومي التنين هو الوسيط بين الأرض والسما لا استدرار المطر أيام القحط والجفاف .

أما السماء فصورتها في أخلادهم صورة « السلطة » الحاكمة التي تجري المقادير وتهدي الحاكمين الى الصراط المستقيم ، ولا يعلم مشيئتها أحد غير ذوي الدراية والنجامة ، ومن وسائلهم قراءة الغيب المسطور على جلد السلحفاة أو تأمل الظوايح على السوق والأوراق في بعض الأعشاب .

وأقوى عباداتهم كما تقدم هي عبادة الأسلاف ، وهذه الناحية مهمة جداً في فهم شعور الصيني نحو وطنه ، فهو لا يحسب نفسه فرداً في أمة عددها اربعمائة مليون يعيشون اليوم ، بل هو فرد من ملايين لا تحصى منذ القدم ، لها حق كحق الأحياء في حاضر الأمة ، وتضاف اليها قداسة العبادة بعد الموت ، فيمتزج الحاضر والغابر عمراً واحداً للأمة بأسرها ، ولا يزال الحديث جزءاً يضاف كل عصر الى القديم ، فلا يخطر على البال ان القديم متروك من أجل هذا ، بل هو الذخيرة الباقية التي ترجع اليها خير الذخائر في الزمن الحديث .

ومن هنا يبلغ تقديس الآباء عندهم حداً لا يعرف له نظير في أمة اخرى . ومن دلائل البر بالآباء في ديانتهم أن يقذف الابن بنفسه من أعلى الأكمة المقدسة فدية لأبيه إذا مرض هذا وتعذر شفاؤه ، كأن القدر يتقاضاهم روحاً فيهب الابن روحه بدلا من روح أبيه .

وهم يرجعون بكل خير وكل حالة حميدة الى الماضي البعيد ، فالعصر الذهبي في عرفهم هو عصر الآباء الأولين ، الذين كانوا يعمرون الدنيا في زمن يسوده الناموس الأعظم ، فكل ما فيه عدل وحق مستقيم على سنته سواء بغير إفراط ولا تفريط ، فمما ينسب الى الحكيم الأكبر كنفشيوس في الكتاب المعروف باسم « لي يون » أي أطوار الخير أنه قال : « لم أر قط عهد تطبيق الناموس فعلا أيام الأسر الثلاث ، وإن حسبت أنني أفهم كيف كان . فيوم

جرى الناموس مجراه كان كل شيء ملكاً للجميع ، وكان التقديم لذوي الكفاية والفضل والمقدرة ، وكان صدق النية سجية وآداب الصداقة مرعية ، ولم يكن أحد يخص بالمحبة آباءه دون غيرهم أو يخص بالحنان أبناءه دون سائر الأبناء ، وكان الرزق مضموناً للشيخ الفاني حتى الممات ، والعمل مضموناً للقدار عليه وتكاليف التربية مضمونة للناشئين ، وكان الأرامل واليتامى والشيخ العقماء والعجزة المقعدون موضع العطف حيث كانوا فلا يعوزهم المأوى ولا المؤنة ، وكانوا يأبون على أنفسهم ان يتركوا خيرات الطبيعة مهمة غير مثمرة ، ولكنهم كانوا كذلك يكرهون تكديس المال وحبسه على أنفسهم ، ولم يكن ثقيلًا على طبائعهم أن يعملوا ويكدحوا ولكنهم لا يعملون ولا يكدحون ليستأثروا وحدهم بخيراتهم ، وبهذا يقضى على الكيد والدسيسة ويمتنع ظهور اللصوص والمحتالين وذوي التمرد والخيانة ، وتفتح الأبواب بغير حجاب .

هذه صورة العصر الذهبي في عهد الناموس كما تصوره الحكيم الأكبر ، وما هنا عبرة للباحثين في أطوار الشعوب ليستندوا الى عاداتها وأمزجتها فيما تقبله وما ترفضه وفيما يكون بينها وما لا يكون .

فمن هؤلاء الباحثين من كان يحسب ان الامة التي تقدس القديم هذا التقديس وتعظم شأن الأسرة هذا التعظيم محصنة كل التحصين من دعوة المذاهب الاجتماعية المتطرفة ومن كل دعوة تهدم القديم وتنبذ المأثور . . . فإذا بالامة الصينية تهدم القديم باسم القديم ، وتنكر ما هي فيه إيثاراً للعصر الذهبي الذي تريد أن ترجع اليه كما وصفه الأسلاف ، فمن الباب الذي ظنه الباحثون موصداً على دعوات التغيير والتبديل كان دخول هذه الدعوات باسم الناموس الخالد الذي لا يقبل التغيير والتبديل ! وهكذا تحتال الحوادث حيلتها وتلمس اطوار التاريخ مناهجها ، فيأتي الطارق من جانب الحصن الحصين وهو آمن ما يكون عند الذين يقدرّون للأُمم مصائرهما ، فتضحك الأقدار .

وقد اخترنا هنا كلمة الناموس لكلمة « الطاو » الصينية التي يترجمها بعضهم باسم الطريق ، وهي في الواقع كلمة لا تفي بمعناها المصطلح عليه

كلمة الطريق ولا كلمة الناموس . إذ هي أعم من ذلك بكثير ، لأنها تشمل معنى العناية ومعنى القدر ومعنى المعيار الذي يعطي كل شيء حقه ويرد كل شيء الى نصابه طبعاً وأصالة في أحوال الناس وأحوال الطبيعة وأحوال الغيب المجهول ، فكلمة الناموس أقرب الى هذا المعنى من كلمة الطريق .

والناموس هذا هو موئل كل عقيدة دينية وكل أدب من آداب السلوك ، وهي كما قدمنا لباب الدين كله عند حكماء الصين ، بحيث يصح ان يقال ان السماء نفسها تلتزم آداب السلوك في تصريف المقادير .

والمثل الأعلى للحكيم المهدب ان يوفق بين اخلاقه وأفكاره وبين هذا الناموس الشامل الكامل ، وآية هذا التوفيق المعيشة السواء بغير جماح ولا إحجام ، او المعيشة التي تتزن وتعتدل فلا إفراط فيها ولا تفريط ، ويكاد حب الاتزان والاعتدال ان يفتنهم فتنة لا اعتدال فيها ، ومن فتنته أنهم يسمون الصين كلها المملكة الوسطى (شن كو) ويزعمونها في موضع القسطاس من العالم تمنع جوانبه ان تميل ١ .

ومن عباراتهم السائغة عبارة « المدارس » المائة التي يشيرون بها الى اختلاف مذاهب الحكماء المقتدى بهم في العلم والأدب ، ويريدون بها التحلل من قيود الحجر حيث يستنكر المستنكرون بعض المذاهب ليحصروا الفضل كله في سواه .

والواقع أن غايات هذه المذاهب غاية واحدة ، وهي حكمة الاتزان .

وإنما الخلاف كله في التمهيد والتفصيل . فمنهم من يطلب الاتزان بالكف عن الطلب ، ومنهم من يطلبه بالمعادلة بين المطالب ، ومن حكمائهم المتشائم المعرض عن الدنيا ومساعيها ، ومنهم المتفائل المقبل عليها ، وقد كان كنفشيوس نفسه يغني ويحب الغناء ويعتبر الموسيقى من دروس الأخلاق النافعة للعلية والسواد .

ومن حكمائهم من يقول بتغليب الشر على طبيعة الإنسان ، ومنهم من يقول بتغليب الخير عليها .

وبعضهم يقول إن الإنسان يطلب الخير لأنه محروم منه شاعر بما ينطوي عليه من الشرور ، ويرد عليه معارضوه متسائلين : كيف يخطر طلب الخير في قلب شرير ؟ فيجيب أنصار هذا المذهب بأن طالب الخير إنما يطلبه مضطراً غير مختار ، لأن الشر حالة لا يستقر عليها القرار ، ومن تصادم الشرور يشل بعضها بعضاً فيأتي الخير بغير تدبير .

وما من عجب ان تتعدد المذاهب في أمة مضى على حكمائها ألوف السنين وهم يتدارسون الأخلاق والآداب بين عهود تتعاقب وأحوال تتباين وأقاليم تتباعد المسافات بينها بآلاف الأميال ، ولكن العجب حقاً أن تصطبغ هذه المذاهب بصبغة واحدة لا تخفى على من يلمحها لأول نظرة ، وصدق من قال إن أفكار الصين كمصايبها تختلف ما تختلف بالألوان والأشكال ، ولكنها تجمل طابعاً واحداً من وراء جميع الألوان والأشكال .

وقد دخلت الصين مذاهب من بلاد قريبة أو بعيدة ، فلم تلبث ان اصطبغت بهذه الصبغة وخالفت ما كانت عليه في بلادها الأولى . دخلتها البوذية من الهند فنقلت إليها فكرة الروح الباقية ، ولكنها فهمت هذه الروح كما كانت تفهم ارواح الأسلاف غير مقترنة بحالة النعيم أو حالة العذاب ، واستباح البوذي الصيني أكل الحيوان ومتاع الحريم ، ومن شذ عن هذه الإباحة كان بدعة في شذوذه مخالفاً فيه لأشد المتنطسين من أصحاب المذهب الأصيل ، فكان عميد أسرة ليانج في القرن السادس يجاوز تحريم ذبح الحيوان الى تحريم تصويره على الحرير، لأنه يتعرض للقص والتقطيع ولم تحل هذه الغيرة على الحياة عند هذا البوذي العجيب دون قتل الألوف من جنده وجند أعدائه في حروب الفتح وغارات الانتقام . . . وأعجب ما فيه أنه كان من القادة الأشداء الصلاب ولم يكن حالماً ولا قانعاً كما يسبق الى الخاطر من تورعه عن المساس بالحيوان حتى في الرسوم .

والذي حدث للبوذية من التطور في عقول الصينيين حدث للمسيحية في اليهود الأربعة التي دخلت فيها الى الصين ، وقد دخلتها أربع مرات : مرة مع

النسطوريين بين القرن السادس والقرن السابع ، ومرة مع رهبان القديس فرنسيس (الفرنسييسكان) في القرن الثالث عشر ، ومرة مع اليسوعيين في القرن السادس عشر ، ومرة مع الإنجيليين في القرن التاسع عشر ، ولهذا يقل عدد المسيحيين الإنجيليين من أهل الصين عن عدد الكاثوليك ، فهم أقل من ربع المسيحيين ، وعددهم اليوم جميعاً يزيد على أربعة ملايين .

وقد حظي النسطوريون عند أبناء السماء وتقربوا إليهم بعلوماتهم الرياضية والطبية ، ونقشوا صورهم على جدران الكنائس ، وظل الشعب يسمي هذه الكنائس بالمعابد الفارسية ، لأن النسطوريين قدموا الى الصين من بلاد فارس ، ثم أصبحوا بجور السياسة في أيام الملوك الذين كانوا يتوجسون من الأجانب ، ولكنهم عكفوا على معابدهم وحافظوا عليها الى القرن الثالث عشر ، اذ قدم الرحالة ماركو بولو الى الصين فوجد لهم معابد على طول الطريق من بغداد الى بكين .

ولم يكن لرهبان القديس فرنسيس مثل هذه الخطوة لأنهم دخلوا الصين في إبان القلاقل على حدودها الغربية .

أما صاحب الأثر الأكبر في نشر المسيحية بين القوم فهو الأب اليسوعي مانيو ريتشي الذي سبر غورهم وتآلفهم باتخاذ عاداتهم في ملابسهم ومآكلهم ، وتسمى باسم صيني فعرف بعد ذلك باسم « لي هسي ثاي » ثم حذق اللغة الصينية وترجم إليها دروس الجغرافية والفلك والرياضة ، ومهد الطريق لتلاميذه فندب بعضهم لوظيفة الفلكي الإمبراطوري وخصص له مكان من قصر ابن السماء ، وكان يتسمح مع القوم فيثني على حكمة كنفشيوس ويأذن لهم في تكريم أسلافهم متدرجاً بهم من عبادة أرواحهم الى ذكرهم بالترحم والتحميد ، وقبل منهم ان يطلقوا اسم السماء على الإله ، ولم يدعهم قط الى المسيحية على اعتبارها ديانة أشرف وأصدق من ديانتهم ، ولكنه جمع بين الأيسر والأقوم من الديانتين ، فلم ينفروا من الإصغاء اليه .

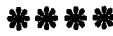
واتبعه أناس من تلاميذه على سنته ولكن بغير مقدرته وسماحته ، حتى وقع الخلاف بين هؤلاء التلاميذ وبين الآباء البيض (الدومينيكان) على مسائل

التوفيق بين الديانة الصينية والديانة المسيحية ونمي الخبر الى كنيسة رومية (سنة ١٧٠٤) فانفذت احد وكلائها - الأب تورنون - الى بكين لتصحيح الموقف وأشفق هذا عند وصوله الى العاصمة من مجابهة القوم برسائله فتردد في تبليغها ثلاث سنوات ثم اضطر الى اعلانها وانداز من يخالفها بالحرمان إن لم يبرح البلاد الصينية وينفض يده من أعمال كنائسها .

وغضب ابن السماء من إعلان هذا الأمر في بلاده ، واستكبر أن يسيطر أحد بالأمر والنهي على رعاياه ، فاعتقل القائمين بمعارضة القساوسة الموفقين وأصدر أمراً آخر ينذر فيه كل من يسمع الى المعارضين بالنفي من البلاد .

ولما قدم المبشرون الإنجيليون لأول مرة في اوائل القرن التاسع عشر (١٨٠٧) كان معظم مقامهم في الموانئ والمناطق التجارية المباحة ، وأعقب مقدمهم ظهور طائفة مسيحية وطنية يدعي صاحبها أنه الأخ الأصغر للسيد المسيح ويبشر بعقيدة وسطى بين عقائد أهل الصين وعقيدة الإنجيليين ، وأوشك هذا الرجل - واسمه هونج - ان يسقط ابن السماء من عرشه ، إذ كان قد استولى على نانكين ونادى بنفسه ملكاً سماوياً على الصين بأسرها ، ولكنه أخفق بعد نجاحه عشر سنوات لأنه خسر المسيحيين والوطنيين وأنصار الأسرة المالكة وأعداءها بخطته في التوفيق الذي ينكره كل فريق ، ولم تمت ثورته مع هذا كل الموت بل كانت بمثابة « المسودة » الأولى للثورة المنتظرة ، فنشأ أبناء الشطر الأخير من القرن التاسع عشر وهم يتذكرون حركته ويفكرون في أسباب نجاحه وأسباب إخفاقه ، وفي طليعتهم سن ياتسن زعيم الثورة التالية التي كتب لها النجاح بعد هذه التجارب والتمهيدات .

واتسعت اعمال المرسلين الإنجيليين خلال هذه المرحلة ، بعد السماح للأجانب بالتنقل في داخل البلاد . ثم صادف هذا التوسع اقبالاً من الناشئة على العلم الحديث وثقة بفضل الثقافة العصرية فتسابقوا الى مدارس المرسلين ولم يتردد بعضهم في قبول الشعائر والعبادات التي فرضتها هذه المدارس على طلابها ٧٠ سيما المدارس العليا التي لم يكن لها في ذلك الوقت نظير من



والإسلام هو أكثر الديانات أتباعاً في الصين بعد الديانة الوطنية ، ويتراوح تقدير المسلمين بين عشرين مليوناً وخمسة وخمسين مليوناً أو أكثر من ذلك في تقدير بعض الرحالة المسلمين ، ومعظمهم من سكان الأقاليم الغربية ، ويسمهم الصينيون هوي هوي ، إما من كلمة هو بمعنى الغرب أو من كلمة هوي بمعنى الالتفات والاستدارة ، لأنهم يستقبلون الغرب في الصلوات .

وقد اتصل خبر الفتوح الإسلامية بملوك أسرة تانج من جيرانهم أمراء الفرس الذين لاذوا بعرش ابن السماء يستنجدونه على جيوش العرب ، ووجدت في سجلات الأسرة صحيفة تذكر بلاد العرب ونشأة الإسلام وتقول عن الجزيرة العربية (تاه شيه) إنها كانت ولاية فارسية وإن رجلاً منها تلقى وعداً من السماء بملك العالم والانتصار على كل من يحاربه . ولم يستجب العاهل (تاي تسنج) رجاء الأمراء الفارسيين على كل حال ، سواء لاثقائه الاشتباك في حرب مع الجنود الموعودين بالنصر أو لقلّة الجدوى من تلك الحرب على أطراف الدولة النائية ، ثم تقدم العرب في آسيا بقيادة قتيبة ووصل رسل الخليفة الوليد إلى العاصمة الصينية ، فرضي ابن السماء لأول مرة أن يعني هؤلاء الرسل من قواعد (الكوتو) أو البروتوكول الصيني الذي يقضي بسجود كل داخل إلى ساحة العرش ثلاث مرات قبل الوقوف في حضرة ابن السماء . لأن أولئك الرسل هموا بالعودة من حيث اتوا وقالوا إن دينهم ينهاهم أن يسجدوا لأحد غير الله ، وبقيت للدولة الإسلامية هذه السمعة المرهوبة إلى الجيل التالي ؛ فأرسل العاهل (شي تيه) يستعدي أبا جعفر المنصور على الثائر لوشان ثم سمح للجيش العربي الذي هزم ذلك الثائر الخطر بالمقام في الأرض الصينية ، فمن ذرية هذا الجيش جلة المسلمين الصينيين ، ثم لحق بهم طوائف من المسلمين رجعوا مع ملوك التتار بعد غارات جنكيز خان وأتباعه ، فاستحبوا المقام وتزاجوا وتناسلوا حيث أقاموا ، ولم يزالوا محافظين

على عاداتهم من تحريم الخمر ولحم الخنزير والمعاملة بالربا ، واقتبسوا من العادات الوطنية غير قليل ، ومنها المغالاة بتعظيم الأسلاف ، لأن هذه العادة لم تكن غريبة عن طباع العرب او أبناء القبائل البادية التي تألف منها جيش المسلمين في ذلك الحين .

فتاريخ الإسلام في الصين يخالف تاريخ البوذية وتاريخ المسيحية ، لأنه تاريخ سلالة اسلامية انتقلت بعقيدتها من تخوم البلاد الخارجية ، ولم يكن للتبشير عمل في نشر عقيدتهم ، إلا ما كان من تحول الزوجات والجيران المقتدين بجيرانهم . ومما لاحظته المؤرخون على المسلمين الصينيين انهم لم يحفلوا بنشر الدعوة الدينية حولهم ، وان شهرتهم العسكرية كفت عنهم عدوان القبائل التي تحيط بهم ، وأنها في كثير من الأحيان كانت تغري أبناء السماء باستخدامهم في جيوشهم ، فكان منهم قادة مشهورون الى أيام أسرة منج الوطنية ، وكان أشهر قادتها (شنج هو) يسمى بالحاج ويقود الحملات البحرية كما يقود الحملات البرية ، واشتملت احدى حملاته (سنة ١٤٠٥) على نيف وستين سفينة عليها من المقاتلين نحو ثلاثين ألفاً من أبناء الملل المختلفة .

وتعتبر الثورات الإسلامية نذير الخطر في تاريخ الصين الحديثة خلال القرن التاسع عشر على الخصوص . فقد تعددت ثورات المسلمين منذ أول ذلك القرن فكانت علامة على سوء الحال واليأس من صلاح الأمور ، وبلغت ثورتهم الكبرى اشدّها بأقاليم شنسى وكانصوه سنة ١٨٤٧ ، فلم تمض ثلاث سنوات حتى أعقبتها الثورة المعروفة باسم التايينج أي دعوة السلام السماوية ، واحتدمت نيران هذه الثورة أكثر من عشر سنين ، ثم تلاحت الثورات بعد ذلك من الشمال والجنوب ، ولم تنحسم ثورة المسلمين الجنوبية بإقليم يونان إلا بعد إخماد ثورة التايينج بسبع سنوات .



هذه لمحة عابرة الى أحوال التدين في الأمة الصينية ، مدارها على بيان

الصبغة التي تصطبغ بها الملكات العامة في تلك الأمة العريقة ، ونعني بالملكات العامة ما كان من قبيل الشعور الوطني أو الشعور العنصري أو الشعور الديني أو ضروب الشعور التي تشترك فيها الأمم والطوائف الكبيرة ، ومن هذه اللمحة العابرة نرى ان الشعور الديني - على كونه في الصين قوة غير مهملة - لم يكن محور الأطوار الكبرى في سياستها وتقلب الدول فيها ، ويندر في تازيخ الصين أن يضطهد قوم لعقيدتهم الدينية دون سبب آخر يجعل لهم صفة سياسية أو اجتماعية خاصة ولو في وقت من الأوقات . ومن هذا القبيل اضطهاد كهان «التيت» لمخالفهم حين جمعوا في أيديهم سلطة الكهانة وسلطة الحكم واحتكار تجارة الشاي ، فكانت اغراضهم السياسية والتجارية سبب هذا الاضطهاد ومن هذا القبيل أيضاً أن بعض الأسر اضطهدت البوذيين لأنها نظرت اليهم نظرها الى الاجانب المماليك للدول الأخرى ، أو اضطهاد أتباع كنغشوس لأن دعوتهم الثقافية كانت تحجب الى الشعب نوعاً من الحكومة غير الحكومة القائمة .

ولما ثار المسلمون غير مرة كان السبب الغالب سوء الحال وأنهم بطبيعتهم أقل خضوعاً للحكومة الظالمة من عامة أهل الصين ، وتأتي الأسباب الدينية عارضة مع هذا السبب الغالب ، ولهذا كانت ثوراتهم تعقبها ثورات أخرى من أهل الصين الذين يدينون بغير الإسلام ، ويسخطون على حكوماتهم لغير البواعث الدينية .

وليس جنكيز خان وأولاده مثلاً صادقاً للذهن المغولي كما ارتقت به الحضارة الصينية العريقة ، ولكنهم مثل صادق لهذا الذهن في النظرة التي تنظر بها الى الأديان المتعددة . فقد كانت شريعة جنكيز خان تفتتح بنص يسوي بين خدام الأديان جميعاً ويعفيهم جميعاً من الضرائب بغير تفرقة بين كهنة البوذيين وقساوسة المسيحيين وشيوخ المسلمين ، وجرى حديث بين الراهب فرا ربروكيز Rubruquis ومانجو خان حفيد جنكيز خان فقال مانجو : إن الله جعل في اليد خمس أصابع وجعل للإنسان مذاهب شتى . اعطاكم الكتاب

وأنتم لا تعملون به ، فهل في كتابكم أن يذم بعضكم بعضاً ويقدم أحدكم في أخيه ؟ .

قال الراهب : كلا . وقد ذكرت لسموكم أنفاً أنني لم آت لأخاصم أحداً أو أدخل في مساجلة مع أحد .

قال الأمير : لست أعنيك . ولكنني أقول هذا وأقول أيضاً إن كتابكم ينهى الإنسان أن يحيد عن العدل طلباً للمنفعة .

قال الأب : إنني لا أطلب مالا ، وقد أبيت أن آخذ شيئاً مما أعطيت . . . وشهد كاتب من كتاب الأمير كان حاضراً بأنني رددت قضياً من الفضة وثوباً من الحرير .

فعاد الخان يقول : ليس كلامي عنك ، ولكنني أتكلم عن أناس يتلون الكتاب ويخالفونه . ونحن اعطينا الكهان والسحرة ولا نخالف ما يوحى إليهم .

ومن طريف ما يروى أن هذا الراهب كان يتحدث إلى رجل من حاشية الخان فقال له : هذه إرادة السماء ، فقال خادم الأمير : وهل صعدت إلى السماء ؟ وكان يظن أن المتحدث عن السماء ينبغي أن يتصل بها كاتصال كهانهم وسحرتهم ، ولا حجاب دون السماء .



أما عادات أهل الصين وأخلاقهم فيما عدا هذه العاطفة العامة - عاطفة الدين - فالتخصيص فيها يتطلب كثيراً من الأناة .

إذ يقال في بعض الأحوال عن خلق نادر أو شائع أنه من أخلاق أهل الصين فإذا هو من الأخلاق الإنسانية التي تتماثل في جميع الأمم ، ويجب أن نوطن النفس على تكرار جميع الأخلاق الإنسانية في أمة بلغت أول القرن العشرين أكثر من أربعمئة مليون ، وبلغت في القرون الغابرة عشرات الملايين حين كانت أكبر الأمم لا تزيد على بضعة ملايين . فمن المتعذر جداً

أن يوجد خلق انساني لا يظهر في هذه الأمة ولا يتكرر فيها ، وكل خلق يسبق الى الذهن أنه خاص بها لا يلبث بعد البحث ان تظهر له مشابهات كثيرة في غيرها .

انما تخصص في هذه الأمة وامثالها عادات الاجتماع دون عادات الطباع .

ففيها مثلاً عادة حبس قدمي البنت منذ الطفولة البكرة ، وعادة الإزراء بالجندي على خلاف المعهود في الأمم القديمة ، وعادة التخاطب بالعبارات المصطلح عليها مما يشبه القوالب المحفوظة .

وهذه وما شابهها جميعاً ترجع الى أحوال المجتمع الصيني التي يجوز أن يتخصص فيها بموافقات لا تعم سائر المجتمعات .

فالأمة التي تصبح فيها مسائل السلوك ديناً مرعياً لا نعجب فيها من المغالاة بالأناقة ودلالات الترف والدلال ، ومنها اناقة المرأة وتلطيف جوارحها وأعضائها ، فإذا ثبت فيها المجتمع على ديدن المحافظة آلاف السنين فيكفي فيها أن تظهر البدعة جيلاً واحداً حتى تتوارثها منه الأجيال أعقاباً بعد أعقاب .

أما عادة الإزراء بالجندي فلها جملة أسباب خاصة بالصين في تاريخها القديم : منها أن أهل الصين لم يشهدوا من الجندي إلا جانبها الذي يغري بالإزراء والجفاء . إذ كانت صناعة الجندي صناعة المرتزقة في الحروب الأهلية ، يعمل فريق على قتل فريق من أبناء الوطن الواحد ، وقلما عملوا في دفع الغارات الأجنبية التي من أجلها عظم الناس الجندي وهو يواجه الموت في الدود عن قومه ووطنه ، ولهذا تواتر عندهم المثل القائل ان الحديد الجيد لا يصنع منه مسمار والإنسانية الجيدة لا يصنع منها جندي ، ولا يقصدون بذلك الا طائفة الجند الذين لا مرتزق لهم من صناعة ولا دراية الا أن يبيعوا أنفسهم لكل من يعطيهم رزقاً في سبيل أطماعه وأهوائه .

ومن أسباب هوان الجندي عندهم ان عهد الإقطاع كان قائماً على القادة

في كل اقليم ، فلما قضي على هذا العهد جعلوا الولاية فنا يتولاه
الأصلح بالامتحان ، وساعدهم على ذلك تقديس الحكمة في صورة الأبوة ،
فأصبحت الطاعة للحكيم الخبير عادة غير مستغربة بعد الطاعة للآباء المجربين
والأجداد المقدسين . وقد عانى زعمائهم المعاصرون اشد العناء في تشجيع
شبانهم على الأعمال العسكرية التي ساءت ظنونهم بها عشرات الأجيال ، فلم
يقبلوا عليها إلا بعد ضربات الهزيمة المتوالية، وبعد أن علمتهم هذه الضربات
أن الهوان لاحق بهم بين شعوب العالم ، ومنها الشعوب التي كانوا يحتقرونها
ويفرعون عنها ، ما لم يقوموا هذه القيم من جديد .

ولصقت بأهل الصين عادة التخاطب بالعبارات المصطلح عليها ، لأن
الكتابة عندهم هي في الواقع قوالب منقوشة تتكرر بدلا من الحروف في
الكتابات، الأخرى ، ولأنهم أهل مراسم وأنظمة موروثية يحفظها أصحاب
القصور ، ويقتدي بهم الخاصة فمن دونهم الى العامة ودهماء السوق ،
والناس على دين ملوكهم ، ولا سيما الملوك أبناء السماء .

ومن عاداتهم العقلية حب المقابلة والتناسق في التفكير ، يملكهم النسق
حتى يذهلهم عما وراءه من النقائص الخفية ، ولم يفلح في مخاطبتهم من لم
يفطن الى هذه العادة العقلية فيهم ، وبخاصة وعاظ الأديان .

قال الأب ليكونت (Le comte) في كتابه ذكريات السياحة عشر سنين في
الصين : « إنهم على الخصوص يؤخذون جداً بالمقارنات والحكايات ذات
المغزى والمرويات التاريخية ، وهم على كونهم لم يألوا تلك السورة أو تلك
الحمية التي نالها في وعاظنا ، تراهم تجيش نفوسهم حين يخاطبون بلهجة
الجد والاكتراث » .

وهذا أيضاً أثر من آثار الحكمة الطويلة التي تلخصها كلمة « الاتزان »
وأثر من آثار الحوادث التي عودتهم ان يترثوا ولا يندفعوا ، وأثر من آثار الولع
بالرسم والتنسيق في الكتابة والتصوير والنسيج والشعائر والمجاملات .



لوحظ في بيئات الحجاب والصيانة المفرطة ان الفتاة اذا زلت في هذه البيئات خرجت من كل عنان ، لأن المنزلة الوسطى بين الحجاب الشديد وبين الجماع المطلق غير موجودة .

ويصح أن يلاحظ مثل هذا في ثورات الأمم التي رخصت على الاتزان والنسق المطرد ، فإنها إذا ثارت ثارت بعد بطلان كل حيلة ، فليس أصعب من إثارتها إلا أن تكبح ثورتها حين تخرج عن عقالها .

مذاهب السياسة

من الطبيعي أن تكثر مذاهب المفكرين في الحكم وآداب السياسة بين الأمة الصينية . لأنها قديمة العهد بالحكومة ، قديمة العهد بالأساتذة والمفكرين حتى أوشك هؤلاء أن يكونوا طبقة كبيرة تقابل طبقة الولاة الإقطاعيين في سائر الأمم . وقد كثرت فعلا هذه المذاهب حتى اجتمع منها النقيضان في وقت واحد .

فكان من فلاسفتهم أتباع الطريق أو الناموس من ينكر ضرورة الحكم ، ويقول إن القانون يخلق المجرم ، وإن الخلاص من واضعي الشرائع أول واجب على الناس ، فإذا لم تكن شريعة لم يكن مجرمون ، ويتعلم الناس مع الزمن أن اقتناء الأموال مجلبة للنزاع والخصومة والإجرام فلا يقتني أحدهم ما ليس في حاجة إليه .

ويقابل هذا المذهب مذهب الفلاسفة المعروفين بالشرائعيين ، وخلاصته أن الشريعة ضرورة لا غنى عنها ، وإن صلح الحاكم وحسنت نيته ، لأن لحاكم ينبغي أن يتقيد أمام الناس بقوانينه ، وألا يحكم بشخصه بل بالأحكام الموضوعية للراعي والرعية .

وبين المدرستين مدرسة ثالثة لا تنكر التشريع أصلا ولا تستلزمه أصلا . بل تقول إن مهمة المجتمع الكبرى هي تربية أبنائه حتى يجيء لئلازاع من أنفسهم لا من الأوامر والزواجر ، فإن هذه الأوامر والزواجر تعلم الناس كيف يحتالون عليها فيقع في الشرك من هو قليل الحيلة ويفلت منه من هو أقدر على الاحتيال وأحق بالعقاب .

وكان حكيم الصين الأكبر كنفشيوس على رأس القائلين بإسناد الحكم إلى الحكماء .

ولكنه على جلالة قدره وجد من الحكماء أنفسهم من يفند رأيه ويبطل حق الحكيم خاصة في ولاية الأمور ، وعلى رأس هؤلاء شانج شن Shangchun الذي يقول : « إن إلحاكم اذا اختار العقلاء وذوي الدراية لمنصب الدولة فمن دأب هؤلاء أن يستخدموا عقولهم ودرايتهم في موافقته طلباً لمرضاته وحذراً من سخطه ، ويفضي الأمر الى خلل الحكم وشيوع الفوضى »

ويرد على هؤلاء من يرى أن توضع الشروط أولاً للوظيفة والموظف ، وأنه على فرض الخطأ في الشروط فإن الشروط التي تخطيء خير من إغفال الشروط كل الإغفال . ويضرب الحكيم كوانتزي Kwantse المثل على فضل القانون في جميع الأحوال فيقول « انه على الأقل يريح خواطر الرعية . ومثال ذلك أننا إذا قررنا تقسيم الحصص بالاقتراع بين المال والخيول لم تأت الأنصبة على سواء ، ولكن الاقتراع يرضي أصحاب الأنصبة لأنه يمنع المحاباة » .

وقد قيل في أصل الحكومة كل ما قاله فقهاء الغرب في القرون الأخيرة مع اختلاف الأساليب . فمن حكماء الصين من يجعل الحكومة ضرورة لانطباع الناس على النزاع والعدوان ، ومنهم من يجعلها ضرورة لأنها تتفرغ لعمل لا تتفرغ له الرعية كلها . ويكاد الحكماء أن يتفقوا على أن مصلحة الرعية هي أساس الحق في الحكم ، وشعارهم جميعاً قول كنفشيوس ان السماء تقول ما الشعب قائل وتسمع ما الشعب سامع ، وإن خلع الحاكم علامة على رجعة السماء في تفويضها .

ولا يشذ عن هذا الرأي من يقول إن الأرض ملك لابن السماء ، فإنهم يحسبونها ملكاً له باعتباره مسؤولاً عن مصالح الرعية ، ويقولون ان تحصيل الضريبة لا يحق للحاكم ما لم تكن جزاء على عمل نافع لمن يؤديها .

إلا أن هذه المذاهب على قدمها وكثرتها لاتعدو مباحث النظر ومساجلات المفكرين ودروس المعلمين ، فلم يكن لها أثر في إقامة دولة وإسقاط دولة ،

وانحصرت فائدتها في تثقيف بعض الولاة والملوك . فمن كان منهم مطلعاً على آراء الحكماء عمل بما يروقه من آرائهم ، ومن وكل منهم الرأي الى الوزراء من الأساتذة والمؤدبين فالناس منتفعون بحكمة وزرائه كلما اقتدروا على العمل بحكمتهم ، ولم يحدث قط ان الدولة قامت لتطبيق مبدأ أو سقطت لمعارضة مبدأ ، وإنما تأتي الفائدة وفقاً لما يستحسنه الملوك والوزراء .

وهناك تجارب سياسية أو ادارية تولدت في الصين من اجتماع ظروف فيها لم تجتمع على هذا المنوال في غيرها .

ومن هذه التجارب القضاء على أمراء الإقطاع بعد نظام الإقطاع الذي أسسه شو كنج ووضع فيه كل ما يمكن من الأقسام ، ومنها إقطاع المدن الذي عرف باسم تيين وإقطاع الإمارات او الدوقيات الذي عرف باسم هو ، وإقطاع الحكومات القديمة التي حفظ لها حقها في بلادها الى حين ، وكانت تعرف باسم (وي) وإقطاع الحدود الذي كانت مهمته حراسة حدود الدولة وكان يعرف باسم هوانج .

وقد كان هذا التقسيم على غاية من النفع في بداءته وظل كذلك عدة قرون . إذ عملت كل ولاية على تمدين القبائل الهمجية فيها بنشر المعارف الزراعية والعادات التجارية بين أهلها ، ثم ضعفت الحكومة المركزية فضعفت رقابتها على الأطراف القاصية ، وجاءت الأسرة التالية فبطشت بأمراء الإقطاع كافة واستبدلت بهم حكاماً توسمت فيهم الكفاية والأمانة ، ثم وضعت نظام الولاية بالامتحان ورشحت كل من أنس في نفسه القدرة على أداء الامتحان المطلوب ، وساعدها على ذلك ان الصينيين يقدسون الأسلاف ويتوجسون من الجندية ، ولوأنهم استطاعوا لقصروا الولاية على الآباء والشيوخ المحنكين ، فإذا كان الآباء لا يؤخذون بالاختبار والامتحان ، فالبديل منهم ذوو الحنكة والدراية الذين يشبتون خبرتهم بالاختبار ، أو الامتحان .

هذه الضريبة قضت على الإقطاعيين باعتبارهم طبقة تجمعها جامعة واحدة وتنتقل سيادتها بالوراثة . فمن ارتفع بعد ذلك الى مكان الولاية واستولى على

ضبيعة أو إقليم فإنما هو فرد لا تظمه الى غيره طبقة متساندة وقد يخلفه وال من عامة الشعب لا عصبية له ولا مزية له على العامة غير درايته واحترام الرعية لعلمه وفهمه .

واختفى مع الإقطاع ، نظام آخر لازمه قديماً في غير البلاد الصينية ، وهو نظام الرق ، واستعباد المغلوبين بالمثلث والألوف ، وأعان على اختفاء الرق أن الحاجة اليه غير لازمة مع وفرة الأيدي العاملة وتقسيم الأرض الزراعية بين أقرباء الدم والمصاهرة .

ومن ظروف الصين التي خصت بها على نطاق واسع ، أنهم اختبروا الملكية المشتركة من أقدم العصور ، ولبثت بقية منها متخلفة الى زمن قريب .

فالأرض كانت ملك القبيلة على المشاع ثم تكاثرت القبائل فأصبحت ملكاً للدولة ، وأصبحت للدولة حصة من المحصول تتسلمها عيناً وتقدرها على حسب المسافة بين العاصمة والأرض المزروعة ، فالأرض البعيدة ، ترسل المحصول حبوباً ، والمتوسطة ترسل الحبوب في السنابل ، والقريبة ترسل الحصيد كله ، ويتفاوت المقدار في كل حصة ، للتسوية بين الضرائب في جميع الجهات ، ومن هنا تكفلت دواوين الحكومة قديماً بضروب من التجارة والتوزيع ، لتصريف المحصولات التي تجيها .

وحلت الأسرة محل القبيلة زمناً في الملكية الزراعية ، ثم تقسمت الأنصبه فتناً يصغر شيئاً فشيئاً ، ويحتاج مالكة الى استئجار الأرض من غير ملكه ، اي من الوالي الذي ينوب عن الدولة في الاقليم .

وكانت في كل إقليم - خلال هذه العصور جميعاً - أرض شائعة يتطوع الفلاحون لخدمتها ، وهي الأرض الموقوفة على هيكل السلف الأكبر في ذلك الاقليم ، فمن غلة هذه الأرض ينفقون على بناء الهيكل وترميمه وخدمته وإقامة محافله ، ويعمل الفلاحون فيه بدعوة من الكاهن والوالي أو بالتفاهم على المناوبة ، ولا يتقاضون أجراً من أحد .

وتنتهي بنا ظروف الصين الخاصة بها والمشاركة بينها وبين غيرها - الى

نتيجتين :

النتيجة الأولى ان تجاربها الماضية تجعلها باباً مفتوحاً لكل تجربة محتملة ، تدخلها غريبة وتصطبغ فيها بصبغتها الوطنية ، اذ لم يكن من طبيعة الأنظمة الحكومية التي سبقت فيها أن تغلق الباب على نظام جديد يطرأ عليها .

والنتيجة الثانية ان أحداثها السياسية تحسب من قبيل التغيرات المتشابهة ولا تحسب من قبيل التطورات المتجددة . فإن أسرتها الأخيرة نسخة من أسرها الأولى قبل الميلاد بعدة قرون ، ومحور التغير فيها قوة الأسرة وضعفها . فإذا كانت الأسرة وطنية، تربصت بها القبائل الباسطية غرة الضعف والغفلة فانقضت عليها واغتصبت منها عرشها ، ثم تضعف هذه الأسرة الأجنبية وتعترىها الغفلة مع الزمن - فسقطها أسرة وطنية أخرى او غارة جديدة من القبائل الضاربة حول بلاد الحضارة ، فليس في هذه التغيرات تطور لنظام الحكم على مبدأ جديد .

وكل ما أثر عن الحكماء من المذاهب والنصائح فإنما هو من الوصايا التي تساق الى كل حاكم على كل نظام من أنظمة الحكم الملكي او الجمهوري او الفردي المستبد أو الشوري النيابي ، او ما شئت من الأنظمة العتيقة والمبتكرة . فما من حاكم إلا يجوز ان يقال له ان العدل خير من الظلم، وإن الكفاية، أولى بالاختيار من الحظوة الشخصية ، وإن القوانين عصمة الملك ورضى الرعية ، وما لم يكن هنالك برنامج مفصل يصلح لنوع من الحكومات ولا يصلح لنوع آخر، فلا محل للانقلاب من جراء تلك المذاهب التي يسلمها من يسلمها، او يناقشها من يخالفها مناقشة النظر والدراسة .

ومرجع النقص في عوامل التطور هنا الى سببين على الأرجح : اولهما العزلة عن العالم ، وأحداثه الفعالة بين الأمم القريبة والبعيدة . وثانيهما العزلة الداخلية ، ونعني بها عزلة الحكومة المركزية عن الأطراف القاصية وعن مباشرة التفصيلات في ادنى الولايات وأقصاها على السواء .

فالبلاد التي تشرف فيها الحكومة على تفصيلات الحكم في كل إقليم من

أقاليمها يتطور نظامها الحكومي عند كل تطور عظيم يطرأ على المجتمع . لأن الحكومة فيها هي كل شيء بالنسبة الى الأعمال العامة ، فلا مناص من تغيير نظامها كلما تغيرت مطالب المجتمعات التي تتولاها .

وهذه حالة غير حالة البلاد المترامية الأطراف . فإن العلاقة بين أقاليمها وحكومتها المركزية تتراخى فلا تشرف هذه الحكومة على تفصيلات الحكم في الأقاليم ، ولا يتحتم انقلابها كلما طرأ على هذه التفصيلات طارئ جديد .

فإذا لم يكن ثمة طارئ جديد فالانقلاب من باب أولى ليس بالحقم المقضي لا محالة ، وقد كانت بلاد الصين جميعاً بمعزل عن العالم وأحداثه وتغييراته ، وكانت مكتفية بنفسها فخورة باكتفائها ، فلا تسقط فيها الحكومة المركزية الا إذا عجزت عن حماية نفسها وتفاقت مساوئها فخذها من كان ينصرها .

ودام الحال على ذلك عشرات القرون . .

ثم مرت بالبلاد عشرون سنة بدلت كل شيء غاية التبديل ، فلا عزلة عن العالم الخارجي بل لاجابة في الاتصال واشتباك العلاقات ولا استغناء عن الحكومة المركزية في كبر الأمور او صغيرها ، بل هي الحكومة التي لا بد من صلاحها او تغييرها : تغييرها هذه المرة تغيير التطور في النظام وفي جملة السياسة وتفصيلاتها .

وهبت في البلاد ثورات ، ولكنها كانت من ثورات التاريخ الماضي، وعلى سنته البالية ، فلم تفلح ولم تغير شيئاً ، لأنها هي نفسها أحوج ما كان الى التغيير .

وانتظرت البلاد ثورة من التاريخ الحديث .

فجاءتها الثورة من تاريخ العصر على يد الرجل الذي سمي بحق ابا الصين الحديثة ، وسمي بحق نبي الوطنية في الصين .

أبو الصين

نعم . سمي سن ياتسن بحق أبا الصين ونبيها الوطني ، وهي لم تعرف نبوة في غير الوطنية .

وكان أبا الصين ونبيها الوطني حقاً لأن الصين كانت فريسة لجراثيم اليأس والموت ، فنفخ فيها روح الأمل ونقل إليها جراثيم الحياة .

ولم يكن بدعاً بين الزعماء . فهناك أعمال عملت له قبل مولده ، وهناك أعمال عملت له بعد مولده ولم يطلبها ولم يتعب في تدبيرها .

وهكذا جميع الزعماء في جميع الأمم في جميع العصور .

إلا أن نصيب هذا الرجل من فضل الزعامة كان أعظم من نصيب الزعماء في زمانه . فكتبت له وحده رسالة الزعامة التي لا غنى عنها ولا تجدي موافقات الحوادث شيئاً بغيرها .

فمن الصعب أن نفهم كيف كان سن ياتسن يقدر على رسالته لو لم يولد حين ولد ، فكانت ولادته قبل ذلك بعشرين سنة ، أو بعشر سنين .

ومن الصعب أن نفهم كيف كان يقدر على رسالته لو لم تكن نشأته في الجنوب حيث نشأ ، ولو لم يكن تعليمه كما تعلم ، ولو لم يكن أخوه الأكبر الذي أشرف على تعليمه بعيداً عن أرض الصين يوم بلغ الصبي سن المدرسة .

ولكن الأصعب من هذا أن نفهم كيف كان رجل غير سن ياتسن مقتدراً على مهمته لو لم تكن له سليقته وعزيمته وبديته وخليقة اليقين في وجدانه وبث اليقين في وجدان الآخرين .

ولد سن ياتسن في نوفمبر (سنة ١٨٦٦) والناس يتحدثون بثورة التايننج

وأنصار هذه الثورة يلوذون بالجنوب ، بعد القضاء على حركتهم واتفاق الدول الصينية والدول الأوروبية على مطاردتهم واستئصال بقاياهم .

وقضي على الحركة يومئذ ولم يقض على جماعاتها السرية التي تغلغت بين قرى الشمال والجنوب من أقصى الأقاليم الصينية إلى أقصاها .

وكان من الطبيعي أن تلوذ بالجنوب لأن العطف فيه على الحركات الثورية أعظم وأصدق ، ولأن الأنصار المؤيدين فيه للأسرة المالكة أقل وأضعف .

فتفتح سن وين^(١) الصغير أذنيه على أخبار الثورة ، وفتح عينيه خفية على تنظيماتها ولجانها ، وقاده تطلع الطفولة قسراً إلى استبطان أسرارها واستقصاء أحوالها وتواريخها .

وليس أقدم من تواريخ الجماعات السرية في البلاد الصينية . ففي أيام أسرة هان قبل عشرين قرناً كانت جماعة (الحواجب الحمر) قوة مرهوبة في الحرب الأهلية ، وسميت كذلك لأن صبغ الحاجبين باللون الأحمر كان علامة بينهم حين يتعرف بعضهم إلى بعض في غير بلد غريب .

وأشهر هذه الجماعات في العصور الوسطى - جماعة الزنبقة البيضاء - نشأت على أيام الأسرة المغولية ، وعادت إلى الظهور على أواخر أيام أسرة (منج) الوطنية فاجتاحت الأقاليم الجنوبية وخمدت ثورتها بعد أن قتل عشرون ألفاً من أعضائها .

وفي القرن التاسع عشر تجددت هذه الجماعة ونشأت إلى جانبها جماعة الثلاث إشارة إلى السماء والأرض والإنسان ، وجماعة (كولاهوي) أي الإخوة الكبار ، وكانت تعيث في جوانب الأرض انتقاماً من الأسرة المالكة وإزعاجاً لها ، ولكنها لم تكن ذات برنامج سياسي أو خطة مرسومة لولاية الحكم بعد سقوط الأسرة الحاكمة ، ومن لجانها طائفة كبيرة ناصرت الحركة

(١) هذا هو اسمه في شهادة الميلاد وأما (ياتسن) فهو من صبغ التكريم عند أهل كانتون حيث كان يقيم عند بلوغه مبلغ الشباب ومعناها الحر .

الوطنية بعد إعلان الجمهورية .

ولم ينقطع تأليف هذه الجماعات بعد انهزام جماعة التايننج فنشأت جماعة الملاكمين ، ونشأت بعدها جماعة الحواجب الحمر ونشأت هنا وهناك جماعات إقليمية للدفاع أو للهجوم ، ولكنها كررت أخطاء التايننج ولم تعتبر بدروسها .

فنشأ سن ياتسن في صباه وهو يحلم بتأليف جماعة من هذه الجماعات . . . ولو لم تكن هذه الجماعات وأمثالها حلم طفولة لقد كان الأحرى بإخفاقها أن يثنيه عن محاولاتها وجرائرها .



وكان مولده في قرية سيانجشان بإقليم كوانتنج . وقيل إن أباه كان من أعضاء جماعة التايننج المسيحيين الذين يؤمنون بمذهب زعيم الجماعة في المسيحية ، ومنه ادعاؤه أنه أخ صغير للسيد المسيح . وقيل غير ذلك إنه كان من أعضاء الجماعة ولم يؤمن بنحلته الدينية .

وكان مولد سن ياتسن في الجنوب ترشيحاً آخر للمطالبة بالحرية ، إذ كان الجنوب يعادي الأسرة المالكة التي كان فريق من أهل الشمال يتعصبون لها ، لمجيئها من الشمال ومقام ذويها وأتباعها في عواصمه وقراه ، وإذا كان الجنوب أقرب إلى الحرية والحضارة الحديثة وأكثر اختلاطاً بأمم العالم وإطلاعاً على شؤونها ، إما بمعاملة الوافدين إلى الموانئ الجنوبية وإما بالرحلة إلى الديار الخارجية .

ونحن نستصغر اليوم أثر هذه النشأة في مستقبل طفل صغير . لأننا نتوهم بحالة الصين يومئذ كأنها حالة عصرية يطلع فيها القارئ على أخبار الصحف والإذاعة حيث كان ، ولكننا نصحح هذا الوهم في أخلاذنا متى ذكرنا أن الصحافة لم يكن لها وجود بين الشماليين وأن الاطلاع هناك على أخبار الخارج ممتنع بغير حاجة إلى مانع من الحكومة . وهذا هو الفارق البعيد بين اطلاع

الناشئ في الجنوب على شؤون العالم وبين اطلاع أبناء الشمال على تلك الشؤون ، وحسبنا أن نراجع تواريخ هون سيوتسوان زعيم التاينج وكانج يوي زعيم النهضة الأدبية وليانج شيكاو زعيم المدرسة الدستورية الملكية ، وأن نراجع تراجم تلاميذهم العاملين ، لنذكر معنى النشأة الجنوبية في ذلك الجيل .

وقد لاحظ المؤرخ جرين صاحب كتاب « قصة ثورة الصين » أن التنافس بين الشمال والجنوب ظاهرة مألوفة بين أمم كثيرة شرقية أو غربية . . . فهو مألوف بين أبناء الشمال والجنوب في الولايات المتحدة ، ومألوف بينهم في إيطاليا ، ومألوف بينهم في بروسيا وألمانيا الجنوبية ، ويحدث هذا التنافس تارة لأسباب عنصرية وتارة لأسباب سياسية أو اقتصادية ، كما يحدث أحياناً لمجرد الولع بالمفاخرة وميل الإنسان عادة الى تفضيل مكانه وعشيرته وجيرته وكل منسوب إليه على حسب درجاته من القربى .



ومن تمام الموافقة في نشأة سن ياتسن ، بعد مولده في الجنوب ، وعلى أعقاب ثورة التاينج - أن تعليمه المدرسي كان تعليماً عصرياً رشحه لقيادة الجيل المعاصر من نابتة المدرسة الحديثة من خريجي الغرب واليابان والمعاهد الصينية المتقدمة .

كان والده فلاحاً وأخوه تاجراً من أصحاب المعاملات في الخارج ، فدرج وهو يعرف متاعب الفلاح الصيني ومتاعب التجارة الصينية أمام المزاومة الأجنبية مستغنياً بالمشاهدة عن التعليم . وأراد أبوه وأخوه أن يعداه لحياة غير حياة الزراعة والتجارة ، وكان أخوه يتجر في هنولولو فطلب إلى أبيه أن يرسله إليه تخفيفاً عن الأسرة وتمكيناً للصبي الصغير من تعليم أصح وأوفى من التعليم الذي يتهيأ لمثله في بلاده . فوصل إلى هنولولو وهو يناهز الثالثة عشرة وانتظم بمدرسة حديثة يديرها الآباء الانجيليون ، وقضى ثلاث سنوات قيل إنه اطلع خلالها على بعض الكتب المسيحية فمال إليها وأبلغ أخاه رغبته في التنصر ،

فبادر هذا وأعادته إلى بلده ولم يشأ أن يتسلمه من أبيه على دين أجداده وأن يعيده إليه وقد صبا إلى دين آخر . إلا أن الصبي كان شديد المراس من صغره وكان أساتذته يشكون من عناده ويعاقبونه على مخالفاته ، فلم يكن جنوحه إلى المسيحية بتلقينهم وتشجيعهم بل بمحض مشيئته واعتقاده : فلما قفل إلى قرينته أصر على عقيدته وتحمّد الجهر بمخالفة العقيدة الموروثة عسى أن يقصيه أبوه عن القرية إلى مدينة يتم فيها دروسه على المناهج العصرية . فهاجر القرية فعلاً إلى كانتون ورآه هناك طبيب من أعضاء البعثة البروتستانتية الأميركية فنصح له بدراسة الطب وأرسله إلى هونج كونج ليتعلم الطب في مدرستها الكلية ، فتخرج منها سنة ١٨٩٢ وانتقل إلى مكاو وهي تابعة للحكومة البرتغالية - لمزاولة الصناعة فيها ، فلم تمهله حكومتها أن أمرته بمغادرتها متذرة بما اتصل بها عن نشاطه السياسي ، وكارهة في الواقع أن تفتح على أطبائها باب المنافسة من طبيب صيني متخرج من مدرسة إنجيلية ، ولم يلبث بعد أن عاد إلى كانتون أن ابتدأ دعوة الإصلاح بعريضة مفصلة اقترح فيها على حكومة بكين تعميم المدارس الزراعية على النمط الحديث ، فظوت الحكومة هذه العريضة ولم يكسب منها الفتى المصلح إلا أنهم أضافوا اسمه إلى السجل الأسود ، وفرضوا الرقابة على حركاته وعلاقاته .



هذه الموافقات المتجمعة من مولده ونشأته وتعليمه لم تكن من عمله ولا تحسب له من جهوده .

ولكنها موافقات يشاركه فيها مئات الناشئين في تلك الفترة ، كلهم من أهل الجنوب ، وكلهم من أبناء الشطر الأخير من القرن التاسع عشر ، وكلهم متعلمون في المدارس الحديثة .

وقد سألنا في أول هذا الفصل : ترى ماذا كان في استطاعة سن ياتسن أن يصنعه لو أنه ولد قبل مولده بعشرين سنة ، أو قضى شبابه في قرى الصين المنعزلة بين شمالها ومغربها ، أو تعلم على الطريقة التقليدية التي لا تؤهله

لقيادة دعوة يتصدى لها المثقفون وذوو الآراء المتجددة ؟

ومن يسأل هذه الأسئلة خليق به أن يسأل معها : ترى ماذا كان في وسع زعيم غير سن ياتسن أن يصنع في قيادة تلك الدعوة إن لم تكن له صفاته ومزاياه ؟

لا شيء ! ولو كان في وسع أحد غيره أن يغلبه على القيادة لغلبه عليها في مبدأ الأمر على الخصوص ، قبل أن يضيف عليه النجاح سراويل الهيبة والقداسة .

إن المزية الكبرى التي وهبها سن ياتسن ليست من المزايا التي توهب لكل إنسان .

وتلك المزية هي القدرة البالغة على التأثير والإقناع طواعية بغير كلفة أو هي عبارة أوضح وأصدق أنه كان يملك الثقة ويعطيها ، وهي خصلة واحدة تجتمع فيها خصال شتى ، يصعب إحصاؤها ، بل يصعب إدراكها بارزة على وجه الأمور .

كان في شبابه يراجع بعض الكتب بالمتحف البريطاني فالتقى بفئة من الثوار الروس - منهم ششرين - ولعل منهم لينين - وسألهم عن غاية رجائهم من جهادهم . . . ثم قال لهم انه يرجو أن تحقق الثورة الصينية غايتها خلال ثلاثين سنة . . فتهافت الروس متعجبين : أفي ثلاثين سنة تحقق غايتك ؟ لو تحققت غاية ثورتنا بعد مائة سنة لكان هذا قصارى ما نتمناه ، وها نحن أولاء نجاهد من الآن !

قال جرين صاحب كتاب قصة ثورة الصين - وليس هو من الأسخياء بالثناء عليه - : « إن شخصية سن ياتسن لا تجحد . وهو أطول من عامة أهل الصين ، يوحى إليك منظره قوة الكيان . . ويلقي في روعك أنك أمام رجل لديه ذخيرة من القدرة غير التي تلمحها عليه لأول نظرة ؛ أهي قدرة الخلق أو العزيمة أو المغناطيسية لا تدري . ولكنها ولا شك هي القدرة التي أتاحت له أن يلعب بالجماهير من أبناء وطنه كما يشاء » .

ومن الكتاب الذين لا يسخون بالثناء عليه كذلك لاتوريت Latowrette صاحب كتاب (الصينيين - تاريخهم وثقافتهم) وقد وصفه فقال : « إنه كان داعية ناجحاً جد النجاح ، وكان مثالياً على خلاف طلاب المغانم من زعماء عصره العسكريين ، وكان مع اطلاعه الواسع على ثقافة الغرب والصين خبيراً بالمجتمع فيلسوفاً في المسائل الاجتماعية ، يحلم بالطوبى على المثال الأوفى ، وآراؤه التي يقترحها لتجديد بلاده لا تخلو من الإغراب وما لا يصلح للتطبيق ، ولكنها لا تخلو كذلك من نفحة العبقريّة . وللرجل خاصة تجذب إليه الآخرين لم يوجد من يضارعه في سلطانه على خيال الناشئة من قومه ، وله قدرة خارقة على الإيحاء وتنظيم الحركة الثورية ، أما الإدارة الحكومية فقد كان فيها بين الإخفاق » .

ولا بد أن قدرته على التأثير والإقناع كانت تفوق المشهور حتى عن زملائه من أصحاب السلطان على أتباعهم ومريديهم ، فلم يكن تأثيره وإقناعه مقصورين على الجموع الذين يتأثرون أحياناً بتنبيه غرائز الجماهير فيهم ، بل بلغ من سلطانه على الآحاد ما يشبه التنويم والسحر المزعوم ، واتفق غير مرة أنه استخفى من مطاردية وأن الحكومة جعلت على رأسه مكافأة مغرية لمن يأتي به حياً أو ميتاً أو يدل عليه ، وعرفه بعضهم أثناء استخفائه فاستطاع بحسن بيانه وقوة سلطانه أن يثنيهم عن تسليمه ويحولهم الى تأييده والاجتهاد في إخفائه .

وكثيراً ما تسرب اليأس الى خاصة أعوانه من الذين يعتمد عليهم في إحياء الآمال وانبعاث العزائم ، وكان لهم العذر من يأسهم لتوالي الهزائم عليهم وكثرة الضحايا من إخوانهم وقلة المال في أيديهم وتقاعد العامة والخاصة عن معونتهم أو ارتدادهم عليهم طمعاً في مثوبة الحكومة وخوفاً من عقابها ونشاط جواسيسها ، فما هو إلا أن يسمع بطائفة من هؤلاء غلبهم اليأس وخانتهم العزيمة حتى يلقاهم ساعة أو بعض ساعة فيخرجون من عنده الى المخاطر التي ندبهم لها وقد نسوا ما كانوا يعتلون به قبل ذلك من علل اليأس والانصراف عن الحركة ، ومنها ما هو حاضر أمام أعينهم لا تسهل الممارسة فيه بأخاديع النفوس .

وأُسعفت هذه الملكة الخارقة حين استدرجه عمال الأسرة المالكة في سفارة الصين بلندن فأوقعوه في كمين نصبوه له باسم الوطنية وجلب الأعوان إلى الحركة . فلولا اقناعه لأحد الحراس بإبلاغ رسالة منه إلى أصدقائه لحملته السفارة إلى بكين حيث ينتظره العذاب والتنكيل .

هذه الملكة الخارقة قد اتفق عليها مؤرخوه وناقده ، وإنما اختلفوا في ملكته الإدارية وذهبوا في اختلافهم إلى الطرفين المتقابلين : فريق يرفعه فيها إلى ذروتها ويحسبها من مزاياه التي يخصصها بالتنويه ، وفريق يجرده منها كل التجريد .

ولعل شهادة لينين هنا من الشهادات التي لا تهمل ، لأنه خبير بالرجال وليس من دأبه السخاء بالثناء على أي إنسان .

قال : « إن سن ياتسن تعم أفكاره روح ديمقراطية مناضلة ولا يبدو عليه أثر من العي السياسي وقلة الاكتراث للحرية ولا هو يقبل القول بأن الحكم المطلق كفؤ لإنجاز مطالب الإصلاح الاجتماعي في الصين . . »

ولا نظن أن النقاد الذين أنكروا عليه القدرة الإدارية سألوا أنفسهم عن المهمة التي فرضوا عليه النجاح فيها ، أو عن الرجل الذي كان خليقاً أن ينجح حيث أخفق ، وأن يعمل شيئاً أكبر من عمله وأبقى .

فقد كان المطلوب خلق إدارة جديدة على أنقاض الإدارة البالية ، وكان عليه أن يعمل بالأيدي القديمة قبل تدريب من يخلفها ، وأن يحسب حساب الخيانة والإحباط المتمدد كما كان عليه أن يحسب حساب الجهل والمخالفة بين أقرب المقربين إليه . وقد اعترضته الحرب العالمية بعد قيام الجمهورية بنحو ثلاث سنوات ، وسبقته دسائس اليابان ومناوشاتها ، وهي عوارض خليقة أن توقع الخلل والاضطراب في إدارة الحكومات التي طال عليها العهد بالاستقرار والطمأنينة ، فكيف بالإدارة الحكومية بين قديم عاجز متهم وجديد عاجز لا يطمأن إليه وإن سلم من الاتهام ؟

إن العمل بعد إعلان الجمهورية كان أعسر جداً وأثقل جداً من العمل

قبل إعلانها ، وكلاهما عمل جبارين لا يقوى عليه غير أولي العزم والقوة .
وكفى دليلاً على شيء منه ، ولا نقول عليه كله ، أن سن ياتسن كان يلام
على الهوادة مع الشيوعية وعلى التشدد معها في وقت واحد .

ففي سنة ١٩٢٢ - أي بعد إعلان الجمهورية بعشر سنوات - رميت دار
الزعيم بالقذائف وقاد الثورة عليه رجل من الجمهوريين اعتقد أن الزعيم يمالئ
الشيوعيين ، وكان الزعيم يومئذ يقنع أدولف جوف مندوب الروس بكتابة البيان
الذي يقر فيه أن الشيوعية لا تصلح للصين في ذلك الحين . فنجأ من داره
بأعجوبة وعاش شهرين غادياً راثحاً على متن زورق صغير .

وفي هذه الفترة يتهمه المتطرفون بالتخلف والرجعية ويطلبون منه أن
يلغي مبادئ الوطنية والسيادة ليقبل بجملته على الشيوعية ، وتتمادى الحملة
عليه من المتطرفين حتى يواجهوه باتهام مكتوب يجيب عليه كتابة كأنه يؤدي
الحساب أمام القضاء ، فلا يأنف أن يجيبهم ويقول في جوابه : « إن دعوى
القائلين بتخلف مبادئنا إنما يبعثها فرط التعصب أو التعلد للثورة الروسية من
جانب الطلاب الناشئين » .

وقد مضت بين إعلان الجمهورية وإعلان الحرب العالمية سنوات لا
تحسب من عمله . لأن رئيس الجمهورية يوان شي كاي بيت النية على قلب
الجمهورية وإعادة الملكية وتنصيب نفسه على عرش الصين عاجلاً جديداً باسم
ابن السماء . وأوشك أن يبطش بسن ياتسن لولا يقظة هذا وإسراعه إلى مغادرة
البلاد والإقامة باليابان مهدداً فيها بالتسليم . لأن ابن السماء المنتظر كان
يترضى اليابان ويتقبل مطالبها لتنصره على خصومه الجمهوريين .

ونحن حين نكتب سيرة رجل عظيم نذكر على الدوام أن أحوج الناس إلى
الإنصاف هم العظماء المظلومون . فما من عظيم إلا وهو مظلوم على عمد
وروية وعلى غير عمد وروية : يتعمد ظلمه أعداء موتورون ضيع عليهم نعم
الرفعة والمجد والشهرة ، ويتعمد ظلمه صغار محنقون يتعوضون من شعورهم
بالنقص أنهم ينصبون الميزان للعظماء ويعييون هذا أو يتكرمون بالثناء على

ذلك ، ويظلمهم على غير عمد جهلاء لا يفقهون ما تتطلبه الأعمال الكبار وما يعترض تلك الأعمال من العقبات والأخطار .

ولا نكتُم القاريء أننا نكتب سير الأفذاذ العاملين لعظمهم ونلتبس مواطن العذر لهم في تقصيرهم ، وشعارنا أن معرفة المزايا أعسر من معرفة النقائص ، وأن الإنسانية فيها الكثير من النكرات والصغار فلا حاجة بها الى زيادة عليهم ، وإنما حاجتها الكبرى ان تعطي العظمة حقها . . . فما كانت العظمة لتضيع ويبقى بين الناس حق لإنسان .

وسيرة أبي الصين مثل من أمثلة عدة للفضائل التي تحتاج الى تقدير وتقويم والأعدار التي تحتاج الى إيضاح وتذكير .

من سنة ١٨٩٢
إلى سنة ١٩١١

في كل مسألة من مسائل العالم الكبرى شيء لم يقع في التقدير .

ومن الصواب إذن أن نحسب للمجهول حسابه في كل مسألة من هذه المسائل الكبرى . فليس من اللعب بالألفاظ أن يقال إن المجهول في هذه المسائل عامل ثابت لا يمكن تجاهله ، لأن التاريخ لم يسطر لنا قط تدبيراً عظيماً لم يعرض له طارئ مجهول . فهو عامل صحيح كالعامل الذي نقدره وندبره ونحسب حسابه قبل وقوعه ، وإنما الفارق بينهما أن المجهول قد يأتي معجلاً كما يأتي معوقاً أو معطلاً ، وليس في طاقة الإنسان أن يثق من إحدى الحالتين قبل وقوعها . وإن كان في طاقته أن يحتملها ويرجحها ويدخلها في حسابه على هذا الاعتبار : أي على اعتبار التعجيل واعتبار التعويق والتعطيل .

وسنعنى في هذه السيرة بالإشارة إلى موقع هذه المجاهيل أو هذه المصادفات ، لأن إهما لها يخل بكل حساب صحيح .

كان الثوار من الشبان الروس يقدرون لنجاح ثورتهم مائة سنة ، وكانوا يحسبون زميلهم الصيني مبالغاً في التفاؤل حين قال لهم إنه يرجو أن يحقق غرض الثورة الصينية خلال ثلاثين سنة ، وكان هو يقول - وإن لم يعلن ذلك قبل نجاح الثورة - إنه لم يقدر سقوط الأسرة المالكة في حياته ، وإنه بقي إلى سنة ١٩٠٥ يتحاشى ذكر الثورة في الجماعات التي يؤلفها ، ويسمي هذه الجماعات باسم الرابطة المتحدة .

ثم دارت الأيام دورتها فلم تأت سنة ١٩١٧ حتى كانت القيصرية هاوية وكانت الثورة قابضة على مقاليد السلطان في عاصمة القياصرة ، أي قبل انقضاء

عشرين سنة من المائة التي قدروها ، لأن هزيمة روسيا في الحرب العالمية كانت هي « المجهول » الذي طرأ ولم يكن له حساب ، فعجل بنهاية العهد القديم ودفع بطليعة العهد الجديد ثمانين سنة الى الأمام .

أما سن ياتسن فقد ظهر انه بالغ في إطالة السنين ولم يبالغ في تقصيرها ، فلم تنقض عشرون سنة على ابتداء دعوته حتى ذهبت الأسرة المالكة الى غير رجعة ، وكان يجب أنه اذا سمى الحركة ثورة في سنة ١٩٠٥ صدم أسماع المدعويين الى تأييدها ، فلم تمض ست سنوات حتى كانت حكومة الثورة الصينية حقيقة يتسامع بها المشرقان والمغربان .

لقد كان يعتقد ان الأسباب مقنعة له ولأمثاله من ذوي البصر والعزيمة ، وأن جماهير الشعب لاحقة به وبهم بعد زمن طويل ، وأن غاية ما في وسعه ان يصنعه لتعجيل اليوم المنظور ان يثير النفوس بالهجمة بعد الهجمة والمجازفة بعد المجازفة . فتكفلت الحوادث بمعونته من حيث لا يحتسب بل تكفلت أسرة المانشو نفسها بمعونته من حيث تحسب أنها تحمي عرشها وتوطد أركانها : قيلت الهزائم وهي تظن ان السلامة في التسليم ، وأثارت ثورة الملاكمين فضربتها الثورة في صدرها ، وذهبت تلم شعنها وتجمع المغارم المفروضة عليها ، فثقل حملها على الكواهل وسقطت حين ضعفت هذه الكواهل الهزيلة عن حملها : أسقطها الضعفاء يوم عجزوا عن القيام بها ، ولولا ذلك لما قوي على إسقاطها العصباء الأشداء .

بدأ سن ياتسن دعوته بعد أن تخرج من الكلية الطبية وتفرغ للدعوة السياسية في السادسة والعشرين من عمره .

وقد بدأها في الواقع قبل ذلك بسبع سنوات على أثر الهزيمة التي منيت بها جيوش الدولة العتيقة أمام فرنسا سنة ١٨٨٥ . . .

إلا أن دعوته لم تتجاوز يومئذ أصحابه وزملاءه ، ولم تكن عدتهم أولا تزيد على أصابع اليد الواحدة ، ثم ازدادوا سنة بعد سنة ، ووجاءته الزيادة من البلاد التي احتلها الأجانب أو البلاد التي وصل إليها الصينيون الذين ضاقوا

بالعيشة في وطنهم فهجروه الى البلاد الاسيوية .

نعمة من نعمة . . . فقد كانت تلك الأقاليم المحتلة أصلح لايواء الشائرين وتنظيم حركتهم من الأقاليم التي بقيت في ظل عرش ابن السماء .

وراح يجمع المال من الجاليات الصينية وينفقه على شراء السلاح ، وتأتى له في حملة واحدة أن يدس إلى داخل البلاد خمسمائة مسدس لتسليح أنصاره وابتداء الثورة بالشغب والمناوشة ، فتنبتهت اليه جواسيس الحكومة وقبضت على طائفة من أصدقائه قتلتهم بعد محاكمة سريعة ، وأعملت التنكيل والتشريد في بقيتهم أخذة بالشبهة حيناً وبغير شبهة في كثير من الأحيان .

وكانت السنوات الخمس من هذه السنة (١٨٩٥) إلى سنة (١٩٠٠) كما سماها سنوات انهيار . ثم كان بناء الحركة من جديد بعد ثورة الملاكمين ، وكان في هذه المرة ينظم جيشاً مسلحاً ولا يقنع بتأليف اللجان والجماعات ، واستعان على تنظيم الجيش بضباط من اليابان وآحاد هنا وهناك من الأوربيين المغامرين ، واستعان على النفقة الكبيرة بجمع الأموال من الجاليات الصينية في البلاد الاسيوية والأمريكية والأوربية ، وأخذت الهبات من أهل الصين تتوالى عليه غير مقصورة على الجنوبيين او المقيمين بالأقاليم المحتلة ، فانظم له سنة ١٩٠٧ جيش في (بنلي) هزم جيش الدولة ، وكان وشيكاً أن يزحف الى العاصمة منتصراً لو لم تخذله الحكومة اليابانية الجديدة وتمنع تزويده بالسلاح وتحرم على المتطوعين امداده بالجند والمال .

وندع لسن ياتسن نفسه تفصيل رحلاته وحركاته فيما ترجمناه من كلامه في الفصل الأخير من هذا الكتاب ، ونكتفي بالإشارة المائلة الى المخاطر التي أفلت منها والمخاطر التي لاحقته الى ديار الغربه من اليابان الى امريكا الى انجلترا الى القارة الأوربية ، وجعلتها في كلمات موجزة ان حكومة بكين رصدت ثلاثين ألف جنيه لمن يقتله حيث كان ، وأن سفارات الصين لم يكن لها من عمل تتقرب به الى العرش إلا أن تراقبه وتتعبه وتنسج الشباك لاصطياده ، وتبلغ أخباره وكلماته حرفاً وحرفاً ويوماً بعد يوم الى حكومة بكين . . .

إن الرقمين اللذين جعلناهما عنواناً لهذا الفصل يحددان وقت الدعوة العامة إلى الثورة في سيرة سن ياتسن ، ولكنها لا يحددان وقت المخاطرة والمجازفة في تلك السيرة التي اقترن فيها الحساب الدقيق والمصادفة العجيبة أيما اقتران .

فإن الرجل قد استهدف للخطر وهو يافع متهم في قريته بالاجتراء على شعائر قومه ، فلم يأمن البقاء فيها وفارقها على عجل إلى كانتون . وقد استهدف للخطر مرات بعد إعلان الجمهورية بسنوات .

وفي جميع هذه المخاطر كان الفضل في نجاته يرجع يوماً إلى يقظته ، ويوماً إلى حيلته ، وربما يرجع إلى خبرته بالملاكمة التي أغراه بالتدريب عليها شيوع الثورة المعروفة باسم ثورة الملاكين ، وربما يرجع الفضل في نجاته إلى قوة تأثيره وقدرته على الإقناع .

غير أن المصادفة وحدها هي التي انقذته من أكبر أخطاره ، وهو خطر الاعتقال في السفارة الصينية بلندن في شهر أكتوبر سنة ١٨٩٦ .

كان يزور واشنطن فمني إليه أن سفارتها الصينية ترصد الكمائن لاقتناصه ، فبرحها إلى لندن باسم مستعار ، ولم تمض أيام حتى علمت سفارة لندن بوجوده ونصبت شباكها حوله ، وليس أيسر من نصب الشباك حول رجل يريد أن يلقي في العاصمة الإنجليزية كل صيني يتمكن من لقائه ، ولا عمل له غير نشر الدعوة بين هؤلاء الصينيين .

وإنه ليسير ذات يوم في طريقه إذ اقترب منه شابان صينيان وسأله أحدهما : أمن اليابان أنت أم من الصين ؟ فلما قال له إنه صيني من كانتون واستمع إلى لهجته الكانتونية أصغى إليه وطفق يسأله عن أحواله وأحوال اخوانه ، وخطر له أنها فرصة ملائمة لتأليف لجنة من لجان الدعوة الثورية فاسترسل مع الشابين حتى بلغا قصرأ كبيراً فتح بابَه فجأة واندفعت منه شزيمة من الخدم والسعاة جذبوه إلى داخل القصر وحبسوه في حجرة من حجراته ، وتركوه هناك لا يزوره غير خادِم يحضر له الطعام وحارس يتفقدُه من ساعة إلى ساعة ، ومضى عليه أحد عشر يوماً وهو بهذه الحال يسمع كل يوم إن وقت الفرج قريب !

وأضعفته قدرته على التأثير فاستطاع ان يقنع أحد الحراس بتبليغ رسالة صغيرة إلى صاحب العنوان المكتوب عليها ، وهو السير جيمس كانتلي Cantlie أستاذه القديم ، فبر الحارس بوعده ورمى بالرسالة وراء الباب وطرقه طرقةً عنيفاً وتوارى في منعطفات الدروب .

ولم يتوان الأستاذ لحظة ، لأنه يعرف حكومة الصين ويعرف عقابها للشوار ولا يجهل مصير تلميذه اذا ظفر به الثنين : دق العظام ورضخ المفاصل وسمل العينين وصلم الأذنين ثم الإجهاز على الفريسة ان بقيت فيها بقية للموت .

هرول السير جيمس الى دار الشحنة Scotland Yard واستحثهم للنجدة فلم يزيدوا على إبداء الأسف والاعتذار بحصانة السفارات ، وأن أيديهم مغلولة عن التعرض لها بغير طلب من السفارة أو وزارة الخارجية .

فهرول الى وزارة الخارجية يعد اللحظات خوفاً من فوات الوقت وخروج الأمر من يد الوزارة . ولم يلق اهتماماً من الموظفين المسؤولين لولا صديق له منتدب لبعض دواوينها ، فبذل هذا الصديق جهده لإبلاغ المسألة الى اللورد سالسبوري ، وسئلت السفارة فأجابتهم بغير اكتراث : إن الرجل ينقل الى بلده رحمة به واستجابة لتوسل أهله . لأنه مجنون يخشى عليه !

ونجاة سن ياتسن على هذه الصورة ترجع الى أكثر من مصادفة واحدة أو مصادفتين .

فمن المصادفات انه اعتقل ولم تكن بالميناء القريب سفينة صينية تأمنها السفارة على سرها ، وتطمئن الى إيداعه خفية بين ركاها ، ولو قيضت للسفارة سفينة تتوافر لها شروطها لحملت أسيرها قبل أن يعلم باعتقاله احد ينفع .

ومن المصادفات وجود السير جيمس بالعاصمة الإنجليزية، وأنه كان على معرفة بالزعيم المعتقل .

ومن المصادفات وجود الموظف الذي يعرفه السير جيمس بوزارة

الخارجية . والواقع ان السير جيمس قد شك في نفع وساطته بعدما رأى من مراوغة الموظفين ورجال الشحنة ، فنشر الخبر في صحيفة التيمس وتحدث به الصينيون كما تحدث به رجال السلك السياسي ، فلم تقدر وزارة الخارجية على معالجة المسألة بالتسوية والمطالبة .

وأصبحت حجرة السفارة الروسية بعد هذا الحادث من الأماكن التاريخية . فهي في الدار الفخمة بميدان بورتلاند مزار يحج اليه وتقام فيه الصلاة كل سنة يوم ذكرى وفاته ، ولولا تلك المصادفات لما بقي لساكنها منذ ذلك اليوم ذكر في الحياة ولا بعد الممات ، إلا أن شهره التتكيل به علانية مع شهداء الثورة يوم يكتب لها النجاح .

ومن الكلمات التي تذكر بهذا السياق أن ما يعمل للحقيقة وما يعمل ضدها يخدمانها على السواء .

وهكذا يقال عن مناصرة القضايا الكبرى ومقاومتها ، فإن حكومة بكين لم تكن لتقدم على نصب الشباك لقنصتها لو علمت عواقبها وما استفاد الرجل منها . فقد سمع باسم سن ياتسن بعد هذا الحادث من لم يكن يسمع به ، وتفتحت له مكاتب الصحف والاحزاب ودواوين الحكومات الأوروبية والأمريكية ، وتنبه المهتمون بأمر الشرق الأقصى الى البحث عن مكانته ومبلغ نفوذه ، ولو انه سعى لنفسه ولقضيته جاهداً لأعنته المسعى قبل أن يدرك شيئاً مما ساقه اليه الأعداء بغير عناء .

وهذه السمعة التي راحت تضخم يوماً بعد يوم حق له أن يخاطب الدوائر السياسية والدوائر الاقتصادية باسم الصين المقبلة ، ويحذر المصارف والشركات من معاملة الحكومة القائمة لأنها شبح ميت يوشك ان يطويه الغد القريب . وكانت تحذيراته هذه إحدى العقوبات التي أوصدت على حكومة بكين وجوه الحصول على القروض ، وهي في أمس الحاجة إليها .

وإذا كان سن ياتسن قد سمي سنوات الفشل الأولى سنوات الانهيار لقد

كان الانهيار في الجانب الآخر أسرع وأخطر ، إذ كان هدماً ليس وراءه بناء ، خلافاً لهدم الثورة الذي كان وراءه من يقيمه على الأثر ، فضلاً عن فائدة الثورة من تداعي أركان الحكومة المختلفة ، فكل ركن ينهدم من بناء الحكومة هو ركن يرتفع من بناء الثورة .

وأحاطت الحيرة بحكومة بكين من الجهات الأربع ، فكل حيلة تجتالها للخلاص تنقلب عليها معولاً من معاول الخراب ، ويظهر أن هذه الأسر المتداعية سواء في تواريخ جميع الأمم . فهي لا تخشى الخطر الا من خارجها ولا تتخيل انها تسقط الا بهجمة من عدو يواجهها وتستعد له بدفاع يصده ، وأما أنها هي تعمل بيدها ما يسقطها فذلك غريب عن خيالها . وهل تعمل دولة على إسقاط نفسها ؟ كيف هذا ؟ إنه اللغو والمحال في المقال بله الفكر والخيال !

وفي التواريخ العالمية أمثلة شتى على هذه الأسر التي يسلطها عمى البصيرة على نفسها في أواخر أيامها ، فتمضي في سباق مع أعدائها على تعجيل زوالها ، ويبدو للناس أنها كانت خليقة أن تبقى بغير حاجة الى مجهود غير الكف عن مساوئها وحقاقتها ، ولكن المشكلة الكبرى أنها لا تستطيع أن تكف عن تلك المساوئ ، وآية عجزها هذه هي بعينها آية الفناء ، او هي آية استحقاقها للزوال .

ودارت الحلقة الوبيلة التي دخلت فيها أسرة المانشو ولم تزل تدور وتدور : حاجة الى المال ، فأرهاق للشعب المحروم، فسخط من الشعب، فإلحاح على طلب المال للحراسة ودفع الثورة والتادي في السرف والترف . . . كأنما السرف والترف على وداع .

ولم تكف الضرائب . فزين نصحاء السوء للحكومة المنهومة أن تبيع المرافق العامة عسى أن تقترب بها الى الدول وأن تنفعها تلك الدول عند الحرج حرصاً على مرافقها ان لم يكن وفاء للحكومة المهددة . فسلمت فرع شوان من سكة حديد بكين - كانتون ، ولما يفرغ أصحاب الأرض الوطنيون من تعويض تكاليفها وأثمان اسهمها ، فهب سكان الإقليم يتناصرون ويتوعدون ، وتألقت

منهم جماعة باسم حماة السكك الحديدية ، وانضم الى هذه الجماعة ألوف .

وسرت العدوى الى الإقليم المجاور- إقليم هوبي - فتنبه حاكمها وعثر في بعض المنازل التي فتشها بسجل الأسماء المشتركين في جماعة من أمثال تلك الجماعة ، وحدث هذا مساء التاسع من شهر أكتوبر (سنة ١٩١١) فلم يصبح الغد حتى فاجأه الثوار قبل أن يفاجئهم ، وعلموا أنه هو الموت المحقق اذا انتظروا ، وأنهم بين الموت والحياة اذا ابتدروا ، فأقدموا ولم ينتظروه .

وحان أوان المصادفة الأخيرة قبل إعلان الجمهورية ، إن كان للمصادفات أوان .

فإن جنود سن ياتسن لم يقدرُوا للثورة ذلك الموعد ، ولم يكن سن ياتسن نفسه بينهم ، بل كان في رحلة الى الغرب لجمع المال والعتاد ، ثم انفجرت قذيفة في إحدى الدور بالمنطقة الروسية ، وكان انفجارها خطأ غير مقصود ، فسرعان ما تسامع بها الناس ودهم الشرطة من الروس تلك الدار وجمعوا كل ما وجدوه من أوراقها ، وفيها أسماء الألوف من جنود الزعيم المنبئين في كل مكان . هي الثورة اذن بغير انتظار .

ومهما يكن من فعل المصادفات في هذه الحوادث الجسام ، فقد ظهرت معها مزية التنظيم وحكمة الخطط المرسومة وضرورة الاستعداد للتوجيه والقبض على زمام الحركة حين تأتي الحوادث الجسام بمصادفاتهما او بتقديراتها ، فلو لم تسبق هذه الحوادث خطة مرسومة للحكم الجديد ، تتولاها هيئة معروفة للثائرين ، لضاعت الحوادث المتفرقة حادثة بعد حادثة ولم تجمعها وجهة واحدة .

وكم في الواقع من عجب يعنى بمثله الخيال .

لقد كان مولير يمزح بالطبيب على الرغم منه ، ويمسحه كما يحسبه النظارة من افتتان الخيال .

فأعجب من طبيب على الرغم منه قائد ثوزة على الرغم منه ، وذلك هو

القائد الصيني « لي يوان هنج » الذي انتزعه الثوار من فراشه ليقودهم ، وتوعده بالقتل ان لم يدعن لمشيئتهم ، فأذعن الرجل على كره منه وقاد الثورة مخلصاً للفن العسكري وإن لم يكن مخلصاً للثورة ، فاستولى بتلك الشراذم على ووشانج وهانكو وهنيان ، وهي قلب الصين ووقفت العاصمة تتردد بين التسليم وبين الاستنجاد بقائدها القديم المغضوب عليه - يوان شي كاي - وليس أقدر منه على تطويع الجنود للدفاع في ذلك المجال .

وعبرة الموقف العظمى هي أن المصادفة عامل يحسب له حسابه في كل قضية خطيرة ، ولكنها تضيق عبثاً إن لم تجد من كان مستعداً للانتفاع بها وقيادتها قبل ذلك .

فتلك الشراذم من الدهماء قد هممت أن تطلب القيادة فانتصرت بها كرة بعد كرة ، ولكنها بقيادتها وانتصاراتها كانت ضائعة ولا شك إن لم تسبقها خطة مرسومة يتولى القائد تطبيقها ، ولم يكن قائدهم المغضوب عليه يعلم ما يصنع بعد الانتصار .

إنما كان علم هذا عند جماعة سن ياتسن ، وباسم هذه الجماعة تنادى الثوار المتفرقون وترقبوا منها ان تتجه بهم الى وجهتها ، وتردد اسم سن ياتسن على كل لسان .

اما قصر ابن السماء فقد كانت له أيضاً مصادفاته في هذا المأزق العصيب .

أيسلم للثوار أم يرتقي على أقدام قائده المغضوب عليه !

إن التسليم لثوار الجمهورية خسارة مائة في المائة ، وليس في استدعاء يوان شي كاي خسارة أكبر من هذه الخسارة اذا انهزم ، وقد ينتصر فيكفر انتصاره عن مذلة استدعائه ، وفي الغد متسع لرد هذه المذلة اليه صاعاً بصاعين .

وكان يوان شي كاي كما قال المثل « إن كنت ريحاً فقد لاقيت اعصاراً » ...

فلم يرفض الدعوة ، ولم يقصر في الدفاع ، وانتصر في معركة بعد

معركة ، وبقيت المعركة الأخيرة بينه وبين صاحب الدعوة الى الجمهورية والصين كلها تتأهب لاستقباله بعد أيام .

أيقضي على الثورة فيسحقها ويسلم مقاد البلاد للوصية الماكرة تنتقم منه لملتها واضطرارها ساعة الحرج عليه ؟

لم يكن سحق الثورة يسيراً ، ولم يكن مأموناً ، فلتبق الثورة حية تخيف القصر الى أجل ، وليبق له القول الفصل في النزاع أو المساومة بين الخصمين ووقف القائد الداهية على مفترق الطريق .

وأرسل يفاوض الزعيم المقبل ، ويتوسط لحقن الدماء ، وبدا للعالم بأسره يومئذ انه واسطة خير وبشير سلام ، وبدا للعالم بأسره بعد شهور انه استبقى العرش لنفسه ، وقبل الجمهورية على أن يكون رئيسها الأول ، ثم يزيع الزعيم بعد الخلاص من العاهل والوصية ، ويخلو له الجو كما يشاء حيث يشاء .

وجاء سن ياتسن فلم يشأ أن يتشبث برئاسة الجمهورية ، ولم يشأ أن يضع في الأفواه كلمة الاتهام الموهودة ، وما اسرعها وأيسرها على كل لسان في ذلك المقام !

إنه يخرب الوطن ، إنه يمزق الوحدة ، إنه سعى للرئاسة وعزّ عليه أن يفقدها ، فلا كان ولا كان مسعاه .

وهكذا ولد العهد الجديد في البلد العريق .

وهكذا نجحت ثورة ذلك اليوم : ثورة عشرة عشرة إحدى عشر ، كما تسمى الى الآن ، أي ثورة اليوم العاشر من الشهر العاشر من السنة الحادية عشرة في القرن العشرين .

ومهما يكن من المصادفات والدسائس والمناورات ، فهي بحق ثورة تستحق جهودها وتكاليفها .

وعلامتها الأولى اسمها .

فالأول مرة تقبل الأمة عيداً لا يحسب تاريخه بشهورها العتيقة ، وكانت شهوراً لا هي بالقمرية ولا بالشمسية ، يضاف النسيء إليها على هوى الكتبة والحسبة ، أو هوى الخزانة والمحصلين ، فتحسب السنة اثني عشر شهراً أو ثلاثة عشر أو أكثر من ذلك أو دون ذلك ، ويعاب تبديلها غيراً على كرامة الأسلاف .

ورب عنوان يغني عن تفصيل .

وعنوان (عشرة عشرة إحدى عشر) بعض هذه العناوين .

ثقافته السياسية

كان اتجاه الشاب الصيني الى تعلم الطب في أواخر القرن التاسع عشر كافياً وحده للدلالة على تحرر عقله من موروثات الدهور بين قومه .

فالقواعد الرياضية التي يعتمد عليها المهندس الصيني علم صحيح سواء عرفه بالخبرة أو اقترنت خبرته فيه بالقواعد النظرية ، ولا يبعد ان يمتاز المهندس الصيني على زميله الاوربي بالمهارة الفنية ولطافة الذوق وحسن استخدام الخشب وما إليه في موضع الحجر والملاط .

والاختلاف في أساليب الزراعة قد يكون اختلافاً بين الآلات والأصناف ، ويتساوى الفلاحون شرقاً وغرباً فيما يرجع من تلك الأساليب الى العقائد والتقاليد .

وليس بدعاً في الآداب ان تختلف آداب الأمم على تقاربها في الموقع والزمن وأصول اللغة .

أما الطب فالاختلاف بين حديثه وقديمه يشمل كل اختلاف بين العلم الصحيح وبين السحر والشعوذة .

ومن كان يؤمن بمزية الطب الحديث فقد تقدم شوطاً بعيداً في التحرر من القديم والاستعداد للتصرف والتجديد .

وربما أضيفت الى هذه الدلالة دلالة اخرى ذات شأن في التعريف بصاحب الترجمة ، وهي حب الإصلاح والتجرد للخدمة العامة . لأن المصلحين الشرقيين قد شاع بينهم بعد منتصف القرن التاسع عشر أن رسالة الإصلاح القومي ان هي إلا رسالة طبية صحية قبل كل شيء ، إذ كان وباء الهیضة

(الكوليرا) يفشو بين الهند والصين واليابان من حقبة الى حقبة ، فلا تنقضي عشر سنوات متواليات دون ان تنكب به أمة من هذه الأمم ، ثم يعن فيها اصابة وفتكاً ويذهب كما جاء مجهول الأسباب في الجيئة والذهاب .

وقد دخل سن ياتسن مدرسة الطب وهو يؤلف الجماعات لتجديد الصين وإصلاحها ، ويجعل مهمته الكبرى تجديد الصين لا مجرد الاشتغال بالسياسة والحملة على الحكومة .

ولعله لم يتعمد أن يتعلم الطب ليستفيد منه التفكير على الأسس العلمية . . . ولكنه - تعمد ذلك أو لم يتعمده - قد استفاد هذا التفكير فعلا وظهرت آثار النظرة العلمية في جميع مباحثه ودراساته ، فقد يصيب فيها أو يخطئ ولكنه لا يزن الأمور بغير الميزان السليم من الوجهة العلمية .

وقد اشتغل بالطب فترة قصيرة بعد تخرجه من المدرسة ، ولكنه لم يستطع ان يجمع بين التخصص للطب وبين التنقل لنشر الدعوة وتأليف اللجان وجمع المال واجتناب المطاردين والمقبلين ، وشغلته السياسة بدروسها ومطالعاتها كما شغلته بمساعيها وتنظيماتها ، فلم يكن ينتقل من بلد الى بلد الا بصحبة كتاب أو عدة كتب من مراجع الدساتير وأنظمة الحكم وأخبار الثورات في الأمم المختلفة ، حتى وعى من هذه المعلومات ما تضيق به صدور المتخصصين والمتفرغين .

ويدهشنا حقاً أن يقال إن الرجل من الحالمين الخياليين ، فإن الحالم الضارب في تيه الخيال تأخذ الدعوة النظرية فلا يميز فيها بين فكرة وفكرة على حسب الواقع في تطبيقاتها وفي مواطنها المتعددة . وهذا هو العيب الدهني الذي لا تتبينه من دراسات الرجل وتعليقاته ، فلا تشابه عنده بين نظام واحد في بلدين ، ولا بين الكلمة الواحدة في موضعين ، ولم يكن ينعى على ببغاوات السياسة في بلده امراً كهذه الخلة المعيبة ، فكانت نصيحته التي لا يمل تكرارها ان الاستقلال في الولايات المتحدة غير الاستقلال في الصين ، وأن مبادئ الثورة الفرنسية معقولة في زمانها وبين قومها ولكنها غير معقولة في زمان آخر ولا بين أقوام

آخرين ، وأن كارل ماركس لا يمل كل مشكلة ولا يعالج كل مرض ، بل استخدم صناعته في التعبير المجازي فقال عنه إنه طبيب توصيف وليس بطبيب علاج ، وإن توصيفه على هذا لا يوافق كل بنية ولا يستغني عن التعقيب والتصحيح .

كان يقول إن (الحرية والمساواة والإخاء) شعار له معناه عند الثوار الفرنسيين ولكنه لغو بغير معنى حين يجري على ألسنة ثوار الصين .

فقد كان الفرنسيون يطلبون الديمقراطية في الواقع ويمهدون لها بطلب الحرية والمساواة والإخاء . أما الصين فلا حاجة بها الى تحرير الفكر من سلطان الحكام لأن الناس فيها يقرأون ما يشاؤون ويكتبون ما يشاؤون ويعتقدون ما يشاؤون ، ولا حاجة بها الى تقرير مبدأ المساواة لأنهم بعد شخص الإمبراطور سواء أمام القانون . وأعظم وزرائهم ورؤسائهم نبغوا من سواد الشعب فلم يكن مولدهم بين أبناء الطبقة الفقيرة حائلا دون ولاية المناصب والتصدي بقيادة الأفكار بالعظات والدروس ، ولا حاجة بين الصينيين الى تقرير مبدأ الإخاء لأنهم آمنوا بوحدة وطنهم وجعلوا حدوده كجدران البيت الواحد تسكنه الأسرة الواحدة ، ويقدمون الأسلاف حتى ترتفع الى السلف الكبير في مجاهل التاريخ .

والفدرالية حسنة في الولايات المتحدة لأن ولاياتها كانت متفرقة فالتمسست توحيدها من طريق الفدرالية . فالوحدة الوطنية هي الغرض من هذا الاتحاد ، وليس من الحكمة أن نفقد الوحدة في سبيل الفدرالية . بل المصلحة أن نجعل الفدرالية وسيلة الى الغاية الأولى ، وهي توثيق كيان الصين .

وكثيراً ما عاب على المتحذلقين لغطهم بما يسمونه حرب الطبقات وسألهم مرة بعد مرة : اين هي الطبقات ؟ واين هم النبلاء المتوارثون ؟ وأين هي الكهانة ودرجاتها الكنسية والاجتماعية التي يسميها الغربيون بالهيرارشية ؟ .

وكان يقول إن حرب الطبقات عند كارل ماركس أصل من أصول التطور ، ولكنها في الحقيقة عارض مرضي يظهر كلما استشرى البلاء وعز

التعاون بين أصحاب المصلحة المشتركة ، ولو كانت أصلاً من أصول التطور
لكان أحسن الناس من يعمل لخلقها والحض عليها ، فكيف اذا كانت مرضاً يمنع
كما تمنع الأمراض ؟

إن النداء بالديمقراطية أجدى على الصينيين من النداء بالحرية والإخاء
والمساواة ، فما طلب الغربيون الحرية والإخاء والمساواة إلا لأن الحجر على
الأفكار وتفاوت الطبقات كان العقبة الكأداء بينهم وبين الديمقراطية .

ولما وضع مبادئه الثلاثة - وهي مبادئ القومية وسيادة الشعب وتيسير
المعيشة - لم تكن بغيته كلمات تقال محاكاةً للدعوات التي تهتف بكلماتها وترددها
على أسماع جماهيرها ، ولكنه توخى من كل كلمة هدفاً يلائم الصين ويوافق
حاضرهما ومستقبلها .

فوضع مبدأ القومية لدفع خطر التقسيم باسم الفدرالية ، واتقى به خطر
المذاهب التي تسخر الجهلاء لتقويض أوطانهم وبث بذور العداوة بينهم وبين
إخوانهم ، وتصوير هذه العداوة لهم كأنها بلاء دائم لا تجدي فيه الحيلة ولا تصلحه
نظم السياسة ولا الأخلاق .

ووضع مبدأ السيادة الشعبية لإلغاء المعاهدات الأجنبية الجائرة وتخويل
الأمة أن تختار موظفيها وتعزلهم ، وإن تنكر محل سلطان لا يستمده صاحب
السلطان منها بمحض رضاها ، وأن تكون السياسة والإدارة والتشريع قائمة كلها
على هذا الأساس .

ووضع مبدأ المعيشة الميسرة للجميع ، لأنه اعتبره غاية المذاهب قاطبة في
كل زمن ، واعتبر الاشتراكية والشيوعية والديمقراطية وسائر مذاهب الاجتماع
وسائل عارضة لتلك الغاية الثابتة ، وما من مذهب منها يستحق أن يبقى بعد
إنجاز مهمته وتحقيق غايته ، فما وضعت الاشتراكية او الشيوعية او الديمقراطية
لذاتها ، ولا وضعت لتبقى في كل زمن وكل أونة ولكنها وضعت لتدبير معيشة
الرعية واتباع وسائل مستحدثة لتيسيرها كلما قصرت وسائلها الأولى .

ولو شاء سن ياتسن أن يتخصص لتدريس العلوم السياسية لأغناه ما اطلع عليه من أمهات الكتب الغربية والشرقية في هذه العلوم ، وقد صادفت نشأته فترة حافلة بالمصنفات الحديثة والقديمة في نظم الحكم ومبادئه وفلسفة الاجتماع ومدارسه المتعددة وأصول الاقتصاد وعلاقته بالحكومات والهيئات الاجتماعية ، وكان يتابع هذه الكتب ويطلع عليها كلما صدر كتاب منها ، فادخر منها محصولاً وافياً كأوفى ما يكرن الاطلاع لو شاء أن يتخصص لتدريسها .

إلا أن برامجه تكشف عن غرضه من هذه المطالعات ، فلما كان يتتبعها ويستقصيها ليفهم منها ما يصلح للتطبيق وكيف يكون تطبيقه في بلاده . ولم تكن هذه المطالعات من أجل هذا مصدر ثقافته السياسية دون غيرها . بل جعل وكده ان يمتحن مدارس السياسة وهي تعمل وتضطلع بتبعاتها ، فلم ينزل بلداً من بلاد الشرق والغرب الا اغتنم فرص الفراغ من نشر الدعوة وتنظيم اللجان لدراسة نظامه الحكومي وأدواته العاملة وعلاقته بالمجتمع وسائر طبقاته وهيئاته ، وقد شملت رحلاته بلاداً متباعدة في الموقع الجغرافي وفي النظم السياسية ، من اليابان الى الولايات المتحدة الى انجلترا الى فرنسا الى المستعمرات والولايات الخاضعة للدول الأجنبية ، ولقي في كل منها زعماء الحكم وزعماء المعارضة وسمع من هؤلاء وهؤلاء ما يقولونه نقداً او موافقة للنظم المتبعة ، فكانت مصادره من هذه الثقافة السياسية زاداً وافياً الى جانب زاده الواقعي من المطالعة والمراجعة ، ويشهد له باستقلال الرأي أنك لا ترى انقياداً منه لمدرسة واحدة بين هذه المدارس أو نظام واحد بين هذه النظم ، فهي في ذهنه كالمائدة المطهورة يدخلها كل صنف من الأصناف ممتزجاً بما يصلحه ويعدل مذاقه كما يعدل مادة الغذاء فيه ، ويخطئ من يقول عن الرجل انه تلميذ لهذا او مرید لذاك ، فكلهم أساتذته ومعلموه ، وهو من أجل ذلك يختار الأستاذ والمعلم كما قال سعد زغلول عن الجامعة الأزهرية حين حضر على أساتذتها ومعلميها .

إلا أن برامجه وتعليقاته تشير الى المصادر التي كان لها القسط الأوفر من مطالعاته ومراجعاته ، ويمكن ان نحصرها في مصادر ثلاثة يؤثرها باهتمامه وتعقيبه وان لم يذكرها بأسمائها .

فأولها فقه الدستور الإنجليزي . وقد بلغ من إعجابه بتطبيقاته أنه ود زماً لو تتهياً للصين حكومة ملكية دستورية على النمط البريطاني ، وفي هذه الفكرة أيضاً لم يستسلم للقدوة دون العمل ، فقد عدل عنها بعد أن راقب أحوال الحاشية الصينية وأيقن أن تطبيق الملكية المقيدة في بلاده اعسر من تطبيق النظام الجمهوري ، وأنه إذا لم يكن بد من التجربة فلتكن تجربة النظام الجمهوري أولى وأحق بالابتداء والانتظار .

والمصدر الثاني الذي كان يندو من برامج سن ياتسن أنه كان مدمن الاطلاع عليه هو فلسفة كارل ماركس ، فقد شغل بها لتفنيدها وتوضيح الفارق بين الأحوال التي راقبها كارل ماركس والأحوال التي تقلبت عليها الصين منذ أقدم عصورها ، وأنكر من الفلسفة الماركسية كل شيء إلا الاهتمام بالمسائل الاقتصادية وإعطائها حقها الكامل في تكوين المجتمع ومصاحبة أطواره ، فهو لا يقل عن كارل ماركس اهتماماً بهذه المسائل ، وإنما الخلاف بينه وبين كارل ماركس أنه لا يمحصر اهتمامه بها ولا يغفل عن مثل هذا الاهتمام بغيرها ، وأنه لا يعلق نبوءات المستقبل على شؤون الاقتصاد دون سواها .

والمصدر الثالث أحق هذه المصادر بالالتفات اليه ، لأنه أدل المصادر على سعة اطلاع الرجل وحسن استعداده للإفادة من الرأي الصواب حيث وجده ، ولو لم يكن صينياً لقلنا أن سنته الأولى أن يطلب العلم ولو في الصين .

هذا المصدر هو كتاب خامل ألفه بعد الحرب العالمية الكبرى طبيب أسنان روسي من الأسر التي هاجرت الى امريكا أيام القيصرية فراراً من مظالمها ، ترك اسمه الروسي وتسمى باسم موريس وليام وانخرط في سلك الثوار ثم في سلك الشيوعيين الى أن ساوره الشك في التفسير المادي للتاريخ فألف كتاباً بسيط فيه شكوكه وانتهى منه الى تفسير التاريخ من الوجهة الاجتماعية النفسية ، بعد أن شرح نقائص القول بحرب الطبقات وتصعد المجتمع الديمقراطي واستحالة الإصلاح بغير هدمه والبناء من جديد على أنقاضه . ولم يطلع على هذا الكتاب عند صدوره غير آحاد معدودين منهم زعيم الصين ، وكان يومئذ قد فرغ من

إقامة الجمهورية وشرع في تدوين البرامج المفصلة لتنظيم المجتمع الصيني وإصلاح شؤونه وترتيب مرافق المعيشة فيه ، فكان اعتداده بآراء المؤلف الخامل وهو في أوج شهرته العالمية آية على النزاهة وحب المعرفة حيث وجد السبيل إليها .

ومن النقائص التي ابرزها الطبيب الروسي ان عصر الإقطاع قد زال على رأي ماركس لأن الطبقة الوسطى البرجوازية بلغت غاية الثراء ، وأن هذه الطبقة الوسطى تزول على رأيه لأن طبقة العمال ستبلغ غاية الحرمان ولا يبقى لديها ما تفقده غير سلاسلها ، ولا يمكن ان يكون هذا تسلسلا لعامل واحد على سنة واحدة . فلم يحدث مثل هذا قط قبل الآن بين الطبقات السابقة والطبقات اللاحقة .

ومنها أن معيشة العمال تتحسن وأن العمل الفردي يزداد خلافاً لنبوءة ماركس عن اطراد السوء في معيشة العمال واستحالة التوفيق بينهم وبين أصحاب الأموال .

وقد كان سن ياتسن يلاحظ هذا التناقض قبل صدور كتاب « التفسير الاجتماعي » لمؤلفه الروسي الطبيب ، ولعله تنبه اليه لما بينهما من زمالة الصناعة وزمالة الاشتغال بالدراسات الاجتماعية والسياسية ، فلم ينس ملاحظاته بعد ذلك على كونه لم يستفد منها غير شواهد العرض والتنسيق .



وإنه ليخلص من ثقافة العلم والعمل الى عقيدة راسخة، الحكومة الجمهورية والنظام الدستوري على الأصول الديمقراطية ، ومحاسب الحساب لجدة هذا النظام في الشعب الأمي فيرجى التوسع فيه ويرجو ان يؤتي ثمرته بعد فترة من الإرشاد وفترة من الإعداد ، مع إعلان سيادة الشعب عند إعلان الجمهورية .

وقد كان سن ياتسن أباً كسائر الآباء ، يتعجل الأمل حيث تبطئ به الحوادث ما ينتظر منها وما يأتي فجأة على غير انتظار ، فظن ان الشعب يعود

النظام الجديد بعد سنوات ، ثم يتوسع فيه كلما درج عليه مرحلة بعد مرحلة ، فلما خاب أمله كانت مرارة الخيبة على قدر قوة الأمل ، ولم يغالط نفسه ولا اخفى على غيره وقع هذه الصدمة فقال في ألم شديد : « أرادت الصين منذ الثورة ان تقتدي بأوربة وأمريكا في تطبيق الديمقراطية السياسية ، ولما كانت الديمقراطية السياسية الغربية قد وصلت الى النظام التمثيلي وجب تطبيق النظام التمثيلي أيضاً في الصين ! إلا أن الجوانب الحسنة من النظام التمثيلي لم تدركها الصين وأدركت مساوئه عشرة أضعاف بل مائة ضعف . ومسح أعضاء المجلس خنازير ملوثين بالقدر والفساد على مثال لم يعهد من قبل ، ويا لها من بدعة مذهلة في الحكم النيابي . فإن الصين لم تقصر في الاقتداء بالديمقراطية الغربية وحسب ، بل جاءتها هذه الديمقراطية ممسوخة فأصابها بالضرر وأفسدتها .

قال بعض مترجميه « إنه مزيج من أنبياء المسيحية الأولى ، ومن نابليون ، ومن ثوار أمريكا الوسطى » .

وذلك وصف صادق للرجل ولا سيما يقين القداسة فيه ، فما من صورة لسن ياتسن تكمل بغير ملامحها الدينية من جانب إيمانه بالقداسة او جانب اعتياده على إيمان الآخرين بها .

كان نبياً للوطنية حيث لا أنبياء للدين ، وكان يعلم تقديس أبناء قومه لأسلافهم فيحرص على هذا التقديس ويحاول ان يجريه في مجرى الإيمان بالوطنية والفخر بالتراث القومي ، عسى ان يعتصم به القوم في مستقبلهم ولا يبددوه كله على الماضي وذكره الخالية .

ومن نبوته الوطنية أنه كان عظيم الاعتداد بعهد الولاء ، فإذا فرط اتباعه في أمانتهم آله هذا التفريط وراح يتقصى أسبابه فلا ينسى منها - بل في مقدمتها - أنهم لم يعطوا العهد ولم يقسموا يمين الولاء . وكان على يقين ان تفريط رجل لا تراجع ذكرى يمين أقسمها سهو غير مستغرب . اما الذي توقظ له الذاكرة قسماً راصداً في كل لحظة فالتفريط منه مقترن بشعور الإجرام ، وقد يثنيه وخز الضمير

عن الخيانة التي يشهد بها على نفسه كلما ذكر العهد وردد يمين الولاء ، وأشفق من
وصمة الإجرام والنزول بنفسه منزلة المجرمين .

لقد كان يعمل عمل الزعماء .

وكان يشعر شعور الآباء ، ويحاسب الناس حساب القديسين الشهداء .

في الحياة البيتية

من الأقوال الشائعة ان العظماء ليست لهم حياة خاصة .

وإذا كان هذا القول محل الخلاف فيما يتعلق بمعيشتهم وهم بقيد الحياة فلا محل للخلاف عليه فيما يتعلق بتواريخهم وتراجم حياتهم بعد المات . لأن فهم الحوادث وتقدير الأعمال وتعليل العلاقات قد يتوقف على أخبار البيت والأسرة وقد يكون ما يساعد العظيم في حياته العامة أو يكون منها ما يعوقه أو ما يصبغ علاقاته الخارجية بصبغة خاصة ، فلا يتساوى في نظر المؤرخ عند ترجمة العظماء ان تكون لهم حياة بيتية او لا تكون لهم زوجات وأبناء وأصهار وأقرباء .

ويصدق هذا القول على سن ياتسن كما يصدق على سائر العظماء ، أو لعله أصدق عليه من كثيرين غيره ، لأنه أخذ على عاتقه تجديد الصين وجاء زواجه فنقل رسالة تجديد الصين الى بيته وجعله من مسائله وهمومه . إذ كانت زوجته الأولى نموذج المرأة الصينية على التربية القديمة ، وكانت زوجته الثانية نموذج المرأة الصينية على التربية العصرية ، فليس أحدث من تربيتها في أوربة أو أمريكا بله الصين وما شابهها من الأقطار الآسيوية .

زوجه أهله من قرينته الأولى (لو - زو) وهو يناهز العشرين ، وكان غرضهم من هذا الزواج أن يغريه بالاستقرار ويربطه بالتبعات البيتية فلا يعرض حياته للمخاطر ثائراً على العرف وذوي السلطان . فكان زواجاً مناقضاً لوجهته كلها في الحياة ، وإن كانت هذه الزوجة مثال ربة البيت بشهادة المترجمين للزعيم والعارفين بأسرته أجمعين .

واضطر سن ياتسن على كل حال أن ينتقل بين البلاد ويطيل الغيبة

سنوات ، ولا يغشى الأماكن التي تعرف له علاقة بها لأنه كان طريد السلطان بعد زواجه فلم تتوثق بينه وبين هذه الزوجة أو اصر الالفة والتفاهم على رسالته الكبرى التي تصغر عنده الى جانبها كل رسالة .

من هذه الزوجة رزق ثلاثة أولاد احدهم سن فو الذي اشتهر في سياسة الصين بزعامة الحزب اليساري المنادي بالوحدة القومية والمعارض للحرب الاهلية ، والذي يجعل محاربة اليابان غرض السياسة الصينية ويتقبل الائتلاف مع كل قوة تعادي اليابان وتتألب على إحباط سياستها الآسيوية ، ومن الطريف ان امرأة أبيه الثانية وأخاها من أنصار هذه الهيئة ، وإن كانت امرأة أبيه تناصرها بالتشجيع ولا تنتظم في عداد اعضائها ، لأنها تجتنب العمل السياسي ولا تستريح الى انقسام الأحزاب .

ولد (سن فو) سنة ١٨٩١ وأتم تعليمه الابتدائي بهوي - كأبيه - ثم تخرج من جامعة كولبيا بالولايات المتحدة ، وعاد الى الصين وهو في السادسة والعشرين (سنة ١٩١٧) وعمل كاتباً لأبيه ثم محافظاً لكانتون فمديراً للسكك الحديدية فرئيساً للجمعية التشريعية ، وعارض شيان كاي شيك معارضة شديدة بعد وفاة ابيه ، وسافر الى موسكو غير مرة يحاول التوفيق بين روسيا والصين ، وسبق ذلك بمحاولة التوفيق بين الشمال والجنوب وبين حزب الكومنتانج اي الحزب الصيني الوطني والحزب الشيوعي . فعرض حياته للخطر من ناحية أنصار اليمين ومن ناحية اليابان في وقت واحد ، ودبر الجواسيس اليابانيون تدبيرهم لقتله في احدى الطائرات ، فأسقطوها ولكنه كان قد تخلف عن ركوبها ، فنجوا من المكيدة اليابانية واوشك ان يقع في مكيدة وطنية ، فحالفه التوفيق ونجا منها .

ويقول الذين عرفوه انه نسخة من أبيه لولا انه طموح لا يزهّد في المنصب والمال زهد أبيه

ومن التجوز ان يقال إنه يؤثر في سياسة أبيه بالإقناع والإقناع ، وإنما الصحيح الذي لا شك فيه ان الزعيم كان يتخذة مثالا لأنداده من أبناء جيله ،

وكانت خطته في قيادة هذا الجيل مستمدة من مراقبته لعواطف ابنه وآرائه ، فما كان طبيعياً من عواطف ابنه وآرائه حسبه طبيعياً من أنداده وزملائه وشمله بحنانه ورعايته كأنهم كلهم من أبنائه .

أما والدة سن فوفلم تشتغل بالسياسة قط ، وقضت معظم أيامها بعيدة من الصين تارة في هواي وتارة في المستعمرة البرتغالية مكاو ، وتنصرت كما تنصر زوجها وشغلت اوقاتها بتوزيع الكتب الدينية على سيدات البيوت .

وكانت زوجته الثانية وسطى بنات سونج الثلاث ، وهن آي لنج (اي رافة وعمر طويل) وشنج لنج (أي سعادة وعمر طويل) وسي لنج (اي جمال وعمر طويل) .

وبنات سونج هؤلاء أسرة فذة في تاريخ العالم ، لم يعرف عن أخوات قط انهن تزوجن في عصر واحد مثل زواجهن من ناحيته السياسية اوناحيته الاجتماعية اوناحيته الشخصية .

فالبنات الكبرى تزوجت من الدكتور كونج الذي تولى رئاسة الوزارة غير مرة ، ويكاد ان يقام مقام التقديس في الصين لأنه ينتمي الى اسرة كنفشيوس ويحفظ اسماء نيف وسبعين جدا يصلون بينه وبين امام الصين الكبير .

والبنات الوسطى تزوجت من الدكتور سن ياتسن ابي الصين ونبيها الوطني .

والبنات الصغرى تزوجت من القائد شيان كاي شيك الذي قاد الصين قبل الحرب العالمية الثانية وخلالها ولا يزال رئيساً للصين الوطنية .

وقد اهلتهن لهذا الزواج تربية عالية وانتساب الى أب قوي النفوذ في دوائر المال والثقافة ، وهو شارل سونج العصامي النابغ ، الذي تعلم في أمريكا ليعود الى الصين رئيساً وطنياً للمرسلين ، فحولته أزمات السياسة والاقتصاد الى عمل آخر لا مناسبة بينه وبين هذا العمل ، وهو التوسط لبلاده عند ملوك المال لتفريج ازماتها ، ثم الانقطاع للأعمال المالية مع الانتفاع بنشأته الدينية في حماية الدعوة الوطنية .

ويباهي الصينيون بزعامة هؤلاء الأخوات للمجتمع الصيني الحديث ،
إذ ليس في أميرات الأسر المالكة ولا في بنات رؤساء الأمم من تفوقهن ثقافة
وكياسة وسمتاً وخبرة بآداب المجتمعات ، وكلهن يعرفن أكثر من لغة أجنبية
ويقرأن المأثورات اللاتينية والإغريقية ويطلعن على الأدب الصيني القديم ،
ويحذقن الموسيقى الغربية والشرقية كأحسن ما يحذقها المتعلمات غير المحترفات ،
ويعتبرن طرازاً رفيعاً من الجمال والرشاقة بين الصينيات ، ويضارعن أرقى الأسر
في تقاليد التهذيب بين بنات الصين ، ويضارعن أرقى الخريجات من جامعات
أمريكا في التربية العصرية .

وقد أحببت وسطاهن الدكتور سن ياتسن وهو يناهز الخمسين ، ووجد
رواة الأخبار في هذا الزواج مادة صالحة لقصة غرامية في حياة المشاهير ، فأذاعوا
ان الدكتور شغف بالفتاة وغلب على أمره حباً فتزوجها مع ما بينهما من فارق
السن ، ونسجوا حول ذلك الزواج ما راقهم من نسج الخيال وزخارف
التلفيق .

وليست القصص الغرامية بالشيء النادر في سير الزعماء والمشاهير ، وليس
في هذه القصة خاصة ما يوجب التفنيد او التصحيح لو كان غاية ما في الأمر ان
الزعيم احب الفتاة ، ولكن بيان الحقيقة في هذه القصة خاصة يكشف عن خصلة
جوهريّة من خصال الدكتور ، ويرينا مثلاً قوياً من الاعتبارات التي يلحظها في
أعماله ، وهي اتقاء القيل والقال .

فالواقع ان سن ياتسن كان صديقاً لشارل سونج والد الفتيات الثلاث
وكان سونج من كبار المالين الذين جندهم الزعيم لخدمة القضية الوطنية ، وكان
لا بد له من تجنيد طائفة من أصحاب المصارف والشركات الوطنية لتصنيع البلاد
وتزويد الحركة بما تحتاج اليه والوساطة في الأزمت الاقتصادية بين الصين وبيوت
المال الأجنبية .

وأخلص سونج لصديقه مجازفاً بثروته وحياته ، فافتتح داراً للنشر
والطباعة تعنى بنشر الكتب الدينية ظاهراً وتطبع النشرات الثورية سراً وتبشها مع

وكلاهما في طول البلاد وعرضها بمأمن من رقابة الجواسيس على الجماعات السرية .

ولجأ سن ياتسن مرات الى بيت سونج يخبئ به كلما تعقبته الشرطة واحتاج الى مأوى بعيد من الشبهات ريثما يتمكن من مغادرة البلاد .

وأراد الزعيم ان يختار امينة لسره تتوافر لها شروط الكفاءة وشروط الأمانة ، ومن شروط الكفاءة معرفة اللغات وفهم دخائل القضية القومية ، ومن شروط الأمانة الغيرة الشخصية على كتمان أسرارها ، وهي شروط لا تتوافر لأحد كما تتوافر لبنات سونج ، لأنهن على نصيب وافر من الثقافة وسر الزعيم هو سر أبيهن . فوقع اختياره على كبراهن أي لنج وظلت تعمل معه الى ان تزوجت بالدكتور كونج هسيانج ، وكان يومئذ رئيس جماعة الشبان المسيحيين ، فاختار اختها الوسطى شنج لنج ، ولم يطل عملها معه حتى جاءت ابويها ذات يوم تبلغهم انها اعترفت ان تخطب الدكتور لنفسها ، فراعهم من الخبر ان تجترى فتاة على خطبة رجل لنفسها ، وراعهم فوق ذلك ان الرجل صاحب زوجة لم يطلقها ، وإن كان معلوماً لديهم ولدى الخاصة من اصدقاء الدكتور أنه لا يعيش معها .

قال بربرج الذي كتب موجز التاريخ للأسرة بإيحاء من شيان كاي شيك وقرينته : « إن احتجاج الأبوين ذهب سدى وأصرت شنج لنج على عزيمتها وخرجت من بيت أبويها لتلحق بالدكتور^(١) وتم الزواج ولما تنقض على خروجها من بيت أبويها بضعة أسابيع (٢٥ أكتوبر سنة ١٩١٥) .

وواضح من القصة أن الدكتور اختار الكبرى من البنات ثم الوسطى اختياراً وظيفاً لا اختياراً خب وخطبة ، وأنه كان في تلك الحالة بين خطط ثلاث لا معدى له عن واحدة منهن . فلما أن يقضي الفتاة عنه ، وإما أن يبقيا على صلة به معرضة للقليل والقال ، وإما الزواج .

وقد كان الزواج أكرم هذه الخطط ، وكان كذلك اشبهها بعاداته

(١) من رسالة الصين الناضجة : شيان كان شيك وقرينته تاليف بربرج Burbridge

وخلائقه ، لا يثاره - كلما شجر الخلاف - ان يختار ما يحسم القبال والقييل ، وكادت هذه الخصلة أن تحسب من مواطن ضعفه في رأي المعجبين به ورأي ناقديه ، فإن هذا الرجل الذي كان يواجه الموت ولا يبالي الضنك والعذاب كان يحفل من سوء السمعة ويختار الحل الذي يعفيه منها ، ويذكر له من الشواهد على ذلك أنه سلم للقائد يوان شي كاي ان يرأس الجمهورية بدلاً منه ونزل له عن الرئاسة دفعا لشبهات من يقول انه رفض هذا المقترح تشبهاً منه بالمنصب ، وجازف بسقوط الجمهورية وهي في مهدها لكيلا يسبقه أحد الى رئاستها .

والخوف من القال والقييل مواطن ضعف في الزعماء على الخصوص اذا كان الحرص على السمعة هو الباعث الوحيد عليه ، ولكنهم اذا اشفقوا من سوء سمعتهم محافظة على القدوة الحسنة ووقاية للمصلحة العامة فالخوف من القال والقييل شجاعة والمجازفة بالتعرض له جنائية . وقد كان اصرار سن ياتسن على رئاسة الجمهورية خليقاً ان يلقي في روع أبناء الصين وهم ينهضون لخدمة أمتهم ان المناصب مقدمة على مصالح الأمة ، وكان هذا الإصرار معطلا لنزول الأسرة المالكة عن العرش ولتسليم القائد يوان شي كاي بالنظام الجديد ، ومثيرا لمعارك الشقاق في معسكر الجمهورية نفسه ، فلم تكن سمعة الزعيم هي المصاب الوحيد من جرائر القال والقييل .

ولو أنه استخف بالقال والقييل في مسألة زواجه من أمينة سره لأساء الى سمعتها قبل أن يسيء الى سمعته ، ونكبت أسرة صديقه بفاجعة بيتية لا تستحقها منه ، وفعل ذلك بغير موجب يستحل من أجله هذه الجريمة ، لأنه كان على نية الزواج بعد تطلق امرأته التي لم يكن في وسعها أن تصاحبه في حياة الزعيم المجدد والرائد المتقدم للنهضة العصرية .

وقد بنى بزوجته الثانية بعد التفاهم بينه وبين الزوجة الأولى على الانفصال في سلام ، لتملك حريتها ولا تتقيد به وهو منفصل عنها . ونعم الزوج الكهل والزوجة الشابة بعيشة بيتية يضرب بها المثل في الوثام والمودة ، وكانت شنج لنج على الرغم من اعتدادها باستقلالها وقدرتها على تحدي العرف ومشية الأسرة مثلاً صالحاً لزوجة الرجل السياسي المشتغل بالمسائل العامة وقربة الزعيم المهدد في

مأمنه ، فلم يدفعها الفضول مرة الى استطلاع امر لم يفاتها فيه ، ولم تحجم عن مواجهة الأحوال التي استهدف لها إبان الخلاف بينه وبين خصومه . وحدث بعد انتخابه للجمهورية للمرة الثانية ان العصاة قصدوا الى منزله يحاصرونه ويطلقون المدافع على المنزل ومن فيه ، وكان خبر الثورة قد نفي اليه قبل هجوم القائد الخائن ليلاً بسويغات قليلة ، فأيقظ زوجته لتصحبه ولم يبال فوات الوقت مع اقتراب الهجوم ، ولبت يقنعها بالهرب وهي تقنعه بصعوبة خلاصهما معاً ووجوب انطلاقه فرداً وهو يتلمس مسالك النجاة ، وكتبت هي بعد ذلك تصف تلك الليلة العصبية وصفاً مسهباً نجتزىء منه بما يلي . وذلك اذ تقول :

« حوالى الساعة الثانية من صباح اليوم السادس عشر من شهر يونيه - ١٩٢٢ - ايقظني الدكتور من نومي وطلب مني ان اسرع باللبس والاستعداد لأننا مهددون ولا بد لنا من الإسراع بالنجاة ، وكان قد تلقى بالتلفون خبراً عن تأهب القائد شين للهجوم علينا ، فأراد البدار الى زورق مسلح نوجه منه رجالنا لمقاومة العصاة . ورأيت من التعويق له ان يرتبط بمصاحبة امرأة في مهربه ، فألححت عليه ان يتركني الى حين غير متوقعة عدواناً على شخصي وأنا على انفراد . وبدا له صوابي بعد برهة ولكنه لم يتركني مع هذا قبل ان يوكل بالبيت خمسين حارساً من اهل ثقته . ثم مضى منفرداً ولم تمض نصف ساعة على انصرافه حتى سمعنا طلقات الرصاص وصياح الصائحين . اقتلوا سن وين^(١) اقتلوا سن وين ثم اقتربت الساعة الثامنة ونفدت ذخيرتنا او كادت فوقفنا اطلاق النار محتفظين بالبقية الى اللحظة الأخيرة ، ثم لاح لنا ان البقاء غير مجد ونصح لي رئيس الفرقة بمغادرة المكان ووافقه الجنود على ان يبقوا حيث هم لصد كل مطاردة ، وعلمنا اخيراً بمقتلهم جميعاً .

. ومضت ساعات في المرقب ان نصل الى حديقة ديوان الرئاسة ، ولحنا بعد نصف ساعة ومضة خاطفة وشطراً من القنطرة يتهدم وينقطع علينا من ثم سبيل العبور واندفع العصاة نحو ديوان المالية ومكتب الرسوم الجمركية

(١) تقدم ان سن وين هو اسم الميلاد ، ومن عادة الصينيين ان يضيفوا الى اسمائهم القاباً عند الزواج والانتقال الى دور مهم من ادوار الحياة .

لينهبوهما ، فانسللنا بين الزحام غير معروفين والفينا أنفسنا في زقاق بعيد من المشتغلين بالنهب والسلب ، وكنت لا اقوى على السير من فرط الإعياء ، فتوسلت الى الجند الذين معي ان يطلقوا النار علي لأستريح ، ولكنهم حملوني بين جثث القتلى ... ثم سدت طريقنا مرة اخرى ... وتهامسنا الان نجاة من هجمة الغوغاء المقبلين الا بالرقاد على الارض بين الجثث كاننا بعض الموتى ... ثم تمكنت من الاستخفاء بملابس امرأة ريفية ... وعلمت بعد ذلك ان امرأتين مسكيتتين قبض عليهما لأنهما تشبهانني ... وبرحت كانتون عصر اليوم التالي ... فلقيت الدكتور سن مساء ذلك اليوم على احدى السفن بعد معركة حياة وموت وأسرعنا بالذهاب الى هونج كونج مستخفين .



هذه حادثة من حوادث الزوجين في السنوات التسع التي ارتبطا فيها برباط الأسرة الوثيق . ولو تتبعنا اوقاتها من سنة ١٩١٥ الى سنة ١٩٢٤ التي ختمت بها أيام سن ياتسن لكنت اوقات الشدائد هي القاعدة الغالبة وأوقات الأمان هي الاستثناء النادر ، وإن لم تكن كلها من قبيل هذه الشدائد الدامية .

فهما بين منفى واستخفاء وصراع ورحلة يلاحقهما الجواسيس والمتربصون وشغل من أشغال المنصب مرهق تنوء به الجبال .

والحياة الزوجية بين هذه المتاعب كل ثقل او معونة على الكلول والأنقال . ومن الحظ الحسن أنها كانت في حياة الزعيم المثلث بالأعباء معونة جاءت على حين الحاجة اليها ، فكانت زوجته الفتاة المترفة الناشئة بين احضان النعمة والدلال خيزر معوان له على مصابرة الحوادث ، وعوضها حب الإعجاب والإكبار عن حب الغرام والفتنة ، فهانت عليها المتاعب والأهوال رعاية للرجل الذي اعجبت به وأكبرته . ولعل الأزواج من أمثال سن ياتسن في عصره لم يرزق احد منهم قرينة تضارع قرينته في ثقافتها واطلاعها على أسرار السياسة من حولها ، فهي احق زوجة ان تشارك زوجها في عمله وتقرن رأيها برأيه ، ولكنها لم تسمح لنفسها ان تتجاوز وظيفة الكاتب الأمين الذي يعمل ما يطلب منه عمله

ويحضر ما يناط به تحضيره ، ولزمت حدودها هذه طوال ايام حياته ، ولم تخالف هذه الخطة الا بعد وفاته بزمان طويل : خالفتها كلياً خطر لها ان أتباع الزعيم قد حادوا عن نهجه وانحرفوا عن سوائه ، وسوغ مقامها ما لا يساغ من غيرها ، فرفعت صوت المعارضة يوم خفت بين قومها كل صوت معارض ، واستمعوه منها طوعاً او كرهاً ، كأنه صوت الزعيم المقدس يرتفع بعد المئات .

من أعماله

في سنة ١٩١٢ ترددت البشائر بين أنحاء الكرة الأرضية بنجاح الثورة الصينية وقيام الجمهورية مقام عرش ابن السماء .

وبعد ذلك بعشر سنين ، حوضر زعيم الثورة وطوردت زوجته وتنادى العصاة بقتله ، وتعالى اهتاف بموته حيث تعالى اهتاف له من قبل بالحياة والبقاء .
عشرون سنة مرت من فاتحة الجهاد في سنة ١٨٩٢ الى قيام الجمهورية في سنة ١٩١٢ .

واثنتا عشرة سنة مرت من يوم نجاح الزعيم الى يوم وفاته .

شطران غير متعادلين في حساب الأرقام ولا في حساب الحوادث ،
وأشقاها الشطر الذي كان بعد النجاح .

وصبح في سيرة هذا الزعيم ، كما صح في سير الكثير من الزعماء ، أن
اعباء النجاح أثقل من أعباء الاضطهاد والكفاح !

بل كان هذا أصح ما كان في سيرة زعيم الصين .

لأن ثورته كانت سعياً متلاحقاً الى الأمام ، ولكن عمله في الحكومة كان
أشبه بساع يسعى وهو مشدود الى الجهات الأربع ، فكل تقدم من ناحية نكوص
من أنحاء .

كان عليه في سياسته مع الدول أن يبطل سيادتها على بلاده ويلغى
« حقوقها » المغتصبة ويزيد الرسوم على تجارتها التي تتدفق على بلاده بغير
رسوم ، او تؤخذ رسومها عوضاً من الغرامات والديون .

وكان عليه في الوقت نفسه أن يقترض منها لتصنيع الصين وتعميرها وتجديد مرافقها على أحدث طراز ، كي تدفع المزاحمة الملحة عليها من مصانع الدول الاجنبية .

وكان عليه ان ينقذ الصين من الخراب اذا بقيت « حقوق » الدول جاثمة على صدرها ، وان ينقذها من الخراب اذا أبت هذه الدول ان تسخوله بالمزيد من القروض .

كان عليه ان يهادن اليابان لأنها تصد الدول عن بقاع القارة الاسيوية وتنادي « باسيا للآسيويين » .

وكان عليه ان يهاجم اليابان لأنها تعني ان الصين لليابان دون سائر الدول الغربية ، حين تذود تلك الدول عن القارة الآسيوية .

وفي سياسة وطنه كان عليه ان يسكن أو يتحرك الى الجهات الأربع ، وليس السكون او الحركة الى الجهات الاربع مما يطاق .

كان عليه ان يحمي الجمهورية وان يسلمها لغيره !

وكان الشمال والجنوب في وطنه قد انقسما بعد الاتفاق على خلع الأسرة المكروهة العاجزة ، فلما زالت الأسرة عاد الخلاف بعنوان جديد ، بل عاد بجملة من العناوين .

ومن ذلك انه كان يعهد بالوظائف الى الموظفين الكفاة من اهل الجنوب لأنهم المتعلمون على أصول التعليم الحديث ، ولأنه يعرفهم معرفة الثقة والتجربة ، فينسى الطامعون في وظائفهم ان « سن ياتسن » ابو الصين ، ولا يذكرون الا انه جنوبي يحابي الجنوبيين !

ومرافق الصناعة والتجديد نعمة ونقمة في نفس واحد .

ايستغني بلد من البلدان في القرن العشرين عن سكة الحديد ؟

كلا ! ولا استثناء للصين ، أولعلها احوج اليها من سائر بلاد

العالم ، لتراخي أطرافها وكثرة سكانها .

ولكن هذه النعمة الكبرى جرت معها البلاء وراء كل قاطرة وكل مركبة ، لأنها يسرت وصول البضاعة الأجنبية الى أقصى الأطراف ، فضربت صناعة الوطن وعطلت ايدي العاملين ، وسهلت لهم الانتقال من بقعة الى بقعة طلباً لعمل الزراعة أو عمل النقل أو طلباً للعمل كائناً ما كان . فلا هم واجدون عملاً ولا هم مردودون الى مواطنهم ، ولا هم نازلون منازل الحفاوة والترحيب ، وقد يخاف منهم العبث والفساد بغير عمل وبغير سكن وبغير قوت .

يجب ان يغلق الباب المفتوح .

يجب ان تفتح الابواب للقروض .

يجب ان تبني المصانع على عجل .

يجب ان تستورد من الخارج ادوات البناء .

يجب ان نتحرك الى الجهات الأربع ، ونحن مشدودون الى الجهات الأربع ...

وإذا همت الحكومة الجديدة بتحصيل الضريبة من الأمة المنزوفة وجدت هذه الضريبة مستوفاة الى سنوات على عهد الحكومة البائدة ، واستحال تحصيلها على نظام جديد : نظام يحصي الأرض والسكان ويقرر الحدود بين الملاك والمستأجرين ، ولا احصاء ولا خرائط ولا يعرف لأموال الدولة حساب غير حساب الكيل الجزاف .

واوشك كل عامل او عاطل في الصين ان يزوج بسن ياتسن الى الجهات الأربع ، وأن يشده الى كل جهة من هذه الجهات .

ومن اعضل العضلات تفصيل السياسة الصينية كما كانت تتبع في تلك الآونة ، ولكن الإشارة اليها تكفي لتقدير المتاعب كما اضطلع بها الزعيم الظافر .

الزعيم المسكين لأنه ظفر بمقصده . فانتقل من السير على طريق واحد الى

السير على الجهات الأربع .

وهذه إشارة عابرة الى بعض هاتيك الجهات !

رئاسة الجمهورية

كان العلم الخماسي - علم الثورة - يرتفع على كل سارية في عواصم الصين ، رمزاً الى الأمم الخمس التي تتألف منها القومية الصينية ، وهم الصينيون والمنشوريون والمغول والمسلمون وأهل التبت ، ولم يبق بعد أيام اثر للعلم الإمبراطوري - علم التين - في غير قصور بكين .

وسمع سن ياتسن بثورة أنصاره التي انفجرت قبل أوانها وهو يطوف المدن الأمريكية لجمع المال استعداداً للثورة التي تقرر موعدها بعد ذلك بسنة . وعلم من الصحف الأمريكية انه رئيس الجمهورية المنتظر . . . فلم ير التعجيل بالعودة الى بلاده ، واهتم قبل كل شيء بوقف صرف الأقساط المتفق عليها من القروض الدولية لحكومة بكين ، والسعي عند الدول الكبرى للاعتراف بالحكومة الجديدة والاتفاق على السياسة المقبلة .

وسافر الى لندن باسم مستعار ، فوجد هناك برقية أرسلت اليه بعنوان المفوضية الصينية التي لم تزل تنوب عن ابن السماء ، يعرضون عليه رئاسة الجمهورية بصفة رسمية . . . وفي دار هذه المفوضية كان معتقلاً قبل سنين لتسليمه الى حكومة بكين ! ~

ولقي المسؤولين من رجال الحكومة الإنجليزية ، وأعضاء مجلس الديون ، ثم انتقل الى فرنسا فتحدث مع بعض وزرائها ونوابها في شأن الحكومة الجديدة ، وبرز أوربة الى بلاده وهو على شيء من الارتياح الى موقف الدول من الوجهة الرسمية .

وقبل أن يصل الى بلاده بستة أيام كان المندوبون في حكومة بكين والمندوبون عن اللجنة الثورية قد اتفقوا على اللقاء بشنغهاي للتفاهم والتقريب

بين الطرفين ، فظهر من سياق البحث بينهم ان الطرفين كانا على وعد من اليابان بالمؤازرة ، ونمي اليهم ان اليابان همت بانزال جنودها على الارض الصينية والتقدم الى العاصمة ، فاستمهلتها انجلترا صديقتها يومئذ وذكرتها بمخالفة العمل المنفرد للاتفاقات الدولية ، وحقيقة الأمر على ما اعتقده الطرفان المتفاوضان أن انجلترا خشيت ان يؤدي التدخل الياباني الى بسط الحماية على عرش الصين بطلب من الأسرة المالكة ، وهي نتيجة يأبأها الثوار بطبيعة الحال ويأبأها القائد يوان شي كاي لأنه يطوي النية على تنصيب نفسه ملكاً بعد فترة الثورة الأولى ، وتأبأها انجلترا او الدول الكبرى لانها تقضي على نفوذهن جميعاً وتسلم الصين فريسة سائغة لدولة واحدة .

فأسرع الفريقان الى التفاهم على وقف القتال قبل ان تنطلق الدسائس الأجنبية من عقالها .

ووصل سن ياتسن شنغهاي في الرابع والعشرين من شهر ديسمبر (سنة ١٩١١) ونودي به رئيساً للجمهورية في التاسع والعشرين منه ، وافتتح مراسم العهد الجديد بزيارة ضريح العاهل الوطني عميد اسرة منج التي كانت تحكم الصين قبل الأسرة المانشوية ، فبايع روح الأسلاف على إحياء الصين الخالدة وصعد المغيرين على استقلالها ، واختار للدولة علماً مثلث الألوان من الأزرق والأبيض والأحمر ، رمزاً لمبادئ الثورة الثلاثية وهي الوطنية وسيادة الشعب والاشتراكية او رخاء المعيشة ، وفيه اثنا عشر شعاعاً تنبعث من الشمس رمزاً الى أقسام الصين الأرضية .

ووجه اهتمامه الأكبر الى تدعيم القواعد الدستورية ، فأذاع الدستور المؤقت مشتملاً على الحقوق الأساسية وأصول التشريع . واعترضته عقبة الهيئة النيابية في تلك المرحلة . فلم يكن من المتيسر انتخابها بغير معدات الانتخاب التي لم تعدها الصين من قبل ، ولم يكن من المتيسر الانتظار الى ما بعد تحضير هذه المعدات ، وأبى ان يحصر النيابة عن الأمة الصينية بين اعضاء حزبه ولجانه التي كانت تنبث في الحواضر والأقاليم لنشر الدعوة وتنظيم المقاومة ، فاكتمى بما تيسر يومئذ وجمع المجلس الأول من المندوبين الذين اختارتهم دواوين الحكومة

ولجان الجماعات الثورية ، وذوي الرأي بالشهرة المستفيضة ومنهم من لم يصطحب معه توكيلا من الدواوين او اللجان ، وارتضى المسؤولون جميعاً تأليف المجلس على هذه الصورة على ان تخلفه بالانتخاب هيئة من مجلسين خلال عشرة شهور يناط بها وضع الدستور .

واختار الزعيم وزرائه من أكفأ رجالات الصين الحديثة ، ومنهم من كانت له شهرة عالمية كالدكتور وانج شنجهوي الذي عين بعد نحو عشرين سنة (سنة ١٩٣٠) قاضياً بمحكمة لاهاي الدولية ، واتخذ نانكين عاصمة للدولة الجديدة : عاصمة بلا خزانة ولا سجلات ولا دواوين ولا موظفين . ثم شعر بقيود المنصب ومحرجاته وعن له أن يندب غيره للرئاسة ويفرغ للقيادة الشعبية . فوافق ذلك مقترحاً من القائد يوان شي كاي يندبه هو للرئاسة اثناء فترة الانتقال بين النظام الملكي والنظام الجمهوري ، ورأى سن ياتسن ان يستفيد من هذا المقترح للدولة الناشئة فعلق قبوله على نجاح يوان في اقناع الأسرة المالكة بالنزول عن دعاواها وحقوقها بسلام ، فانقضى شهر في المساومة والمناورة قبل الوصول الى نتيجة يحسن اعلانها .

وفي الثاني عشر من شهر فبراير سنة ١٩١٢ أعلنت الوصية باسم الامبراطور الصبي سوان تونج وثيقة النزول عن العرش ، وفيها تقول : « إن الأمة اليوم جانحة كلها الى حكومة ذات شكل جمهوري ، وبدت هذه الرغبة واضحة في أول الأمر من الأقاليم الجنوبية والأقاليم الوسطى ثم وعد القادة العسكريون من الأقاليم الشمالية بتأييدهم لهذه الرغبة . ونحن برعاية ميول الشعب نعلم مشيئة السماء ، وليس بالجميل منا أن نقاوم ميول الشعب حرصاً على مجدنا ، فنحن - والامبراطور الى جانبنا - نولي الشعب حقوق السيادة ونأمر بانشاء حكومة دستورية على النظام الجمهوري ، ولا يحدو بنا الى هذا القرار حبنا لرضى شعبنا الذي طال حنينه الى حسم الشقاق السياسي وكفى ، بل تدعونا مع ذلك رغبتنا في اقتفاء وصايا الحكماء الأقدمين الذين علمونا أن السيادة ترجع آخر الأمر الى مشيئة الأمة » .

واشتملت وثائق الاتفاق على شروط اخرى تضمن للعاهل الصبي ان

يحتفظ بلقب الإمبراطور مدى حياته ، وأن يتقاضى من الدولة معاشاً سنوياً يزيد على نصف مليون جنيه ، وأن يترك له قصر الصين وحاشيته وحرسه ، وأن تصان أضرحة الأسرة وتتكفل الدولة بإتمام الناقص منها .

ووعده يوان بتحويل العاصمة من بكين الى نانكين في الجنوب ، وأبرق بهذه الوثائق الى سنن ياتسن كأنه يتعجل انجاز الوعد باختياره رئيساً للجمهورية ، فاعترض سنن ياتسن على الصيغة التي كتبت بها وثيقة النزول وقال انها تجعل الجمهورية بمثابة المنحة الملكية التي يجوز للإمبراطور ان يستردها متى شاء ، مع احتفاظه بلقبه وقصره ومراسمه وحاشيته ، فوافقه الكثيرون من النواب والساسة على تأويله ولكنهم حسبوا ان مسألة الصيغة لا تساوي مشاكل الخلاف ومصائب الحرب الأهلية ، وقبلوا نزوله عن رئاسة الجمهورية للقائد يوان ، وأسرع هذا الى ابرام الأمر الواقع فعين سنن ياتسن مديراً للسكك الحديدية .

ولا نعلم عن التحقيق اسرار المفاوضات التي دارت بين يوان والأميرة الشابة (لنج يو) الوصية على العاهل الصغير ، الا انه قد هدم اعصابها بوسائل شتى ولم يقتصر على وسيلة واحدة ، فمن وسائله انه اوعز الى ضباط الفرق ، وكلهم ممن تعلموا على يديه وترقوا برعايته ، ان يبرقوا اليه معلنين اخلاصهم للنظام الجمهوري وثقتهم بحكمته وحنكته واقتداره على حل المشكلة بما يرضي الأمة ويصون الوحدة القومية ، وانه اوقع في روع الوصية انه لا يستطيع ان يعمل بغير مال يشتري به الثوار ويقسم به صفوفهم ويضمن مرتبات جنوده زمناً مخافة ان ينفضوا عنه وينقلبوا عليه قبل انفراج الازمة ، فسلمته الوصية خزانة الدولة واكتسبت مع الأمراء والأميرات بالذهب والفضة بعد افراغ الخزانة العامة فلم يبق لديهم ما ينفقونه على المعارك والمساعي السياسية لو خطر لهم ان يخالفوه ويركنوا الى مشورة احد غيره . وربما زعم للوصية المتحطمة ان الحكومة الموقوفة ظل زائل ، وان الإمبراطور ربما بلغ سن الرشد وهي في خبر كان ، وانه باق على ولائه للبيت المالك عند الحاجة اليه ، ولا يدعو الموقف حينئذ الى اكثر من مرسوم يصدره الإمبراطور بمشيئة الشعب الذي سيضجر مع الزمن من عجز العهد

الجديد ولا يصعب على الوصية ان تقبل هذه التعلات فهي احب اليها بأية حال من كفاح لا يعاونها عليه احد ، ولا تضمن من عواقبه ما ضمنتها لها وثائق الاتفاق . وقد رؤي هذا الباقعة في مؤتمر الاسرة المالكة الأخيرة يضرب الأرض بجبهته ويكي ويأبى ان يرفع وجهه خجلاً من النظر اليها وهي تستسلم لمصيرها ، وسمعت الوصية تقول للعاهل الشاب : إذا كنت الآن لا تزال بقيد الحياة فالفضل في بقائك لهذا الصديق النصوح ، وكان يوان قبيل ذلك بلحظات يقول لهم : ان لويس ملك فرنسا لو وجد حوله من يقنعه بالإصغاء الى صوت العقل لما هلك وهلك معه ذروه !

ولقد عز على ناس من خلصاء الرئيس سن ياتسن ان تؤول الثورة الى هذا الباقعة الذي لم يثبت قط على الولاء لأحد ، ومن هؤلاء شيان كاي شيك خليفة سن ياتسن على قيادة الصين ، فإنه اعتزل منصب العسكرية وعاد الى اليابان يستكمل دروسه ويتربص من ثم تقلب الحوادث والأحوال . وأخل يوان بأول شرط من الشروط المطلوبة وهو تحويل العاصمة من بكين الى نانكين ، فتعلل ببوارد الفتنة - وهي من تدبيره - للبقاء بالعاصمة الشمالية وحراسة الأقاليم من ورائها ، واجل الانتقال الى العاصمة الجنوبية الى اجل غير محدود .

ثم سرت مساعي يوان شيئاً فشيئاً من طريق الدعوة السياسية ، فلما نظم سن ياتسن حزبه باسم (الكومنتانج) اي الحزب الوطني ، نظم يوان حزباً يقابله باسم حزب التقدم (شنبتانج) ودس اعضاءه في دواوين الحكومة ومراكز النفوذ وكلف عالماً من علماء القصر الدستوري الأمريكيين وخبيراً من أساطين الصحافة الانجليزية ان يدرسا الحالة العامة من الناحية الفقهية والتقليدية ويكتبوا بالرأي الذي يريانه تقريراً مفصلاً معززاً بالشواهد والأسانيد للاستئناس به عند تقرير النظام الدائم عما قريب !

هذان الخبيران الدستوريان هما الأستاذ فرانك جودناو Goodnow والدكتور موريسون Morison مراسل التيمس ، وكلاهما معروف الرأي عند القائد يوان وان لم يكن رأيهما مكتوباً بالتفصيل . فخلاصته كما عرفها القائد من أحاديثهما

ان النظام الملكي اصلح الأنظمة للصين خاصة في احوالها الداخلية وعلاقاتها الدولية . لأنه نظام ذو جذور متغلغلة في تكوين المجتمع وعادات اهل البلاد ، وعلى تقرير هذين الخبيرين وغيره من الوثائق المستمدة من تقارير اعوانه وصنائعه بنى السند الدستوري الذي خوله - وهو لا يزال رئيساً للجمهورية - ان يطيل مدته ويوصي بالرئاسة بعده لمن يرتضيه .

أما سن ياتسن فقد تقبل مهمة الاشراف على تنظيم المواصلات غير مترفع عنها بعد رئاسة الجمهورية . والواقع ان منصب المدير العام لمواصلات الصين لا يقاس على نظائره في البلاد الأخرى ، لأن علاقات الدول بالصين تدور على خطوطها الحديدية ومواصلاتها البحرية والبرية . وتعمير الصين من أقصاها الى أقصاها يتوقف على مستقبل هذه الخطوط ومعضلاتها المتجددة اكبر من طاقة الدولة الصينية برمتها . وهذه المعضلات هي التي اراد يوان ان يمتحن بها طاقة الزعيم المحبوب ، فهو ملاق فيها الفشل والخيرة لا محالة ، وكل اولئك خير لامبراطور المستقبل يوم تنهياً الفرصة للتشهير بالرئيس القديم .

ومن مهازل النقد والتاريخ ان ألسنة يوان من الصحفيين الأجانب اخذوا على سن ياتسن انه أمر باعداد خريطة للصين ترسم عليها المواقع التي يراد الاتصال بينها فأعدوها له ورسموا الخطوط المطلوبة غير حافلين بما يعترضها من الجبال والأنهار والعقبات . واستدل النقدة المؤرخون بهذا على جهل الزعيم وتصديه لما لا يحسنه ولا يدره . . . وفاتهم ان يتهموه بالعمى عن رؤية مواقع الجبال والأنهار . . . فليست المسألة اذن جهلاً بهندسة المواصلات فما من أحد يجهل ان الجبال والأنهار تعوق المواصلات ، وانما هي مسألة نظر يرى الجبل في موضعه او لا يراه . . .

وحقيقة المسألة ان الخريطة الأولى وضعت كما قال اولئك النقدة المؤرخون ، ولكنها خريطة تعقبها خرائط لرسم القناطر والأنفاق او رسم المنعرجات الطوال والقصار حيث لا يتيسر بناء القنطرة وفتح النفق ، ولا بد من الخريطة الأولى والخرائط التي تليها في بلاد لم توضع لها خريطة قط لغرض من هذه الأغراض .

وقد وجه يون مساعيه الخفية جميعاً لإحباط مشاريع السكك الحديدية والاستيلاء على جميع القروض التي يحصل عليها من خزانة الديون .

ومضى في الاخلال بجميع الشروط المتفق عليها بينه وبين رؤساء الجمعية الوطنية ، ومنها شروط لا تستقيم مع الاخلال بها حكومة دستورية . فأغفل البرلمان جملة في مسائل القروض والمعاهدات ، واتصل بمندوبي مجلس الديون Consortium دون عرض الأمر على الهيئة النيابية القائمة ، وهذا المجلس هو الهيئة التي تألفت من مندوبي الدول ذوات القروض والإتاوات : وهي انجلترا والولايات المتحدة وفرنسا والمانيا وروسيا واليابان . وقد سمحت للقائد المخاتل بما طلب على شدة ضنها بالمال . . . لأنها حمدت منه استمراره على سنن ابناء الساء في ضمانات هذه القروض ، ولم يعترض على هذه الضمانات احد غير الرئيس ويلسون لمساسها بسيادة الصين ، خلافاً للجهود المتفق عليها بين الدول « ذوات المصالح والامتيازات . . » .

والمفهوم من موالاة القائد يون لمجلس الديون انه يدخره للمستقبل عسى ان يعترف به امبراطوراً على الصين بعد الغاء الجمهورية ، وإنه اقترض المال وحصل على عدة ملايين فلم ينفق منها كثيراً ولا قليلاً على مشروعات التعمير ، بل انفقها كلها على تسليح الفرق الموالية له ورشوة القادة المسلمين على الأقاليم .

والمفهوم ان سن ياتسن وانصاره نعموا على هذه السياسة خوفاً على مستقبل الجمهورية ، وانتظاراً منهم لتسوية مسائل القروض والديون والجمارك والمواصلات على أساس جديد يناسب الدولة الحديثة ، مع مناداتهم باحترام المعاهدات الى ان تتم التسوية المنتظرة ، خوفاً من تأليب الدول على العهد الجديد .

وكان من رأي سن ياتسن ان يستعان ببيوت المال والصناعة في اليابان على تمويل مشاريع التعمير الأولى ، لاعتقاده ان اليابان لا تستطيع ان تنفرد بامتياز يخصصها على حدة ، وأنها اذا حاولت ان تنفرد بامتياز كهذا صدتها الدول مجتمعات دون ان تنتظر التخويف او الاثارة من قبل الحكومة الجمهورية . فالواقع ان

الدول لا تحمي سيادة الصين غير عليها بل حقوقاً من غلبة احداها على هذا الميدان
الفسيح ، ومن تغلبت عليه طغت على العالم بقوة تحشاشها الدول جمعاء .

وقد عرف من مفاوضات يون انه قبل ضمان الملح في الدولة الشاسعة
لسداد قروضه الأخيرة ، فأبرق سن ياتسن الى الدول يحذرهما ، واعلن الرئيس
ويلسون كما تقدم تنحي الولايات المتحدة من مجلس الديون .
ووقعت الواقعة بين الرئيسين .

وصرح الشر باسمه بين العاصمتين .

وتمادى يون في أساليبه فنكل بخصومه وأرسل الى زعيم معارضيه بالمجلس
(سنج شيو جين) من يقتله وهو على رصيف محطة شنغهاي يهيم بالسفر الى
الشمال ، وقبض على قاتله في مكانه ولكنه خنق في السجن قبل ان يوجه اليه
سؤال .

وتتابعت حوادث الاغتيال وتعطل البرلمان بوقف جلساته او فصل
اعضائه من حزب الكونتانج او رشوة الأعضاء الآخرين ، وتدرج يون من اكراه
الأعضاء الباقين على تجديد انتخابه الى الغاء الجمهورية وعلان الإمبراطورية ،
فنادى بنفسه إمبراطوراً ولما تنقضى على الجمهورية أربع سنوات (يناير سنة
١٩١٦) .

وكانت الحرب العالمية الأولى قد شغلت الدول الغربية عن الصين وعن
اليابان ، وسنحت الفرصة لليابان فوجهت الى حكومة يون مطالبها التي
اشتهرت بالمطالب الواحدة والعشرين ، ومنها اعتراف الصين بحق اليابان في
الاستيلاء على مخلفات المانيا وامتيازاتها ، والاعتراف باحتلالها لمنشوريا ومنغوليا
الشرقية ، وتخويلها حق الرقابة على مناجم الفحم والحديد ، وان تتعهد الصين
بألا تسمح لطرف ثالث باحتلال موانئها ومراكزها التجارية ، وان تقبل
المستشارين والخبراء من اليابان للإشراف على شؤونها السياسية والعسكرية
والاقتصادية .

ولم يسع يوان ان يجابه اليابان برفض مطالبها ، لاشتغال الدول عنه واشتغاله بمكافحة الثورة الداخلية ، فوقع المعاهدة بينه وبين اليابان (في الخامس والعشرين من شهر مايو سنة ١٩١٥) على هذه الشروط المجحفة بعد تعديل طفيف لا يقدم ولا يؤخر في جوهرها . وكان اذعانه لهذه الشروط احدى الضربات القاضية عليه ، فزادته خذلانا بين خصوم الجمهورية فضلا عن دعائها وانصارها ، ومكنت سن ياتسن من مقاتله ومن تجميع القوى شمالا وجنوبا على حكومته . فاعتقد أهل الصين انه باع البلاد وباع الأسرة المالكة وباع الجمهورية ليشتري لقب الإمبراطور . وجاءته النكبات من المخلصين وغير المخلصين ، فلم يبق حوله احد من الوزراء الاكفاء الذين قبلوا معاونته بموافقة سن ياتسن جنأ له على انجاز برامج الإصلاح ورياضة له على الاعتدال واتقاء للبعثة والمفاجأة . واقتدى به غير المخلصين فاشتغل منهم بولايته ووجد من يبيعه بالإمارة على هواه ، ولا فائدة هنا من تعديد الأسماء فإنها تبلغ المئات لم يثبت اسم منها طوال الأزمنة على ولائه لهذا الفريق أو لذاك الفريق ، ومن بقي منهم على عهد الثورة لم يبق على خطة واحدة من خطط الحرب او خطط المسالمة .

وغني عن القول ان نقمة بكين كلها كانت تنصب على رأس رجل واحد هو سن ياتسن صاحب الاسم الذي تدور حوله كل دعوة الى مقاومة السلطان المطلق . وكان هذا الزعيم الأمين صريحاً مع الطاغية الباقعة فأبرق اليه منذ الخلاف الأول (ابريل سنة ١٩١٣) يعلنه بالعداء ويقول له في غير موارد « إنك تحون الوطن ، وإنني لمحاربك منذ الساعة كما حاربت الأسرة المانشوية » . . . وعاد بعد شهر فأبرق اليه يطلب اليه الاعتزال ، وعاد بعد شهرين فأبرق الى رؤساء الأقاليم يدعوهم الى خذلانه والثورة عليه . صارحه بهذا العداء منذ ركب رأسه وتصرف بأموال الدولة كأنها من ماله ، ووضح من كل استعداد له انه استعداد لقمع الشعب والتزلف الى الدول بالتفريط في حقوقه ومصالحه ، فما كادت اليابان ان تفرض على البلاد دعاواها الواحدة والعشرين حتى قبلها بعد يوم واحد من توجيهها اليه . ابرقت اليه بمطالبها في السابع من شهر مايو سنة ١٩١٥ واجابها اليها بغير تعديل ذي بال في التاسع من الشهر ،

ووقع الاتفاق المهين بعد اسبوع .

وخيل اليه انه يخدع البلاد والدول جميعاً عن نياته ، وانه ضمن الاعتراف من الدول سلفاً بسياسة الخنوع والرشوة ، فجمع من انحاء الشمال والجنوب مؤتمراً وطنياً يتألف من ألف وتسعمائة وثلاثة وتسعين عضواً وصلوا الى العاصمة قبل ختام السنة ، وسئلوا رأيهم فكانوا جميعاً على رأي واحد : وهو تغيير نظام الحكومة واقامة الملكية الدستورية ومبايعة يوان شي كاي ملكاً دستورياً بلقب الإمبراطور .

وانكشف الإخراج المسرحي حين كتب الى المؤتمر الوطني يرجوه ان يعيد النظر ويعفيه من الإلحاح عليه ويقول له : « انه ما دام قد اجمع على اقامة الملكية الدستورية فلا محل لاعتراض رئيس الجمهورية على هذا الاجماع . الا ان ترشيحه هو للملك قد أذهله . . . وأن السماء هي التي تخلق الشعوب وتولي الملوك ولا تبدل لما تريد ، وإنما يستحق ولايتها من كان على فضيلة نادرة . . . »

ثم قال : « وإنني أنا الرئيس قد خدمت الدولة ثلاثين سنة وبلوت الغير والصروف وما حصلت على شيء . وقد مضى على قيام الجمهورية سنوات اربع لقيت فيها الصعاب الجمة واقترفت الأخطاء الكثيرة ، فكيف وما اتسع الوقت بعد لتصحيح تلك الاخطاء استحق ذلك الشرف ؟

ثم استطرد الى محاسبة الضمير فتساءل : كيف يستريح من وخزه وهو يفكر في مولاه النازل عن عرشه ؟ او يفكر في قسم الولاء للحكومة الجمهورية ؟

ثم قال انه لا يقوى على هذه المحنة الا اذا شفع له فيها وعده بنسيان نفسه والتضحية بكل عزيز عليه فداء لوطنه ، وإنه ليرجوع هذا الا يلجئه المؤتمر الى مأزق يأباه ولا يزوج بنفسه فيه وهو راض ، وأمامه المرشحون للملك يختار منهم من يشاء عداه ، وهو من يبايعه ويرضاه .

فلم يمض غير قليل حتى عاوده رسل المؤتمر بسجل طويل سردوا فيه فضائله ومزاياه وعددوا فيه مآثره على البلاد وخدماته للعرش وللجمهورية ، وذيلوه

بالتوى التي تحله من حساب ضميره . فقد كان عليه ان يبر بقسمه للجمهورية ما دامت الجمهورية ، ولكنها تزول يوم يزيلها الشعب فلا توجد ولا يوجد لها قسم في الرقاب ، وانما المسؤول من أزالها لولم يكن له حق في ازلتها او ابقائها ، ولا نكران لحق الشعب في الحاليتين . . . فلا شأن « لإمبراطورنا » يوان شي كاي بما قضاه رعاياه .

هذه فصول من المسرحية تلتها فصول اخرى ، كلفت الدولة الصينية كما هو واضح جهد الجيابرة لو صح ان يوصف بالجبروت هزل كهذا الهزل ومجون كهذا المجون ، ولو انها كانت مسرحية تمثيل كلفت تمثيلها ومخرجيها عشر هذه التكاليف لنجحت اضعاف هذا النجاح ، ودام تمثيلها على الأقل بضعة شهور واستعيدت بعد سنوات ، ولكنها بعد كل هذا العناء لم تشغل من مسرح السياسة الصينية اكثر من بضعة اسابيع . فإن « الإمبراطور » على الرغم منه « وضع التاج على رأسه وأسبغ الطيلسان على كتفيه في مطلع السنة (١٩١٦) وخلعهما - باختياريه - في الثاني والعشرين من شهر مارس مستجيباً هذه المرة أيضاً لمشئبة الشعب ، وأذاع انه قانع برئاسة الجمهورية ما دام الشعب ينفر من لقب الإمبراطور .

وبديه انه لم يلبس التاج والطيلسان مطيعاً للشعب ولم يخلعهما لطاعته ، وانما افترى على الشعب اولاً وآخرأ وحاول ان يتشبث بالملك ما استطاع ولم يحسب حساباً لصديق النفوس في الوطنية ولا لحسة المطامع في امثاله وبين صميم اعوانه ، فعصف به خلل الحساب ، وما كان له من قدرة يفخر بها غير صواب الحساب .

وما هو إلا أن جلس على عرشه يتقبل التهاني من حاشيته واذنابه حتى تجاوزت ارجاء الصين بصيحة اعوان سن ياتسن الذين اطلق عليهم اسم الاخوان المتعاهدين : انقذوا الجمهورية ! انقذوا الوطن . ولم تبال الطوائف الفتية منها ان تخرج للمظاهرة والهاثف بهذا النداء بين سمعه وبصره ، واثبتت التجربة كرة اخرى ان عادات الشعوب الاصيلة انفع لها والصق بها من النظم المستعارة ، فان

الاحزاب السياسية لم تبلغ من خدمة وطنها في هذه المحنة بعض ما بلغته الجماعات و « الأخوات » التي تعودتها الصين منذ آلاف السنين . وكانت جماعة « الاخوة المتعاقدين » انشط هذه الجماعات واقدرها على تلبية الرأي العام وقيادته ونشر الاخبار سراً وجهرة بين جماهيره الى اقصى اطراف البلاد النائية ، وثابتت على نشاطها بعد سقوط الطاغية وذهاب « الإمبراطورية » المغتصبة .

ومن الصدق للتاريخ ان يقال ان فعل الخيانة في هذه المحنة لم يكن اهون وقعاً على يوان وزمرته من فعل الامانة والنخوة ، ولكل شيء آفة من جنسه كما قيل .

ففي اسبوع واحد حذا المحتالون من أصحاب المطامع حذوه واعلنوا استقلالهم بأكثر من عشرة اقاليم . وحز في نفسه ان معظم هؤلاء كانوا من اذنبه ومأجوريه ، فاعتزل الملك واخبار المالك الداخلية المستقلة تلاحقه حتى اطبقت عليه الطامة الكبرى باستقلال رشوان وهونان وعليهما اقرب اعوانه وصنائعه . . . ففضى عليه الغم والكد في السادس من شهر يونيه ، ولما ينقض على صعوده الى العرش ستة شهور ولا على نزوله عنه ثلاثة شهور .

روى التاريخ ان يوليان المرتد كان ينادي قبيل وفاته بينه وبين خاصته وبينه وبين نفسه : ايها الجليلي . لقد انتصرت ! يعني (السيد المسيح) .

ورواية التاريخ هذه لم تثبت ثبوت اليقين ، بيد أنها رواية معقولة لاداعي لنفيها واستغرابها ، فقد كان الباقعة الصيني ، المعتز بدعائه وسلطانة وما يفعله المال والسلاح يعجب قبيل نزوله عن العرش ويعيد العجب قبيل موته ، كيف يطاع سن ياتسن هذه الطاعة بغير دهاء وبغير سلطان او مال او عتاد ، وتكاد صحيحة يوان ان تكرر صحيحة يوليان .

ولم ينفرد باقعة الصين بهذه الدهشة من فعل الزعامة القوية ، فقد كانت دهشة مستشاريه الغربيين اعظم من دهشته . وجاء في كتاب برنارد مارتين عن الحمية العجيبة Strange Vigour ان الدكتور موريسون صاحب الفتوى الفقهية الاجتماعية التي سوغت ليوان اغتصاب العرش وقررت ان الملك اصلح

انظمة الحكم للصين - دعا اليه الدكتور جيمس كانتلي استاذ سن ياتسن ساعة احتضاره وهمه ان يعترف له قبل مفارقة الدنيا بانه قد جهل قوة سن ياتسن وعظمته الشخصية وانه لو كان عرفه حق معرفته لاتخذ تاريخ الصين مجرى غير مجراه . قال : وبودي لو يصبح اعترافي هذا معروفاً للناس ا

وتتجلى المكانة الهائلة التي رزقها هذا الرجل من نواذر لا عداد لها يقصها الأجانب والوطنيون ويتحدثون فيها عن الخاصة والعامة من قومه ، وربما كانت كلمة المكانة اضعف من التعبير الصحيح عن هذه الخاصة العجيبة التي لا يرزقها جميع الزعماء ، فلولا انها مكانة ثقة أو محبة لكانت كلمة السطوة احرى ان تدل عليها حق دلالتها ، ولولا انها سطوة روحية لما نجح بشخصه منفرداً - كما روى الجنرال موريس كوين - في اقناع قائد جيش عاص بالارتداد مع جيشه وراء المدينة ، تهدئة لروع السكان .

وتقدم من بعض الاخبار ما يشير الى عاداته المرعية في تحميل التبعات والمحاسبة عليها . فإنه لا يشهر العداء على احد حتى يبرىء ذمته من تذكيره ونصحه ، وجرياً على هذه العادة أبرق بعد وفاة يوان الى وكيله لي يوان هنج يحذره من تحدي الدستور ومجاعة طلاب الانقلاب الملكي واعادة الامبراطور الصيني « بوتوي » الى عرشه . وكان هذا الوكيل يتولى منصبه ويقيم بالعاصمة الشمالية بعيداً من سن ياتسن وأشياعه ، فلما وصلت اليه البرقية تخلى عن منصبه وعن المنصب الذي اسندته اليه الحكومة الموقوتة ، ولم يحفل بغضب القادرين عليه مرضاة للزعيم الذي يطارده الأقوياء ولا يكاد يأمن على رأسه .

ويعلم المتبعون لتاريخ الصين الحديث ان الصلابة والعناد ابرز صفات القائد شيان كاي شيك خليفة سن ياتسن على زعامة الصين ، ولم يكن شيان على وفاق مع استاذه في كل موقف وكل خطوة ، فخالفه مرات ولم يخطئ دائماً في هذا الخلاف ، بيد انه كان يخالفه وهو بعيد ، ويروغ من لقاءه كلما تسنى له ان يداري روغانه خجلاً من مخاطبته وجهاً لوجه بالخلاف ، ولم ينفرد شيان بهذا الأدب مع استاذه العظيم ، بل كان مثلاً يحكيه غيره من تلاميذ الرجل او معارضيه ، فهم جميعاً يتقنون لقاءه بالمعاندة والمكابرة ، ولا يجترئ عليه الا من

يجهله ويجترىء بسورة البهيمة الجائعة على كل مقام .

ومكانته هذه بين العامة من قومه هي التي قاومت طغيان يون ومناوراته واحابيله التي ينخدع بها الدهماء من كل أمة ، فلما اجتمع مؤتمره واجلسه على العرش ونشرت وثائقه في الصحف وعلى المنابر وبين جماهير المستمعين كان السؤال الذي يتردد على كل لسان : وماذا يقول سن ياتسن ؟ واين توقعه مع الموقعين ؟ ثم يوصد السائل اذنيه عن كل مقال !

وطالما تضاحك الامريكيون من هذه السذاجة كلما صادفتهم عرضاً في دوائر الأعمال والمعاملات . فمن ذاك ان أهل الصين المقيمين بالولايات المتحدة عرفوا اسم الدكتور موريس وليام الذي سبقت الاشارة اليه عند الكلام على مصادر ثقافة الزعيم ، فاذا استرابوا في وثيقة تجارية او نصيحة من محام او محادثة من صحفي - وهم بمأهنتان حيث يقيم الدكتور - قالوا لمن يناقشهم : هاتوا لنا كلمة من الدكتور وليام ، ولا تجدي محاولة قط ما لم يسمعوا الكلمة من الدكتور .

ولم تضعف هذه الثقة الى سنة ١٩٤١ بعد وفاة الزعيم بست عشرة سنة . فلما ارادت مسز فرانسس ماسون امينة صندوق الاعانة الصينية ان تغتنم مناسبة ١٠ اكتوبر سنة ١٩٤١ لنشر الدعوة للصدقة يوم الاحتفال بعيد الجمهورية ، واقرحت على طائفة من عامة الصينيين ان تنشر صورهم في الصحف مشفوعة باحاديث مروية عنهم ، تستجلب بها العطف على فقراء بلادهم ، كان جوابهم : نعم . نفهم هذا ، ولكن لا نفهم لماذا تصوروننا لاعانة اناس يعيشون هناك ؟ وماذا عسى ان تعمل صورة هذا الشيخ او تلك المرأة لتقوية الجند على حرب اليابان وضمد الجراح واطعام المنكوبين ؟ . . . وكادت السيدة ان تحن من الغيظ وان تصرف المصورين الذين حضروا في مكاتبتهم وصبروا نحو ساعة على سماع حوارها . وذكر احدهم اسم دكتور موريس وليام مستشهداً به على مسألة لا علاقة لها بموضوع الحوار . فلاحت على وجه زعيم الطائفة مستر بنج بارقة حياة ، بعد ان لبث برهة كالصفحة المححوة بلا كتابة ولا رمز ولا اشارة

وسألهم : أنتم من معارف الدكتور ؟ فلما قالوا له نعم ونقلوا اليه بعض اخباره قال لهم : حسن . الآن احدثكم بقصة عن بلادنا وأذن لكم ان تنشروا معها صورتنا ...

وكان لتسعة من التجار الصينيين مشكلة مالية فاستشاروا احد المحامين فأنبأهم انها تستدعي ذهابهم الى المحكمة وإدلاءهم هناك ببعض البيانات . قالوا : إن أشار علينا الدكتور وليام بالذهاب ذهبنا ، والا فنحن مختارون للمشكلة محامياً غيرك ... وحاول المحامي ان يفهم علاقة الدكتور بالقضية وهو طبيب أسنان ، فلم يفهم منهم شيئاً حتى اتصل بالدكتور على التلفون وعلم منه سر هذا « التفويض » القومي الغريب عند جميع الصينيين بالمدينة ، ولا سيما الوافدين حديثاً من غير المتعلمين^(١) .

ليست هذه طاعة رعية لرئيس جمهورية ، ولكنها ثقة أبناء الوطن بمن سموه أبا الوطنية في بلاد تقدرس الأسلاف ، وتنسى ان أبوة الزعامة أبوة مجاز فلا تفرق بين الولاء لها والولاء لعبادة الآباء والأجداد .

ولم يؤثر عن أبناء الصين أنهم من ذوي الخيال او ذوي المزاج الذي يسميه الغربيون بالمزاج « الرومانتيكي » ويقصدون به صبغ الحياة بصفة الحماسة الشعرية والفخامة الوهمية . فالقوم كما قدمنا عمليون ارضيون يقدرون الأمور بمقادير الحس القريب ولا يعجبون الا بما يبصرونه ويدركونه ويلمسون شواهدهم في معارض الواقع والعيان . فزعيمهم سن ياتسن لم يسخرهم بالخيالات والأباطيل بل كسب الثقة منهم بيقين لا يمتري فيه اثنان ، وليس ادعى الى الثقة بالعظيم عند الناس من ثبوت نزاهته امام المغريات والمخاوف ، ويقينهم انه لا يبالي مخاوف الموت ولا مطامع الحياة . وقد رسخ هذا اليقين عندهم في نزاهة الرجل حتى اصبح الشك فيها كالشك في رؤيته وسماعه ووجود شخصه ، فبلغ بهذا اليقين ما لا تبلغه رئاسة الرؤساء وقدرة الزعماء .

والواقع ان الرجل فني في رسالته حتى لم يبق له وجود بمعزل عنها ،

(١) من كتاب موريس ويليام وسن ياتسن Maurice William and Sun yatsen

واذهل انصاره وخصومه بنشاطه بعد قيام الجمهورية كما اذهلهم قبل ذلك بالسعي الخيبي الى اقامتها ، واوشك ان يحسب من اصحاب طبائع الجان التي توجد في كل مكان ، فبينما هو بكانتون اذا هو بشنغهاي واذا برسالة له تقل من اليابان او من الجزر والسواحل المستطيلة من الجنوب الى الشمال . . . ويخيل الى مطاردية انهم احاطوا به وسدوا المنافذ عليه ثم يسمعون باخباره على قيادة جيش او على ظهر سفينة او على منصة مؤتمر حاشد لا يدرون كيف احتشد وكيف وصلت دعوته اليه ، وبينما يخيل الى اتباعه واشياعه انه قد يئس واستكان اذا بالأوامر منه تثيرهم الى النضال وتحتم عليهم النصر « وعليهم ان يظفروا لأنهم لا طاقة لهم بالهزيمة » . . . فالنصر ايسر المطلوبين .

وقد ولاه وكلاء الأمة المجتمعون في الجنوب كل منصب تشدد حاجتهم اليه . ولوه قيادة الحملة على الشمال ، وأعادوا انتخابه لرئاسة الجمهورية وفوضوا اليه السفارة مع من يشاء ، وكان قبوله لكل منصب من هذه المناصب بمثابة التسليم للموت والنكبة ، فقبل اخطرها واعسرها ولم يتردد الا حين لا خطر ولا عسر ولا مظنة فيهما . بل قبل مرة ان يكون واحداً من سبعة لإدارة الحكومة على نظام القنصلية ، رداً لدسياسة الطابور الخامس الذي كان يعمل في الجنوب بإيعاز من بكين .

وساوموه أياماً على قسمة الشمال والجنوب وطنين منفصلين ، بكين كمعناها عاصمة الشمال ، ونانكين كمعناها عاصمة الجنوب ، فكان على كراسته للحرب الأهلية يجيب على المساومة بصيحة « الصين الكاملة » ويقول ان الصين لو بقيت في مثل نصفها متحدة كاملة أصبح أقوى من الصين ذات العاصمتين المنزلتين .

وعمت الفوضى حتى أصبح سلطان العاصمة ينتهي عند جدرانها ، وحتى أصبح حكم « الانتخاب الطبيعي » بين القواد هو الحكم الذي تقره دواوين العاصمة ، فإذا غلب القائد من ينافسونه وينازعونه فوظيفة العاصمة ان تقر هذا « الانتخاب الطبيعي » ويشيع المغلوب بالذم والعقاب !

وإذا كان صبر يضرب به المثل فهو صبر الزعيم الجليلد بين مذاهب هذه
الفوضى ومناع هؤلاء القادة : كان يفتح المدارس العسكرية لتخريج القادة
منها بعد سنوات قادرين على قهر القادة المتنازعين ، وإلزامهم الطاعة بحكم
« الانتخاب الطبيعي » الذي احتكموا إليه !

وجرب من مرارة الصبر - او من حلاوته - أنه كان يرى ألد خصومه
يثوبون الى رأيه حقبة بعد حقبة نادمين على مناقضته وعصيانه ، فكان يقول لهم
باسماً : لا تحتفظوا للغد بالندم على مخالفة اليوم !

وقد عابه الناقدون من الأجانب على الخصوص بالتشبث والعناد لغير
ضرورة لأنه أصر على رفض كل مساومة ترمي الى التقسيم كائناً ما كان المصير ،
وكان أناس من قومه يوافقونهم كلما كلفتهم المقاومة عنثاً يودون لو أعفاهم منه
الزعيم العنيد ، فلما قضى نحبه وتزلت النوازل بعد فوات الوقت كان منهم من
يحسب أنه لم يتشبث كما ينبغي ولم يبلغ الكفاية من تشديد النكير . . . ولو انه
عاش لما فرغ من الملامة التي يؤجلون الندم عليها الى الغد بعد الغد ، بغير
انتهاء .

مع الدول

يسمي الصينيون بلادهم بالبلاد الوسطى او مركز العالم ، فكل ما ابتعد منها فهو أطراف وعجافل .

وكانت بلاد العالم تباد لهم هذا الشعور وهذه العقيدة . فمن أقام على مقربة من تخوم الصين يعلم أنه على مقربة منها ، ولكنه يتكلم عنها كأنما يتكلم عن حيز من الأرض معزول وراء جدار . ولا يزال بعض أصحاب النحل الذين يقيمون الى غرب القارة الآسيوية يعتقدون أن الصين هي العالم الأخير ، فمن فارقت روحه العالم فلإنما تفارقه لتذهب الى مطلع الشمس من بلاد الصين !

وزاد الشعور ببعد الصين ، أو بغرابتها ، ان الذين طوحوا بأنفسهم في الأسفار ووصلوا اليها قفلوا الى أوطانهم يهللون ويبالغون في التهويل كدأب الرحالين الذين يحبون ان يوهمووا الناس انهم ركبوا الأهوال من أجل شيء يساوي مراكبها ومعاطبها ، فلا يقنعهم الغريب حتى يغربوا في وصفه الى الغاية من الإغراب . وجاء زمان كان المستمع فيه الى كل غريب يحسبه لأول وهلة حديثاً عن الصين ، وأصبح من مضارب الأمثال حين يغلو المتكلم في استغراب كلام ان يقول : « هذا صيني بالنسبة الي » أي هذه لغة لا تدخل في عداد اللغات التي يتفاهم بها السامعون .

ومن حظ الصين أنها اقتربت جد الاقتراب من أيدي المستعمرين وهي لا تزال بهذا المكان من الغرابة عند أمم المشرق والمغرب .

فالجزر البريطانية والبرتغال وأسبانيا وفرنسا وهولندا قائمة على شواطئ البحر الاطلسي ولكنها كانت قد وصلت برواد الاستطلاع والاستعمار الى الهند وما جاورها ، فأصبحت من الصين قاب قوسين ، وأصبحت الصين خط

الامتداد الوحيد أمامها كلما طمعت في التوسعة او ضاق بها المقام بين الطامعين المتغلبين .

ولما هب البناثمون وفتحوا أعينهم على ميادين الاستعمار كانت الصين أقرب ما تناولوه ، فتناولوا منه ما قدروا عليه . . .

هبت روسيا واليابان لسباق الاستعمار بعد منتصف القرن التاسع عشر الذي عرف بالهجمة الاستعمارية الكبرى . وعلمت روسيا أن الاقتراب من الهند غير مأمون العاقبة ، فلم تجد أقرب إليها من الصين .

أما اليابان فلا خيار لها في القربى ، وإنما تأخر بها الزمن ولم يتأخر بها المكان ، فانتهبت نصيبها مع المنتهيين .

كل هذا والدنيا لا تستغرب أخبار هذه المنهبة العالمية ، فكل ما جاء منها فهو مكسب للبشرية من تلك المجهل الغريبة ، وكل مأخوذ فهو حق مباح .
ذلك من حظ الصين أو من سوء حظ الصين .

وبقيت في المكيال بقية تبرعت بها الدولة الصينية على غير قصد منها ، فلم ينقل الناقلون عنها الا كل غريب يسوغ تلك النظرة الغريبة ، ويملي للقوم في الاستباحة والانتهاك .

وكانت هجمة بغير عنان ، ثم توقفت على كره من الهاجمين ، وتجمعت الدواعي من شتى الجهات لتوقيف ذلك الهجوم .

فأول هذه الدواعي ان الهاجمين على الغنيمة اشفقوا ان يتنازعوا عليها ، فترثوا على قلق وارتقاب .

وجاء الداعي الأهم بعد هذا من قبل الولايات المتحدة خوفاً على ميزان الأمان في المحيط الهادي . فقد اخرجت اسبانيا من الفيليبين فلم تلبث ان وجدت امامها من هو اخطر من الاسبان يتسابقون الى غنيمة اكبر واضخم من جزر الفيليبين : وهي الصين . ووافق حذرهما هذا حذر الدول المستعمرة من تنازعها وتنافسها على الحصص الباقية ، او حذرهما ان يموت صاحب التركة ولما يتفقوا على

تقسيم ميراثه ، فتوقفوا واستمعوا نصيحة الولايات المتحدة بالتوقف ، وحرّموا على احدهم ان ينفرد بالدار المفتوحة لكل واغل وداخل ، وسموا هذا التحريم الخاص او هذه الاستباحة العامة بسياسة الباب المفتوح .

وداع غير هذه الدواعي ان التّنين الغريب زالت عنه الغرابة ، وزالت عنه حجة الاستباحة .

كان ابن السماء يحتج على استباحة ارضه ، فيثبت باحتجائه انه يرطن وانه من عالم آخر تفصله الوف الفراسخ والوف السنين .

وكانت رعاياه - رعايا ابن السماء - تحتج وتغضب فتضيف المئات من الفراسخ والمئات من السنين الى تلك الألوف ، فلم يكن اغرب من ابن السماء الا أبناء ارضه دعاة السلام ، أو الملاكين دعاة الصراع . . . ولما اراد رسول التايننج ان يقترب بعض الاقتراب قال قولته التي جعلته اعجوبة الأعاجيب في ارض العجائب . قال انه شقيق المسيح الأصغر ، فكان الوثنيون من قومه أدنى الفريقين الى العقول والأسماع !

ثم فتح العالم اذنيه على صوت جديد : صوت ليس بالغريب عن الصين ، وليس بالغريب عن العالم ، في لهجته نبرة صينية لا خفاء بها ، وفيها نبرة انسانية لا خفاء بها كذلك ، او لعلها أدنى الى الانسانية من بعض ما يسمعونهم ، عصر القوة والقسوة والعداء والاعتداء .

ذلك صوت النهضة الحديثة من العالم القديم .

ذلك صوت « الصينية » التي تفهم ولا يضرب بها المثل في الابهام والخفاء على الأفهام .

وانبرى العالم يفهم ويتقرب .

اصبحت الصين جزءاً من العالم . . .

ومن حظ الصين هذه المرة ايضاً أنه العالم المنقسم على نفسه ، فكل قسم منه يريد هذا الطارق الجديد الى جانبه . . . الا انه يريد له ليأخذه من طريق

التفاهم بعد طريق السطو والسطوة ، ولا يريده ليسلم ويسلم معه من غائلة القوة والقسوة ، وبلاء العداء والاعتداء .

فالسياسة الاستعمارية أثبت بعد النهضة الصينية ان تعلم ان الصين تجشمت متاعبها وبذلت ضحاياها لتخلص من مساوىء العهد القديم لا لتبقيه وتطيله كأنها لم تتجشمت متعبة ولم تبذل ضحية ، فصمدت على دأبها من الطمع والإهانة ، وخيل الى ساسة الغرب ان احتلال بقعة من بقاع الصين واغتصاب جزء من سيادتها قد صار مظهراً من مظاهر الوجهاء الدولية ، يعاب على الدولة ان تفقده بين نظرائها ولولم تكن لها مصلحة فيه . . فلما رأت ايطاليا أنها تصعد على مراتب الدول نظرت الى ما يعوزها من مظاهر الوجهاء فلم تجد لها فرصة على سواحل الصين ولا مرفقاً من مرافقها فطلبت منها ان تؤجر لها إقليم فيوكين البحري وميناء (سان تو آو) . . . وأوشكت ان تجرد عليها حملة لإرغامها على قبول مقترحاتها .

لا جرم تعود الدول سنة ١٩٢٢ فترى انها لا تزال كما كانت قبيل بداية القرن العشرين ، وتتفق الدول التسع على معاهدة واشنطن لتعطي الصين أماناً على سيادتها وتحرم على إحداهن ان تنفرد بمزية فيها ، وتعيد فتح الباب الذي يتسع لدخولهن مجتمعات على سنة المساواة . . .

ولما انقسمت الصين بين حكومة الشمال وحكومة الجنوب رحبت الدول بهذا الانقسام وجعلته ذريعة للمزايدة في المطالب بين الخصمين المتنازعين ، ولم تعترف بخير الحكومتين بل أفهمتهما معاً أنها تعترف بمن يدعن لأمرها ويتقبل مطالبها ويتابع السير على سياسة العهد القديم بجميع تفصيلاتها .

وفحوى ذلك بعبارة موجزة أنها لا تعرف حكومة سن ياتسن ولا تعمل على مؤازرته ولا تزال تنظر الى الصين كأنها سوق مستباحة ، وتحسب انها خاسرة يوم تصبح الصين حوزة لا تستباح .

والمطلوب ان يكون الرجل « سياسياً عملياً » باللغة التي تعنيها السياسة الاستعمارية .

وكل شيء تقوى عليه الطاقة البشرية إلا أن يصبح « أبو الوطن » سياسياً عملياً بهذا المعنى .

وذلك هو الحرج ، أقسى الحرج في زعامة الأمم .
وتلك هي مسكنة العظمة ومظلمة الصدق والشرف .

لقد كان كل نهاز محتال في بكين سياسياً عملياً حكماً علياً بمنطق الواقع ،
مرجحاً على سن ياتسن في هذا المضمار ، بميزان الخيانة والاستعمار .

أما سن ياتسن فغاية ما استطاعه من الحكمة العملية أنه صرح بحاجته الى رؤوس الأموال الأجنبية ، وأراد ان يكون فتح الباب لتثمين الأموال في مشاريع التعمير عوضاً عن الحقوق الأجنبية المدعاة والامتيازات القضائية والاقتصادية المفروضة على الشعب والحكومة ، فتلغى المعاهدات الجائرة باتفاق الطرفين .
ويتفق الطرفان على تثمين الأموال بما يعمر الصين ولا يحيف على استقلالها وحرية حكومتها .

ولما اشتعلت نيران الحرب العالمية الأولى كانت للصين فيها سياستان متعارضتان : سياسة الشمال وسياسة الجنوب .

فأما سياسة الشمال فكانت تعطي كل شيء ولا تأخذ شيئاً : كانت تسلم لليابان بما يشبه حقوق الحماية ، وتقطعها الأرض التي جلا عنها الألمان وتحولها للإشراف على الدواوين والمعسكرات ، وتشترك في الحرب العالمية .

وأما سياسة الجنوب - او سياسة سن ياتسن - فهي تلتزم الحياد او تدخل الحرب على ضمان ، ولا ترى على أية حال موجباً للاشتراك في الحرب مع قبول مطالب اليابان .

وواضح ان سياسة الشمال هي السياسة التي لا مصلحة فيها لغير حكومة بكين ، ولا باعث لها غير التزلف الى الدول للاستعانة باموالها ومناوراتها السياسية على البقاء .

وواضح ان سياسة الجنوب تكسب للصين ان كسبت ، ولا تكلف

الصين خسارة أكبر من الخسارة الواقعة ، ان خسرت .

وواضح اي السياستين هي السياسة العملية الحكيمة بالنسبة الى الصين ،
وأيهما هي السياسة العملية الحكيمة بالنسبة للاستعمار .

ولا احد من الساسة الاجانب يرتضي الحكمة العملية بالنسبة الى الصين
مهما يكن حظها من الوضوح ، ولا استثناء لسياسي اجنبي في هذا المجال مهما
تكن صبغته وصبغة الحكومة التي ينتمي اليها ، ومنها حكومات ثورية تنكرها
جميع الحكومات .

فمن سخرية القدر ان رسول حكومة الثورة الروسية قصد الى بكين بعد
انتهاء الحرب العالمية بثلاث سنوات ، ولم يعترف اول مقدمه بحكومة
الجنوب ، وكان هذا الرسول - ادولف جوف - يزف الى اهل الصين بشرى
النزول عن حقوق المعاهدات وهي بشرى يتقبلها سن ياتسن بالترحاب لانها
عنوان سياسته واصل من أصول براجه الدولية والوطنية ، ولكنه عندما كشف
عن رسالته لم يعجب احد لا عترافه بحكومة الشمال وتجاهله لحكومة الجنوب .
كان هذا الرسول يبلغ الصين نزول حكومته عن حقوق خرجت من
يديها، ويحتفظ بالمنافع التي تملكها ، وهي منافع السكك الحديدية .

وهذه السكك الحديدية أقرب الى الشمال .

وحكومة بكين اقرب الى المساومة فيها .

فمن السياسة العملية ان يستقرب الشمال ، وإنه مع الجغرافية والسياسة
معاً لقريب المنال .

* * * *

إن القوى التي تعتبر مقياساً لعظمة الزعامة نادرة ، لندرة العظمة
بطبيعتها ، وندرة اجتماع قواها في نفس الزعيم الواحد . ومن أندر هذه القوى -
إن لم تكن أندرهما جميعاً - قوة الزعيم على مغالبة اليأس وابتعاث الرجاء من

مكاملنه هئء بهضلع كل رءاء .

وءار الباءء هئن بهء عن مصادر ذلك الرءاء فف ءواءء العالء او علاقات الناس ، ففءو له أنفا أءرى ان ءكون من مصادر الئأس والشبظ ، ولا بهءءف الى مصادر لها فف ءفر سلظقة الزعمف الءف ءءلق الرءاء لصابها وءءلقه للآخرفن .

وقء امءءء قوف الزعامة فف نفس سن فاءسن مراف بعء مراف ، من افام الءعوة الى افام الءورة الى افام الرءاسة الى افام الانقسام فف امءه وبن اعوانه واءعائءه ، فلا نءسب انفا ءعرضء لامءءان قط اعضل من امءءانفا افام الءرب العالمة الاولى .

فلوانه الءفف الى عوامل الئأس فف ءواءء العالء او فف ءواءء امءه او فف ءواءء اصحابه وءاصءه لوءء فف كل منها ما فملاء فأساً وفعجب عنه كل أمل فراءء الءالء الممعن فف الءفال .

كانء ءكومة الصفن قء اسءءاءء ءعوة الءكومة الأمرفكة فقطعء علاقتها بألمانيا ، ءم انءءء الءرب وانعقء مؤءمر الصلء وءلسء الصفن مع الءول المنءصرة ، فلذا هف ءعامل معاملة العءو المنءزم ، واءا بالمؤءمر فءبرع بفالقلم شانءونء للفافان كأنه من ءركة ألمانيا ولا علاقة له بالأرض الصفنفة !

ولم فءرؤ منءوبو بكفن على ءوقفع معاهءاف الصلء مع اسءءارهم بالاسءسلام للءول الغربفة ، وءشفاءهم الرهبة من الءورة الءف اءارها سن فاءسن فف الرأف العام فاكءفوا بالءوقفع على صلء النمسا واءءموا عن الءوقفع على صلء ألمانيا ، وفارقوا بارفس وهم على وءل مما فناءظر ءكوفماءهم بفن سءط الرأف العام وسءط الءول المسفطرة علها .

وقبل انعقاء المؤءمر بسءفن كانء ءكومة الءورة الروسفة ءءلف ءكومة القفاصرة وءعلن لها سفاسة ءارءفة ءفر سفاسءهم فف الشرق الأقصى على الءصوص ، وكان سن فاءسن فقول ان الءورة الروسية نسءة من الءورة الصفنفة الءف سبقتها بسء سنواف ، فأبرق الى لفنفن فهنءه بزوال عهد القفاصرة

والاستعمار ويتفائل بحسن المصير .

ثم تمضي سنوات بعد الحرب العالمية وترسل حكومة الثورة على القيصريّة برسلها الى الأمة الصينيّة ، فإذا هم يقصدون الى بكين ، او يقصدون الى حيث تكون المساومة على الأقاليم والامتيازات ، ويتجاهلون الثورة الصينيّة وقادتها ومقاصدها ، لأنهم قوم لا يسامون ولا يسامون !

من أين يأتي الرجاء في السياسة العالميّة !

من الغرب او الشرق ؟ من المحافظين او الثائرين ؟ من القارة الأمريكيّة او القارة الآسيويّة او القارة الاوربيّة ؟ أو من الأمة التي لها قدم في اوربة وقدم في آسيا ؟

لا رجاء اينما تقلب نظر الناظر بين الآفاق والأرجاء .

ولكنه هناك في ينبوع واحد لا يفقد رجاؤه ، وهو قلب زعيم .

وتشاء المقادير ان تغلق بكين ابوابها في وجه رسول الثورة الروسية ، لأنها لا تفتح ابوابها بغير اذن الدول الكبرى .

فانفتح امام الرسول باب الجنوب ، والتقى هذا الرسول - ادولف جوف - بنواب سن ياتسن ، وتبعه داعية من اقدر دعاة التنظيم والتهيج في الثورة الروسية ، وهو ميخائيل بورودين ، او (بيرج) كما كان يسمى في امريكا حيث تلقى دروسه الأولى ، او جروسنبرج Grusenberg كما كان يسمى في المكسيك حيث ذهب بأمر الدولة الثالثة لنشر الدعوة ، وقد عرف بلاد اخرى غير روسيا وامريكا الشالية والوسطى ، إذ كان في سكوتلاندة يحرض على الثورة ، ثم كان مستشاراً لمصطفى كمال .

وأراد سن ياتسن ان يستطلع الأمور على حقيقتها في البلاد الروسية ، فأشخص اليها تلميذه الأكبر شيان كان شيك ، واستقصى الأخبار والمعلومات من الطلاب الصينيين الذين كانوا يقصدون مدارس روسيا بعد شيوع السخط على اليابان .

ولم يفت بكين ان تغتنم الفرصة السانحة للتشهير بسن ياتسن في الصين نفسها وفي البلاد الاوربية والأمريكية التي تساومها ، فأطلقت السنة الصحف الوطنية والأجنبية تتهم الرجل بإفساد العلاقة بين بلاده وبلاد العالم المتمدن ، وترويج الدعوة للشيوعية ومذاهب الفوضى بين قومه ، وتدنق ناقوس الخطر من جانب الزعيم « المارق من حظيرة الوطن وحظيرة الحضارة ... »

وبينا هذه الضجة المسخرة تصم الآذان في المشرق والمغرب ، ومؤامرات الاغتيال تدبر لقتل الزعيم وخاصته من جراء هذه التهم والشبهات كان الرجل يبدأ كل مناقشة بينه وبين سفراء الروس بالتنبيه الى المبدأ المرعي في كل اتفاق ، وهو استقلال الصين وصيانة حقوق السيادة لها على ارضها والفرقة بين الصداقة السياسية والدعوة الشيوعية . ثم لا يكتفي بالتفاهم على هذا المبدأ في المناقشات الخاصة فيطلب من السفراء ان يرجعوا الى حكومتهم لإقراره في بيان عام يذاع على الملأ بتوقيع الطرفين .

وصدر هذا البيان في السادس والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٢٣ وفي مطلعته : « إن الدكتور سن يرى أن أحوال الصين لا تسمح بتطبيق النظام الشيوعي او نظام المجالس السوفيتية ، وأن مسيو جوف يقره كل الإقرار على هذا الرأي ، ويضيف اليه ان قضية الصين التي هي اولى من كل قضية بالاهتمام والتعجيل هي استكمال وحدتها واستقلالها ... »

ويلى ذلك كلام عن قواعد الاتفاق على مسائل السكك الحديدية ، ثم وعد قاطع بأن الحكومة الروسية لا تعمل على استقلال جزء من أجزاء الصين وإشارة خاصة الى أقاليم منغوليا وما جاورها .

والسياسة العملية التي توخاها الزعيم بهذا البيان هي اغراء الدول بهذه القدوة ، وجلاء الحقيقة عن موقفه من الدعوة الشيوعية ، ودرء المخاوف الباطلة داخلاً وخارجاً من نيات الحكومة الوطنية او حكومة الثورة كما كانوا يسمونها . ولخص علاقاته الدولية بكلمتين : كلمة عن علاقته بالروس وهي « صداقة

روسية ولا شيوعية » وكلمة عن علاقته بالدول الغربية وهي « عصرية ولا غربية » أو تجديد ولا تغريب **Modernisation and no Westernisation** وتجمعها كلمة واحدة : وهي المحافظة على كيان الصين ، ويريد بذلك كيانها الروحي فلا تفرط في ميراثها العريق من أجل الحضارة الحديثة ، وكيانها السياسي فلا تشوبه دعاوى الدول ولا تقيده المعاهدات الجائرة .

وفي يوم المؤتمر العام الذي دعا اليه أعضاء حزبه بعد إعلان خطته نحو الدول دخل عليه كبار اعوانه في حجرته قبل انعقاد المؤتمر فأراه مستغرقاً في خريطة كبيرة يمثل عليها رسماً بيانياً لسياسة الاحزاب والجماعات . . . وكان هذا الرسم هو صورة دائرة كبيرة يدور محيطها على حلقات صغيرة كتب على بعضها كلمات الاشتراكية والديمقراطية والشيوعية ورأس المال والماركسية وترك بعضها بغير كتابة ، فسألهم : ماذا تريدون ان تكتبوا في هذه الحلقات ؟ اكتبوا ما تشاؤون من الأزلمات **Ismisms** اي من عناوين المذاهب التي تنتهي في اللغات الافرنجية بهذه الحروف ، ولا يهم ما تكتبون ما دامت هذه الدائرة الكبرى محيطة بجميع الحلقات ، وهي دائرة الوطنية الشاملة .

وعلم كل من يعامله من الوطنيين والأجانب ان المحافظة على كيان الصين هي القاعدة الراسخة التي لا هودة فيها .

سعى اليه السفراء الرسميون وغير الرسميين من قبل الدول يزينون له الاستقلال بما في حوزته ويعدونه ان تعترف الدول باستقلاله على اثر اعترافه بحكومة بكين ، فلم يعن بالجواب على هذه المساومة ، او كان جوابه عليها مطالبة الدول بالكف عن التعرض لشؤون الصين الداخلية سواء كانت خاصة بحكومة الشمال او حكومة الجنوب .

وطالب الدول بالتخلي عن الجمارك في كانتون فلم تحفل بطلبه ، وظنته « لجانة شرقية » تبتدىء وتنتهي بالكلام . فاحتل الجمارك واخذ في تحصيل الرسوم على البضائع الواردة ، فلم يكد المندوبون الدوليون يصدقون اعينهم وهددوا بالمحاصرة واتبعوا التهديد بتسيير السفن الحربية وانزال الجنود فيها .

ونزلت الجنود فعلاً فانذرهم في اليوم الذي نزلت فيه الى البر ليزيدن الرسوم الجمركية أو ترجع الى مراكبها ، واضطرت الدول الى تغطية هذه المظاهرة والتفاهم على شروط جديدة لتحصيل الرسوم ونظام الاستيراد .

واحست حكومة الشمال انها تفقد « شعبياً » كلما كسبت « دولياً » من مجارة المطامع الأجنبية ، وانها لا تأمن على وجودها طويلاً ان لم تصطنع مجارة الأمة مع مجارة الدول الكبرى ، فأصدرت (في سنة ١٩٢٣) دستوراً عصرياً مستمداً من الدستور الفرنسي وبعض الدساتير الأوروبية الحديثة ، وتخيرت فيه أرقى النظريات النيابية عسى ان تقترب به الى طوائف المجددين من أبناء الشمال وابناء الجنوب ، فلم يلبث هذا الدستور ان طوي قبل نشره وتطبيقه ، لقيامه على أساس ينكره سن ياتسن ويعتبره مناقضاً لقاعدة المحافظة على كيان الصين ، وذلك هو أساس الحكومات الفدرالية ، وظهرها حسن مطابق للنظام الأمريكي الذي ارتضاه جمهرة من الناشئين المتخرجين من الجامعات الامريكية ، وباطنها سيء يرمي الى المساومة بين حكام بكين وحكام الولايات الطامعين في الاستقلال باسم الوحدة الفدرالية . وقد رأى القراء فيما تقدم وسيرون فيما يلي أن سن ياتسن كان شديد الحذر من هذه القدوة الخاطئة ، فإن الفدرالية كانت صلة الاتحاد بين الولايات الأمريكية المتفرقة . أما الفدرالية في الصين فهي تفريق للأمة المتحدة بين أصحاب المطامع والخوارج المتمردين .

ولم تملك حكومة الشمال ان تتجاهل نفوذ سن ياتسن بعد هذه المحاولات التي احبطها جميعاً باعتراضه عليها واتهامه للأغراض المبيتة من ورائها ، فتوسلت اليه تدعوه الى زيارة بكين للتفاهم على قواعد الوحدة ، وكانت هذه الدعوات تأتيه من قبل فيرفضها لضعف مركزه في الجنوب وخوف انصاره في بكين من الظهور بتأييده ، فاعتقد انها فخاخ تنصب لاغتياله أو اعتقاله واسترهانه لمساومة أعوانه الجنوبيين على التسليم ، فلم يستجب لتلك الدعوات واكتفى بشرح آرائه ومطالبه في المسائل المعروضة عليه .

اما هذه الدعوة فقد جاءت في جانبه والرأي العام في بكين نفسها يناصره ويشيد بذكره ، وحكومة بكين مهددة مستضعفة بين المتمردين عليها

والمتربصين بها من رعاياها ، فاستجاب لها وأرسل قبل سفره الى بكين طائفة من المقترحات وبياناً بالهيئات التي تدعى الى الجمعية الوطنية لتمثيل الامة برمتها ، واشترط ان يشهد تلك الجمعية مندوبون عن الجامعات ومعاهد الصناعة وغرف التجارة ولجان الفلاحين والعمال ، وسائر الطوائف من جميع الطبقات .

ثم أزمع السفر فبلغه في الطريق ان حكومة بكين رفضت مطالبه ومقترحاته ، فلم يشأ ان يعود أدراجه وواصل المسير الى عاصمة الشمال فوصل اليها في الحادي والثلاثين من شهر ديسمبر (سنة ١٩٢٤) وأراد أن يواجه حكومتها بما يلزمها الحجة ويرد عليها دعواها التي تعودت أن ترميه بها ، كلما أبى ان يقرها على سياستها .

إلا أنه لم يكد ينزل بالعاصمة حتى تراكمت عليه متاعب السفر ومتاعب المرض الذي كان يعاوده ولا يجد متسعاً من الوقت لعلاجيه ، فانتقل الى المستشفى وأجمع الأطباء على التعجيل بإجراء العملية الجراحية ، وظنوا انه يشكو خراجاً في الكبد فظهر انه سرطان مزمن لا أمل في شفائه ولا جدوى من علاجه ، ولم تخف الحقيقة على الطبيب المريض ففضى ايامه الباقية في بيت صغير يلقي فيه اصحابه وزواره ولا يشغله عن الاستعداد للموت إلا أن يملي على خلائته وصايا العمل من بعده ، وهو يعلم وهم يعلمون أنها أيام معدودات يفارقهم بعدها الفراق الأخير .

مات سن ياتسن في الثاني عشر من شهر مارس (سنة ١٩٢٥) وآخر كلمة في وصيته ان تنعقد الجمعية الوطنية لتوحيد الأمة وإلغاء المعاهدات الجائرة وتبادل الصداقة مع الأمم التي تعامل الصين على سنة المساواة .

الأحزاب والتلاميذ

أقسى المصائب ما يصيب الإنسان أو الشعب في كبرائه ، وهو كذلك أنفعها له وأفعلمها في تنبيهه لعيوبه وإيقاظه من غفلته . وقد كانت هزيمة الصين في حربها مع اليابان (سنة ١٨٩٥) إحدى هذه المصائب النافعة ، فأخذت تتساءل عن علة هزيمتها وعوامل القوة التي اتاحت لجارتها المحتقرة ان تنتصر عليها ، فاتفقت آراء المفكرين فيها على تعليل ذلك بنظام الحكم وضرورة العمل بالأنظمة العصرية التي أخذت اليابان بنصيب منها .

وشرع الإمبراطور الناشئ في اقتباس النظم النيابية بمشورة نصحاءه ، وضدّت مراسيمه الأولى (سنة ١٨٩٨) . ببعض التعديلات الدستورية تمهيداً لاتباعها، بغيرها ، واستعد ولاة الأمر للسير المتدرج على هذا المنهج لولا المرأة المشؤومة التي كانت تسيطر على البلاط في ذلك الحين ، واسمها - لسخرية القدر - تزوهسي اي « الأمومة السعيدة » ا

فهذه المرأة المشؤومة تطيرت من حركة الإصلاح فأحكمت دسائسها داخل القصر وخارجه لانتزاع السلطان كله من يدي الإمبراطور الناشئ . وخیل إليها ان هذه الحركة الدستورية ألعيب أطفال وأنها تعرف الأساليب التي تطرد بها الأوروبيين من مملكة ابن السماء، فكان تدبيرها لفتنة الملاكمين إحدى هذه الأساليب ، وشاء القدر على غير قصد منها أن تضرب العهد القديم كله بيديها ، فارتدت اللكمات الى صدرها ، كما قال المستهزئون ، وما أكثرهم في أيام المحن والأزمات .

وولد اول حزب سياسي على أثر الحركة الرجعية التي تعقبت حركة الإصلاح الدستوري بالإلغاء واضطهاد القائمين بها داخل البلاط ودواوين

الحكومة ، فأنشأ سن ياتسن جماعة (هسنج شنج هوي) أي جماعة تجديد الصين بمقاطعة بكاو التابعة للبرتغال ، وكان ذلك سنة ١٨٩٢ بعد حركة الإصلاح الأولى بنحو أربع سنوات .

ووسع هذه الجماعة سنة ١٩٠٥ أيام مقامه في اليابان وبعد طوافه في أوربة فسمها جماعة (شنج كوتنج منج هوي) أي جماعة الأخوة الصينية ، ولم يجعل لها رئيساً بل جعل لها مكتب ادارة يتولى العمل فيه باسم « تسنجلي » أي المدير العام ، وتتشعب فروعها في الصين وبين الجاليات الصينية حيث وجدت في البلاد الأجنبية .

واتبعت هذه الجماعة نظام الجماعات السرية الى ما بعد اعلان الجمهورية ، فحولها الى حزب علني باسم الكومنتانج اي حزب الوطن ، وضم اليها جماعات اخرى كانت تعرف باسم الحزب الديمقراطي المتحد وحزب التقدم الشعبي وحزب التقدم الديمقراطي وحزب الشعب العام ، وهي احزاب كانت تدعو الى الاصلاح الدستوري ولا تستلزم اسقاط الأسرة المالكة ، فاتفقت مقاصدها ومقاصد سن ياتسن بعد اعلان الجمهورية ، وانتخبته للرئاسة بإجماع الآراء ، فقبل الرئاسة مؤقتاً ثم تنحى عنها كعادته لصديقه (سنج شياو جن) وهو من أقطاب الدعوة الجمهورية وحراسها الأماء .

وبعد نزول سن ياتسن عن رئاسة الجمهورية للقائد يوان شي كاي عمل هذا على مقاومة الكومنتانج بفصل بعض الأحزاب منه وتأليف حزب يسمى « شنبنتانج » أي حزب التقدم ، فتألف هذا الحزب الجديد ممن يسمون بالحزب الجمهوري والحزب الديمقراطي وحزب الاتحاد ، وذهب رئيس الكومنتانج « سنج شياو جن » ضحية لهذه المكيدة ، فقتله أعوان يوان في العشرين من شهر مارس سنة ١٩١٣ ولم تكد تمضي سنة على قيام الجمهورية .

ورأى سن ياتسن ان الحزب يحتاج الى تأليف جديد بعد خروج من خرج منه وتسلب الطابور الخامس اليه من سماء سرة يوان وأمثاله . فأعاد تأليفه في طوكيو بعد سنة من مقتل رئيسه وعاد الى إدارته باسم « تسنجلي » أي المدير العام ، ثم

انتقل مركز ادارته من طوكيو الى شنغهاي بعد وفاة يوان شي كاي ، وكان أعضاء هذا الحزب موقدي الثورة في كل مكان يوم نادى يوان بنفسه امبراطوراً على عرش ابناء السماء ، فلم تهدأ الثورة في ديرين وشنغهاي وهونان وشكيانج ويونان وكويشو وكوانجزي وكوانجستنج وشنسي الا بعد نزول يوان عن عرشه ، وذلك هي الأقاليم التي عرفت بانتصارها لدعوة سن ياتسن من أوائل أيام الجماعة السرية .

وفي سنة ١٩٢١ انتخب سن ياتسن رئيساً لحكومة كانتون المؤقتة ، ثم نجمت الفتنة التي دبرها احد القواد الخونة بدسياسة من حكومة بكين وسياسة الدول الأجنبية ، فعاد سن ياتسن الى تنظيم حزبه وتأليفه من جديد سنة ١٩٢٤ ، وتيسر له هذه المرة ان يوجه الحزب الى أعمال غير أعمال التنظيم الحزبي ، فأنشأ جامعة (كوانج تنج) العلمية وجامعة هوامبو العسكرية ومدارس متفرقة ثانوية وابتدائية ، وفتح لجان الحزب للطلبة والصناع على نظام يناسبهم ويكفل للحزب ان يمثل ابناء الصين كافة من جميع الطبقات والأعمار .

وتحقيقاً لوجهته الكبرى التي تلخص في المحافظة على كيان الصين تقبل اشتراك الشيوعيين في مؤتمرات الكومنتانج بصفتهم الشخصية ، مع التفاهم بين الجميع على اختلاف احوال الصين وحاجتها الى ضروب من الإصلاح الاجتماعي غير التي يدين بها الشيوعيون في روسيا ، وأولها احلال التعاون القومي محل التنازع بين الطبقات وتغليب احداها على المجتمع كائنة ما كانت منزلتها فيه .

والظاهر من تاريخ الدعوة الشيوعية في حياة الزعيم ان رؤساء الدعوة كانوا يعتقدون حقاً ان الصين لم تستعد في تلك الآونة على الأقل لتطبيق النظام الشيوعي ، وعمدتهم في هذا التقدير أن الصناعة لم تتطور وأن عمال الزراعة لا توحدهم جامعة ثورية ، وقد روي عن ستالين الى سنة ١٩٤٥ انه كان يقول ان الحركة الشيوعية عامل غير خطير في سياسة الصين ، ووجد زعيم الشيوعية الصينية (ماوتسي تنج) عناء شديداً في إقناع أصحاب النظريات داخلاً وخارجاً بسوء تقديرهم لعوامل الثورة بين الفلاحين من اهل الصين على الخصوص .

وأيا ما كان الباعث على قرار التفاهم بين الكومنتانج والحزب الشيوعي في حياة سن ياتسن فقد كان الفريقان يرعيان حق الاستاذية لأبي الصين ، ويفهم من يسمعون يذكرون « الأستاذ » ولا يزدون أنهم يقصدونه دون غيره بهذا اللقب الذي خصوه به كما خصوه بلقب « الأب » الكبير .

وبقيت للرجل مكانته المرعية بعد وفاته بأكثر من ثلاثين سنة ، فمن خالفه منهم لا يتهمة ولا يعيبه ، وإنما يعالج تفسير كلامه على الوجه الموافق لرأيه ، أو يعلل مخالفته إياه بمضي الزمن وتبدل الحال ، ويقول إن « الأستاذ » كان خليقاً أن يرى رأيه ويعمل عمله لو كان بقيد الحياة .

برامج الإصلاح

قالت الكاتبة الصينية اميلي هاهن في كتابها عن اخوات سونج The Soong Sisters « إن سن ياتسن فصل في أيامه الأخيرة برامجه فبقيت بعده توراة لقومه ، وأنها كما ينبغي لكل توراة صالحة ان « تزود » كل من شاء بالأفكار التي يرجع إليها ، وتتنوع التنوع الكافي للاستشهاد بها على المذاهب المتقابلة ، فالدكتور سن ياتسن يستشهد به اليوم على لسان كل أحد في الصين : على لسان شيان كاي شيك ووانج شنج وي ، بل على السنة اليابانيين ، فهم جميعاً يغوصون في مبادئ الأمة الثلاثة ليخرجوا منها بالفكرة الملائمة » .

وأصابت الكاتبة البارعة ، فإن وصايا سن ياتسن هي في بابها توراة سياسية صينية بكل ما للتوراة من الخصائص في هذا الباب ، فقد تستخدم المعركة الحامية لتقديم كلمة منها او تأخيرها تأييداً لهذا الحزب او تنفيذاً لغيره ، وهي كما قالت ترد على كل لسان حتى السنة اليابانيين .

وذلك حظ من القداسة لم يرزقه غير القليل من القدماء .

وليس هذا الحظ مقصوراً على اقوال الزعيم في أيامه الأخيرة ، فإن اقواله في بروسيل - وهو دون الأربعين - قد أضيفت الى مراجعه الأخيرة ، فأصبحت مبادئ الشعب الثلاثة (سان مين شوأي) ومبادئ الدستور الخماسي (ووشوان هسين فا) أسفاراً معتمدة من تلك التوراة الصينية ، ولحقت بها من التعليقات مجلدات تتلوها مجلدات بغير انقطاع .

إن هذا الرجل الطموح كانت له غايته التي تتقاصر دونها المهم منذ خطوته الأولى ، فقد كان يناهز السادسة والعشرين يوم عقد العزيمة على « تجدييد الصين » ولم يقصر جهده على إسقاط الأسرة المالكة او تغيير اداة الحكم او إعلان

الجمهورية . فما كان شيء من ذلك في نظره الا وسيلة الى الغاية العظمى التي تهون في سبيلها الوسائل ، بل تهون الغايات .

ومن مقاصده البعيدة ما لعله اجل شأناً من تحديد بلاده من الوجهة الاجتماعية أو السياسية ، فإنه أراد ان يجدد « النفس » الصينية في اهابها العتيق . فطفق في سنواته الأخيرة يبدأ ويعيد حول معنى الفهم والعمل ، ويؤكد حكمته العزيزة عليه ، وهي الحكمة التي لخصناها بالكلمة الأولى من هذا الكتاب ، وفحواها بمختلف العبارات وفي مختلف المعارض ان الفهم هو العسير ، أما العمل فلا عسر فيه ، وهذا ما أفاض في شرحه وسماه تدعيم النفس الصينية ، فلم يكن يغنيه أن يتجدد بناء الصين دون بناء النفس الصينية على قوام جديد .

وفي ايامه الأخيرة الف كتابه عن « تنمية » الصين بين الدول ، وبسط فيه وجوه الإصلاح وجهاً وجهاً على اوسع ما استطاع من الأسهاب ، ولم يقصد به أن يضعه على الأثر موضع التنفيذ العاجل ، ولكنه علم ان تعمير البلاد - ولا سيما البلاد التي تشبه الصين اتساعاً وازدحاماً - عمل متداخل متشابك لا يرتجل قطعة بعد قطعة ، ولن يفلح في هذا العمل من يبدأ وهو لا ينظر عند ابتدائه الى منتهاه ، فبسط وجوه الإصلاح والتعمير ليحسب العاملون حسابها خطوة بعد خطوة ومرحلة وراء مرحلة ، وهذه الخطة العملية هي التي سبها خصومه حليماً من أحلام الخيال .

ومن خصومه هؤلاء من هم خصوم فكرة او خصوم مزاج لا يضمرون له العداة ولكنهم لا يطيقون ان يجروا معه في اشواط الحماسة الروحية ، ومنهم من كتب اليه حين اطلع على مشروعاته يقدر له ملايين الأموال التي تتطلبها وعشرات السنين التي تستغرقها ، كأنما هو قد بسط تلك المشروعات ليضرب عليها بعضا الساحر فيفتحها له « سمس » تامة عامة في طرفة عين .

وقيل عن هذه المشروعات كثيراً انها مرتجلة متعجلة ، ولكنها على التحقيق لم تكن وليدة عام ولا بضعة اعوام ، بل لازمه درسها وتقليبها على جوانبها اكثر من عشرين سنة ، ومات وهو ينقح برامجه التي استهل بها حياته السياسية ،

ويرتب المراحل التي تتدرج عليها الى منتهائها ، مع تذكيره القراء والمستمعين انها قابلة للتنقيح المتعاقب اثناء الطريق .

مات وهو يقول ويعمل لتثبيت مبادئه الثلاثة : الديمقراطية والسيادة الشعبية ورخاء المعيشة او الاشتراكية .

ولم يخطيء التقدير الا حين خطر له ان الصين قادرة على البدء بتطبيق تلك المبادئ عقب اعلان الجمهورية ، فانقضت اكثر من عشر سنوات والجمهورية تبلى بمحنة بعد محنة . والبدء بالتطبيق يتأخر سنة بعد سنة ، فلم يزل برنامجه الى اخريات ايامه محتاجاً الى ادواره الثلاثة : دور التوطيد ودور التوجيه ودور الحكومة الدستورية .

فمنذ اعلن في بروسل مبادئه الثلاثة قرر لمريديه أن بلداً تتسع اتساع الصين لن تستغني عن القوة لتوطيد امنها واستقرار امورها عقب اعلان الجمهورية ، ثم يتوجه بها خدامها او زعمائها الى وجهتها القومية مع ايمانهم بسيادة الشعب وصدورهم عن هذا الايمان في اعمال التشريع والإدارة ، ثم تستفيد كل ولاية من تجاربها المحلية وتجتهد اجتهداها لتوثيق علاقتها بالحكومة المركزية . وساوره الرجاء ان تتم المرحلتان الاوليان بعد ثنائي سنوات ، ولم يحلم برؤية النتيجة ايام حياته ، ولكنه لم يستبعد ان يفارق الحياة وهو مطمئن الى نتيجة مرضية يشهدها الجيل الذي يليه .

وفي الباب التالي الذي نفرده لاقتباس اقواله زبدة من آرائه ومشروعاته نختارها من كتبه وندع لصاحب الترجمة ان يترجم لنفسه بقلمه ولسانه ، فإن سن ياتسن لم يكن زعيم سياسة ولا رئيس حكومة وحسب ، وانما كان قبل ذلك وبعد ذلك صاحب مدرسة اجتماعية ودعوة فكرية ، ومن كان كذلك فهو ذو حق في توضيح آرائه وتوضيح معاذيره وتوضيح منحاه في الفهم والعمل .

وذلك ما نتركه له في الباب التالي ، متبعين فيه ترتيب « الأهمية » غالباً وترتيب التاريخ ما تيسر ، وهما على الجملة متقاربان ، لأنه - كما قدمنا - قد أخرج الابتداء بالعمل من فترة الى فترة ، فلم يتباعد الشوط بين الابتداء والختام .

ذكریات من كتاب « مذكرات صيني ثائر »

منذ سنة ١٨٨٥ - أي من عهد الهزيمة في حربنا مع فرنسا - وضعت نصب عيني خلع أسرة تاي تسنج وتأسيس حكومة جمهورية على أنقاضها ، وابتدأت باختيار الكلية التي أدرس فيها لنشر دعوتي ، ناظراً الى صناعة الطب كأنها العمة الرؤوم التي تقود الى طريق السياسة العامة .

ومضت عشر سنوات كيوم واحد ، وكنت في كلية كانتون الطبية قد صادقت شن شي ليانج الذي كان على اتصال واسع بمعارف كثيرين لهم علم حسن ببلاد الصين . فلما فاتحته في شأن الثورة وأمثلتها العليا وجدت منه موافقة وصارحني باستعداده للاشتراك في الحزب الذي يعمل لها على شريطة أن أتولى أنا قيادته ، ونمي الي بعد سنة في كلية كانتون الطبية ان مدرسة طبية انجليزية ذات برنامج أوسع من برنامج مدرسة كانتون قد افتتحت في هونج كونج ، فذهبت اليها يستهويني خاطر العمل على نشر الدعوة في نطاق أوسع مع إتمام تعليمي ، وقضيت أربع سنوات عاكفا على نشر الدعوة طوال الوقت الذي أفرغ فيه من دروسي ، متنقلا ما بين هونج كونج وأموي . ولم يكن لي يومئذ أعوان غير ثلاثة مقيمين في هونج كونج هم : شن شاوبو ويوشاوشي ويانج هولين ، ورجل واحد مقيم بشنغهاي هولوكوتنج ، واجتنبني الآخرون لأنني ثائر متمرد كاجتنابهم من يخافون من عدوى الطاعون .

وكنت مع أصحابي شن ويويوانج نعيش معاً في هونج كونج ولا نكف عن حديث الثورة . وتشبثت افكارنا بموضوعات الثورة في الصين ، فعكفنا على قراءة تواريف الثورات وأصبحنا ولا سرور لنا في غير التحدث بهذه الموضوعات .

ومضت سنوات عرفنا خلالها بين أصحابها باسم الأوغاد الكبار المتلازمين ، وكانت بالنسبة إلي فترة مباحثة وتدريب .

وحصرت عنايتي بعد التخرج من المدرسة بمكانين هما اموي ويانج شن لمزاولة الطب ظاهراً ونشر الدعوة الثورية في الواقع ، وكان شن شي ليانج في الوقت نفسه يجمع الأعضاء للحزب ، ثم خرجت انا ولوكونج الى الشمال قاصدين بكين وتيتشن لنروز قوة الأسرة المالكة ، ثم قصدنا الى وشانج كي نتفقد الأحوال هناك .

وسنحت لنا فرصة حسنة سنة ١٨٩٤ فقصدنا الى الفيليبين لتأسيس جماعة تجديد الصين على أمل الارتباط بالجالية الصينية ونلقى المساعدة منها وغاب عنا أن الوقت لم ينضج للثورة فلم تسفر دعوتنا في الفيليبين إلا عن عشرة استجابوا لها بعاطفتهم لم يقبل منهم غير اثنين اخوين ان يضطلعوا بشيء من التضحية في سبيل القضية العامة .

حدث هذا والجيوش الإمبراطورية تنهزم في معركة بعد أخرى ، وهيبة المانشو تتضاءل بعد ضياع كورية ولا يخامرنا الشك في انحلال أسرة المانشو وتداعيها ، وقد كتب الينا زميلنا بشنغهاي سن يويه لو يلح علينا وجوب العودة ، فعدت انا وتن ين نان وثلاثة من الزعماء الى موطننا على نية تنظيم الثورة بكانتون والاستيلاء عليها .

وكانت جماعتنا في هونج كونج وفرع منها في يانج شن ، وكان في الجماعة تن ين يان ويانج تسوي ين وهون ين شان وشن شاوبو وآخرون يدأبون على التحريض ، وكان لوكونج وشن شي ليانج في فرع يان شي مع مدربين من أمريكا وبعض القادة ، وجعلت انا اتردد بين كانتون وهونج كونج ، وكانت مهمتنا وقتئذ محدودة واضحة الخطوط والاستعداد تجري على قدم وساق ، وقد اجتمعت لنا قوة لا بأس بها وفي استطاعتها بضربة واحدة ان تحدث حدثاً ذا بال .

إلا أن السلطات في ذلك الوقت كانت قد علمت بأمر تهريب السلاح الى

الداخل (خمسمائة مسدس) وقضت على عضو من أمثل زملائنا بالموت وهو لوكو تنج فكان ذلك اول ضحية لنا على مذبح الثورة الصينية ، وحدث في الوقت نفسه ضبط تسي هسي وشو جوي والقضاء عليهما بالموت ، وضبط نحو سبعين آخرين من بينهم الأميرال سن كوي جوان .

وحلت بنا أول هزيمة ثورية في اعتقادي تاسع سبتمبر سنة ١٨٩٥ وكنت لا ازال بكانتون بعد هذه الهزيمة بثلاثة ايام ، ولكنني اضطرت الى اللياذ هونج كونج بعدها بعشرة ايام من الطرق الجانبية ثم برحتها الى اليابان مع زملائي شن شي ليانج وشن شاربو قاصدين النزول بمدينة يكهاما . وقصصت ضفيري واناخذت الملابس الأوروبية لأن موعد عودتنا الى الصين غير معروف ، ثم برحت اليابان الى الفيليبين وقفل زميلي شن شي ليانج الى الصين كي يعيد الأمور الى ما كانت عليه قبل هزيمتنا ، وبقي شن شاو بو باليابان لدرس الأحوال السياسية ، وكنت قد اتصلت يومئذ بسوني وميازاكي من الجمعية اليابانية ، فكان هذا بدء الاتصال بين الثوريين الصينيين واليابانيين .

واخذت بعد وصولي الى الفيليبين أضرم زملاء الى حركة تجديد الصين . . . ولكن زملاءنا أنفسهم لم يكتموا بأسهم بعدما حل بنا من الهزيمة وتكرر غيرهم لمبادئنا واعوزتنا العوامل التي تساعد على تطور النزعة الثورية فتراخى العمل فيها بعض حين ، ولم أجد من البواعث ما يستبقيني بالفيليبين فاعتزمت السفر الى أمريكا لربط العلاقات بيننا وبين المهاجرين من أبناء وطننا هناك .

وصادفني في أمريكا جو أمعن في الهجوم من جو الفيليبين ، وقطعت القارة من سان فرنسيسكو الى نيويورك ، وتريثت أياماً خلال الطريق لا تزيد في مكان على عشرة أيام ، وطفقت حيث نزلت انادي بإسقاط أسرة المانشو لإنقاذ الصين من الدمار ، وأهيب بكل صيني ان يسهم في بناء وطنه على أساس ديمقراطي جديد .

ولم يكن مقامي بأمريكا ذا بال في تقدم الثورة الصينية ، ولكنه على هذا أثار الخوف والتوجس عند الحكومة الإمبراطورية ، فما وضعت قدمي بلندن حتى

الفيتني في برائن السفارة الصينية ، ولم ينقذني من خطر الموت غير استاذي الدكتور جيمس جنتلي .

فلما نجوت من لندن قصدت أوروبا لدراسة نظمها السياسية ، والتعرف الى هيئات المعارضة والمقاومة ، وفي أوروبا علمت ان الدول الأوروبية على نجاحها في أسباب القوة ومبادئ الحكم القومي لم تنجح في توفير أسباب السعادة والرضا لرعاياها ، ولهذا اتجهت مساعي الثوريين الأوروبيين الى الثورة الاجتماعية ، ونبتت عندي فكرة الجمع في وقت واحد بين حل مشكلات الاقتصاد والاستقلال والحرية الشعبية ، ومن هنا كانت نشأة الـ « سان مين شو آي » أو الديمقراطية القائمة على دعائمها الثلاث .

إن الثورة هي رسالتي الكبرى في الحياة ، فاعتزمت التعجيل بإنهاء عملي في القارة الأوروبية حرصاً على الوقت اللازم لتحقيق الثورة ان يضيع سدى . وأقلعت الى اليابان معتقداً أننا نستطيع على مقربة من الصين ان نواصل جهودنا الثورية ، فلقيني في يوكوهاما اثنان من زعماء الحزب القومي اليابانيين ، ثم التقينا بعد ذلك في طوكيو اصدقاء قدماء وتناولنا البحث فيما له علاقة بالصين على اتم ما يكون من الصراحة ، واتفق في ذلك الحين ان الحزب القومي تولى الوزارة واختير اكوما وزيراً للخارجية ، فقدمت اليه والى الساسة اليابانيين الآخرين ، وكان ذلك بدء اتصالنا بالدوائر اليابانية الحاكمة ، ثم التقيت بسوزيما وغيره من ممثلي المعارضة اليابانية .

وكان المهاجرون الصينيون باليابان يبلغون عشرة آلاف ، يسودهم جو فتور وخمود وتفزعهم خواطر الثورة شأنهم في ذلك شأن المهاجرين الى الأقطار الأخرى ، وجاهد زملائنا بينهم سنوات فكان قصارى ما صنعوه انهم ضموا نحو مائة الى حركة الثورة وهم نجو واحد في المائة من جملة المهاجرين .

وإذا كانت مهمة الدعوة الثورية بين المهاجرين على هذه الحال من العسر وقلة الشكر ، فقد كانت الدعوة أعسر من ذلك وأقل شكراً بين الصينيين في صميم بلادهم ، فمن لم تصدهم فكرة خلع المانشو وانضموا إلينا كانت

مداركهم قاصرة وكانت الأواصر بينهم واهية ولم يكن لهم يقين متين بشيء من الأشياء ، وغاية نفعهم أنهم وسيلة سلبية لا يعتمد عليهم بحال من الأحوال في العمل الجدي لأغراض الثورة .

مضى من سنة ١٨٩٥ ، أي من عهد هزيمتنا الأولى ، إلى سنة ١٩٠٠ خمس سنوات كانت كلها فترة مشقة وعناء للحركة الثورية الصينية ، وانهار ما بنينا خلال عشر سنوات سواء نظرنا اليه من وجهة اعمالنا الفردية او وجهة الدعوة العامة ، ولم تفلح الدعوة الخارجية الا قليلا . وحدث كذلك ان المنظمات الملكية نمت ونشطت خلال هذه الفترة ، وأوشكت آمالنا ان تتقوض لولا وفاء زملائنا الذين طردوا اليأس عن نفوسهم ونظروا الى المستقبل قدما في ثقة وشجاعة .

ارسلت شن شاو بو الى هونج كونج لاصدار صحيفة تنشر الأفكار الثورية وبعثت بلي كيانج جو الى مقاطعة شكيانج لتنظيم القوات فيها ، وضعت التعليمات لشن شي ليانج ليشخص الى هونج كونج وينشئ فيها مكتباً يتولى تجنيد اعضاء جدد للحزب . ولم يلبث جماعة تجنيد الصين ان اندمجوا في هيئة واحدة مع المنظمات التي تأسست في إقليم كوانتنج وغيرها من أقاليم وادي اليانجزي ، واتفق كذلك ان ظهرت في ذلك الحين جماعة الملاكمين « البوكسر » بإيحاء من أسرة المانشو ، فأنفذت ثمانى دول جنودها الى الصين وباشروا حملاتهم العسكرية . وقررت الا تضيع الفرص السانحة فأمرت شن شي ليانج بمغادرة هونج كونج الى هوشو لتنظيم حركة عصيان فيها وانفذت لي كيانج جو الى يانشن للغرض نفسه ، وذهبت انا الى هونج كونج مع بعض الضباط الاجانب بينما كان هذا الاستعداد يجري مجراه قاصداً ان اصل بحراً الى موطني للاشراف بنفسى على قوات الامة الموثوق بها وتنظيم جيش مدرب ينقذ الصين من مصيرها الى الخراب ، ولكنى لم البث ان فوجئت بوغد يعترضني ويغري السلطات بتفتيشي وحجزى عن النزول ، فلم يتسن لي المضي في خطتي الأولى وعهدت بالتبعة كلها الى شن شي ليانج في هوشو وأرسلت اليه ريانج تسويا وين لي تسي وشن شاو بو وغيرهم لمساعدته . وعدت الى اليابان ثم ذهبت منها الى فرموزا على نية الاحتيال

على دخول الصين ، وكان حاكم فرموزا يومئذ (قدامة) ممن يعطفون عطفاً شديداً على الفكرة الثورية لاعتقاده ان الفوضى شائعة في ذلك الحين بين بلاد الشمال ، فعهد الى أحد أعوانه في مفاوضاتي ووعد في حالة وقوع الاضطراب الخطير أن يمدني بالمعونة .

ووسعت خطتنا الاولى بزيادة الضباط الخبراء ، اذ كان حزبنا الى تلك اللحظة قليل الأعضاء من الخبراء العسكريين ذوي الفكرة السياسية . ثم أمرت شن شي ليانج في الوقت نفسه بالعدول عن الخطة الأولى التي كان من مقتضاها البدء بالهجوم على المدينة الكبرى بالإقليم والتمكن من المواقع البحرية بدلاً من ذلك وتركيز قواتنا هناك ثم البدء بعد ذلك بالهجوم . . . وبأدرشن شي ليانج بتنفيذ تعليماتي وأغار بفرقة أكثرها من الفلاحين على جنود الإمبراطورية بسنيانج وشن شوان وجردها من سلاحها ثم هجم على لونجان وتانشوي يانهو وغيرهما موفقاً حيث كان مما جعل جنود الإمبراطورية تشتت كلما اقتربت منها طلائعه ، ونجح بعد ذلك في احتلال المواقع البحرية من سنيانج الى هوشو وانتظر هنالك وصولي مع اعواننا ووصول المدد من السلاح والذخيرة .

ولكن حدث على غرة بعد ابتداء حركتنا بعشرة أيام تغيير في الحكومة اليابانية واتخذ رئيس الوزارة خطة نحو الصين على نقیض الخطة التي سار عليها سلفه ، وحال دون كل اتصال بين حاكم فرموزا والثوار الصينيين، كما منع تصدير السلاح والاذن للضباط اليابانيين باللحاق بجنود الثورة . وقد أحل هذا الطارئ بجميع خططي فأنفذت يامادا وبعض الزملاء الى معسكرشن شي ليانج لابلأغه ما حدث كي يتصرف على حسب الظروف ، فوصلوا الى معسكره بعد ثلاثين يوماً من بدء الحركة ، وكان هنالك جيش من عشرة آلاف قد تجمع وانتظر في لهفة ما يرد اليه من السلاح وكبار الضباط ، فلما علموا برسالة يامادا قرروا حل الجيش وعاد شن شي ليانج الى هونج كونج مع مئاة من الزملاء ، وضل يامادا طريقه فوقع في ايدي جنود الإمبراطورية وأعدم فكان اول اجنبي فقد حياته ضحية للثورة الصينية .

وبينما كان شن شي ليانج في وقعة القتال حاول لي كيانج جو في كانتون ان يساعده بغير جدوى ، فقرر ان يلقي بقذيفة على مكتب حاكم مقاطعتي كوان فلم تنفجر وقبض عليه وأعدم ، فكان البطل الثاني من الضحايا الذين هلكوا على مذبح الثورة .

وكانت قصة سنة ١٩٠٠ هي الهزيمة الثانية للحركة الثورية ، بيد ان الشعب الصيني غير موقفه منا بعد الهزيمة تغييراً عظيماً ، فقد كانوا بعد الهزيمة الأولى ينظرون الينا نظرتهم الى شرذمة من المشاغبين وقطاع الطريق يقتربون ما لا يجوز . وكانوا يهيلون علينا اللعنات والشتائم ويحسبوننا من الأفاعي السامة ويعزفون عن معرفتنا ، فلما اصبنا بالهزيمة سنة ١٩٠٠ لم تنقطع اصوات اللعنة الأولى عن الصياح بنا كما كانت تصبح من قبل ولكننا وجدنا أناساً كثيرين من الأذكياء يأسفون لاختلافنا ويعربون عن عطفهم على حركتنا ، وذلك ولا ريب فارق عظيم عند المقابلة بينه وبين الحالة فيما مضى ، وزملاؤنا الذين احسوه قد خامرهم الفرح بهذه العلامة من علامات اليقظة في البلاد ، وخدمت ضجة الأسرة المالكة حين دخلت جنود الدول الثمان الى بكين ظافرة ولاذ وكلاء القصر الإمبراطوري بأذيال الفرار واذعنوا بعد الهدنة لشروط الغرامة وقدرها مائة مليون ، وازدادت حالة الامة الصينية سوءاً على سوء ولم تزل نذر الخطر تغشاها على الدوام ، وأجمع اذكياء الصين على انها تنزل وشيكاً الى الخراب فجاشت من ذلك الحين موجة جديدة من الثورة والهياج .

وكانت الاقاليم جميعاً في ذلك الحين قد دأبت على إرسال الطلبة منها الى اليابان لتلقي العلوم الحديثة بمدارسها ، ووفد على اليابان من هؤلاء الطلبة زرافات من ذوي الرؤوس الفتية النيرة ، فأقبلوا تَوّاً على التزود من خواطر الثورة واشتركوا في الحركة الثورية ، وكانت مناقشاتهم وآراؤهم كلها تدور على مسائل الثورة . وقد القى لوشن يوي خطاباً فعالاً على اجتماعهم الذي عقدوه لمناسبة رأس السنة وضح فيه ضرورة الثورة لخلع اسرة المانشو ، ففصلته الجامعة تلبية لطلب السفير الإمبراطوري بطوكيو ، وراح طلاب آخرون . . . ينشرون الصحف لترويج الخواطر الثورية .

وشقت هذه الدعوة بين الطلاب طريقها الى الصين ، فلجأ شانج تي يانج وويوهوي وشوشانج من طلاب شنغهاي الى استخدام الصحف المسيحية لبث الدعوة الثورية ، فاحتجت السلطات الإمبراطورية على تصرفهم ونجم من احتجاجها اعتقالهم في المنطقة الأجنبية ، فاحتال أحدهم على الهرب وتلت ذلك أول قضية من نوعها : وهي شكوى الحكومة الصينية احد رعاياها أمام محكمة أجنبية ، فصدر الحكم بسجن شوشانج سنتين .

اشتدت الحركة خلال ذلك فرحب المهاجرون بكتاب شوشانج عن جيش الثورة الذي انحى فيه اشد الانحاء على الأسرة المالكة وكان له اثر ضخم بين الصينيين والمهاجرين ، وأحسب ان هذه الفترة كانت فاتحة عهد التطور الواسع في الحركة الثورية ، فانضوى المهاجرون شيئاً فشيئاً إلى جانب الثورة وتلقفوا دعوة الطلبة والنهضة العامة في البلاد ، وأعربوا لي عن مؤازرتهم حيثما التقيت بهم في طوافي باليابان .

وفي سنة ١٩٠٥ وصلت الى أوروبا مرة أخرى ووجدت معظم الطلبة مؤيدين لقضية الثورة ، وكانوا قد وصلوا الى أوروبا حديثاً من اليابان والصين فملكتهم فكرة الثورة وتقدموا من المناقشة فيها الى توجيه اعمالها ، فأبرزت يومئذ برنامجي الذي ضمته بث الديمقراطية على مبادئها الثلاثة وتفصيل الدستور الخماسي عسى ان تتمكن من خلق نظام ثوري على هذا الاساس . وانهقد اجتماعنا الاول بمدينة بروسل فانضوى الى رابطتنا ثلاثون عضواً ثم انضوى اليها عشرون في الاجتماع الثاني ببرلين ، وكان الاجتماع الثالث بباريس حيث انضوى اليها عشرة آخرون . ولكننا لم نعقد اجتماعنا الرابع بطوكيو حتى بلغ المنضوون اليها عدة مئات ، وكانت الصين كلها ممثلة في رابطتنا ما عدا كانسوه التي لم يكن منها احد يطلب العلم بمدارس اليابان .

على ان كلمة الثورة لم تزل مرهوبة الى ذلك الحين ، فاكتفينا باطلاق اسم الرابطة المتحدة على رابطتنا واحتفظت بهذا الاسم بعد ذلك بزمان غير قصير .

واعتقدت بعد قيام هذه الرابطة ان طوراً جديداً من أطوار الثورة في

مستهله ، فقبل ذلك ما تجشمت المصاعب وتعرضت للزراية والسخرية ،
ومنيت بالهزيمة غير مرة فصبرت وتقدمت . ولا اخفي انني لم اكن احلم يومئذ
ببلوغ المقصود من خلع اسرة المانشو وانا بقيد الحياة . فلما تألفت الرابطة خريف
سنة ١٩٠٥ داخلني الرجاء في انجاز المقصد الأكبر من الثورة خلال حياتي ،
واعترمت إذن ان اعلن شعار الجمهورية وأبشر به جميع اعضاء الحزب كي يرجع
كل منهم الى بلده وهو على أهبة الثورة تمهيداً لإقامة الجمهورية .

ولم تكد تمضي سنة واحدة حتى ارتفع عدد أعضاء الرابطة الى عشرة
آلاف ، وتشعبت فروعها على وجه التقريب في كل اقليم ، فانطلقت الحركة في
طريقها بخطوات فساح ، وجاوز تطورها ما كنت اتوقع .

وكنا منذ تأسيس الرابطة قد أصدرنا الصحف التي تذيع خواطر الثورة في
أوسع مجال وتنادي بالديمقراطية على مبادئها الثلاثة واتجاهها نحو الدستور
الخماسي ، وطافت بالصين موجة ثورية ارتفعت الى الذروة عندما بدأنا في
إصدار الصحف ، وانضم اليها في هذه المرحلة ابطال من أمثال هسوسي لن وسن
يين تسي وتسوتسن وغيرهم .

وبدأت ثورة بنلي مستقلة سنة ١٩٠٧ معتمدة على قواتها اذ كان جيشها قد
جند من أعضاء فرع الرابطة المتحدة فيها ، وبينما كان هذا الجيش يصطدم
بالجيش الإمبراطوري في حرب الحياة والموت كان أعضاء الرابطة بطوكيو
يحاصرون مكتبنا ويلحون في طلب السفر الى الميدان ، ومنهم من بكى
كالاطفال حين تعذر عليه السفر .

وقد وصلت اليها أنباء ثورة بنلي متأخرة لسوء الحظ فلم نستطع تدبير العدة
الملائمة ، فخسرنا المعركة ووقع لوتاويي ونين تياوبي ويوان هن يين وغيرهم من
الزملاء في أيدي جنود الإمبراطورية ، فحكم على بعضهم بالموت وعلى آخرين
بالسجن ، وكانت هذه هي « المعمودية » الأولى للرابطة في ميدان القتال .
وأمكننا ان نعتقد بعد هذه المعركة ان الدعوة الثورية استولت على البلاد في مجال
من السعة والقوة لم يسبق له نظير ، ولم يكن في وسع اعضاء الرابطة بطوكيو ان

ينظروا الى هذه الحال قانعين بالفرجة والسكوت ، فالتهمت الحكومة الإمبراطورية من حكومة اليابان ان تخرجهم من بلادها . فخرجت من اليابان ومعها هان ين وشينج وي ميممين شطر انام لتنظيم فرعنا بهانوي وعلان عصيان آخر ، وثرنا في شاوشو وانهزمت جنود هوان كان فابتلينا ثم بالهزيمة الثالثة .

ثم نشبت ثورة في مركزي ليان وشيان من جراء الاضراب عن أداء الضريبة وأرسلت الحكومة الأمبراطورية أربعة آلاف جندي بقيادة كوجين شانج لقمع الفتنة . فأمرت هوانج كاي تسيانج وهوي شين بالذهاب الى معسكراتهم وإقناعها بتأييد الثوار ، فوعد كلاهما بالانضمام الى الثورة اذا نهضت بها قوة جدية .

ولم نكن قبل تأليف الرابطة نتلقى من المعونة المالية غير القليل . وأكثر المتبرعين من تربطهم بي صلات شخصية ، ولم يجسر غيرهم على التبرع ، فلما تألفت الرابطة اخذت الاعانات تتوارد علينا من الخارج . وأذكر ممن اعانونا يومئذ شانج تسين سيانج الذي باع مصنعه بباريس واعطانا ستين او سبعين ألف ريال ، واذكر منهم هوانج تسين نان من انام وقد اعطانا جميع مدخراته التي تبلغ بضعة آلاف ريال ، واذكر منهم كذلك بعض اثرياء انام امثال لي شو فونج وتسنج هسي شو وماي بي شن الذين تبرعوا بنحو عشرة آلاف ريال .

ولم يسعني بعد الهزائم المتوالية في قتالنا مع جيوش الإمبراطورية ان ابقى مطلق الحرية في اليابان او هونج كونج او انام أو أي مكان على مقربة من الصين . وكاد العمل على مقربة من وطني ان يصبح احدى المستحيلات ، فعهدت بالقيادة الى الزميلين هوانج كاي سيانج وهوهان مين ومضيت في جولة حول العالم لجمع التبرعات .

وعلى اثر ذلك أنشأ هوانج سيانج وهوهان مين لجنة رئيسية بهونج كونج للإشراف على شؤون الجنوب ، واجتمعوا مع شاوبو سيانج ونبي يانج شين وشوشي سين فأضرموا الثورة معتمدين على الفرق العسكرية الحديثة التدريب ، وكانت فكرة هذه الثورة سديدة فارتفعت راية العصيان سنة ١٩١٠ .

وبرحت امريكا الى الشرق خلال هذه الفترة ، فعلمت بالثورة عند وصولي الى سان فرنسيسكو ، وأقلعت على الأثر قاصداً الى الفيليبين ثم اليابان للعودة من ثم الى الصين ، ولكن الجواسيس عرفوني بيكاهاما فتعذر علي المقام بها ويمت الجنوب حيث اعتزمت الاجتماع بهوانج كي سيانج وهوهان مين للتشاور في خطط المستقبل ، وكانت الكآبة ترين على الزملاء حينئذ بعد توالي الهزيمة وخسارة المواقع الصالحة واضطرار كثير من الزملاء الى الفرار والمهاجرة ، وأعوزتنا القدرة على إعادة الكرة من جديد .

ألفيت الزملاء على حالة سيئة من التشاؤم ، وانطلقت منهم آهات الأسف والأسى عندما هممنا بالبحث فيما ينبغي ان نصنع ، وانحرف بعضهم عن بعض بنظرة ، وانفردت بالكلام فذكرتهم ان هزائمننا الماضية كانت افدح وأصعب من هزائمننا الأخيرة ، وأن عدتنا اليوم قد تكون قليلة ولكن موجة السخط تعلو وتتسع يوماً بعد يوم وتشتد معها الروح المعنوية بين أبناء الأمة ، فإذا عقدنا عزائمننا على الخطة التي أرسمها فإنني كفيل بتدبير المورد اللازم . . . قالوا : إذا كنا لا نصيب حاجتنا للنفقة على انفسنا فكيف ترانا نصيب الموارد اللازمة للمضي بالثورة ؟

فأكدت مرة أخرى انني سأجد المورد اللازم . عندئذ قال الزميل بو إننا اذا اعتزمننا حقاً ان نعيد الكرة وجب علينا ان نبعث بأحد الزملاء مزوداً ببضعة آلاف ريال الى اقليم زشوان لتثبيت الاخوان هناك وصرفهم عن نية التفرق وحل الجماعة ، وبهذا دون غيره يحق لنا ان نأمل في تأليف لجنة جديدة واستئناف الصراع . قال الزميل بو : وعلينا حتما ان نرجع الى هونج كونج لمعاودة البحث وان نمد زشوان توأ بخمسة آلاف ريال ، فإذا انتوينا المناورة على الكفاح كان لزاماً علينا أن نحصل على عدة آلاف من الريالات .

فأرسلت في طلب المهاجرين الصينيين الذين يشعرون مثل شعورنا وأسفر الاجتماع عن التبرع بثمانية آلاف ريال والاتفاق على إيفاء الرسل الى الأقاليم والجهات المختلفة لجمع ما نحتاج اليه ، فاجتمع لنا خلال ايام مبلغ يتراوح بين ستين الف وسبعين الف ريال .

فوضعنا خطة العمل ، وبدأت انا فسافرت الى المنطقة الهولندية فلم يؤذن لي بالنزول ولا بالذهاب من ثم الى المنطقة الانجليزية ، فلم يبق لي معدى ان احول وجهتي الى اوروبا أو امريكا . فقصدت امريكا وجعلت انتقل خلالها من ركن الى ركن اثير رحمة المهاجرين الصينيين وأحضهم على المساعدة بالمال لتأدية قضية الثورة ، فلقيت افواجاً كثيرين من المؤيدين اثناء هذه الرحلة ، وكانت الثورة قد نشبت في ودشانج عند وصولي الى كولمبيا ، وقبل ذلك بعشرة ايام تلقيت برقية من هوان كاي سيانج بهونج كونج لم أفسرها لأن الجفر كان في حقيتي ، ولم أعرف فحواها الا بعد نزولي بإحدى المدن من ولاية كولمبيا ، فعلمت منها أن تسوي شن وصل الى هونج كونج وأبلغهم ان المدد المالي مطلوب عاجلاً لإمداد حركة الجنود الحديثة التدريب ، وإذ كنت ساعتها لا أملك مالا خطر لي ان أبرق اليهم بإرجاء الحركة ، ولكن الليل أدركني وأثقلني تعب الرحلة فأجلت الاوراق اليهم حتى الصباح عسى ان ينفس الوقت مع ذلك لتقليب المسألة على جميع الوجوه ، وبكرت لتناول طعام الإفطار فلم أكد أصل الى المطعم حتى رأيت ثمة صحيفة صباحية فتحتها فإذا هي تروي بلسان البرق خبراً عن استيلاء جنود الثورة على ووشانج ، فبادرت بالاطراق الى هوان كاي سيانج موضحاً له سبب سكوتي ، وكان من الميسور ان أصل الى شنغهاي بعد عشرين يوماً للمشاركة في الثورة لولا ان الجبهة الدبلوماسية كانت في تلك اللحظة اهم حتى من النشاط العسكري ، فصممت العزم على متابعة المسائل الدبلوماسية والا أعود الى الوطن حتى نستقر من هذه المسائل على قرار .

كان الموقف السياسي يومئذ كما يلي :

امريكا اعلنت فيما يتعلق بالصين سياسة الباب المفتوح والمحافظة على سيادتها ، ولكنها لم تتخذ موقفاً محدوداً من ناحية الثورة . الا ان الرأي العام الأمريكي كان مؤازراً لحركتنا .

اما الموقف من جانب الحكومة الفرنسية والشعب الفرنسي فهو موقف عطف على الحركة .

اما في إنجلترا فقد كان الشعب معنا وكانت الحكومة تعارض الثورة .
ووضح لنا أن ألمانيا وروسيا كانتا تناصران أسرة تاي تسنج ، والعلاقة بين ثوارنا
وشعبها واهية لا تتيح لنا أن نستعين بهما على توجيه سياسة الحكومتين . وبقيت
اليابان القريبة منا وبين خير أبنائها أناس ناصرونا وبذلوا حياتهم فدى لقضية
الثورة . الا أن سياسة الحكومة اليابانية لم تكن جلية وقد نرى قياساً على الماضي
انها تسلك منها مسلك المعارضة ، فقد نفتني مرة وحظرت نزولي الى أرضها مرة
اخرى .

وابتداء من سنة ١٩٠٠ تقرر ألا تعمل دولة من الدول على انفراد في شؤون
الصين ، وكان عدد الدول التي تهتم بالصين ستاً في ذلك الحين ، اثنتان منها -
وهما امريكا وفرنسا- الى جانب الثورة ، واثنتان - وهما ألمانيا وروسيا -
تعارضانها ، ولم تعين إنجلترا سياستها ولكن الشعب الانجليزي ابدى دلائل
العطف عليها ، وأيدها شعور الأمة اليابانية مع جنوح الحكومة اليابانية الى
معارضتها .

وكذلك كانت مسألة المسلك الدولي مسألة مهمة في حساب الثورة
الصينية ، وأهمه عندنا حينئذ مسلك إنجلترا ، لأننا قدرنا انها اذا سلكت قبل
الثورة مسلكاً لم تلبث اليابان ان تحذو حذوها ، فانتويت من أجل هذا
الشخص الى إنجلترا .

وبينا انا في الطريق قرأت في الصحف خبراً فحواه ان الثورة نشبت
بووشانج وان سن ياتسن سيتقلد رئاسة الجمهورية المنتظرة ، فرأيت اجتناب
الصحفيين اذ بدا لي ان الإشاعات تسبق الوقائع .

وتابعت السفر ومعي زميلي شوشو وين في رحلتنا الطويلة الى البلاد
الانجليزية ، وعلمت عند بلوغي نيويورك ان الزملاء يهاجمون كانتون فأبرقت
الى الحاكم شانج ني ايس انصح له بتسليم المدينة اتقاء لسفك الدماء ، وأمرت
الزملاء ان يؤمنوه على حياته ، وهو ما حدث بعد ذلك .

وعمدت عقب نزولي بإنجلترا الى مفاوضة الاتحاد المصرفي للدول

الاربع لأحذره من إمداد أسرة المانشو بالقروض ، وكان الاتحاد قد رضي فعلا ان يقرضها مائة مليون بضممان سكة حديد شوان هانج ، ثم زاد القرض مائة مليون اخرى ، ودفع قسط من أحد هذه القروض ولم تصدر الاسناد في القروض الاخرى مع توقيع الاتفاق ، وأردت وقف الأقساط من القرض الذي بدىء بدفعه ومنع صدور الأسناد من القروض الأخرى ، وتبينت ان هذه التسوية رهينة بمشيئة وزارة الخارجية فأمرت مدير دار الصناعة (وي هاي وي) ان يفاوض الحكومة البريطانية على مسائل ثلاث اصررت على تسويتها : (أولها) وقف جميع القروض الممنوحة لأسرة تاي شنج ، والمسألة الثانية ثني اليابان عن التدخل ، والمسألة الثالثة الغاء جميع الأوامر التي تحظر نزولي بالمناطق البريطانية ، كي يتيسر لي الوصول الى الصين بغير مشقة .

فلما تلقيت الجواب المرضي عن هذه المسائل من الحكومة البريطانية تحولت الى الاتحاد المصري للحصول على قرض للحكومة الثورية ، فجاءني الرد من مديره قائلا :

« إنه لما كان الاتحاد قد وقف دفع القروض للأسرة المالكة فالاتحاد لا ينوي ألا يمنح هذه القروض إلا حكومة ثابتة معترفاً بها ، ويرى الاتحاد في الظروف الحاضرة ان ينفذ مندوباً معك يبدأ المفاوضات عند الاعتراف الرسمي بحكومتك » .

كان هذا كل ما استطعته خلال مقامي بالبلاد الانجليزية ، فلما بلغت باريس لقيت احزاب المعارضة وتلقيت منها جميعاً عبارات التأييد وبخاصة من الرئيس كليمنصو .

وبلغت شنغهاي بعد ثلاثين يوماً من مبارحتي باريس ، وكان مؤتمر الصلح بين الشمال والجنوب منعقداً في ذلك الحين ، ولكن دستور الجمهورية المنتظرة لم يتقرر بعد ، وراحت الصحف قبل اقترابي من شنغهاي تذيع انني اعود الى الوطن محتقباً المال الكثير لمساعدة الثورة ، ووجدتهم - زملائي ومندوبي الصحف

الأجنبية والوطنية - يترقبون ذلك فأجبتهم عند سؤالي انني لم احضر معي فلساً واحداً وان كل ما احضرته معي روح الثورة وانه - الى ان يتحقق الهدف - لا وجه للكلام في مؤتمرات الصلح ، فأقبل المندوبون من ارجاء الصين بعد هذا التصريح على الاثر متقاطرين الى مدينة نانكين وانتخبت رئيساً للجمهورية الصينية .

وتوليت عملي (سنة ١٩١٢) أمراً بإعلان الجمهورية الصينية وتنقيح التقويم القمري واعتبار تلك السنة اول سنة للجمهورية .

وكذلك انقضت ثلاثون سنة كاليوم الواحد ، وبعد انقضائها فقط بلغت الهدف : هدف حياتي : وهو إنشاء جمهورية الصين .

من تاريخ الثورة

بيان المؤتمر الوطني الأول سنة ١٩٢٤

بدأت فكرة الثورة بعد الحرب الصينية اليابانية ، وبلغت أشدها سنة ١٩٠٠ ونجحت سنة ١٩١١ حين سقطت الحكومة الملكية .

بيد ان الثورة لا تطرأ دفعة واحدة . فمنذ احتلت أسرة المانشو الصين جاشت النفوس بالسخط زمناً طويلاً ، ثم افتتحت البلاد للتجارة الدولية فاندفع الاستعمار الأجنبي إليها كالسيل الغاضب ، وهبط بها الاستغلال المسلح والضغط الاقتصادي الى مركز سياسي كمركز البلاد المستعمرة ، وضاع من ثم استقلالها . ولم تكن حكومة المانشو عاجزة عن صد الغارة الأجنبية بل كان من همها الإصرار على اذلال « العبيد » وكسب رضى الدول الأجنبية بهذه الخطوة . فاتفق الرأي بين فئة من جماعتنا بقيادة سن ياتسن على ان الأمل في تجديد بناء الصين عبث ضائع ما لم تذهب حكومة المانشو . فنهضوا في الطليعة وحمداوا النضال حتى تحققت مهمة الخلاص من سلطان المغير .

الا أن مقاصد الثورة لا تقف عند هذه النهاية ، وانما وجب اسقاط المانشو للبدء بالعمل المنشود ، او بعبارة اخرى ان اسقاط المانشو من الوجهة القومية خروج من ربة قوم اجنيين للدخول في وحدة وطنية مؤلفة من أقوام الصين على قاعدة المساواة ، وهو من الوجهة السياسية خروج من نظام الدكتاتورية الى نظام سيادة الأمة . ومن الوجهة الاقتصادية خروج من عهد الصناعة البدائية بالأيدي الى عهد الصناعة الكبرى صناعة الآلات الحديثة ، وعلينا اذا اردنا المضي في طريقنا ان نرتقي بالصين من درجة المستعمرة الى درجة الأمة المستقلة التي تحتل مكانها اللائق بها بين امم العالم .

على ان وقائع هذه الايام قد جاءت على خلاف ما توقعنا ، ولئن قيل ان الثورة نجحت لقد كان غاية ما حققته هو الخلاص من سلطان الأسرة الأجنبية ، واضطرت بعد قليل الى المساومة والتفاهم مع قوى الحكومة المطلقة . . . ومن جراء هذا التفاهم حبطت الثورة حيويتها الأول ، لأنه كان بمثابة التسليم غير المباشر للاستعمار .

كان يمثل السلطان المطلق لذلك العهد (يوان شي كاي) وكانت السلطة التي ملكها اول الأمر لا تخرج على المؤلف ، ولم يشأ الزملاء ان يقيموه رغبة صادقة منهم في اجتناب التمادي في الحرب الأهلية ، مع حاجتهم الى حزب منظم يرسم غايته ويدرك رسالته ، ولو كان حزب كهذا موجوداً لأمكنه ان يقابل مكيدة يوان شي كاي بما يرددها عليه .

ولم يتحسن موقف الثورة بعد وفاته ، اذ كان العسكريون قد أقاموا انفسهم من الشعب مقام الجلادين من ضحاياهم ، وتعذر الشروع في أي عمل سياسي على قاعدة السيادة القومية ، ثم أحس العسكريون عجزهم عن التفرد بالحكم فربطوا علاقاتهم بالدول الأجنبية ، وكانت الحكومة التي تسمى بالحكومة الجمهورية نفسها بين أصابع هؤلاء العسكريين ، فسخروها في تمكين مراكزهم بتمليق المستعمرين . وراح المستعمرون من جانبهم يسخروهم للمآربهم، ويمدونهم بالقروض التي تملي لهم في منازعاتهم وتتيح لهم الصيد في الماء العكر . وهذه الفوضى كان لها اثرها الطبيعي فأخرت النهضة الصناعية فلم تقو على منافسة الصناعة الأجنبية في أسواقنا الداخلية . وأفلس من جراء ذلك صغار التجار وانتشرت البطالة بين الصناع فتشردوا او لحقوا بعصابات السطو والإجرام ، وعجز الفلاحون عن حرث ارضهم فباعوا محصولهم بأبخس الأثمان لغلاء الحاجيات وثقل الضريبة .

اين المخرج اذن من هذه المأزق ؟ إن الآراء تختلف ويعم اختلافها من يقيمون بيننا من الغرباء .

فهنالك « أولاً » المدرسة الدستورية ، وعندها ان متاعب الصين كلها

راجعة الى غياب القانون ، فاذا امكن توحيد الامة في ظل الدستور عولجت هذه الفوضى وتيسر دواؤها .

ولا يخفى ان نفاذ الدستور يتوقف على تأييد الامة ، وبغير هذا التأييد لا يجدي السواد والبياض على الورق شيئاً في ضمان الحقوق وحمايتها من عدوان العسكريين .

لقد كان لدينا دستور موقوت منذ السنة الأولى للجمهورية ، فلم يحل دون فساد الحكم على أيدي العسكريين والسياسيين . فالدستور ورقة مهملة ما دام هؤلاء موجودين . وقد تمكن « تساوكون » من شراء منصب الرئاسة في ظل دستور او خيال دستور ، ولكنه لم يعمل الا ما يناقض الدستور .

فقبل الدستور ينبغي ان تكون الامة قادرة على حمايته ، ولا فائدة من وضع العربدة أمام الحصان . ونزيد على ذلك ان الدستور لا ينفع الامة وهي مفككة الأوصال ، ولولم يكن ثمة من يسيء استخدامه من العسكريين ، فسوف يظل حروفاً ميتة في هذه الحال .

وتأتي بعد مدرسة الدستوريين مدرسة الاتحاديين « الفدراليين » وعندها ان فوضى الصين راجعة الى الغلو في المركزية وجمع السلطة كلها بين ايدي حكام العاصمة ، فمن المصلحة توزيع هذه السلطة بين حكومات الاقاليم والولايات ، فلا تقوى الحكومة المركزية على ارتكاب الاخطاء متى آل الحكم الى كل إقليم أو ولاية .

وينسى دعاة هذه المدرسة أن سلطان بكين لم تفوضه الامة بنص من نصوص القانون ، ولكن القادة الكبار قد اغتصبوه لتوسيع سلطانهم المسلح وكأنما يريد دعاة هذه المدرسة باقتراحهم ان يستعدوا صغار القادة من حكام الأقاليم عن كبار القادة في العاصمة . ويبقى هؤلاء القادة الكبار حيث هم ليضيفوا الى جرائمهم الأولى جرائم جديدة ، فاين وجه الصواب في هذا الاقتراح ؟

ان النتيجة المحتومة هي قيام حكومات منعزلة في الاقاليم جنباً الى جنب مع

حكومة القادة الكبار في العاصمة ، تتوخى كل منها منافعها من حيث تتمزق
الامة وتضطرب ، ولن يرجى النظام ولا الحكم الذاتي في مثل هذه الحال .

ولا ريب ان الحكم الذاتي الصحيح هو الخير الأمثل الذي يطابق مصالح
الأمة الصينية كما يطابق آدابها الروحية . إلا ان هذا الحكم لا يستقر قبل تمام
وحدة الأمة وألفتها ، فلا حرية للأقاليم والولايات حتى تتم الحرية للصين .

وثالث المدارس مدارس المؤتمرات التي تسمى بمؤتمرات السلام . ولا ريب
ان شقاء الامة بطول الحرب الأهلية قد اوحى بهذه الفكرة الى ذوي الرأي من
الصينيين والاجانب على السواء . فاذا صح ان السلام يأتي من هذه الطريق فليس
احب الينا منها ولا اجمل . ولكن هذا الاقتراح يبطل نفسه ، لأن الحرب الأهلية
هي جريرة المطامع التي تميلك في نفوس القادة ، مهم في تنازعهم عليها لا تتمهد
بينهم سبيل للوفاق ، وكل وفاق بينهم لا يراد به وجه الأمة . ونتيجة هذه
المؤتمرات لن تختلف من نتائج امثالها في اوروبا ، اذ تضيع مصالح الأمم الصغار
مرضاة للدول الكبار .

ورابع المدارس مدرسة تقترح ان يتولى الحكم اناس من زمرة التجار .
فهل لنا ان نقول ان زمرة التجار تمثل الأمة اذا كان القادة والسياسيون قد استحقوا
بغضها لأنهم لا يمثلونها ؟ إن الصواب هو ان تنظم الأمة حكومة تنوب عن ابناء
الصين اجمعين ولا تنحصر نيابتها في تمثيل مصالح التجار ، وخلق حكومة كهذه
ان تستند الى مشيئة الأمة بأسرها ولا تلتمس العون من قوة خارجية .

برنامج الثورة

من خطابه في الاحتفال بمضي ثماني سنوات على الجمهورية (سنة ١٩٢٠)

أعتقد أن خلق الثورة ينبغي ان يجري على نهج التقدم العصري ، وأن ننتفع فيه بتجارب الأمم الاخرى ، مجتنبين خطأها مهتدين بعوامل نجاحها ، اذ لا سبيل الى الأمل في تقويم خطط الثورة بغير دراسة ناضجة لتجارب الثورات في الدول الاخرى بين الأقوام المختلفة .

وأمامي ثلاثة ادوار للثورة : اولها حكومة عسكرية ، وثانيها تمهيد وتحضير وثالثها بناء دستوري .

فالدور الأول يستغرق فترة الهدم ويقترح فيه استخدام الاحكام العرفية ، ولا بد للجنود الثائرة في اثنائه من تحطيم الدولة التي اقامتها اسرة (تاي تسنج) وطرد موظفيها المفسدين واستئصال التقاليد البالية والقضاء على الرق وتطهير البلاد من سم الأفيون وسائر سموم الوهم والسحر والخرافة والتنجيم والغناء المكوس الداخلية بين الأقاليم الوطنية .

والدور الثاني - وهو دور التمهيد والتحضير - تشمل مهمته على انشاء الحكومة الذاتية المحلية في الأقاليم وتيسير تضامن الأمة وجعل الأمة وحدة من حكومات محلية مقسمة الى قرى ومراكز .

وكل امة خرج الأجنبي من بلادها وانتهى فيها الحكم العرفي فالواجب عليها ان تنشئ دستوراً موقتاً يقرر لأبنائها حقوقهم وواجباتهم كما يقرر حقوق الحكومة الثورية .

واذا مضت فترة سنوات ثلاث كان على أفراد الأمة ان ينتخبوا سلطتها .

فإذا أفلحت الأمة في استئصال جذور الفساد كما تقدم ودان نصف الشعب بمبادئ الديمقراطية الثلاثة والولاء للجمهورية ففي وسع السلطة ان تحصى ابناء الوطن وان تقرر ضريبة البيوت وتنظم الشرطة وتشرف على الصحة العامة ووسائل المواصلات وفاقاً للأحكام الدستورية .

ومتى انتخبت الأمة سلطتها وأصبحت وحدة مستقلة بحكمها حق لها ان تعول على النية الحسنة من حكومة الثورة وان تعترف لها هذه الحكومة بجميع حقوقها الدستورية في ظل الدستور الموقوت .

واذا استقرت الأمور بعد ست سنوات في جوانب البلاد كان على كل اقليم حاكم لنفسه ان يندب عنه نائباً لتأليف الجمعية الوطنية العظمى ، ومهمة هذه الجمعية ان تنشئ خمسة مجالس على هدي دستور الهيئات الخمس لتنظيم عمل الحكومة : وهي الهيئة الادارية والهيئة التشريعية والهيئة القضائية ، والهيئة الاختبارية ، وهيئة الرقابة والإشراف العام .

وينتخب المواطنون بعد قيام الدستور بطريق الاقتراع العام رئيساً لانشاء مجلس الإدارة ونواباً لتكوين الجمعية التشريعية ، اما المجالس الثلاثة الأخرى فيعينها الرئيس بالتعاون مع الجمعية التشريعية ، وهذه المجالس جميعاً لا تكون مسؤولة امام الرئيس بل امام الجمعية الوطنية ، ولا تقبل استقالة احد منها الا بعد إدانته في الجمعية الوطنية بناء على اتهام هيئة الرقابة والإشراف العام . أما اعضاء هيئة الرقابة والإشراف العام فيعزلون بعد اتهامهم بقرار من الجمعية الوطنية .

وتشمل سلطات الجمعية الوطنية وواجباتها مباشرة الإشراف على تطبيق الدستور وتطهير الاداة الحكومية من الموظفين غير الصالحين ، وتنظر الهيئة الاختبارية في المؤهلات التي ترشح صاحبها لعضوية الجمعية الوطنية والمجالس المختلفة .

وبعد اقرار الدستور وانتخاب الرئيس وانتخاب المجالس تسلم حكومة الثورة مقاليد السلطة للرئيس وتعتبر مرحلة التمهيد والتحضير منتهية منذ تلك اللحظة .

والمرحلة الثالثة او الدور الثالث هو دور اتمام الثورة ، وفيه تتحقق الحكومة الدستورية ، وفيه تبدأ حكومات الأقاليم الذاتية مباشرة حقوقها المدنية ، ويتولى المواطنون سلطة الراشدين في تدبير شؤون بلادهم وحل مشكلاتها السياسية وعزل الموظفين الحكوميين .

هذه هي الأدوار الدستورية ، او بعبارة اخرى هذه هي الفترة التي يتم فيها بناء الثورة ، وهذه هي الخطوط التي اوثرها وازكيها .

وبعد فما هي مشكلات البناء الثوري او بناء الثورة ؟

إن البناء الثوري هو بناء الطوارئ او هو بعبارة اخرى بناء العجلة ، ومن هنا وجب ان ينظر الى وسائل الدوام وان ينهج على منهج العوامل الاجتماعية الطبيعية ، اذ كان البناء الذي توحى به دواعي الساعة غير كفيلا في جميع الاحوال بموافقة مهام الثورة .

إن الثورة لها عملها الطارئ الذي تسقط به الملكية وتقضي على النظام الإمبراطوري ، ولكنها الى جانب الهدم الطارئ لا بد لها من البناء الطارئ وكلاهما كالقديمين او كالجناحين لا غنى لاحدهما عن الآخر ، ومنذ الساعة التي أقيمت فيها الجمهورية قد جاوزنا دور الهدم الطارئ ولكننا لم ندخل في دور البناء الذي لا بد أن يلازمه ، وهذا هو مصدر جميع النكبات التي انصبت علينا : سلطان الموظفين العنيف ومنازعات الساسة وما الى هذا وذاك ، ولم يكن للصينيين وسيلة لمنع ما حدث ، ففي زمن الطوارئ لا غنى عن بناء الطوارئ ، ولا سبيل بغير هذا الى تعويد الشعب ان يألف واجباته الجديدة ، وإن ذلك لهم الى الغاية من الاهمية في خطط الثورة .

ولقد مضت حتى الآن ثماني سنوات منذ إنشاء الجمهورية الصينية . وقد استفاد اعضاء الحزب ذخيرة واسعة من التجربة والمعرفة ، ولعلمهم اليوم يذكرون دعوتي الى تعليم الجماهير وتدريبها ويفهمون مغزاها دون ان يعتبروها من « الطوبيات » او المطامح التي لا تقبل النفاذ .

لقد عاشت الصين آلاف السنين تحت نير العروش الرجعية ، ودرج اهلها

على احتمال الطغيان والحرمان من السيادة ، وها هي ذي قد أنشأت منذ فجر الثورة حكومتها الجمهورية الدستورية ، فعليتها اذن ان تمر بدور من أدوار التدريب ، وإلا تعذر عليها بلوغ غايتها .

إن أمتنا الصينية قد طال عليها عهد السيادة الملكية ، وقد تركت (خلائق الرق) أثراً عميقاً في روحها لا يتأتى محوه قبل العبور بها في دور من أدوار التدريب . وعلى الصينيين ان يعملوا كثيراً على تهذيب انفسهم قبل إزالة هذه الأقدار المتجمعة من بقايا الماضي والاشترك في حياة الحرية والمساواة .

إن عصبه الثورة حين اخذت اول الأمر في تنظيم الثورة الصينية كان من همنا بداءة ان ننشر آراءها بأسلوب الدعوة وان نجتمع كل من صحت عزيمتهم على خدمة الامة الصينية وتعاهدوا على تحقيق الديمقراطية القائمة على مبادئها الثلاثة^(١) لبلوغ مقصدنا الشامل وهو الجمهورية الصينية .

فهؤلاء الذين نقضوا ذلك العهد لا نحسبهم في زمرة الثوريين ، ومنهم من ينظر الى ذلك العهد كأنه بعض المظاهر الرسمية ، ولكن قوة الكومنتانج قد نمت نمواً كبيراً وتوطد نظامها لأننا بالعهد الذي تعاهدنا عليه قد خلقنا للحزب قلباً واحداً . وإذا كان هذا شأن الحزب فهو شأن يصدق كذلك على الدولة .

وكثيراً ما قيل عن الامة الصينية انها كالرمل المتناثر هنا وهناك ، فإذا نحن اردنا ان نجتمع هذه الملايين الاربعمائة من حبات الرمل لنخلق منها دولة متحدة قوية في اتحادها فليس في وسعنا ان نتخلى عن فكرة القسم . وهكذا يحدث في جميع بلدان الحضارة المتقدمة ، فانهم يوجبون عند تغيير الجنسية ان يقسم المرء يمين الولاء والاحترام للدولة التي ينضوي اليها ، وأن يعرب عن اعترافه بدستورها والتزامه لكل ما يفرضه عليه من الواجبات ولا يحسب في زمرة المواطنين قبل هذا القسم ، بل يقضي حياته بين قومه ولا يزال معدوداً بينهم من الغرباء الذين حرمت عليهم حقوق الوطنية .

(١) الاستقلال من الحكم الاجنبي وسيادة الشعب وتيسير المعيشة .

وعندي ان الموظفين واعضاء المجالس لا يؤدون عملهم قبل أداء هذا القسم . ومن حق الحكومة الجديدة حيث يتبدل نظام الحكم ان تطلب عهد الولاء من جميع المواطنين وان تعتبر من يرفض ادائه عدواً يطرد من حظيرة الدولة .

على ان زملائي في الحزب حسبوا أن مسألة القسم مسألة ثانوية ووصفوني من أجل هذا بالنزعة النظرية ، ولا أزال منذ انشاء الحزب أصر على القسم ، وأرى ان انقطاع مراسم اليمين - أساس القانون - هو احد الاسباب الكبرى التي جرت الى خيبة البناء الثوري ، ولو لم يهمل زملائي كلماتي عقب تطور الجمهورية لتم في تكوين الدولة ما تم في تكوين الحزب ، وكان على كل موظف ان يقسم بيمين الولاء للجمهورية وان يؤيدها ويدود عن حقوق الامة ويعزز مواردها ، ولا يصح ان يستمتع بالحقوق القومية قبل ذلك بل يحسب من خدام اسرة (تاي تسنج) واعوانها .

وكل اساءة الى الجمهورية يعاقب فاعلها بعد حلف اليمين بحكم القانون .

إن الدولة سفينة تجمع قلوب رعاياها ، وليست سياسة الدولة الا صورة لعوامل الأمة النفسانية ، فإن اردنا أن نجعل من رعايا الإمبراطور مواطنين مخلصين للجمهورية فمن الواجب ان نطالبهم بيمين الولاء . ولم يستطع الكومنتانج عند اقامة الحكومة الجمهورية ان يحقق ذلك فكان من ثمة ان الحزب تجمعت له في دور الهدم ذخيرة هائلة من القوى الروحية ثم فقدتها بعد اقامة الجمهورية ولم تيسر له مهمة البناية الثورية .

وتقع التبعة في خيبة الثورة الصينية على جميع المواطنين الصينيين ذوي الفهم والمعرفة الذين لم يبذلوا دماءهم في صفوف الثورة الاولى . وليست هذه التبعة مقصورة على الذين قاموا بالثورة وحدهم ، فإن ذوي الفهم والمعرفة جميعاً هم مدد الثورة الذين وجب عليهم ان يخفوا لتأييد الطليعة من الثوار .

ابناء الصين ! انهضوا نهضة قلب واحد حباً لوطنكم ، وهبوا يداً واحدة

لنبذ القديم وخلق الجديد ، ورددوا بالنية الصادقة يمين الولاء للجمهورية الذي ارده الآن .

اناسن ياتسن ، بنية صادقة خالصة أقسم لأنبذن من هذه اللحظة القديم وأبنينّ الجديد ، وأن اقاتل في سبيل استقلال الأمة وأصرف قوّتي كلها الى تمكين الجمهورية الصينية وتحقيق الديمقراطية على مبادئها الثلاثة ، وانفاذ الدستور بهيئاته الخماسية لترقية الحكومة الصالحة وتوفير سعادة الشعب وأمانه وتوطيد دعائم الدولة باسم السلام في العالم أجمع .

الشوار

من بيان عن الحل الصالح لمشكلة الصين (سنة ١٩٠٤)

إن الصينيين الذين يجنحون الى مبادئ الثورة ينقسمون على وجه التقريب الى ثلاثة أقسام :

« اولها » واكثرها عدداً اولئك الذين عجزوا عن تحصيل القوت من جراء مظالم الموظفين واغتصاباتهم . .

و« ثانيها » اولئك الذين تثيرهم الكراهية القومية لأسرة المانشو .

و« ثالثها » اولئك الذين يستوحون الأفكار النبيلة والأمثلة العليا .

وهذه الطوائف الثلاث تستطيع ان تبلغ الغاية المطلوبة بالتعاون بينها في وجهات مختلفة وبالقوة والسرعة اللتين تنموان يوماً بعد يوم .

ومن المحقق اذن ان سقوط حكومة المانشو انما هو مسألة زمن ، وتشبه اسرة المانشو في هذه الحالة منزلاً متداعياً سرى الوهن الى اساسه جميعاً ، فهل في وسع احد أن يمنع سقوط هذا المنزل بأسناد توضع على خارج الجدران هنا وهناك ؟

لعل هذا التدعيم نفسه خليك ان يعجل بتقويضه . وقد بدا من تواريخ الأسر-المالكة في الصين أن أدوار حياتها كأدوار حياة الفرد بين المولد والنمو والنضج والشيخوخة والفناء . وهذا الحكم التتري القائم اليوم قد اخذ في الهرم منذ اوائل القرن الماضي فهو يمضي الى فئائه على عجل .. وأصبح واضحاً جد الوضوح أن استبدال حكومة مستنيرة متقدمة بهذا الحكم التتري امر لا محيص عنه .

إن في الأمة كثيراً من الاكفاء المتعلمين قادرين على النهوض بحكومة جديدة . والبرامج مهيأة لتحويل الحكومة التتريية الى جمهورية صينية . وهذه

الجهاهير من الشعب على استعداد للترحيب بالنظام الجديد وعلى امل في حالة
أفضل من حالتهم ترفعهم من وهدة هذه المعيشة المحزنة .

إن الصين اليوم مقبلة على حركة قوية عظيمة ، وإن شرارة واحدة لكافية
لإشعال النار في الغابة الكثيفة وطرد التتر من بلادنا ، وإن مهمتنا لعظيمة
ولكنها ليست بالمستحيلة .

مبادئ الأمة الثلاثة

من خطاب في اللجنة التنفيذية لحزب الكومنتانج (٦ مارس ١٩٢١)

بلغت ثورتنا العاشرة ، ولكننا لا نستطيع ان نزعّم اننا بلغنا الهدف منها فمهمتنا لم تتم ، وعلينا ان نمضي قدماً في كفاحنا .

ان حزبنا مختلف كل الاختلاف من أحزاب الصين الأخرى . إذ كان من تلك الأحزاب من عقد النية على خلع أسرة تسنج وإقامة أسرة أخرى - وهي أسرة منج - في مكانها . وغني عن القول ان مبادئ هذا الحزب مناقضة لمبادئنا ، فلأننا في السنوات العشر الأخيرة من عهد أسرة تسنج الفينا انفسنا مكرهين على النزول بمدينة طوكيو فقررنا يومئذ مبادئنا الثلاثة : وهي القومية والديمقراطية والاشتراكية ، وكانت السيطرة يومئذ لا تزال في أيدي المانشو والثورة لا تزال عند مبدئها الاول وهو القومية . غير متمكنة من اقرار مبادئها الآخرين .

إن مبادئ الرئيس لنكولن تطابق مبادئنا ، فقد كان ينشد حكومة من الأمة تنتخبها الأمة لخدمة الأمة ، وهي مبادئ صوّرت غاية المسعى في عرف الأوروبيين والأمريكيين على السواء ، ومن السهل ان نجد كلمات مثلها لسياسة الصين . فقد ترجمتها بالقومية والديمقراطية والاشتراكية ، وأحسب أنها لا تعني شيئاً غير هذا .

وأريد الآن ان أتكلّم عن القومية :

فما هو المعنى الذي نريده بالقومية ؟ لقد بقيت الامة منذ قيام أسرة المانشو خانعة لنيرها الثقيل اكثر من مائتي سنة ، وهاهي ذي أسرة المانشو قد ذهبت ولاح ان الأمة خليقة ان تستمتع بحريتها الكاملة . فهل تستمتع الأمة الصينية اليوم

بنعم الحرية الكاملة ؟ . . كلا . فما هي العلة ؟ وما بال حزبنا لا يزال بعيداً من تحقيق غايته لم ينجز منها الا ناحيتها السلبية دون ان يتقدم شيئاً في ناحيتها الايجابية ؟

بعد خلع الأسرة وانشاء النظام الجمهوري في الأقطار التي تسكنها القوميات الخمس - ونعني بها الصينيين والمنشوريين والمغول والتتار واهل التبت- برزت لنا عناصر جمّة من أنصار الرجعية السياسية والدينية ، وهنا تكمن جذور الشر كله .

فمن جهة العدد يأتي ترتيب هذه القوميات على هذا النسق . ملايين عدة من اهل التبت ، واقل من مليون من المغول ، ونحو عشرة ملايين من التتار ، وعدد ضئيل من المنشوريين . اما من الوجهة السياسية فهم موزعون على النحو الآتي : فالمنشوريون يقيمون في دائرة نفوذ اليابان ، والمغول على حسب الانباء الأخيرة يقيمون في دائرة نفوذ الروس ، والتبت غنيمة بريطانيا العظمى . وهذه القوميات لا تملك من القوة ما يكفي لاعتمادها على نفسها في دفاعها ، ولكنها تستطيع ان تتحد مع الصين لتكوين دولة واحدة .

وفي الصين أربعمائة مليون ، فإن عجزوا عن تكوين امة واحدة متحدة فنلك مسبتهم ، وفيها عدا ذلك دليل على أننا لم نحقق مبدأنا الأول واننا مضطرون الى الكفاح طويلا لاتمام عملنا على أوفاه ، وانما توطد الجمهورية المتحدة كي يتألف من جميع القوميات امة واحدة قوية . وعلى سبيل المثال أشير الى أمة الولايات المتحدة الأمريكية التي تجتمع منه وحدة متفقة وهي في الواقع تتألف من قوميات شتى ، كالألمان والهولنديين والإنجليز والفرنسيين الخ . فالولايات المتحدة مثال للأمة المتحدة ، وتكوين امة كهذه مستطاع ، ولا بد ان نستطيعه .

اوخذوا مثلاً آخر للأمة المتحدة من أقوام مختلفة بلاد سويسرة ، فإنها تقع في قلب القارة الأوروبية ، على حدودها من أحد جوانبها فرنسا ، وعلى الحدود الأخرى المانيا ، وعلى الجانب الثالث ايطاليا ، وهم لا يتكلمون لغة واحدة ولكنهم مع هذا امة واحدة . وانما توحد بينهم الثقافة الحكيمة والنظام السياسي

الرشيـد ، فتـجـمـع من هـذه الـاجـنـاس الـمـتـفـرقة امة مـتـحدـة مـتـاسـكة ومـصـدر هـذه البـقـوة ان رعايا الـجـمـهـورية مـتـساوون في حـقـوق الـانـتـخـاب المـباـشر ، وهـي اـذا نـظـرنا اليها من الـوجـهـة الـدولـية اول أمة ساوت بين رعاياها في تلك الحـقـوق ، وهـذه قـدوة مـثـلى في الـوـطـنـية .

فلنـفـرض الـآن ان قـبـائـل الـصـين جـمـيـعاً تـمـت وـحـدـتـها وـخـرجـت مـنـها أمة مـتـاسـكة . فليـس هـذا كافيـاً لـتحـقـيق الـغاـية الـمـنـشـودة ، إذ لا تـزال ثمة شعوب تعاني الـاجـحـاف في المعاملة ، ومن واجـب أبـناء الـصـين أن يتـكـلفوا بـرفـع هـذا الـاجـحـاف وبـسـطـيـد المعونة الـى تلك الشعوب لضمها الـى الراية الـوـطـنـية الشاملة ، وجـدير بالانصاف ان نـتـيح لـهم فـرصة الشـعـور بمساواة الإنسان للإنسان وبالموقف العادل من الـوجـهـة الـدولـية كما عـبر عـنه الرئيـس ويلسون فيما سماه تقرير المصير ، وما لم نـبـلـغ بـأمتنا هـذا المـبـلـغ لا نـعـتـبر مـهمـتـنا مـنـجـزة . . . فكل من أراد الـانـتـماء الـى الـصـين وجب ان يحسب من صـنـيم الـصـينـيين ، وذلك هو معنى الـوـطـنـية او القومية . فهـي القومية الـايـجابـية وينبغي ان نؤكدـها بـهـذا المعنى .

اما الـديمـقراطية فقد ذكـرت الساعة أن الـديمـقراطية قد استوفت طـورها الأعلى في سويسرة . الا انني ابادر فأقول إن نظام التمثيل هناك لا يطابق الـديمـقراطية على أصحها ، وانما تصح الـديمـقراطية بحـق الفرد المـباـشر . وقد نشبت ثورات عدة في فرنسا وأمريكا وانجلترا تولد منها نظام التمثيل القائم بين تلك الأمم ، ولكنه مع هذا لا يعني الحق المـباـشر على السواء لجميع المواطنين كما نـعـنيه ونـجـاهـد في سبيله . وانما الجوهري من هـذه الحـقـوق جـمـيـعاً حق الـانـتـخـاب لكل مواطن وحق العزل الذي يخول الشعب بعد انتخاب موظفيه ان ينحيهم عن العمل حين يشاء ، وحق الاستفتاء الذي يخول الشعب ان يرفض كل قانون تصدره الهيئة التشريعية مخالفاً لرغباته ، وحق الاقتراح الذي يخوله ان يقدم الى الهيئة التشريعية مسودات من القوانين يستحسن اصدارها .

فهذه الحـقـوق الأساسية الأربعة هي قوام ما أسميه بالحق الانتخابي المـباـشر .

ونتناول الكلام على الاشتراكية اخيراً وهي فكرة عرفت بين الصينيين في الأزمنة الأخيرة ، ومعظم دعائها يقصرون معرفتهم بها على بضع كلمات جوفاء لا تعبر عن برنامج محدود ، ولكنني قد انتهيت من دراستها الى جوهرها وهو حل مشكلة الأرض ورأس المال .

ونلخص ما تقدم ونضيف اليه بعض التفصيل فنقول :

اننا منذ خلع الأسرة المالكة لم ننجز من مبدأ القومية غير جزء من عهودنا . فقد حققنا الجانب السلبي ولم نعمل شيئاً من جانب الإيجاب ، وعلمنا أن نرفع كرامة الأمة الصينية ، ونؤلف بين جميع الشعوب التي تستوطن الصين لتصبح في آسيا الشرقية امة واحدة تسمى دولة الصين القومية .

ولإدراك هذه الغاية يلزمنا أولاً أن نقرر الأصول الأربعة التي تدور عليها الحقوق الانتخابية الأربعة : وهي الاقتراع العام، والاستفتاء ، والاقتراح ، والعزل .

اما الاشتراكية فبرنامجي لها ما يأتي :

« أولاً » تقسيم الارض على أساس النسبية .

وقد حاولت ايام مقامي بنانكنج اذ كنت أتولى الرئاسة المؤقتة ان انفذ هذا البرنامج فلم استطع لانني لم أفهم .

إن المشكلات الاجتماعية تنشأ من التفاوت بين الغني والفقير . فماذا نعني بالتفاوت او قلة المساواة ؟

لقد كان الفارق موجوداً بين الغني والفقير في الأزمنة الغابرة ولكنه لم يكن فارقاً حاسماً كما نراه اليوم ، إذ يملك الغني الأرض كلها ولا يبقى للفقير حتى القليل منها . وعلة هذا التفاوت اختلاف أساليب الإنتاج ، فقد كان قاطع الخشب مثلاً يستخدم الفؤوس والمدى وما إليها ولكن المكينات تحل محل هذه الأدوات في العصر الحاضر ويستطاع الحصول على محصول كبير بعمل بدني قليل .

ولنضرب مثلاً آخر من أعمال الزراعة . ففي الأزمنة الغابرة كان المعول كله في هذا المجال على الجهود الانسانية ، ثم نشأت المحاريث التي تجرها الخيل والبقر فزادت سرعة العمل وقلت الجهود البدنية ، ثم استخدمت القوى الآلية اليوم في أوروبا وأمريكا فأصبح من المستطاع حرق ألف فدان وزيادة في اليوم الواحد وامكن الاستغناء عن الخيل والبقر ، فنجم من هذه الحالة فارق هائل يعبر عنه بنسبة ألف الى واحد . فإذا انتقلنا من هذه الأمثلة الى وسائل المواصلات رأينا أن الوسائل الحديثة كالباخرة والسكك الحديدية قد جعلت النسبة أكثر من ألف الى واحد عند المقارنة بين هذه القوى والقوة الانسانية .

ولنتكلم أولاً عن اشتراكية الأرض ، فنظام الأرض مختلف بين أوروبا وأمريكا ، ولا يزال نظام الإقطاع قائماً في انجلترا من حيث أصبحت الأرض مملوكة للأحاد في الولايات المتحدة .

إلا ان برنامجي يدعو الى التقسيم النسبي انقاء لشرور المستقبل التي بدرت اليوم بوادرها .

ولنضرب مثلاً بما حدث تحت اعيننا منذ انشئ المجلس البلدي في مدينة كانتون . فإن المواصلات تقدمت وأخذت اثمان الأرض على الجسر وعند مزدحم السكان ترتفع ويبيع « المو » الواحد بعشرات الألوف من الريالات ، وهذه كلها يملكها آحاد يعيشون بجهود الآخرين .

إن نظام الأرض القديم في الصين يوافق بعض الموافقة نظام التقسيمات النسبية ، فإذا اردنا أن نطبق هذا النظام وجبت ملاحظة هذه الشروط ! وهي فرض الضريبة على حسب قيمة الأرض ، والتعويض على حسب القيمة العرفية .

وقد اتبع التقسيم على ثلاث درجات الى اليوم في البلاد الصينية ، ولكن قيمة الأرض لم تكن فيما مضى بهذا الارتفاع لنقص وسائل المواصلات وأدوات الصناعة . فلما تقدمت المواصلات والأدوات الصناعية مع بقاء التقسيمات العتيقة نجم من ذلك ارتفاع غير متناسب مع قيمة الأرض . فأصبح ثمن المو في

بعض المواقع الفي دولار وفي بعض المواقع الأخرى عشرين ألفاً ، وتراوح بين هاتين القيمتين قيم متفاوتة ، فإذا بقيت الضرائب كما كانت راج الغش والفساد بين دافعي الضرائب ومحصيلها .

وعلى هذا ينبغي اذا أردنا اتقاء ضرور هذه الحالة ان نفرض الضرائب بنسبة واحد في المائة من قيمة الأرض . فمن كان يملك ارضاً تباع بألفي ريال فعليها ضريبة عشرين ريالاً ، وتطرّد الزيادة باطراد الارتفاع في القيمة ومتى استولت الدولة على الأرض فينبغي ان يكون استيلاؤها على قيمة مقدرة بهذا الحساب .

اما مسألة رأس المال فقد نشرت اخيراً كتاباً عن تنمية الصين الدولية بحثت فيه مسائل الاستعانة برؤوس الأموال الأجنبية لترقية صناعة الصين وتجارتها . فانظروا مثلاً الى خطوط بكين هنكاو، وبكين مكدن وتينتنسن بكاو التي مدت برؤوس الاموال الأجنبية وهي تدر الآن مقادير جمة من الربح الجزيل .

إن خطوط السكك الحديدية اليوم تبلغ في الصين من خمسة آلاف الى ستة آلاف ميل ، تقدر أرباحها بما يتراوح بين سبعين وثمانين ميلاً تزيد على قيمة الضرائب . فإذا امتدت الخطوط فبلغت خمسين او ستين الف ميل تضاعفت الأرباح عدة أضعاف .

وبرنامجي في الاستعانة بالأموال الأجنبية ان جميع الموارد التي تدر الربح عند ادارتها على أي نحو مقبول لا تزال في انتظار الاموال الاجنبية ، ومن امثلتها موارد المناجم والتعدين .

ومتى ذكرت القروض في هذا الصدد فانما اعني الحصول على المكنات والأدوات الضرورية لاستغلال هذه الموارد ، وقد كانت ارباح السكة الحديدية من بكين الى هنكاو عظيمة وكان الأجانب على استعداد لتسليمها مع إمكان الربح منها في المستقبل ، وبلغ من وفرة هذا الربح انه كان يكفي لمد الخط من بكين الى كاجلان ، وهو الخط الذي يصل اليوم الى سونيانج .

ونوجز فنقول إن الحصول على القروض من رؤوس الأموال الأجنبية

ميسور ، ولكن السؤال هو : كيف ننفيها ؟ وهل نستفيد من إنفاقها أولا
نستفيد ؟

وعلينا أن نسلم أن الضحايا الضرورية للثورة الاجتماعية أكبر من الضحايا
اللازمة للثورة السياسية . وقد صح بعض الصحة مبدأ القومية منذ خلعت أسرة
المانشو بعد ثورة سنة ١٩١١ ، ولكن مبدأ الديمقراطية ومبدأ الاشتراكية لم يتركا
لهما اي اثر . فلا مناص لنا اذن من السعي جهدنا كي نحقق غاية حزبنا ونحقق
كذلك ما يعتبر في عرف العصر الحاضر غاية الجميع ، ونعني به الديمقراطية ،
وهي ايضاً إحدى غاياتنا .

ولا شك في تقدم انجلترا وأمريكا في الحياة السياسية . ولكن السلطان
السياسي لا يزال هناك في قبضة حزب لا في قبضة الامة كلها . وقد اعلن الرئيس
ويلسون خلال الحرب الاوروبية الكبرى نداء تقرير المصير وهو يقابل مبدأ
القومية من برنامجنا . وقد تألفت بعد مؤتمر فرساي جمهوريات صغيرة ولكنها
مستقلة تعيش معاً بغير رابطة تجمعها . فجدير بكم ان تفتنوا من هذا للاتجاه
الغالب على حياة الأمم العصرية .

لقد حان الحين لتحقيق مبادئنا الثلاثة جميعاً ، أي تحقيق القومية
والديمقراطية والاشتراكية ، وانما يتاح العيش والحرية لأمتنا حين تتحقق هذه
المبادئ على أوفائها ، ويتوقف تفصيلها وتطبيقها على ما تبدونه من القوة وما
تودعونه دعوتكم من النشاط والهمة .

مبدأ الوطنية (أو القومية) من محاضرات كانتون سنة ١٩٢٤

ما هو مبدأ الوطنية ؟

إذا رجعنا الى تاريخ الصين في حياتها الاجتماعية وعاداتها الموروثة جاز لنا أن نقول إن مبدأ الوطنية مرادف لفكرة الدولة .

فالأمة الصينية قد الفت الولاء للأسرة والقبيلة حتى بما فيها شعور القرابة وعصبية القبيلة ولم ينم فيها شعور الوطنية .

وقد كانت الأسرة والقبيلة من القوى الموحدة ، وحدث كثيراً ان الصيني ضحى بنفسه وبأسرته وحياته دفاعاً عن قبيلته . اما عن الوطن فلم يعهد قط عمل عظيم من أعمال التضحية الجليلة . فوقفت وحدة الصين عند القبيلة ولم تتقدم الى وحدة الأمة .

فقولي ان مبدأ الوطنية مرادف لفكرة الدولة يصدق على أحوال الصين ولا يصدق على الأحوال في الغرب . إذ يميز الغربيون بين الأمة والدولة ، والكلمة التي يقابل بها الإنجليز كلمتنا « من تسو » هي كلمة الأمة ، وهي ذات معنيين لا اختلاط بينهما .

نعم إن الدولة والأمة متصلتان ولا تبدو الضرورة للفصل بينهما ، ولكن معناهما مختلف ولا بد من فهم معنى كل منهما على حدة .

فلماذا يصدق التوافق بين معناهما على الصين وحدها ؟ يصدق ذلك على الصين وحدها لان الصين منذ قامت فيها اسرة شين واسرة هان تنشئ دولة واحدة من سلالة واحدة حيث كانت البلاد الاجنبية تنشئ حكومات متعددة في جنس

واحد وتضم عدة قوميات الى فرد حكومة .

ونضرب المثل بإنجلترا التي تعد اليوم أقوى دول العالم . فإنها ضمت الى الجنس الأبيض اناساً من السمر والسود وغيرهم لتكوين الإمبراطورية البريطانية ، فلا يصدق عليها ان الجنس والدولة شيء واحد ، وهذه هونج كونج - وهي مقاطعة بريطانية - تؤوي عشرات الألوف من الصينيين فلا يصح ان يقال عنها ان حكومة هونج كونج تعني امة بريطانية .

او انظروا الى الهند - وهي اليوم مستعمرة بريطانية - تجدوا ثمة ثلاثمائة وخمسين مليوناً من الهنود ، فإذا قلنا ان حكومة الهند والامة البريطانية شيء واحد فنحن في زيغ من الحقيقة . ونحن جميعاً نعلم ان ابناء إنجلترا الأصلاء من الانجلو سكسون ، ولكنهم غير محصورين في البلاد الإنجليزية ، بل يوجد في الولايات المتحدة أيضاً طوائف كبيرة من هذه السلالة ، فلا يتأتى لنا حين ننظر الى البلدان الأخرى ان نوحّد بين معنى الدولة ومعنى الأمة ، فبين المعنيين خط فاصل يميز بينهما .

فكيف يتسنى لنا التمييز الواضح بين هذين المعنيين ؟ خير منهج ننهجه للتمييز بينهما ان ندرس العوامل التي مزجتها ، ونبسّط العبارة فنقول ان الجنسية او القومية تنمو بالعوامل الطبيعية ، اما الدولة فتتطور بقوة السلاح . ونستعين بشاهد من تاريخ الصين السياسي فنذكر ان الصينيين تعودوا ان يقولوا ان « وانج تاو » هي الطريق السلطانية وطريق الحقيقة ، فالجماعة التي تتألف على الطريقة السلطانية هي السلالة او القومية . أما القوة المسلحة فهي « باتاو » أو طريق الغلبة ، فالجماعة التي تتألف على هذه الطريقة هي الدولة .

ونعني النظر في قوانين البقاء كما عملت في السلالات القديمة والحديثة فيبدو لنا أننا لا نستطيع ان ننقذ الصين ونحفظ سلالتها الا بتنمية بواعث القومية ، وعلينا ان نفهمها جيداً قبل ان نجعلها عاملاً واضحاً من عوامل الخلاص والسلامة .

إن أهل الصين يبلغون اربعمائة مليون ، لا تختلط السلالة فيهم الا في

بضعة ملايين من المغول وفي نحو مليون من المنشو وفي ملايين قليلة من ابناء التبت وفي مليون من الترك المسلمين ، فلا تزيد عدتهم جميعاً على عشرة ملايين ، ويتحد الصينيون ما عداهم في سلالة هان بدم واحد ولغة واحدة وديانة واحدة وعادات متشابهة : سلالة واحدة صافية .

ما هو موقف الصين من العالم بأسره ؟ اننا بالقياس الى الامم الاخرى اكبرها عدداً واعرقها حضارة ، لأنها حضارة دامت أربعة آلاف سنة ، ولكننا على هذا نعد بين افقر الأمم واضعفها وننزل اسفل المنازل في الشؤون الدولية ، فنحن السمكة واللحمة وغيرنا من ابناء آدم هم الصفحة والسكين ، وموضعنا اليوم على أشد الخطر ما لم نستمسك بعوامل الوطنية ونجمع بين الملايين الأربعمئة في أمة قوية ، إذ نحن نواجه الكارثة ونستهدف لضياح بلادنا وفناء قوميتنا ، ولن ندفع هذه الكارثة بغير الشعور الوطني والاعتماد على النخوة الوطنية لانقاذ بلادنا .

ان الوطنية هي القنية النفيسة التي تهين للدولة ان تتطلع الى التقدم وللأمة ان تطيل وجودها .

وقد ضيعت الصين اليوم هذه القنية النفيسة ، ويتراءى لي انها ضيعتها قروناً ولم تضيعها يوماً وحسب ، وما عليكم الا ان تنظروا الى الموضوعات التي تحارب الثورة وتندس اليها من الخارج ، وكلها تعارض الوطنية !

لقد كانت الوطنية ميتة خلال مئات السنين من تاريخ الصين ، وهذه الموضوعات التي راجت في زماننا لا تعرض لنا نعمة واحدة من نعمات النخوة الوطنية ولا تني شادية بالثناء على فضائل المانشو ورحمتهم ومآثر سخائهم العميم ، ونكاد نسمع منذ نشوب الثورة اولئك الاعلام المتطوعين للتغني بما كان للمانشو من المناقب والسجاي ، ولم يقنع هؤلاء الاعلام باصطياد العبارات التي تستبقي ذكرى المانشو بل جاوزوا ذلك الى تأليف جماعتهم المسماة « باو هوانج تانج » للدفاع عن امبراطور المانشو وسحق النوازع الوطنية في ضمائر امة الصين .

واجعلوا بالكم الى هؤلاء الملكيين . . . انهم لم يكونوا من المانشو بل كانوا من صميم اهل الصين ووجدوا الرعاية والترحيب بين الصينيين المقيمين في الخارج ! فلما ازدهرت دعوة الثورة تحول هؤلاء المهاجرون شيئاً فشيئاً الى تأييدها وتضاعفت الجماعات الثورية من ثم وراء البحار .

ومن هؤلاء فئة « هنج مين سان هوهوي » أو كما يسمون احياناً بالـ « شيه كنج تانج » . . . الذين كانوا يحاربون المانشو ليأتوا بأسرة « منج » في مكانها ، وكانوا ينطوون على حماسة وطنية قوية ، ثم ظهرت الدعوة الملكية فأصبحوا ملكيين لا يبالون بغير « النقاء الطاهر » وهو الشعار الذي اتخذته الدعوة المانشوية لاعادة عاهلها الى عرشه ، وكفى بهذه النكسة دليلاً على ما فقدته الصين من نخوتها الوطنية .

اننا خليقون ان نعرف اثاره من تاريخ هذه الجماعات الخفية حين نتكلم عنها . فقد بلغت غاية القوة خلال حكم العاهل المانشوي كانج هسي (١٦٦١ - ١٧٢٢) وهب الموالون لأسرة منج يعارضون شان شي حين قضى على هذه الاسرة واستولى على زمام السلطان في ارجاء الصين بأسرها . واستمرت المقاومة الى عهد كانج هسي فلم تدعن الصين كل الاذعان للمانشويين حتى ذل العهد ، ولم تنطفئ شعلة المقاومة حتى يش الجليل القائم بها من تدبير القوة الكافية للانتفاض فلجأ الى الجماعات السرية ، وكان بقيتهم أناساً ذوي اصاله ونظر وخبرة بالمجتمع ، فدأبوا على تنظيم الجماعات السرية الى ان وضع العاهل المانشوي نظام الامتحان للمناصب فدخل في شبكته كثيرون من أساتذة عهد « منج » وعلم القائمون بحركة المقاومة ان الطائفة المتعلمة لا يعتمد عليها . . . يومئذ انقلبوا الى طبقات المجتمع الدنيا : الى المرشدين على ضفاف الانهار والبحيرات ، وراحوا يجمعونهم وينظمونهم ويشون فيهم روح الغيرة الوطنية كي يتصل العمل بعدهم ، ولكن هذه الطوائف لجهلها واسقوط بيئتها وجلافة تعبيرها وخشونة مسلكها لم تلق أذانا صاغية عند الطوائف المهذبة ، ولا يمنع هذا أن حكماء أسرة منج ابانوا في عملهم عن دراية وحصانة حين لجأوا الى تنظيم تلك الجماعات السرية لاستبقاء النزعة القومية ، فلم يقو طغيان المانشو خلال القرنين

الاخيرين على محو تلك النزعة وتوارث مصطلحاتها وتقاليدها طبقة بعد طبقة في تلك الجماعات السرية .

وظلت جذوة الوطنية حية منذ بدأت أسرة المانشو حكمها ، ثم اخذ « تسو تسنجتاج » بناصية التنين الأعظم وعلم بخفايا الجماعات السرية فحطم قيادتها الحربية وشتت شملها ، فلما كانت الثورة الاخيرة لم نجد هيئة منظمة نعتمد عليها ، فقد كانت جماعة الـ « هنج مين » آلة مسخرة وآل الأمر بنخوة الصين الوطنية الى الضياع .

ان الأمة اذا سادت امة اخرى لم تسمح لها باستقلال التفكير ، وهذه اليابان مثلاً تسيطر على كورية وتعمل على توجيه اذهان الكوريين حيث تريد ، فمحت مادة الوطنية من المدارس ويوشك بعد ثلاثين سنة ان يكبر الأطفال الكوريون وهم لا يعلمون انهم كوريون وان هناك وطناً كان يسمى كورية . وقد مضى زمن كانت منشورية تحاول فيه معنا هذه المحاولة ، اذ كان من دأب الأمة الغالبة ان تتلف هذه القنية النفيسة في ضمائر الأمة المغلوبة ، وبهذه النية جعل المانشويون يحتالون شتى الحيل ويبتدعون مختلف الأساليب . فحرم كانج هسي بعض الكتب وجاء شيان لنج فكان ادهى منه في سحق الروح القومية . كان كانج هسي ينادي بانه مختار السماء لولاية امر الصين فليس من التقوى ان يتمرد المتمردون على المشيئة السماوية ، فلما قام شيان لنج بالأمر ازال كل فارق بين الصيني والمانشوي حتى أصبح المثقفون وقد خلت نفوسهم من وعي الوطنية وانتقل هذا الوعي منهم الى الطبقة السفلى ، فكانوا يؤمنون بوجوب مكافحة التتار ولكنهم لا يعلمون فيم يكافحونهم ، وبهذه المثابة ضمرت روح الوطنية الصينية مئات السنين من جراء تدبير المانشويين .

ويصعب علينا ان نوضح كيف تم هذا التدبير وكيف تخلف منه ضمور الروح الوطنية ، فلعل ذلك يتضح لنا من قصة شهادتها بنفسها في هونج كونج تفيد في تقريب ما اعنيه ، وخلاصة هذه القصة ان اجيراً كان يعمل في حمل البضائع من البواخر ولا معول له في هذه الصناعة على غير حبله وعموده ، وكانت اجرة الحمل كافية لمؤونة يومه، ثم ادخر على مر الزمن عشرة ريالات فاشترى بها ورقة

نصيب ووضعها في جوف عموده وحفظ رقمها لكيلا يحتاج الى اخراجها من حين الى حين لينظر فيها ، ثم جاء يوم السحب فعلم من كشف اليانصيب ان ورقته ربحت الجائزة الاولى وقدرها مائة الف ريال فكاد ان يمجن من فرحته والقى بالعمود والحبلين الى الماء لأنه اراد ان يستقبل حياة الثراء وان يطمئن الى استغنائه عن حمل البضائع مدى الحياة .

ان عمود الحمال قد يشبه بالوطنية التي تعين الامة على البقاء ، وقد تشبه الجائزة المكسوبة بالعصر الذهبي الذي اقبلت عليه الصين حين اتسعت اطرافها وشملت العالم كله في نظر ابنائها ، فليس للسماء غير شمس واحدة وليس للامة غير ملك واحد ، وما من امة على الأرض الا وهي تسجد امام تاجه ولآلئه ، فلن يعرف العالم بعد الا السلام والوثام وأداء الجزية للملك الانام . فقدفت الامة بوطنيتها الى البحر كما قذف الأجير بعموده وحبله . ثم ابتليت بحكم المانشو فلم يكن قصاراها انها عجزت عن سيادة العالم بل ساءت بها الحال حتى عجزت عن حماية حدودها . لقد ضاعت الوطنية كما ضاع العمود في الماء ! . . .

ولو ان اسلافنا حفظوا العمود لأخذوا الجائزة الأولى ، ولكنهم قذفوا به ونسوا ان الورقة مخبوءة فيه . وحبذا لو استطعنا ان نعود الى عمودنا او نعيده الينا ، فما علينا اذن من ضير ان تجهمت لنا القوة الأجنبية وتنكرت لنا فرص العيش . فإننا لنصمد لكل ما نلقاه .

إن السماء قد وضعت على غواتقنا نحن ابناء الصين تبعات جساماً ، وإننا لخارجون عن مشيئة السماء ان لم نحجب نفوسنا ، وها قد حان الوقت الذي يشعر فيه كل صيني بالتبعة على عاتقه ، فإن كانت السماء لا تبغي القضاء علينا فهي تدخرنا لصلاح العالم وارتقائه ، وإذا هلك الصين فسوف تهلك على أيدي الدول العظمى ، وسوف تقيم هذه الدول العقبات في سبيل العالم .

وبالأمس قال لي احد الروسيين : ما بال لينين عرضة للهجمة عليه من كل دولة ؟ انه عرضة لهجماتها لأنه اجترأ على ان يقول ان ابناء العالم قسمان : ألف ومائتان وخمسون مليوناً في جانب ، ومائتان وخمسون مليوناً في الجانب الآخر ،

والأولون مسخرون للآخرين . . . وهؤلاء الذين يسخرونهم لا يمشون مع الطبيعة بل يعارضونها ويناجزونها ، وإنما نمشي مع الطبيعة حين نتصدى للقوة ونكبحها .

ونحن إذا أردنا ان نتصدى للقوة ونكبحها فلنبداً أولاً بتوحيد صفوفنا ولكن صفواً واحداً مع الألف والمائتين والخمسين من الملايين المسخرين . لنبدأ بإحياء الوطنية في قلوبنا ولنحقق أول الأمر وحدتنا ، ولنعمل من ثم على عون الضعفاء وتمكينهم من الصمود للأقوياء ، ولنجتمع لإعلان الحق في وجه القوة ، حتى اذا انهزمت هذه القوة واندحرت سطوة الجشع والانانية فهناك يحق لنا ان نتحدث عن الوحدة الانسانية .

ان الوحدة الانسانية حديث اليوم في أوروبا، ولكنها كانت حديث اهل الصين قبل ألفي سنة ، وما استطاع الأوروبيون بعد أن يدركوا عراقة حضارتنا ، وإن الملايين الاربعمائة من اهل الصين مخلصون لمبادئ الأخلاق العالمية ، وإنهم لقصورهم عن حفظ وطنيتهم قد عز عليهم الإعراب عن أنفسهم ، ويوشك ان يحقق بهم البوار والزوال .

على أن الوحدة الانسانية التي يتحدث بها الأوروبيون اليوم قائمة على قوة لا انصاف معها . وشعار الانجليزي الذي يقول ان الحق مع القوة إنما يعني ان الكفاح للغلبة والاستيلاء عدل وانصاف . اما العقل الصيني فما اعتقد قط ان الغلبة بالحرب حق ، وما وصف القهر بالعدوان قط الا بوصف الهمجية والبربرية . وهذه الخلائق السلمية هي جوهر الآداب العالمية . فعلى أي أساس نبني هذه الآداب ؟ نبنيها على أساس الوطنية ، فالملايين المائة والخمسون في روسيا أساس العالمية الأوروبية، والملايين الأربعمائة في الصين أساس العالمية الآسيوية ، وما من بناء يقوم على غير أساس ، فلتكن الوطنية اذن أساسنا الذي نبني عليه ، ومن شاء ان ييسط السلام على العالم فليسنطه قبل ذلك على وطنه ، وليكن همنا ان نحيي الوطنية في جوانحنا وان نجلوها ساطعة متألقة ، فيومئذ يسوغ لنا ان نحمل علم الوحدة العالمية .

ثم نتساءل : ما الوسيلة التي نلجأ اليها لاهياء وطنيتنا ؟ هناك وسيلتان : احدهما ان ننبه الملايين الاربعمئة الى حالتهم . فهم في المأزق الذي يضطربهم الى الهرب من البؤس وابتغاء السعادة ، او الى الهرب من الموت وابتغاء الحياة . لقد جهلت الصين من قبل انها تنحدر فهلكت ، ولو انها احست ما ينتظرها لما حق عليها الهلاك .

واذا تساءلنا عن القوارع التي تهددنا ومن اين تعرض لنا فالجواب انها تعرض لنا من الدول العظمى ، وانها هي « اولا » الغضب السياسي و « ثانياً » الغضب الاقتصادي و « ثالثاً » الزيادة السريعة في عدد السكان بين الدول العظمى .

هذه القوارع الثلاث من الخارج قد رانت على رؤوسنا وجعلت امتنا على خطر داهم . فالقضاء على الامة من طريق الغضب السياسي قد يحدث بين عشية وضحاها ، ووقوع الصين تحت نير الدول قد يحطمها في اية لحظة فلا طمأنينة لنا من نهار الى نهار ، وقد يأتي الدمار من القوة العسكرية كما يأتي من المناورات السياسية ، وربما كان بين الدول اليوم في الصين توازن هو ملاذ العصمة لنا ، ولكن الذين يتكلمون على تنافس الدول ويحسبون منافسة على الدوام ولا يحسبون حساب اتحادها واتفاقها يخطئون السداد ويصدق عليهم المثل الذي يضرب لمن يتعلق بالقضاء ويراهن عليه ، وتلك هي السلامة التي نعلقها على غيرنا ولا نعلقها على انفسنا ، وليس الرجم بالغيب سلامة نظمئن اليها .

والغضب الاقتصادي يسلبنا كل سنة الف ملىون ريال لا تزال ابدأ في ازدياد ، وقد كان ميزان التجارة منذ عشر سنوات مائتي ملىون ريال ، فبلغ اليوم خمسمائة ملىون ، أي بمعدل مائتين وخمسين في المائة كل عشر سنوات ، فاذا انقضت عشر سنوات اخرى الفينا انفسنا ونحن فاقدون ثلاثة آلاف ملىون ريال كل سنة ، يخص الرأس مئنا سبعة ريالات ونصف ريال ، وكأنا يؤدي كل فرد مئنا سبعة ريالات ونصف ريال جزية عن رأسه للأجانب كلما دار الحول ، وإذا حسبنا النساء اللائي لا يؤديين هذه الجزية عن انفسهن في الوقت الحاضر فالجزية

خمسة عشر ريالاً على كل فرد من الذكور ومنهم الشيوخ والصغار الذين لا يسهمون في الكسب . فلا جرم ترتفع الجزية على الرأس الواحد الى خمسة وأربعين ريالاً في العام .

ليست هذه بالصورة المفزعة لوقائع الأمور ؟ وانها في هذا لتتفاقم ولا تهبط . فلو فرضنا ان السياسة الاجنبية تنام عنا ولا ترهقنا بأعباء مضاعفة علينا فنحن هالكون في مدى عشر سنوات ، وكيف الحال بنا بعد ذلك والصين اليوم فقيرة مستنزفة ؟ اترأها قادرة على البقاء اذا تفاقم الخطب عليها عما قريب ؟

ثم المشكلة الثالثة وهي مشكلة النمو الطبيعي . فإن الصين لم تزد خلال القرن الأخير ، ولن تزيد خلال القرن المقبل ان لم تعمل ما يبتعث فيها عوامل النمو .

لقد اصبح عدد الولايات المتحدة عشرة اضعافه في مائة سنة ، واصبح عدد الروس اربعة اضعافه ، وعدد الانجليز واليابانيين ثلاثة اضعافه ، وعدد الألمان ضعفين ونصفاً ، وعدد الفرتسيين اضيف اليه رבעه وهو أقل الزيادات .

ومع ازديادهم تركد الصين فلا تزيد بل تنقص ، فلو نظرنا الى تاريخنا علمنا ان زيادتنا في العصور الماضية كفلت لنا البقاء وازالت ابناء الصين البدائيين من عشائر المياسو والياؤس واللاؤس والتنج وغيرهم ، وقد كان العكس هو الخلق ان يصيبنا لو كانت الزيادة في جانبهم والنقص في جانبنا ، فلا ضمان لوجودنا بهذه الحالة اذا دامت سيادة الاجانب علينا ودام الضغط عليهم من زيادة النسل على مدى الأجيال .

هذه القوارع عالقة على رؤوسنا ، وعلينا ان نفهم الأمر الواقع وندرك الخطر الداهم ، وأن نذيع بيانه حتى لا يبقى من يجهله ومن يخفى عليه ما يهدد الصين وما يعترض سلامتها من المصاعب . وحرى بالسائلين وقد علموها ان يسألوا : وماذا عسى ان نصنع ؟ والجواب ان الحيوان المحرج تبقى فيه بقية للنضال ، ونحن فينا هذه البقية للنضال ، وستقوى عليه يوم نعلم أنها معركة موت وحياة وانه مهرب واحد لا مهرب لنا سواه ، وإنما نقوى على النضال كلما

حومت على رؤوسنا مخاطر الفناء .

يقول الاجانب إن الصين صفحة رمل محلول وقولهم في وجهة الشعور الوطني صحيح . فما كانت لنا قط وحدة وطنية . فهل ترانا نعوذ بوحدة اخرى ؟ نعم . لدينا اواصر الاسرة وشائج القبيلة ، وإنها من طبائعنا لفي قرار عميق . فإذا اتسع نطاق العصبية في القبيلة حلت عصبية الوطن محل عصبية الغيرة ، وحنين الصيني الى مولده ومسقط رأسه شعور مكين يقام عليه صرح شامخ من شعور الوطنية على أوسع نطاق . . .

. . . هذا الجانب الايجابي هو احد الجانبين اللذين يعتمد عليهما في مقاومة القوة الاجنبية ، وفحواه ايقاظ الروح الوطنية وحل مشكلات الحرية والمعيشة . وهناك الجانب السلبي الذي نعتد عليه في هذه المقاومة ، فلا تعاون مع الأجنبي ولا ولاء عن المقاومة السلبية ، وتلك هي أسلحتنا لإضعاف الاستعمار والذود عن الديار واتقله الدمار والبوار .

وسوف تسعد امتنا وتبقى كلما تضافرت جهودها على هذا المسعى . فأما اذا تخلفت عنه فلا أمان ولا نجاة .

مبدأ الديمقراطية

من محاضرات كانتون سنة ١٩٢٤

ما هي سيادة الأمة ؟ لأجل تعريف هذه السيادة ينبغي ان نعرف قبل ذلك ما هي الأمة . فكل جماعة انسانية متحدة منتظمة تسمى أمة ، أما السيادة فهي سلطان ينبسط على أرض الحكومة .

والحكومات صاحبة القوة العظمى في العصر الحاضر يسميها الصينيون بالحكومات القوية ، وتسمى في اللغات الأجنبية بالدول Powers .

والقوى الآلية يسميها الصينيون بقوة الحصان ، وتسمى في اللغات الأجنبية بطاقة الحصان . فالقوة والطاقة مترادفتان .

والقوة التي تتمكن من تنفيذ الأوامر وتنظيم الشؤون العامة هي السيادة . فإذا اقترنت السيادة والأمة فتلك هي قوة الأمة السياسية .

ونوجز فنقول ان الحكم شيء من الأمة وبواسطة الأمة ، وهو ضبط شؤون الأمة . والقدرة على هذا الضبط هو السيادة السياسية ، ونحن نتكلم عن سيادة الأمة حين تتولى الأمة ضبط شؤون حكومتها .

وننظر الى العصر الحاضر او نعود الى الماضي فنرى ان القوة الإنسانية قد استخدمت - اذا توخينا بساطة التعبير - لحفظ النوع الإنساني . لأن النوع الإنساني يتطلب لبقائه وقاية ومؤونة ويشعر بالحاجة الى الحماية والمؤونة كل يوم .

إن الوقاية للفرد أو للجماعة دفاع عن النفس ، والقدرة على الدفاع عن النفس ضرورة من ضرورات الوجود . أما المؤونة فهي تحصيل الطعام ،

وبغير وقاية ومؤونة لا يحافظ النوع الإنساني على وجوده .

وقد ينقسم جهاد النوع الإنساني الى عدة أدوار ، وتقسيمه الى هذه الأدوار يساعدنا على تتبع اصول الديمقراطية .

فالدور الأول من جهاده كان نزاعاً بينه وبين الحيوان وكان يستخدم في هذا النزاع قوته البدنية دون كل قوة اخرى .

والدور الثاني من جهاده كانت الحرب فيه بينه وبين الطبيعة ، وكان يستعين في هذه الحرب بالقوة الآلهية .

والدور الثالث تنازع فيه الإنسان والإنسان ، ووقع فيه الخصام ، بين الحكومات والأقوام ونشأت السيطرة المستبدة .

ثم يأتي الدور الرابع حيث يقع الخصام في الحكومة الواحدة وتحارب الرعية رعاتها وملوكها ، ومحور هذا الخصام الخلاف بين الخير والشر وبين الحق والقوة . ولنا ان نسميه دور سيادة الأمة او عصر الديمقراطية نظراً لاطراد التقدم في قوة الأمة .

إنه عصر جديد ، وإنما بدأنه قريباً لإسقاط الحكم المطلق الذي تخلف من العصور الغابرة .

والسؤال الجوهرى هو : هل الصين اليوم ناضجة للحكومة الديمقراطية ؟ إن بين الناس من يقول ان مستوى الأمة الصينية اقل من ذاك وانها لم تستعد بعد للحكومة القومية . ومن أجل هذا حدث لما هم يوان شي كاي بتنصيب نفسه عاهلاً على الصين أن أستاذاً أمريكياً - اسمه جدناو - Goodnow اوصى باختيار النظام الملكى مع أنه ينتمى الى أمة ديمقراطية . . . لاعتقاده ان تفكير الصينيين لا يطرد على سنن التقدم وأنهم متأخرون عن الأوروبيين والأمريكيين فلا يحق لهم أن يحاولوا تجربة الديمقراطية . وقد اتكأ يوان شي كاي على هذه الوصية ونادى بنفسه إمبراطوراً على الصين . فإذا كنا اليوم بسياق الدعوة الى الديمقراطية فعلياً ان نفهمها على غاية الجلاء والوضوح ..

لقد جهر كنفشيوس ومنشيوس بحقوق الأمة قبل ألفي سنة . فقال كنفشيوس : إن كل من تحت السماء سيعمل للصالح العام يوم تسود الفكرة الكبرى . وكانت دعوته الى عالم حر يسوده الإخاء ويؤول حكمه الى الأمة .

ومنشيوس كان يقول : إن القيمة الكبرى للشعب ثم للأرواح التي تتولى الزرع والغلة ثم يليهم جميعاً الأمراء . ومن كلامه ان السماء ترى ما يراه الشعب وتسمع ما يسمعه .

فالصين قد أدركت معنى الديمقراطية قبل ألفي سنة ، وإن لم تقدر يومئذ على تطبيقها ، ولكنها كانت يومئذ بمثابة الطوبى في اصطلاح الغربيين : مثلاً أعلى لا يتيسر تطبيقه على الأثر .

وكلما قرأنا تاريخ الصين تبين لنا أنها تقدمت الى دراسة الديمقراطية قبل الأوروبيين والأمريكيين بألوف السنين . نعم إنها دراسة نظرية لم تأخذ مأخذ العمل والتطبيق . فالיום وقد أخذ الأوروبيون والأمريكيون بالنظام الجمهوري ومضى عليه بينهم نحو مائة وخمسين سنة فنحن الذين حكم أبائهم بهذه الأفكار خلقاء ان نمضي في أثرهم وأن نستخدم قوة الأمة اذا رجونا لحكومتنا البقاء ورجونا للشعب السعادة والرخاء .

ولكن النهضة الديمقراطية بالقياس الى غيرها من النظم متأخرة . ولا تزال حكومات كثيرة مصطبغة بصبغة الحكم المطلق ولا تزال تجارب الديمقراطية محفوفة بمعقبات الخيبة والإخفاق ، وهذه الدراسة التي جرى البحث فيها بين أهل الصين قبل ألفي سنة لم توضع موضع التنفيذ الا منذ مائة وخمسين سنة ، وكأنما تنتشر في أرجاء العالم على اجنحة الرياح .

لقد عزمنا منذ ثلاث عشرة سنة - نحن الثائرين - أن ندين بالديمقراطية اذا طلبنا القوة للصين والنجاح للثورة . وكأنما تجري هذه الدفعة العالمية كنهر اليانجزي في مجراه : تارة هنا وتارة هناك وتارة الى الوراء ، ولكن المصب الى الشرق في النهاية ، فلن يصده عنه عائق آخر المطاف .

واذا كانت الديمقراطية قد وجدت اكثر من قرن في الغرب فإنما جاءت في

تاريخها تابعة لجهاد الحرية . فكانت الدماء تفيض فيضاً في سبيل هذه الحرية ، وكان العارفون من أبناء أوروبا وأمريكا يومئذ يتخذون من الحرية علماً يرفعونه كما نرفع اليوم علم المبادئ الثلاثة ، ويخلص لنا من ثم ان جهاد الغرب كان في طلب الحرية ، فلما بلغ الحرية جاء علماءهم فأطلقوا عليها اسم الديمقراطية .

ولما سرت نوازع الثورة الى الصين أخيراً خرج الطلاب الناشئون وطائفة كبيرة من العلماء الجادين ينادون بالحرية ، وخطر لهم انه ما دامت الثورات الأوروبية - كالثورة الفرنسية - قد كانت تجاهد للحرية فليكن جهادنا نحن أيضاً للحرية . وليس هذا الا من قبيل تكرير ما يقال بغير فطنة لمعنى المقال . فما القى هؤلاء بالهم الى سوابق تاريخ الديمقراطية والحرية لينفذوا الى الحقيقة من ورائها . ونحن انما وضعنا لحزبنا الثوري غاية من المبادئ الثلاثة لأننا قصدنا بهذه الغاية دلالة عميقة ولم نرسلها جزافاً .

إن الثورة الأمريكية كان شعارها الاستقلال . وثورتنا نحن شعارها المبادئ الثلاثة ، فنحن لا نردد شعار الآخرين ولا نحكي اصداًهم . وما انتهينا الى ذلك الشعار الا بعد وقت طويل في التفكير والتقدير .

إن سيادة الأمة - مين شوان - هي الكلمة الثانية في شعارنا الثوري ، وهي تقابل كلمة المساواة في شعار الثورة الفرنسية .

وقد انتشرت الحضارة الأوروبية شرقاً فانتشرت معها المذاهب السياسية والاقتصادية والعلمية الى الصين . وتعود الصينيون كلما نقلوا شيئاً عن أوروبا ان ينسخوه كلمة كلمة بغير تعديل ، فإذا كانت الثورة الأوروبية منذ قرنين او ثلاثة قرون قد كافحت من أجل الحرية فليكافح الصينيون كذلك ، وإذا كان الأوروبيون قد حاربوا في سبيل المساواة فالمساواة هي التي يحارب الصينيون أيضاً في سبيلها . ولكن ضعف الصين الآن لا يرجع الى قلة الحرية والمساواة . فإذا نحن صرفنا الجهد الى استنهاض عزائم الشعب بصيحة الحرية والمساواة فقد ركبنا شططاً وابتعدنا كثيراً من الوجهة المثلى . لأن شعبنا لم تلعبه هذه المسائل وليس في حسه انتباه شديد اليها ، فهو لا ينضوي الى رايتنا اذا ناديناها بأسمائها .

إن حزبنا الثوري لا يهيب بالشعب الى المعركة من أجل الحرية والمساواة ، بل من أجل المبادئ الثلاثة ، وهي التي تعطينا الحرية والمساواة اذا اخرجناها الى حيز الفعل من حيز القوة .

إذ الحرية والمساواة تقومان على الديمقراطية وتستندان اليها ، فلا يطول بقاء الحرية والمساواة الا حيث تزدهر الحرية . وما من وسيلة تفلح في حفظهما إن ضاعت سيادة الأمة ، فلهذا نظر الحزب الثوري في الصين الى وجهة الحرية والمساواة ولكنه جعل الديمقراطية - او سيادة الشعب - قوام الدعوة وشعارها . فلن يستمتع شعبنا بنعم الحرية والمساواة ما لم يدرك الديمقراطية ، وهذه النعم داخلية في حسابنا منطقية في السيادة القومية .

وكثيرون منا يحسبون ان الديمقراطية اذا بلغت في الصين مبلغها في الأقطار الغربية تكون قد بلغت اهدافها وتعتبر الصين اذن في طليعة أمم التقدم والحضارة ، بيد أن المسافة بعيدة بين الديمقراطية الغربية كما نقرأها في الكتب والديمقراطية الغربية كما نراها في الواقع .

انظروا مثلاً الى رواد الديمقراطية الغربية من أمثال الولايات المتحدة وفرنسا التي نشبت ثورتها منذ اكثر من مائة سنة . فكم من الحقوق السياسية ادركها الشعب هنالك فعلاً ؟ إن المؤمن بالديمقراطية على حقيقتها يدوله انه لم يدرك منها غير القليل ، وقد خطر للذين نافحوا الاستبداد طلباً لحقوق الشعب أنهم بالغون غاية الديمقراطية دفعة واحدة ، فضحوا بكل شيء وحصروا جهودهم كافة في معركة حياة وموت ، فلما ظفروا بالنصر إذا هم يتبينون انهم لم يكسبوا من القوة الا القليل مما علقوا به الآمال اثناء الثورة ، وانهم لما انتهوا الى الديمقراطية الوافية .

ومنذ رأى بعض الصينيين ان الولايات المتحدة تقدمت الى مركزها الحاضر غنى وقوة على نهج الدساتير الاتحادية التي تترك الشؤون المحلية لسلطان الحكومة . اذا بأولئك الصينيين المثقفين يتخيلون أن الصين تنال الغنى والقوة بالدساتير الاتحادية ، ولم يشغلوا أنفسهم وهم يحاولون علاج مشاكل الصين بأد

يعقدوا المقارنة بينها وبين الولايات المتحدة . وكان قياسهم المنطقي أن الدساتير الاتحادية هي الطريق الى الغنى والقوة مادما نريدهما وما دامت الولايات المتحدة قد حصلت عليهما من هذه الطريق ، ونسوا ان هذا النظام انما قام هناك لأنه كان قائماً فعلاً في كل ولاية وكان لكل ولاية فعلاً دستور وحكومة . فنحن اذا أردنا محاكاته وجب ان تهيم كل ولاية من ولاياتنا دستورها وحكومتها المحلية ثم تجتمع الولايات اخيراً للاتفاق على دستور الأمة قاطبة ، او بعبارة اخرى نعد الى الصين المتحدة فنقسمها كما كانت الولايات الأمريكية مقسمة منذ قرن مضى ثم ندعجها جميعاً في حكومة واحدة ، وإنه لتفكير ولا شك منحرف عن الصواب ، وكأنا نحن بباغات تردد الكلمات وعيونها مغمضة عما حولها .

وهؤلاء اصحاب هذه الفكرة يسوغون تقسيم الولايات في بلادنا بقيام الولايات الأمريكية على هذه القاعدة ، وقلما يخطر لهم أن يرجعوا الى الحالة التي كانت عليها الولايات الأمريكية عند إعلان استقلالها . فهل يذكرون لم كانت هذه الولايات تتغنى بالوحدة بعد خروجها من سلطان بريطانيا العظمى ؟ إنها فعلت ذلك لأنها كانت متفرقة ولم تكن قط جماعة منتظمة في إدارة واحدة ، فرأت ان تجتمع لتصبح أمة متحدة .

والصين في هذا الصدد ما شأنها ؟ لقد كانت الصين ظاهراً منقسمة الى ثمانى عشرة ولاية تضاف اليها ولايات منشوريا وسنكيانج فهي اربع وعشرون ، وتضاف اليها كذلك جيهول وسويوان وككنور ولايات شتى ذات وضع خاص بها عدا منغوليا والتبت . وكل هذه الأقاليم كانت تابعة لحكومة المانشو المركزية خلال مائتي سنة . وكانت قبل ذلك على عهد أسرة منج متحدة بل كانت مع اقطار آسيا وأوروبا دولة واحدة في عهد أسرة يوان . فإذا رجعنا الى أسرة سانج وجدنا الولايات على رباط وثيق ووجدنا الأقاليم كذلك بعد عبور نهر اليانجزي الى الجنوب . وقد كانت على أيام أسرة تانج وأسرة هان على رباط كهذا الرباط . فلا معنى لتجزئة الصين مع أنها لم تكن اجزاء متفرقة في تاريخها القديم .

إن هذا الشتات الذي منيت به الصين في الوقت الحاضر إنما هو ظاهرة

عارضة ، جر إليها استيلاء القادة العسكريين على اجزائها ، وهي حالة لا بد ان نعمل للمخلص منها ، ولا يصح لأي سبب من الأسباب بعد اليوم ان نتصايح بالدعوة الاتحادية « الفدرالية » كأنما نعهد بذلك لاستقرار كل قائد من أولئك القادة العسكريين في البلد الذي استولى عليه . فلن تصبح الصين أمة ذات قوة ووفر اذا نجح القادة كل منهم في تسويغ سيطرته على الإقليم الذي هو فيه .

وكل من يتصايح بتلك الدعوة فحقيقة الأمر فيه أنه طامع يهد لاغتصاب مطعمه . فهذا تانج شيباو قابض على يونان ، وهذا شاو هنجتانج قابض على هونان ، وهذا لوينجتنج قابض على كوانجزي ، وهذا شن شيونج منج قابض على كوانتنج وانها لفدرالية عسكرية هذه التي تسيطر هنا وهناك ليست هي فدرالية شعب يحكم بأمره ، وما في هذه الفدرالية نفع للصين ، بل هي مأرب من مأرب الطامعين العسكريين .

ونعود فنقول ان الديمقراطية التي هي مبدأ من المبادئ الثلاثة في برنامج حزب الكومنتانج لبناء الصين هي شيء غير الديمقراطية الغربية ، وليس المقصود من دراسة تاريخ الغرب ان ننقل نسخة منه ونقفوا اثره ونحن مغمضون ، بل نحن نستخدم مبدأ السيادة القومية حيث نعيد بناء الصين أمة لا سلطان عليها لغير الأمة وعلينا ان نفتح لأنفسنا طريقاً جديداً ولا نفتدي بغيرنا عمياً عن وجوه الاختلاف فتجنبي على وطننا ونضر بحياة قومنا . فللغرب مجتمعه ولنا نحن مجتمعنا ، وما عندهم من العادات والعواطف لا يشبه العادات والعواطف التي عندنا ، وما من أمل لنا في إصلاح مجتمعنا وترقية شعبنا ما لم نقتبس الجديد متوخين في اقتباسه ما يوافقنا ويلآئم احوالنا

... . ونحن دعونا الى تطبيق الديمقراطية حين رفعنا علم الثورة . وفكرت في الطريقة التي نحل بها المشكلة ، وهي طريقة أحسبها رأياً جديداً في المذاهب السياسية وأحسب أنها حل أساسي للمشكلة كلها ، وأوضح ما أعنيه فأعرض اولاً ما أعنيه بطبقات المجتمع الإنساني .

فعلى أي شيء اقيم أقسام المجتمع الانساني ؟ على نصيب الفرد من الفطنة

والكفاية ، وبهذا ينقسم الناس الى طوائف ثلاث : الطائفة الأولى هي التي ترى مبتدئة بالرأي ، وهي صاحبة الفطنة الفائقة التي تتضح لها المسائل المتشابكة من نظرة وتلقي بالها الى الكلمة فتتبعها بالعمل العظيم . ومن ثاقب نظرها الى المستقبل وجليل عملها في الحضارة تتقدم الحضارة الانسانية . هؤلاء هم الرواد الكشافون ذوو البداهة والبصيرة النافذة .

والطائفة الثانية هي التي تتلوها في النظر والفطنة ، وليس في طاقتها ان تبتدىء وتبتدع بل هي تحاكي وتتبع وتستفيد مما عمله السابقون لها الى الرأي والرؤية .

والطائفة الثالثة هي التي لا تدرك ولا تعلم وان حاول الآخرون تعليمها ، ولكنها تعمل وتثابر على العمل ، أو بعبارة اخرى إن الطائفة الأولى هي طائفة الكشافين المستطلعين . والطائفة الثانية هي طائفة المتولين المساعدين . والطائفة الثالثة هي طائفة المنفذين المشتغلين . ويتوقف تقدم العالم على هذه الطوائف جميعاً ، فلا يصح نقصان واحدة منها . وكل أمة تشرع في تطبيق الديمقراطية يجب ان تكل الى كل فرد من أفرادها حصة : الى الرجل الذي يبتدىء بالرأي ، والرجل الذي يتبعه ويساعده ، والرجل الذي لا يرى لنفسه ولكنه يعمل ويشغل .

وعلينا أن نفهم أن الديمقراطية السياسية ليست منحة الطبيعة ولكنها اختراع الإنسان . ويلزمنا ان نخلق الديمقراطية ونعطيها الشعب ولا نترث حتى يحارب الشعب من أجلها ويأخذها .

والأمم الغربية طبقت الديمقراطية وحدث بعد تطبيقها ان الشعب تربى فيه شعور العداء للحكومة ، وعز عليه ان يفرق بين حق السيادة وحق الكفاية . فإن فاتنا ان نتنبه لهذا فنحن منساقون وراء الغرب على غير هداية .

وينبغي ان يكون التمييز بين السيادة والكفاية سهلاً على الصين لأننا نفهمها من عبارة « آه تو » وعبارة « شو كوليانج » .

وخلاصة العبارتين ان الحكومة اذا صلحت فنحن الملايين الأربعمئة

نجعلها « شوكو ليانج » لنا ونحولها كل حقوق الدولة ، وأنها اذا فسدت فنحن الملايين الأربعمائة نتقلد حقوق الملك ونطردها ونسترد السيادة الى أيدينا .

ونحن اليوم نعرف طريقة للانتفاع بالديمقراطية وطريقة لتحويل موقف الرعية منها ، ولكن الأكثرين من الرعية لا يفقهون ، فمن خصتهم امانة الفقه مسؤولون ان يقودوا الرعية الى الطريق الأقوم حذراً من عاقبة التجربة في البلاد الغربية .

وقد انتهى علماء الغرب اليوم الى ان موقف الشعوب من الحكومة خطأ وان تغييره واجب ، ولكنهم لم يبصروا بعد كيف يكون التغيير .

وهذا الذي اهتدينا اليه . فلا مناص من التمييز بين حقوق السيادة وحقوق الكفاية والقدرة ، فيقوم أساس الحكم في الأمة على حقوق الأمة . أما ادارة الحكومة فتعهد الى خبرائها ، ولا يقف منا اولئك الخبراء موقف الأبهة والرئاسة وفخامة المناصب ، بل حكمهم عندنا حكم السواقين او حراس الأبواب او الطهاة او الأطباء او النجارين او من نحسب من ضروب العاملين ، وما دام موقفهم هذا الموقف فالحكومة تنتظم والشعب يتقدم .

وما هي خير الوسائل لتطبيق الديمقراطية ؟

إن الانتخاب هو الوسيلة التي تعم البلاد المعروفة بالبلاد الديمقراطية . فهل هو وسيلة كافية لانتظام الحكومة ؟ كلا . لأنه اشبه شيء بالآلات القديمة التي كانت عند اختراعها تستطيع ان تتقدم ولكنها لا تستطيع ان ترجع ، وانما يتم تركيب الأداة بالقدرة على الرجوع ، والوسيلة التالية لتلك الوسيلة الأولى هي التي تيسر للشعب ان يدير الاداة الى الوراء ، وأن يعزل الحكومة التي اختارها . وهاتان الوسيلتان - وهما الانتخاب والعزل - تحفظان سيطرة الشعب على حكومته وموظفيها فيقيهم او يخرجهم حين يشاء ، ولا غنى لأداة الحكومة عن الجهاز الذي يدفعها قدماً او يردّها ويشيها الى حيث يريد .

ومسألة القانون مهمة للحكومة الديمقراطية كمهمة الموظفين ، فإذا وجد من يحكم فلا بد أن توجد مع قاعدة لحكمه ، ومن حق الامة اذا ارتضت قاعدة

للحكم ان تجعلها قانوناً وتوحي الى الحكومة بتنفيذها ، وهو ما يسمى بحث اقتراح القوانين ، ونعتبره الركن الثالث من أركان الديمقراطية . فإذا اتفقت الآراء على استنكار قانون غير نافع للشعب فمن اللازم اذن ان يملك الشعب الوسيلة التي تكفل له تعديله واتخاذ البديل الصالح منه ، ويطلقون كلمة الاستفتاء على هذا الحق او هذا الركن الرابع للديمقراطية .

وليس يجوز لنا ان نقول عن امة إنها تنعم بالديمقراطية الوافية ما لم تكن هذه الحقوق الاربعة نافذة فعلا ، وما لم يكن تطبيقها مرعياً بوسائل المقررة ، ويومئذ تتقرر السيادة الشعبية المباشرة .

إن السيطرة المباشرة على الحكومة لا تستقر حتى يتولى الشعب هذه الحقوق الاربعة (الانتخاب والعزل والاقتراح والاستفتاء) ويومئذ يصح القول باشتراك الشعب كله في حكم نفسه ، ومعنى ذلك عندنا ان الملك هو الملايين الأربعمائة ، يباشرون حقوقهم الملكية ويسيطرون على مسائل الدولة العظمى ويرجع الأمر في كل شيء الى هذه الحقوق الديمقراطية الأربعة .

مبدأ المعيشة

من محاضرات كانتون سنة ١٩٢٤

« مينج شنج شوي » هي مبدأ معيشة الشعب .

و « مينج شنج » هي كلمة طالما طرقت الأسباع في الصين ، ونحن نتكلم عن الرخاء القومي ومعيشة الشعب من أطراف الشفاه ولا نعى بفهم المقصود منها ، ولست أرى أنها تعبر لنا عن معنى كثير . ولكننا اذا حملناها في هذا العصر - عصر العلم - الى دائرة البحوث العلمية لدراسة مدلولها من الوجهة الاجتماعية والوجهة الاقتصادية وجدنا لها مرمى كبير الدلالة .

فالمينج شنج ترمي الى تدبير مؤونة الشعب ، وكيان المجتمع ورخاء الأمة وحياة الجماهير ، واني لمستخدم هذه العبارة الآن للدلالة على مشكلة من أكبر المشكلات التي نجمت في الغرب خلال القرن الماضي ، وهي الاشتراكية .

فمسألة المعيشة هي الاشتراكية ، وهي الشيوعية ، وهي الطوبى .

والعوامل التي تضافرت على خلق هذه المسألة هي بالإيجاز تقدم الحضارة المادية السريع ، وتطور الصناعة العظيم، والزيادة المفاجئة في القدرة البشرية على الإنتاج .

فاستخدمت القوى الطبيعية كالبخار والحرارة وتيارات الماء والكهرباء بديلا من الطاقة الانسانية . واستخدم النحاس والحديد بديلا من عضل الإنسان وعظامه ، وصار في وسع رجل واحد بمكنة واحدة ان يعمل عمل مائة او ألف ، واتسعت المسافة جداً بين طاقة الإنسان وطاقة المكنات ، وهو ما يسميه الغربيون بالثورة الصناعية .

وهم يطلقون هناك كلمة الاشتراكية وكلمة الشيوعية كأنهما مترادفتان ،

وقد تشملهما كلمة الاشتراكية على ما بينهما من اختلاف .

وغرضي من إطلاق مبدأ المعيشة بدلا من الاشتراكية ان اصل الى جذور المسألة واكشف عن حقيقتها وأيسر فهمها لمجرد سماعها .

فهل مبدأ المعيشة حقاً مخالف للاشتراكية ؟ إن أهم ما تشغل به الاشتراكية هو مسائل المجتمع الاقتصادية ، او مسائل المعيشة . ومنذ تقدمت الصناعة اصبح كثير من العمال قد نزعت منهم أعباءهم وتعرس عليهم كسب ارزاقهم ، وجاءت الاشتراكية تحاول علاج هذه الحالة فتلاقت مسائل المجتمع ومسائل الاقتصاد ودخلت كلتاها في نطاق مسألة المعيشة وهي محور الاشتراكية .

الا ان الامم اليوم تختلف في مذاهبها الاشتراكية وفي مقترحاتها لحل مشكلاتها ، فهل نحسب اذن ان الاشتراكية وجه من وجوه مسألة المعيشة ، او أن مسألة المعيشة وجه من وجوه الاشتراكية ؟

إن دعاة الاشتراكية الأولين كانوا على الأغلب دعاة أخلاق وكان أتباعهم اصحاب ضمائر وأداب . ولم يكن احد يقاوم الاشتراكية غير اصحاب الأموال الذين رانت على نفوسهم الأثرة فلم يكتروا لما يصيب الجماهير . وإذا كانت المشكلة الاجتماعية تدور على توفير الرزق للعديد الجح من بني آدم كان ذوو النظر والصلاح القائمين بالدعوة الاشتراكية اهلا للعطف والتأييد من الكثيرين . ثم راج المذهب فأخذت الأحزاب الاشتراكية في الظهور ، واطرد نموها وانتظامها وسرت دعوتها الى كل امة .

غير ان الاشتراكيين الاوائل كانوا جميعاً طوبيين يطمحون الى بناء دنيا مثالية يظللها السلم والسعادة ولا تسمع فيها شكاية ، ولم يصفوا للناس طريقة فعالة لمنع الشكاية والشقاء .

وهنا جاء ماركس فصرف عقله وذكائه ومعارفه وتجاربه الى تمحيص هذه الأمور ودراستها ، وبني آراءه الجديدة جميعاً على القواعد الاقتصادية ، وأنحى على الاشتراكيين السالفين لتعويلهم على ضمير الفرد وشعور الجماعة في حل

مشاكل الاقتصاد التي لا تجدي الأخلاق ولا تجدي العواطف في حلها ، وقال ان المهم قبل كل شيء هو درس أطوار الاجتماع ، وصدر في مبادئه عن رعاية مطلقة للوقائع دون النظريات والأمثلة العليا .

ثم تشعبت المذاهب الاشتراكية بعد ماركس الى شعبتين : شعبة الطوبيين وشعبة العلميين ، وهؤلاء ينادون باستخدام الاساليب العلمية لعلاج المشكلات الاجتماعية ، فكل دراسة في هذا العصر الذي تتقدم فيه الحضارة المادية على عجل وتتعاظم فيه قوة العلم ينبغي ان تقام على القواعد العلمية كي تثمر وتفيد ، ولا يحق لنا ان نتربح حلاً لمشكلة من المشكلات قبل تناولها بالبحوث العلمية .

إن ماركس يؤكد الجانب المادي في دراسته لمسائل المجتمع ، ومتى تناولت القوى المادية فأنت تواجه مسألة الانتاج قبل كل شيء وحيث لا يوجد افراط في الانتاج لا توجد بالبداية ثورة صناعية ، وعلى هذا يحل الانتاج المحل الأول من الأهمية في علم الاقتصاد الحديث ، فإذا شئت ان تفهم احوال الاقتصاد الحديثة فلا معدى لك عن فهم الوقائع التي تتعلق بالانتاج .

وقد اصبح الانتاج على نطاق واسع ميسوراً في العصر الحديث بالعمل والمكنة ، او باشتراك رأس المال والمكنات واستخدام الايدي العاملة ، وتذهب ارباح هذا الانتاج في نطاقه الواسع على الأكثر الى أصحاب الأموال فلا يجني العمال منها غير قسط ضئيل .

ولهذا تصطدم مصالح أصحاب الاموال ومصالح العمال على الدوام . وتنفجر حرب الطبقات حين لا يوجد الحل المرضي بين الفريقين . ويعتقد ماركس ان حرب الطبقات لم تأت تبعاً للثورة الصناعية ، بل كان التاريخ الماضي كله قصة حرب بين الطبقات : او بين السادة والعبيد ، او بين أصحاب الارض والأكارين ، او بين النبلاء والعامه ، او بالإنجيز بين كل غاصب وكل مغصوب ، ولن تكف هذه الحرب حتى تبلغ الثورة الصناعية مداها من النجاح .

وواضح من ذلك ان ماركس يعتبر حرب الطبقات ضرورة من ضرورات

التقدم الاجتماعي ، وإلما في الواقع هي القوة الدافعة لذلك التقدم ، فحرب الطبقات هي السبب والتقدم الاجتماعي هو النتيجة .

على أن التوفيق بين معظم المصالح الاقتصادية في المجتمع اذا امكن فمعظم الناس ينتفعون بهذا التوفيق والمجتمع يتقدم ، ونحن لا نحاول التوفيق بينها الا لعلاج هذه المشكلة : مشكلة المعيشة وتوفير المؤونة .

ومن قديم الزمن بذل الإنسان جهده لحفظ كيانه ، وكان صراع الانسان لاستدامة وجوده باعثاً للتطور الذي لا ينقطع في أحوال المجتمع ، وذلك هو قانون التطور الاجتماعي ، فليست حرب الطبقات باعث التقدم الاجتماعي ، بل هي داء يتعرض له المجتمع أثناء التطور ، وعلة الداء هي العجز عن توفير الرزق ، والحرب هي نتيجة هذا الداء .

وكل ما استفاده ماركس من بحوثه انه علم بالأدواء التي يتعرض لها المجتمع أثناء تطوره ، فهو مشخص امراض **Pathologist** ولا نستطيع ان نقول عنه إنه فزيولوجي مشرح لوظائف البنية . وقد وجد خلال درسه لمشكلات المجتمع علة واحدة من علله ، فلم ينكشف له قانون التقدم الاجتماعي ولا القوة الرئيسية في مجرى التاريخ .

وقد استقر حزب الكومنتانج منذ زمن على طريقتين لتنفيذ مبدأ المعيشة القومية : إحداهما التسوية بين ملاك الأرض ، والأخرى تنظيم رؤوس الأموال ، وهما كفيلتان بحل مشكلة المؤونة في الصين .

ومن البديهي ان امم العالم المختلفة مضطرة الى اتباع طرق مختلفة لحل هذه المشكلة حسب اختلاف الأحوال فيها .

وكثير من أساتذة الصين الذين استوعبوا معارف الغرب قد حسبوا أننا نعالج مشاكلنا مقتدين في العلاج بغيرنا ، ولم يلتفتوا الى الخلاف الذي قام ولا يزال قائماً بين أحزاب الأمم الغربية حول مشكلات بلادهم . فالماركسيون يحلون جميع المشكلات الاجتماعية بالديكتاتورية العمالية وجميع مشكلات الاقتصاد والسياسة بالثورة ، وهم فريق التطرف الأقصى ، وغيرهم من الاشتراكيين

يميلون الى الأساليب السلمية واستخدام العمل السياسي والتفاهم بالمفاوضة والمساجلة ، وبين الفريقين خصام شديد في اوروبا وأمريكا ، ينحوفيه كل فريق منحاه .

وعند المقارنة بين هذا المنحى وذلك نرى ان ماركس يحل العقدة بقطعها ، وان الآخرين يفكون عقدها برفق وتؤدة . فهل نريد نحن ان نحل عقدتنا بحد السكين او بالرفق والتؤدة ؟

ينبغي ان نذكر ان مبدأ المعيشة الذي يدعوا اليه الكومنتانج ليس المطمح المثالي بل هو القوة الدافعة في المجتمع ، وهو المحور الذي تدور عليه جميع الحركات التاريخية ، والفرق بين الشيوعية ومبدأ المعيشة ان الشيوعية غاية مثالية للمعيشة ، ولكن مبدأ المعيشة هو الشيوعية الواقعية ، فليس بين المذهبين فرق أصيل ، وإنما الفرق في أساليب التطبيق .

وبين هذه الأحوال التي تعانيها الصين نسأل : أية الوسائل هي التي نختارها لعلاج مسألة المعيشة ؟

لن تكون هذه الوسائل نظريات فارغة بل وقائع ماثلة ، ولن تكون وقائع ماثلة في البلاد الاجنبية ، بل في صميم بلادنا ، فلا هتداء الى خطة قديمة ما لم نكن على علم بالوقائع الصحيحة ، فما هي الوقائع الأساسية عندنا ؟

لنعلم أننا جميعاً اصحاب حصة في هذه الفاقة التي تبتل بها الأمة الصينية ، فليس عندنا طبقة غنية خاصة ، بل هناك فاقة عامة ، وهذا التفاوت بين الغني والفقير إنما هو اختلاف في طبقة واحدة ، او اختلاف في درجة الفاقة .

والواقع ان صاحب رأس المال الصيني بالقياس الى نظرائه الغربيين فقير ومن عداه من أبناء الشعب فقراء مدقعون ، واذا كان اغنياؤنا فقراء في العالم الواسع فالأمة الصينية امة فقراء ، وليس بينها غني كبير ، وكل ما فيها فقر محتمل وفقر لا يطاق . فكيف السبيل الى التسوية بينهم والى الخلاص من برائن الفقر الشديد ؟

إن التغير الاجتماعي والتطورات في رأس المال تبدأ عادة من مالك الأرض الى التاجر الى صاحب المال . وقد نشأ ملاك الأرض من عهد الإقطاع ، ويمكن أن يقال ان أوروبا لم تملك بعد حريتها من النظم الإقطاعية في حين ان الصين قضت على نظام الإقطاع فيها من عهد اسرة شين .

وكان النبلاء الذين يحوزون الأرض هم الأغنياء حين كان عهد الإقطاع قائماً ، ومن لم يكن في حوزتهم أرض فهم فقراء ، وقد مضى نحو ألفي سنة على انتهاء عهد الإقطاع في الصين ، ولا تزال الحالة باقية كما كانت لقلة التقدم في أساليب الصناعة والتجارة . وخلت الصين من كبار الملاك ولكنها لم تخل من الملاك الصغار ، وسارت العلاقات في سلام بين الملاك الصغار وأحادي الشعب ، الى ان سرت تيارات الحياة الغربية الى الصين في الزمن الأخير فسرى التغير الى كثير من النظم ، وكانت مسألة الأرض اول ما أصابه التغير من جراء اتصالنا بالبلاد الغربية ، فشاعت المقامرة والمضاربة بالأرض وارتفعت هذه المضاربات بأثمان الأرض ارتفاعاً لا يطمأن اليه .

ان الغربيين لم يبتدوا الى طريقة يعالجون بها هذه الشرور التي تتعلق بالأرض . فإذا أردنا حل هذه المشكلة فلنبداً الآن ولا ننتظر حتى يتقدم تطور التجارة والصناعة فلا يسلس لنا مقادها بعد ذاك .

واليوم والمؤثرات الغربية تتوالى وأحوال الصناعة والتجارة تدخل في أطوارها المتجددة، ننظر حولنا فنرى التفاوت يتباعد بين ملاك الأرض كما يتباعد بين ذوي الأموال والفقراء ، ووجهتنا من دعوة الكومنتانج هي التقريب والتسوية بين موارد الرزق في المجتمع ، فهي غاية كفاية الاشتراكية او غاية الشيوعية ، ولكن طريقة التطبيق هي موضع الاختلاف .

وخطوتنا الاولى هي علاج مشكلة الأرض . ونصف المشكلة كلها محلول اذا وفقنا في هذا العلاج . فأصحاب رؤوس الأموال في الصين لا يزالون ملاك أرض لا ملاك مكينات ومصانع . وينبغي من هنا ان يسهل علينا العمل على التسوية بين الملاك وتنظيم رأس المال وان نلتمس لنا مخرجاً من مشكلة الملكية .

ولا يكفي تنظيم رأس المال إذا أردنا ان نحل مشكلة المعيشة وان نستريح طويلا بعمل حاسم . فقد كان فرض الضرائب على الدخل احدى الوسائل التي لجأ اليها الغربيون لتنظيم رأس المال . فهل ترونهم حلوا مشكلة المعيشة ؟
إن الصين لا تشبه غيرها من الأمم ، ولا يغنيا هنا ان نعمل على تنظيم رأس المال .

فلأُمم الأخرى غنية والصين فقيرة ، والأُمم الأخرى يفيض انتاجها عن حاجتها والصين لا تنتج ما يكفيها . فلا يكفي الصين تدبير رؤوس الأموال الخاصة ، بل عليها ان تدبر للدولة كلها رأس مالها ، وما العمل والأمة اليوم ممزقة الأطراف ؟ وكيف السبيل الى تدبير رأس مال للدولة ؟

يُخيل الينا انه ما من سبيل الى وجهة صالحة ، او يُخيل الينا انه ما من امل في ارتقاها بعد حين .

مصانع الدولة : ويومئذ يتسنى لنا ان نجتهد لتحقيق رجاء كنفشيوس في الأسرة القومية الكبرى .

وكل كلام عن مبدأ المعيشة فحواه ان يحصل الملايين الأربعمائة على طعامهم بالثمن القليل ، فلا تعتبر مشكلة المعيشة محلولة حتى يتوافر الطعام الصالح بثمان ميسور .

من امثلة الصين : « سبعة اشياء تشغل بالك حين تفتح بابك في الصباح : الوقود والأرز والزيت والملح والفل والخل والشاي ! » .

وقد كانت الصين من اقدم العصور امة زراعية صناعتها الكبرى لتحصيل القوت هي الزراعة ، وقوام الزراعة هم الفلاحون الذين ينهكهم العمل وتتوقف على حمايتهم بقوة القانون جودة المحصول ووفرة الارزاق . ومن قسمة الصين انها خلت من كبار الملاك ولا يزال تسعة اعشار أبنائها بغير ارض يملكونها ، فأكثر الأرض يملكها اناس لا يزرعونها بأنفسهم ، ومن العدل ان يزرع الفلاح أرضاً يملكها وينتفع بمحصولها . الا ان الفلاحين اليوم يزرعون لغيرهم ويذهب من

محصولهم اكثر من نصفه الى ايدي الملاك ، وبحل هذه المشكلة يرتبط حل مشكلة المعيشة كلها . فقد دلت الاحصاءات الأخيرة على ان الزارع لا يحصل من ارضه على اكثر من أربعين في المائة ، ويذهب سائره الى المالك الذي لا يزرع .

وليس يكفي عند تناول مسألة الانتاج الزراعي ان نجتهد لتحرير الفلاح بل علينا مع هذا ان نجتهد لمضاعفة الانتاج بالوسائل العلمية ، وخلاصتها استخدام المكنات والاستعانة بالأسمدة والمخصبات ومناوبة الغلات والمحاصيل واستئصال الآفات وتنظيم المعامل والتصدير واتقاء الازمات .

وعلينا ان نسأل : هل تعتبر مشكلة المعيشة محلولة اذا تحققت جميع هذه الجهود ؟ .

أبادر فأقول كلا . اذ ليست يسرة الانتاج مغنية عن تنظيم التوزيع والتقسيم ، ويتعذر الإنصاف في التوزيع والتقسيم مع عدم الاتحاد .

الا اننا نتعزى بأن المحنة التي نحن فيها عارض زائل ونؤمن باتحادنا في المستقبل ، واننا سنحل مشكلة المؤونة بتنمية رأس المال وترقية الصناعة . فنبدأ من المواصلات من سكك حديدية وطرق نهريّة ، ثم نفتتح المناجم التي تخفيها الأرض مع الأسف على وفرتها في ارض الصين ، ثم نلاحق ذلك ببناء المصانع والمعامل ، وعندنا وفرة من الأيدي العاملة ولكننا لقلّة المكنات لا نقوى على منافسة الأمم الاخرى . والسلع التي تستنفدها الصين تصنعها الأمم الاخرى وتتولى تصديرها الينا لحسابها . فلا جرم تستنزف حقوقنا الاقتصادية ومرافقنا وتمتصها شيئاً فشيئاً ولا نستطيع نحن ان نوقف هذا الدم المنزوف ونسترد حقوقنا ومرافقنا الا اذا سخرنا قوى الدولة لترقية الصناعة واستخدام المكنات في الانتاج وتوفير العمل لجميع الايدي الصالحة له في الامة . ومتى اشتغل العمال جميعاً واتقنوا ادارة المكنات والآلات لإنتاج السلع تجدد للصين ينبوع عظيم للثروة . ولا محيص من ولاية الدولة لهذا العمل ، لأن الإشكال فيه على الأمراء والوطنيين والأجانب يوشك ان يسفر عن طبقة مفرطة في الغنى يعقبها التفاوت البعيد بين حظوظ الناس من الغنى .

لا يحيص اذن من حصول الدولة على رأس مال ، وما معنى ذلك ؟ معناه البسيط انشاء الصناعة القومية ، وعلى الدولة ان تعطي القدوة في مشروعات الأعمال الكبرى وان تدير انواعاً من المكينات المنتجة التي تدخل في ملك الدولة ، وهي اذا تمكنت من تنمية رأس المال القومي ونفع الامة بشمراته فقد امكنها ان تتجنب خصومات رأس المال .

وسيكون دخلنا عظيماً من الصناعات الثلاث ! صناعة المواصلات وصناعة المناجم وصناعة المعامل ، وستكون مزاياها ومنافعها مشاعة بين الأمة قاطبة ، وسيحصل كل صيني على حصة من أرباح رأس المال فلا يضيره رأس المال كما يضير اناساً من ابناء البلاد الأجنبية التي ينحصر القسط الكبير من رؤوس اموالها بين الأيدي الخاصة .

ونعود فنقول ان مبادئنا الثلاثة تفيد لأجل هذا حكم الشعب بالشعب لأجل الشعب . وإن الدولة ملك الشعب لأن الشعب كله يشرف عليها ويمجني ثمرات اعمالها ، وبهذا تصبح للشعب حصة في كل شيء ولا يكون قصارى الأمر انه صاحب حصة فيما تنتجه الملكية الخاصة ، ونعني بها ملكية رأس المال ، لأن الإنتاج ينظر الى هدف واحد في هذه الحالة : وهو الربح .

ومتى كان الربح هو الغاية فنجاحنا في تخفيض سعر الأقوات يتحول الى طلب الربح من وراء التصدير الى الخارج حيث ترتفع اثمان الطعام ، وحسب صاحب المال الخاص ان ينظر الى الربح ليحفزه الطمع الى التصدير ولو كانت المجاعة تفني الكثيرين .

هذا النظام من نظم التوزيع لن يحل مشكلة المعيشة ، فتحقيق الـ (مينج شنج) مستحيل ما لم نشفع تدبير مسألة الانتاج بتدبير مسألة التوزيع ، وما لم نجعل القبلة توفير الطعام لا توفير الأرباح .

فالتضاء على نظام رأس المال جثم لا هوادة فيه ، ونحن نعلم ان موارد الصين كافية لإطعام اهلها في الوقت الحاضر ، ولكننا نرى الموارد تنقص عاماً بعد عام لأن الطعام يتسرب الى الخارج حيث يجلب الربح الجزيل لفئة قليلة من

ومدار المبدأ الذي يتصل بمعيشة الأمة ان يحصل الناس على اقواتهم لا ان تمتلئ الخزائن بالأرباح ، ويضطرنا هذا الى خزن الفائض سنة قبل المحصول الجديد فلا نسمح بالتصدير حتى نضمن الكفاية بعد العام القابل . . .

فالحد الفاصل بين نظام مبدأ المعيشة ونظام رأس المال ان رأس المال يجعل الربح غايته ، وأن مبدأ المعيشة يجعل الغاية تيسير القوت لجميع ابناء الامة ، ومثل هذا المبدأ قمين ان يقضي على شرور النظم الاجتماعية القديمة .

ولطالما ردد الاقتصاديون ان مطالب المعيشة ثلاثة : غذاء وكساء وماوى . وتجاربي الطويلة تدفعني الى اضافة مطلب رابع كبير الخطر في هذا الصدد ، وهو المواصلات السهلة ، وحل المشكلة - مشكلة المعيشة - يستلزم ان يتمكن الناس جميعاً من تحصيل هذه المطالب الأربعة ولا يغنيهم عن ذلك تخفيض اسعارها . . . وحيث يراد ان تتضافر المساعي على إبداع (دنيا جديدة) لا يجوز ان يوجد احد يعوزه مطلب من هذه المطالب الاربعة .

والحكومة هي التي تتولى حتماً تزويد الشعب بهذه المطالب ، ويجب ان يكون من حق كل احد ان يحاسبها على تقصيرها ، فعلى عاتقها يقع عبء العمل لتزويد الشعب بضروراته المعيشية .

وعلى الشعب ولا شك تبعات قبل الحكومة واضحة الحدود . فعلى الفلاح ان ينتج مواد الغذاء ، وعلى الصانع ان ينتج الأدوات والآلات ، وعلى رجل الأشغال ان يوازن الكفتين بين العرض والطلب ، وعلى العالم أن يفرغ للعلم ذكاه ودرايته ، وعلى كل بالاجمال ان يعرف واجبه ويقوم بأدائه على الوجه الامثل .

والهيئة السياسية او القوة السياسية ، لازمة لانجاز هذه المهام من تدبير المؤونة واتقاء خطر المنافسة الأجنبية ، ولكن الصين اليوم - وهي اسيرة المعاهدات - لم تفقد سياستها وحسب ، ولم تعجز عن حماية صناعتها وكفى ، بل هي قائمة بحماية الصناعة الأجنبية ، وقد حدث هذا من جراء التمسدد

والتوسع في رؤوس الأموال ، كما حدث من جراء التقدم الصناعي ومن تفوق الأجانب علينا في ميادين الاقتصاد ، وكل هذه المزايا تسندها من ورائها قوى الدول السياسية .

ولئنهم اليوم ليعاملون الصين كأنها سوق مستعمرة ويقبضون بأيديهم على حقوق السيادة الصينية وعلى شؤونها المالية ، فلا يسعنا وهذه حالهم وحالنا ان نتفرد بعلاج مبدأ المعيشة . وعلينا ان نستولي على الجانب السياسي ونلغي المعاهدات الجائرة ونسترد مكوس الموانئ من الأيدي الأجنبية ، ونستطيع بعد ذلك ان نزيد المكوس وان نتبع خطط الحماية الجمركية ، وان ندفع سيل الواردات المتدفق على بلادنا كي يتسع المجال امام صناعتنا للتطور والانتشار .

وعلى الصين ان تأخذ بناصر السلع الوطنية وتقاطع السلع الأجنبية ، ولطالما اثرتا الثائرة حول هذه المسألة ولم نظفر بمعاونة من الأمة فأخفقت الحملة وحبط السعي . وهذا مع صعوبة النجاح حتى في حالة التعاون بيننا وبين الأمة ، لضعف حكومتنا وقصور مساعيها السياسية .

فليس في طاقتنا ان نسيطر على مكوسنا البحرية وهي بين الأيدي الأجنبية ، وليس في طاقتنا ان نزيد مكسا من المكوس ، وليس في طاقتنا من اجل هذا ان نرفع ثمن المنسوجات الأجنبية ونهبط بتكاليف المنسوجات الوطنية ، وما دامت المنسوجات التي ترد من الخارج اقل ثمناً من منسوجاتنا فليس في طاقتنا ان نحول الشعب من شراء الصنف الأجنبي الى شراء الصنف الوطني بأكثر من ثمنه ، وغير مجد ان نهيب بالناس ان يجتنبوا الأكسية الأوروبية ولو بذلك ينقض قواعد الاقتصاد في حياة كل فرد من عامة الأفراد .

لا مناص اذن من الاعتماد على القوة السياسية لتدبير الكساء وتعويد الأمة ان تلبس من منسوجات بلادها وتجتنب المنسوجات الواردة من البلاد الخارجية .

لوازم المعيشة

من كتاب تنمية الصين الدولية

The International Development of China

في البرامج الأربعة السابقة حصرت القول في إنشاء الصناعات الأساسية التي تعتبر مفاتيح الصناعة .

وفي هذا البرنامج سأحصر القول في طائفات من الصناعات الأصلية التي تحتاج الى المعونة الأجنبية ، واعني بالصناعات الأصلية تلك الصناعات التي تزود كل فرد وكل أسرة بضرورات العيش ومرفهاته .

وغني عن القول أن قيام الصناعات الأساسية او مفاتيح الصناعة سيستبعه من تلقاء نفسه نشوء الصناعات المختلفة الأخرى خلال اجزاء البلاد في فترة قصيرة . فقد حدث مثل ذلك في أوروبا وأمريكا بعد الثورة الصناعية .

ولا شك ان قيام الصناعات الاساسية يتكفل بتدبير العمل الكثير من الايدي ويرفع مستوى المعيشة بين العمال ، وعند ارتفاع الأجور ترتفع كذلك اثمان الضرورات والمرفهات ، ومقصودنا من هذا البرنامج هو المساعدة على خفض تكاليف المعيشة في الصين اثناء نشأتها الدولية ، بحيث يحصل الشعب على الضرورات والمرفهات وعلى الأجور الحسنة في وقت واحد .

من المتداول بين الناس ان الصين ارخص البلاد واقلها كلفة ، وهو سوء فهم يرجع الى تعود الناس ان يقيسوا كل شيء بقيمة العملة ، ولكننا حين نقيس تكاليف المعيشة بما يلزمها من العمل نرى ان الصين اغلى البلاد واعظمها كلفة بالنسبة الى العامل . فان العامل اليدوي يقضي في عمله من أربع عشرة الى ست

عشرة ساعة كل يوم ليكسب قوته ، وليس في وسع كاتب الدكان او معلم المدرسة ان يكسب أكثر من مائة دولار في السنة ، ويحتاج الزارع لسداد الضريبة والإيجار ان يعيش عيشة الكفاف من يده الى فمه كما يقال .

إن العمل رخيص جداً وكثيراً جداً، ولكن مطالب المعيشة لا تعدو الكفاية العاجلة كل سنة ، فإذا وقعت الأزمة في إحدى السنوات وقع كثيرون في الضنك والجوع ، وهذه الحالة التعسة التي يعانيها فقراء الصين نتيجة محتومة لنقص التطور وسداجة الوسائل وتبديد الجهود العاملة .

وتعالج هذه الحالة علاجاً حاسماً بالاستعانة برؤوس الأموال الأجنبية وبالخبرة الفنية من الخارج لمنفعة الأمة الصينية كافة . اذ كانت أوروبا وأمريكا قد سبقتنا الى التطور الصناعي بنحو مائة سنة ، فاذا اردنا اللحاق بهما في وقت قصير وجب علينا ان نستعين بما عندهما من الأموال والآلات ، واذا تعذر الحصول على رأس المال الاجنبي فمن الواجب على الأقل ان نحصل على الخبراء والمخترعين الذين يصنعون لنا آلاتنا ، فلا مناص لنا بأية حال من الاعتماد على الآلات لمساعدة قوانا اليدوية الهائلة على تنمية مواردنا التي لا تحصى .

وتتلخص ضرورات المعيشة العصرية في خمسة مطالب هي :

- ١ - صناعة الأطعمة .
- ٢ - صناعة الملابس
- ٣ - صناعة المساكن
- ٤ - صناعة المتحركات والناقلات
- ٥ - صناعة الطباعة .

١ - صناعة الأطعمة

فصناعة الأطعمة تدرج تحت هذه العناوين : وهي (١) انتاج الطعام و (٢) تخزينه ونقله و (٣) إعداد الغذاء وحفظه و (٤) توزيعه وتصديره فائضه .

فالطعام الإنساني يأتي من الأرض والهواء ، وأهمه وأكبره غذاء الهواء

وقوامه الأوكسجين . وهو غذاء تدبره الطبيعة ولا يحتاج منا الى تدبير الا ما كان من قبيل تدبير الهواء للطيار والغواص ، فهو غذاء مباح لكل طالب ولا يلزمنا ان نبحثه في هذا المقام .

والغذاء من الماء - وقد المعت اليه عند الكلام على انشاء موانئ الصيد وسفنه - موضوع لا نتعرض له هنا اكتفاء بالكلام على الصناعات التي تتوقف على المعونة الأجنبية .

إن الصين بلاد زراعية ، اربعة اخماسها على وجه التقريب مشغولون بانتاج الطعام . وقد عرف الزارع الصيني بالمهارة في استخراج المحصول ، وفي وسعه ان يحصل من الأرض على اكثر ما تعطيه ، ولكن الصين تتخللها اراض واسعة في الاماكن المعمورة متروكة بوراً لسبب من الأسباب ، فمنها ما يترك لقلة الماء ، ومنها ما يترك لكثرتة ، ومنها ما يترك عمداً لتمكين المحتالين من المغالة بالاجور والأثمان ، وان الأقاليم الثمانية عشر وحدها لتقوم اليوم بمعيشة اربعمائة مليون .

الا ان مجال الزيادة والتنمية متسع اذا استصلحت الأرض البور وحسنت وسائل الانتاج في الارض المزروعة ، وينبغي ان نحتمي الزراع ونشجعهم بالقوانين الحرة التي تكفل لهم ان يجنوا ثمرات عملهم ، وينبغي مع ذلك ان تتوفر على خطة نافعة في الوقت نفسه لنشأة الصين الدولية فيما يتعلق بانتاج الطعام . وهذه الخطة النافعة تقوم على مساحة الارض وإقامة المصانع لإخراج ادوات الزراعة الحديثة .

فالصين لم تسمح قط مساحة علمية ولم تعمل لها قط خريطة وافية . فكانت ادارة الارض فوضى وتقرير الضرائب عليها جزافاً بغير ضابط ، مما يزيد المصاعب على الفلاحين والزراع المساكين ، ومن ثم كانت مساحة الارض كيفما كانت الأمور اول ما تشرع فيه الحكومة ، وهو عمل لا يتم بغير المعونة الأجنبية لحاجته الى الأموال والخبراء ، ولهذا نقترح ان تتولى هذا العمل منظمة دولية تجمع نفقاتها من قرض يعقد ويعين على تنفيذ المشروع بما يلزمه من الخبراء

والأدوات ، وندع للمختصين ان يقرر وا تكاليف المشروع وموعد انجازه ونطاق معداته واستخدام الطيارات له او غيرها من الوسائل والأساليب .

فيحفظ الطعام تارة بمعالجته بالملح وتارة بحرارة الشمس ، ويندر ان تستخدم العلب والمصانع لهذا الغرض . ورأى ان تبنى سلسلة من معامل الارز في جميع الحواضر الكبرى بوادي اليانجزي والصين الجنوبية حيث قوام الغذاء من الارز ، ويحسن ان تبنى اربعة معامل في كل مدينة الى شمال وادي اليانجزي حيث قوام الغذاء من القمح والشوفان وبعض الحبوب الاخرى ، وتجعل هذه المعامل جميعاً في كفاءة ادارة واحدة للتوفر على التدبير والقصد في النفقة ، ويوكل الى المختصين تقدير الاموال الضرورية لهذا المشروع بالتفصيل .

ومن اللازم حفظ الاغذية من الفاكهة واللحم والسماك بوسائل التبريد والتعليب ، وسيكثر الطلب على القصدير عند انشاء صناعة التعليب ، وهي صناعة ضرورية ومربحة ، ويحسن ان تقام معاملها الى جوار مناجم الحديد والقصدير ، ففي الصين اماكن شتى يوجد فيها الفحم والحديد والقصدير على مقربة وينتهي من ثم تحضير المواد والخامات للمعامل ، ويحسن ايضاً ان تجمع معامل التعليب ومعامل القصدير في صناعة واحدة لتيسير النفقة والتنظيم .

التوزيع والتصدير

والمعروف عن الصين انها لا تعدم الغذاء في السنوات الطيبة ، ومن امثلتها الشائعة ان الجحراث سنة يدبر الحاجة ثلاث سنوات ، وقد تعود الناس في الأقاليم الغنية ان يخزنوا الأطعمة ثلاث سنوات وأربعاً من قبيل الخيطة للسنوات المجدية .

ولكن التنظيم المقترح خليق متى تم ان يغني الشعب عن الخيطة لأكثر من سنة واحدة وان يسمح له بتصدير الفائض الى البلاد الخارجية ، ويحسن ان يوضع التوزيع والتصدير مع الحفظ والتخزين في رعاية ادارة واحدة ، فينقل الفائض الى مخازن المدن الكبرى ويدخر منه ما يكفي لسنة واحدة ، ويبيع الطعام

بتكاليف انتاجه لافراد الشعب ، ثم يرسل الفائض الى البلاد الخارجية حيث يطلبون ويبدلون فيه الأثمان العالية ، وبهذه المثابة ينتفع بالطعام الفائض بدلا من اضاعته سدى جرياً على المتبع في نظام الحجر على التصدير ، ولا شك ان هذا المورد خليك ان يعتمد .

وتجرى مع مساحة الارض بحوث جيولوجية في وقت واحد للقصد في النفقة ، ومتى تمت المساحة وتمت البحوث ووضعت الخرائط الدقيقة لكل اقليم فمن المستطاع يومئذ ان نصحح تقدير الضرائب على الارض المزروعة والارض المستصلحة وأن نقرر ما تصلح على الأرض البور من اغراض الزراعة او المرعى او غرس الغابات وحفر المناجم ، وان نؤجر كلا منها لاستغلاله في احسن الأغراض التي يصلح لها ، ونخصص الفائض من محصول الضرائب لسداد القروض الاجنبية .

ولدينا عدا الثماني العشرة الاقاليم اراضي واسعة للزرع والمرعى بمنشورية ومنغولية وسنكيانج ، فضلا عن اراضي المرعى الواسعة في التبت وكوكونور ، ويمكن تسميرها على سعة بأسلوب التقسيم الجماعي الذي اشرت اليه في برنامجي الاول .

اما إقامة المعامل لصنع آلات الزراعة وادواتها فان الحاجة اليها تعظم كلما مضى العمل في الزراعة والاستصلاح ، وايسر لنا ان نصنعها في بلادنا من استيرادها من البلاد الخارجية ، لكثرة الايدي العاملة عندنا ووفرة الحديد والفحم في ارضنا ، ولا بد لذلك من تخصيص مقادير كبيرة من رؤوس الاموال تنفق على المصانع التي يحسن ان تقام في مراكز الصناعة او على مقربة من مناجم الحديد والفحم ، حيث توجد الايدي العاملة وتوجد الخامات .

التخزين والتصدير

والحبوب اهم مواد الغذاء التي تخزن وتصدر وهي اليوم تخزن بمقادير قليلة لانها اذا خزنت بمقادير عظيمة تعرضت للسوس والتلف والآفات الجوية ، فلا

تخزين الا اذا قل المقدار وتعهدته العناية الدائمة مدة من الزمن .

وتصديرها كذلك باهظ النفقة لانها تنقل على الأكثر محمولة على الأكتاف ،
ثم تتعاورها وسائل النقل التي لا نظام لها متى وصلت الى البحار .

فإذا احسنت اساليب التخزين والتصدير توفرت لنا ثروة كبيرة . ورأيي في
هذه المسألة ان تبنى خلال الديار سلسلة من مخازن الحبوب وان يصنع لها اسطول
خاص في المياه المختلفة تتولى بناء مصلحة التنمية الدولية ، ويعهد الى المختصين
بتقدير رأس المال اللازم لهذه المشروعات وتعيين مواضع التخزين . . .

اعداد الغذاء وحفظه

وإلى اليوم يجرى اعداد الغذاء وحفظه على الأساليب البدائية القليلة ،
لسداد أقساط الديون وفوائدها .

غير ميسور لنا ان نتم صناعات الأطعمة دون ان نعنى عناية خاصة
بمحصول الشاي وفول الصوية ، فإن شراب الشاي معروف جداً بين الأمم
المتحضرة وفول الصوية أخذ في الاشتهار بمزاياه الغذائية بين الباحثين العلميين
وخبراء الحكومات المنوط بهم تدبير الطعام . والشاي اصح الأشرطة وأطيبها
للناس يتبع من الصين ويقوم على زرعه وتحضيره صناعة من أهم الصناعات
الوطنية ، وقد مضى زمن كانت فيه الصين مصدره الوحيد في انحاء العالم ، ثم
نازعتها إياه اليابان والهند . ولكن الشاي الصيني لا تزال له ميزته على محصولات
البلاد الاخرى . اذ الشاي الهندي مفرط في الحموضة والشاي الياباني تعوزه
النكهة الشهية . فأفضل أصناف الشاي ما يخرج من الصين منبته الأول . ولم
تخسر تجارة الشاي الصينية الا من جراء غلاء التكاليف اللازمة لإنتاجه ومنها
الضرائب المحلية وضرائب التصدير ونقص وسائل الزراعة ، وليس أيسر من
استرداد مكاسب هذه التجارة متى رفعت الضرائب واتبعت الوسائل الحديثة في
زرعه . ورأيي ان تبنى في اقاليم الشاي معامل حديثة لتحضير الشاي بالآلات
بدلاً من تحضيره بالأيدي كما يحصل الآن ، وبهذا تقل التكاليف وتزداد الجودة ،

واذ كان اقبال العالم على الشاي في ازدياد ولا سيما بعد تحريم الخمر في الولايات المتحدة فالمشروع الذي يقوم على تحسين الصنف وتيسير ثمنه مشروع جليل الربح بغير مراء .

وقد عرف الصينيون قديماً مزية فول الصوية بديلا من غذاء اللحم وعول عليه الصينيون واليابانيون قواماً للتغذية منذ الوف السنين . وازمة اللحوم تحس اليوم في البلاد التي تعول عليها فلا بد من حل لعلاج هذه الأزمة ، ولهذا اقترح في برنامج التنمية الدولية ان تصدر هذا اللحم الصناعي ومعه مستخرجات اللبن الصناعي والزبدة الصناعية لتصديرها الى اوروبة وامريكا ، وان نستعد لتصدير هذه الاصناف باقامة المعامل التي تخرج للغرب الاغذية التتروجينية الرخيصة ، وان نستبدل هذه المعامل بالصناعات اليدوية تجديداً للصنف واقلالا للتكاليف .

صناعة الملابس

ان المواد الأصلية لصنع الملابس هي الحرير والكتان والقطن والصوف وجلد الحيوان ، وسأتناول الكلام عنها بعناوينها .

الحرير : فالحرير من مكتشفات الصين ، استعمل للكساء عدة آلاف من السنين قبل الميلاد ، وهو صناعة من اهم الصناعات الوطنية في الصين ، كانت الصين الى زمن قريب تنفرد بتصديره الى انحاء العالم ولكن اليابان وايطاليا وفرنسا اخذت هذه الصناعة لاعتمادها على الوسائل العلمية في المزروعات والمصنوعات اذ لا تزال الصين معتمدة على وسائلها العتيقة كما كانت قبل آلاف السنين .

ولما كان الإقبال على الحرير يزداد في انحاء العالم فتحسين الزراعة والصناعة فيما يتعلق به عمل مربح جداً ، وينبغي ان ينشأ في كل مركز من مراكز الصناعة الحريرية مكتب علمي يتولى ارشاد الزراع وتعليمهم تربية الديدان الصحيحة ، وينبغي ان تكون هذه المكاتب تابعة لإدارة مركزية . وان يكون من

عملها جمع اللوزات لتمكين الزارع من الحصول على ثمن مناسب ، ولا بد من اقامة المعامل الحديثة لتحضير خيوط الحرير للصناعة الداخلية والصناعة الخارجية على السواء . ويقترن انشاء ، هذه المعامل بانشاء معامل للمنسوجات الحريرية تباع في الاسواق الوطنية والأسواق الاجنبية ، وتضم جميع هذه الصناعات الى رقابة قومية واحدة تمولها رؤوس الأموال الأجنبية ويتعهد بها الخبراء المختصون لتوفير احسن المحاصيل الاقتصادية واخراج ارخص الأصناف واجودها .

الكتان : والكتان أيضاً صناعة وطنية قديمة ، ومن مصنوعات الصين الجنوبية صنف من التيل الجميل اشتهر باسم حشيش الصين ، ويمكن ان يضارع الحرير في نعومته وزهوه اذا عولج بالوسائل الحديثة ، ولكن الصين على ما اعلم لم توجد فيها بعد امثال هذه الوسائل لنسج التيل . ويصنع التيل الصيني في الأنوال اليدوية ، فمن الواجب ان نستورد الآلات اللازمة لهذه الصناعة ، وأن ننشر مراكزها في الجنوب حيث تتوافر الخامات والأيدي العاملة .

القطن : والقطن محصول أجنبي دخل الصين منذ قرون ، وأصبح صناعة وطنية مهمة في عهود الأنسجة اليدوية ، ولكن ورود المنسوجات القطنية من الخارج قتل هذه الصناعة ، وأصبحنا نصدر الى الخارج مقادير كبيرة من القطن ونستورد مقادير كبيرة من المنسوجات القطنية ، فما اعجب هذا عندما نفكر في وفرة الأيدي العاملة الرخيصة بيننا !

على أن المعامل القطنية قد انشئت اخيراً في موانئ المعاهدات وجنت ارباحاً عظيمة من صناعتها وقيل ان بعضها وزع في السنوات الأخيرة ارباحاً تضارع مائة في المائة وترتفع احياناً الى مائتين ، والطلب يزداد على سلع القطن ولكن المعروض قليل ، فلا بد من توفير المعامل وانشاء سلسلة من المراكز تضمها رقابة واحدة تعمل على تحسين الصناعة وتيسير الحصول عليها بالثمن الرخيص .

الصوف : إن شمال الصين كله - اي نحو ثلثي البلاد جميعاً - ارض مرعى . ولكن صناعة الصوف لم تستوف قط عندنا . اذ تخرج من الصين كل سنة مقادير عظيمة من الخامات وتدخلها مقادير عظيمة من المنسوجات

الصوفية ، فإذا نظرنا الى احصاء الوارد والصادر تبين لنا ان الصناعة الصوفية جديرة ان تفيد فائدة كبيرة ، وينبغي ان نسخر الوسائل العلمية لتربية الغنم وعلاج الصوف لتحسين الصنف وزيادة المقدار ، وان نقيم المعامل الحديثة في الشمال لصنع جميع السلع الصوفية . اذ نحن نملك الخامات والمعمل الرخيص والسوق الواسعة ، وكل ما نطلبه هو رأس المال الأجنبي والخبرة . . . وسيكون هذا المورد جديداً فلا يتعرض للمنافسة .

الجلود : وصناعة الجلود أيضاً ستكون من صناعاتنا الجديدة ، على الرغم من وجود بعض المدابغ في موانئ المعاهدات . ولا يزال تصدير الجلود وتوريد المصنوعات منها آخذين في الازدياد عاماً بعد عام ، فمن المنتظر ان نحصل على فوائد جمة من انشاء المدابغ والمعامل التي تخرج المصنوعات الجلدية والأحذية .

آلات الكساء : والصين محتاجة جداً الى الآلات التي تصنع الأكسية . ويقال إن طلبات الآلات القطنية قد استغرقت لمدة ثلاث سنوات من أوروبا وأمريكا . فإذا تمت نشأة الصين وتنميتها على حسب برامجي كان الطلب عليها أضعاف أضعاف ذلك وقصرت موارد أوروبا وأمريكا عن تلبيةها . إقامة المعامل اذن لإخراج هذه الآلات مشروع نافع فضلاً عن لزومه وضرورته ، ويحسن ان تقام على مقربة من مراكز الحديد والصلب للإقلال من تكاليف نقل الآلات الضخام ، وللخبراء ان يقرروا ما يتطلبه هذا المشروع من التكاليف .

المساكن

بين الملايين الأربعمائة من أهل الصين يسكن الفقراء في الخصاص والأكواخ ويسكن فقراء الشمال في الكهوف . أما الاغنياء والأوساط فيسكنون الهياكل ، وكل ما يسمى بالمنازل ما عدا المبني منها على الطراز الحديث في موانئ المعاهدات فهو مقام على طراز الهيكل .

وإذا بنى الصيني بيتاً فحساب الموتى مقدم لديه على حساب الأحياء ، وأول ما يهمله محراب الأسلاف الذي يشاد في وسط الدار وتضاف اليه سائر حجراتها وجوانبها . ولا تبني المساكن للراحة بل للمراسم والشعائر ، أو ما يسمونه في الصين بمسائل الأحمر والأبيض ، ويعنون بالأحمر حفلات الزواج وبالأبيض حفلات الحداد .

والى جانب محراب الأسلاف محاريب أخرى للأرباب البيتية ، فهي أهم من الإنسان وأولى منه بالعناية . فليس في الصين منزل لوحظت فيه راحة الإنسان وموافقة معيشته . فإذا وضعنا خطة السكن في برامج تنمية الصين فنحن نضع الخطة لسكنى أبناء الصين اجمعين . ويقول قائل : أتريد ان تبني بيوتاً لأربعمائة مليون ؟ إنه لمستحيل . وإنه لأضحك شغلة خطرت لإنسان على بال !

الا ان الصين - ان كانت على عزيمتها أن تنبذ التقاليد الحمقاء والعادات النخرة - فتعديل نظام السكن امر لا يحصى منه على عمد أو على غير عمد . وهذه حضارة الأمم الغربية التي ادركتها تبدولنا غير مقصودة لأن العلوم الاجتماعية والاقتصادية لم تكن معروفة قبل الآن . ونحن نأمل في خلال خمسين سنة من تطورنا الصناعي ان تصبح مساكن الصين جميعاً مستوفاة من وجهة الراحة والموافقة . أليس بناء المساكن في الصين وفقاً لترسيم العلم افضل واجدى من تركها بغير ترسيم ؟ انني لأحسب ان بناء الف منزل مرة واحدة اقل نفقة من

بناؤها منزلاً منزلاً متفرقات ، وكلما ازداد عدد المساكن نقصت التكاليف ، فهو قانون اقتصادي واضح ، ولا ضرر فيه الا من جانب الإفراط والزيادة على الحاجة . فهذا هو العائق الوحيد في جميع الأعمال الكبرى . ومنذ قامت الثورة الصناعية في اوروبة وأمريكا لم تأت الأزمات الا من طريق الإفراط في الإنتاج ، ولدينا في الصين اربعمائة مليون راغب يتطلعون الى المساكن ، فلا أقل من خمسين مليون مسكن تدعو اليها الحاجة في الخمسين سنة المقبلة ، ومليون منزل هو متوسط الطلب في كل سنة .

إن المساكن عامل هام في الحضارة ، وهي تعطي الناس من المتعة والرفاهة ما لا يجدونه في الغذاء والكساء . واكبر من نصف الصناعات البشرية تدور على مطالب السكنى ، وستصبح صناعة البيوت اعظم ما نشرع فيه من خطط التعمير كما ستكون ارباحها وأنفعها ، وكل غايته من هذه الصناعة ان نهىء السكن الرخيص للدهماء ، وقد يتسنى بناء منزل كالذي يبنى الآن في موانئ المعاهدات بعشرة آلاف ريال ولا تزيد تكاليفه على ألف ريال ، وانما يتسنى هذا بالاستيراد والنقل والتوزيع ، ومتى تم بناء البيت وجب تزويده بالأثاث ، وكل هذا يدخل في نطاق صناعة السكن على الوجه الآتي :

(أ) إنتاج مواد البناء واستيرادها

(ب) إجراء البناء

(ج) صناعة الأثاث

(د) تدبير المرافق المنزلية

فأما مواد البناء فهي الآجر والقرميد والخشب والحديد والحجر والإسمنت والملاط ، وكل مادة من هذه المواد تؤخذ من الخامات ، فلا بد من الأفران لصنع الآجر والقرميد ، ولا بد من المعامل لتحضير الأخشاب والحديد ، ولا بد من المحاجر لاستخراج الإسمنت والملاط والحجارة ، ولا بد من وضع هذه المعامل جميعاً حيث يسهل امدادها والوصول اليها ، وان تضم كلها الى مصلحة واحدة تخرج منها كل صنف على حسب الحاجة اليه ، وتنقل المواد بطريق المواصلات المائية او المركبات الخاصة على السكك الحديدية ، وتتولى مصلحة السفن

ومصلحة المركبات إعداد وسائل النقل من المعامل الى الأسواق .

والمباني التي تنشأ في الصين تشتمل على مساكن عامة ومساكن خاصة .
ويناط ببناء المساكن العامة بمصلحة حكومية لأنها لا تأتي بأجرة تعوض تكاليفها .
اما المساكن الخاصة فلا تبنى الا لغرض من غرضين ! أحدها تيسير السكن
للشعب ، والآخر تحصيل الربح لخدمة هذه الصناعة . وتتبع الأساليب المرسومة
في بناء المساكن ، ومنها أسلوب البيت الذي تسكنه أسرة واحدة وأسلوب البيت
الذي تسكنه اكثر من أسرة ، فالبيت على الأسلوب الأول يقسم الى ثنائي
حجرات او عشر حجرات او اثنتي عشرة حجرة . والبيت على الأسلوب الآخر
يقسم الى مساكن عشر اسر او مائة أسرة أو ألف أسرة ، لكل أسرة منها أربع
حجرات او ست حجرات ، ويجب تقسيم المساكن في الريف على حسب أعمال
السكان مع إلحاق الحظائر والجرن بمساكن الفلاحين . وتلاحظ في تخطيط البيوت
راحة الإنسان فتعهد مهمة التخطيط الى مصلحة تدرس عادات الطوائف المختلفة
ومطالبتها ويدخل عليها التحسين الضروري حيناً بعد حين ، ويتم البناء بالآلات
المستعجلة التي تقتصد في الجهد انجازاً للعمل وإقلالاً من نفقاته .

اما الأثاث فإن ضرورة تغيير أساليب البناء تستلزم تغيير الأدوات وصنعها
على الطراز الحديث . ومنها أدوات للمكتبة وأدوات لحجرة الاستقبال واخرى
للمخدع أو للمطبخ او للحمام أو للمراحيض ، وتخصص لكل نوع معامل
مستقلة تحت إشراف مؤسسة الإنشاء والتعمير .

ومرافق البيوت تشتمل على الماء والنور والحرارة والوقود والتلفون ، ولا
توجد في غير موانئ المعاهد موارد مائية ، بل تخلو بعض هذه الموانئ من موارد
الماء حتى الآن . ويستقي الناس في المدن الكبرى من الأنهار التي تنوب كذلك
عن المجاري والمصارف . ومن هنا كانت موارد الماء في الصين غير صالحة . فمن
المطالب العاجلة توفير موارد الماء في المدن بغير إبطاء ، ولا بد لذلك من المعامل
التي تصنع فيها الادوات الضرورية ، أما الإنارة فلا بد كذلك من تعميمها
وانشاء المعامل التي تخرج ادواتها .

ومن أعظم المطالب كلفة على الصين وقود الطعام . فالريفي يخصص عشر أرباحه لشرائه . والحضري يخصص لشرائه ضعف هذه القيمة . ومن ثم كانت مسألة الوقود مضيعة لكثير من الجهد والثروة ، ويجب استبدال الفحم بالعشب والخطب في بلاد الريف ، وأن يستبدل به الغاز والكهرباء في الحواضر والعواصم ، ولا غنى عن الأجهزة اللازمة لتحضير الفحم والغاز والكهرباء . وعلى مؤسسة الانشاء والتعمير ان تعنى بهذا العمل ، وعليها كذلك ان تيسر استخدام التلفون للريفيين والحضريين على السواء ، وان تنشئ المصانع التي تخرج الأجهزة والأدوات ميسرة بالثمن المستطاع .

المحركات

الصينيون شعب ساكن . فخر الرجل فيهم من قديم الزمن انه يعكف على منزله ولا يعنى بغير شأنه ، ومن أقوال لاوتسي معاصر كنفشيوس ان الجيرة الصالحة تقيم على مقربة حيث يسمع الجار من بيت جيرانه صياح الديكة ونباح الكلب ولا يغشى احدهم دار غيره مدى حياته ، وطالما تردد هذا القول وصفاً للعصر الذهبي في الأمة الصينية .

إلا أن الأمور قد تغيرت في الأزمنة الحديثة ، وأصبحت الحركة هنا وهناك شغل الإنسان في حياته ، وإنما بالحركة تتقدم الحضارة ، وعلى الصين أن تتحرك اذا ارادت ان تدرك ركب الحضارة ، فحركة الفرد جزء جوهرى من نشاط الأمة ، ومن حقه ان يتحرك حيث شاء ومتى شاء في يسر وسرعة ، ولكن الصين في الوقت الحاضر تعوزها الوسائل التي تيسر الانتقال لمن يريد . فإن الطرق القديمة مخربة والسيارة لم تغرف بعد في انحاءها ، وهذه السيارة وسيلة مستحدثة لا غنى عنها للحركة السريعة . فإذا أردنا ان نتحرك ونعمل فعلينا ان نستعين بالسيارة ، ولا سبيل الى الاستعانة بها قبل تمهيد الطرق لمسيرها ، وقد بينت في هذه البرامج اننا محتاجون الى انشاء مليون ميل من الطرق المنتظمة ، نلاحظ في بنائها نسبة السكان والمواقع ، وفي اقاليم الصين الثمانية عشرة ألف محلة ، فإذا كانت الصين على نية تعميم النظام المتبع في توزيع هذه المحلات وصل عددها الى

أربعة آلاف ، وخص كل محلة مائتان وخمسون ميلاً من الطرق ، إلا أن السكان في كل محلة يزدون تارة وينقصون تارة ، ولا تتساوى المحلات جميعاً في عدد السكان ، فإذا قسمنا مليون ميل على أربعمئة مليون ساكن كان على كل أربعمئة ساكن بناء ميل واحد وهو عمل غير عسير ، فإذا قبلته الأمة وقبلت معه ان يكون تمهيد الطرق شرطاً للحكومة المحلية وجدنا امامنا مليون ميل من الطرق كأنها امتدت بسحر ساحر . ومتى شرعت الأمة في تمهيد الطرق امكن انشاء المعامل لصنع السيارات قليلاً قليلاً ثم تزداد على حسب ازدياد الطلب حتى تفي بحاجة الملايين الأربعمئة . يجب ان تصنع السيارات لأغراض متعددة بحيث تصلح للزراع والصانع والتاجر والمسافر والمتنقل الخ الخ . وكلما كثر المصنوع منها قلت تكاليفه وتيسر ثمنه لمن يطلبه ، ولا يكفي تيسير الحصول على السيارة دون تيسير الحصول على وقودها ، فمن الواجب ان تقترن صناعة السيارات بالتنقيب عن منابع زيت النفط ، وهو ما نفصل القول فيه عند الكلام على صناعة المناجم والتعدين .

الطباعة

هذه الصناعة - صناعة الطباعة - تيسر للإنسان غذاء فكره ، وهي ضرورة من ضرورات الحياة العصرية لا يتم التقدم بغيرها .

إن نشاط النوع الإنساني محفوظ مسجل ، ومعارفه جميعاً مخزونة في المطبوعات . فالطباعة عامل عظيم من عوامل الحضارة ، بحيث تقاس حظوظ الأمة من التقدم أحياناً كثيرة بمقياس مطبوعاتها في كل سنة .

والصين متخلفة في هذا المجال مع سبقها الى اختراع الطباعة ، ولكنها إذا اتبعت مناهج التقدم التي نبسطها هنا تعاضمت مطالب ملايينها الأربعمئة من المطبوعات وأصبح لزاماً لتلبية هذه المطالب أن تؤسس شبكة من المطابع في انحاء البلاد لإخراج المطبوعات المختلفة من الصحف الى الموسوعات ، ووجب ان تترجم نخبة الكتب في جميع اللغات الى اللغة الصينية وتباع بالأثمان المستطاعة ،

وينبغي ان تلخص دور النشر جميعاً بإدارة واحدة لتحقيق أفضل النتائج الاقتصادية .

وتيسير اثمان المطبوعات يستدعي العناية بصناعات شتى اولها صناعة الورق ، وهو في الوقت الحاضر يستورد من الخارج لطبع الصحف ويزداد الطلب عليه يوماً بعد آخر . على أن الخامات التي يصنع منها الورق موفرة في الصين ، ومنها الغابات في شمالها الغربي وأنواع القصب في نهر يانجتزي والمستنقعات التي بجواره ، وهي كفيلة ان تزود مصانع الورق بأحسن عجينة صالحة لصنعه . ويحسن انشاء المعامل الكبيرة لهذا الغرض في المواقع الملائمة ، وأن تنشأ معها معامل المداد والمسابك والأدوات المطبعية وكل ما هو ضروري لإدارة النشر والطباعة .

الحرب والسلام من كتاب تنمية الصين الدولية

إن الحرب العالمية ليست الا السطو المسلح على نطاق واسع بأسف له كل فكر مستقيم .

ولما اشتركت الولايات المتحدة في النزاع الأخير فجعلتها بذلك حرباً عالمية (١٩١٤ - ١٩١٨) كان أبناء الولايات المتحدة بلسان رجل واحد يريدون أن يجعلوها حرباً للقضاء على الحروب ، وحلق رجاء الأمم عالياً حتى خيل لنا نحن أبناء الصين ان الناتج Tatung (أي العصر الذهبي) مقبل لا محالة .

غير أن الولايات المتحدة قد اخفقت في السلم للأسف الشديد بعد نجاحها في ميادين القتال ، فنكصت الدنيا الى حالة كالتى كانت عليها قبل الحرب العالمية ، وسيطلقون من جديد في السباق الى ضم البلاد والنزاع على مواد الغذاء والتطاحن على الخامات ، وبدلاً من نزع السلاح سوف يتضاعف عدد الجيوش والأسلحة البحرية استعداداً للحرب المقبلة بين اولئك الذين كانوا من قبل حلفاء ، وستكون الصين اغنى البلاد بالموارد والسكان غنيمة النصر في تلك الحرب المقبلة .

لقد كانت الدول جانحة منذ سنوات الى تقسيم الصين وتقدمت روسيا القيصرية فعلاً لاستعمار منشوريا ، فإذا باليابان - ذات الحمية والنخوة - تتصدى لها وتنجو الصين بهذه المثابة من خطر التقسيم .

لكن سياسة اليابان العسكرية في الوقت الحاضر متطلعة الى ابتلاع الصين . فمصير الصين اذا هي ظلت معلقة بمراحل الدول العسكرية ان تمزق بين هذه الدول او تبتلعها واحدة منها .

ويبدو ان الاحوال آخذة في التغير . فهذه الصين التي لبثت هاجعة عدة قرون قد تيقظت وعلمت ان اللحاق بركب العالم المتقدم ضرورة لا محيد عنها .
وها نحن اولاء في مفترق الطريق ، فهل نعد انفسنا للسلام ؟

إن العسكريين والرجعيين منا يؤثرون الاستعداد للقتال ويحاولون ان يصبغوا الصين بالصبغة اليابانية ، وأن يتحينوا الفرص لإعلان حرب كحرب الملاكمين (البوكسر) تتحدى عالم الحضارة .

ولكنني باسم الجمهورية التي اسستها اود ان تجمع الصين عدتها للسلام ، واثوب الى القلم - وهو في اعتقادي أقوى من السيف الذي جردته للقضاء على أسرة المانشو - فأخط هنا تفاصيل البرنامج الذي تستعد به الصين لخدمة السلام .

إن الدول - إذا هي صدقت النية على التعاون لتحصيل المنافع المتبادلة - خليقة ان تتقي اخطار الصراع على المغانم المادية التي تتطلع اليها في الصين . فإن مغانمها من طريق التعاون أوفر وأجدى من مغانم الصراع والقتال .

على أن العسكريين اليابانيين لا يزالون يحسبون ان الحرب انفع المساعي الوطنية ، ولا يزال اركان حربهم يرسمون الخطط للحرب المقبلة خلال عشر سنوات ، وقد أكبر هذا النهم في رؤوسهم ان غزوتهم للصين سنة ١٨٩٤ كانت موفورة الربح على قصرها وسهولتها ، وأن حربهم مع روسيا سنة ١٩٠٤ كانت كذلك نجاحاً لليابان وكانت ثمراتها كبيرة بالنصر كبيرة بالقيمة ، وأن اعلانها الحرب على المانيا سنة ١٩١٤ لم يكلفها بعض ما تكلفه المقاتلون من الرجال والأموال ولكنها على هذا ربحت من ورائه اقليم شانتنج وهو في سعة رومانيا قبل الحرب يسكنه اناس في عدد سكان البلاد الفرنسية .

لا جرم إذن ، مع هذه المغانم من كل حرب ، ان تستمرى اليابان مغبة الحروب ويخيل اليها أنها أربح التجارات في هذا العالم ، ولكن الصين اليوم يقضى لما حولها . فكل عدوان من قبل اليابان ستصده الصين ولا شك بعزيمة صادقة .

إن الحرب التجارية - او التنافس على الأسواق هي صراع بين اصحاب الأموال ، وهذه الحرب التجارية لا تتحرى مصلحة قومية بل تنشب بين اصحاب الأموال في الوطن الواحد عنيفة قاسية كما تنشب بينهم في الأوطان المتعددة ، وسلاحها الماضي ان تتسابق الى البيع الرخيص للقضاء على المنافس الضعيف ثم الاستبداد بالسوق واملاء الشروط على المستنفذين الى امد طويل .

وعاقبة الحرب الاقتصادية لا تقل عن الحرب المسلحة في إضرارها بالمنهزم وشدة وطأتها عليه ، وقد تفاقمت ضراوة هذه الحرب بعد اتخاذ المكثبات لإنتاج المصنوعات . وكان بعض خبراء الاقتصاد من مدرسة آدم سميث يحسبون التنافس عاملاً طيباً ونظاماً صحيحاً سليم العاقبة ، ثم انكشف للخبراء المحدثين انه على نقيض ذلك مضيعة للجهود ومدعاة للخراب ، وجنحت آراؤهم الى الوجهة المقابلة : أي الى وجهة التركيز والتكافل بدلا من التفرق والتنافس ، ولهذا تزدهر الشركات المؤتلفة في امريكا على الرغم من تحريم القوانين لها وميل الجمهور الى مكافحتها ، لأن الشركات المؤتلفة تستطيع الانتاج بتكاليف اقل من تكاليف الأفراد لقصدها في النفقة وتوفيرها للجهود المبذولة ، وهكذا تخلص الشركات المؤتلفة من المنافسين كلما دخلت ميداناً من ميادين الصناعة ويسرت للمستنفد سلعاً أرخص من امثالها . وجدير بهذه المزية ان تكون خيراً وبركة على المستنفدين لولا ان الشركات المؤتلفة في الأيدي الخاصة التي تتحرى مضاعفة الكسب جهد المستطاع ، فما هو الا ان تخلص من المزاكين حتى تستبد بالسوق وتغالي برفع الأسعار ، وتضطهد جمهرة الناس ، وإنما تعالج هذه الآفة علاجها الأمثل باستيلاء الشعب كله على الشركات المؤتلفة ، وبرنامجي في تنمية الصين أن تجعل صناعاتها القومية جميعاً شركة مؤتلفة كبرى تملكها الأمة وتتفق عليها من رؤوس الأموال الأجنبية لتبادل المنفعة ، فنقضي بذلك دفعة واحدة على الحرب التجارية في أكبر الأسواق العالمية .

دستور الهيئات الخمس

من خطاب القمي في سنة ١٩٢١ وأذاعته مصلحة النشر في اللجنة التنفيذية

نحن جادون كي نجعل الصين دولة قوية مجيدة : فكيف نبليغ بها ما نصبو اليه ؟ اخال أن الطريق ينبغي ألا يكون وعراً ، وأرى أنه هو طريق الدستور ذي الهيئات الخماسية .

مضى اليوم أكثر من عشرين سنة منذ تكلمت لأول مرة عن هذا الموضوع في الذكرى السنوية للمين باو بمدينة طوكيو . . . ولا يزال اعوان هذا الدستور جد قليل ، وعلينا إذن أن نرحب بكل رغبة في زيادة العلم بكنه هذا الموضوع .

في تاريخ الحياة السياسية وجهتان : وجهة الحرية ووجهة النظام . وفحوى هذا ان السياسة تعمل فيها قوتان كالقوتين اللتين تعملان في الطبيعة ، وهما القوة الدافعة من المكنو والقوة الجاذبة اليه . فالقوة الدافعة تتجه الى الامتداد خارجاً والقوة الجاذبة تتجه الى التجميع حول المركز . فإذا كانت القوة الدافعة اقوى من كل عامل آخر تطاير الجسم بداداً ، وإذا كانت القوة الجاذبة هي الأقوى تكاثف الجسم وصغر . ويلزم من ثم ان تتعادل هاتان القوتان .

وينطبق هذا على وجهتي الحرية والنظام . فامتداد الحرية قد يفضي الى الفوضى ، والغلو في حفظ النظام قد يفضي الى الحكم المطلق . وما كانت الاطوار السياسية خلال آلاف السنين الأخيرة الا أثراً من آثار الصراع بين هذين الاتجاهين .

نعم ، وهذان الاتجاهان في التاريخ السياسي بين السلطان المطلق والحرية هما موضع الاختلاف بين الصين والبلاد الأوروبية ، ولكن التاريخ السياسي فيه غير ذلك طائفتان من الناس : طائفة الحاكمين وطائفة المحكومين . او كما عبر

عن ذلك أحد الحكماء حيث قال: « إن من الناس من يعمل لرياضة عقله ومنهم من يعمل لرياضة جسده ، والأوائل حاكمون ، والأواخرهم المحكومون » .

ولا بد لمن يحكم من المعرفة ، ولا بد للمحكوم من فرصة لكسب المعرفة .
وقد كان أبناء الأزمنة الغابرة كالأطفال ينتظرون القيادة من غيرهم ، فانقضى عهد الطفولة السياسية وأصبح الناس وهم يشعرون أن هذا الفاصل بين الحاكم والمحكوم خلق ان يزول . وقد طرح الأوروبيون عنهم نير الأنظمة الملكية في القرون الأخيرة . ونعم الناس بقسط من الحرية أكبر وأرقى . ونهجننا نحن لهدم ذلك الفاصل منهج الهيئات الخماسية عسى ان نتأدى منه الى مبادئ الديمقراطية الصحيحة .

ولقد ناديت عند بدء الثورة بالمبادئ الثلاثة وهي القومية والديمقراطية والاشتراكية ، وهذه هي الأغراض التي عنهاها رئيس الولايات المتحدة لنكولن حينما دعا الى حكومة الشعب بالشعب ولأجل الشعب . فلا بد للناس ان يحكموا انفسهم ليرضوا عن حكمهم ، فلا رضى للناس مع عجزهم عن ولاية الأمور .

ولا ننس إذ نعالج سيطرة الدين راضوا عقولهم على الجماهير التي لم تشغل بغير اجسادها ان المشيئة الإنسانية قد تعمل حتى في مواجهة السماء .

ولننظر الى الديمقراطية وهي أداة الشعب التي يطير بها أو يعدو أو يسبح أو يمضي حيث شاء بين الأرض والسماء . فما هي هذه الأداة ؟ هي الدستور : هي الدستور الذي يضع الحدود لسلطان التشريع ولسلطان القضاء ولسلطان الإدارة ولسلطان الاختبار ولسلطان الرقابة والإشراف .

ذلك هو الدستور الخماسي الذي نبغيه ، وهو سيادتنا أو غواصتنا أو طائرنا ، نسير به حيث نريد ، لأنه يسلك بنا حيث توضع القوانين أو حيث تنفذ أو حيث تدار الأعمال الحكومية أو حيث يختبر الموظفون وحيث يراقبون .

ويقوم الرئيس على رأس الإدارة . ويقوم البرلمان على رأس التشريع . ويقوم القضاء على منصة الأحكام .

وكم من اناس أولي كفاية لم يعرف لهم فضلهم لأنهم لم يوضعوا قط موضع الاختبار ، لقد حدث كثيراً ان اناساً من الجهلة اشباه الأميين ارتفعوا الى مناصب الحكم فغرسوا في النفوس شرور النقرة والبغضاء . وليس اصلح لعلاج هذه الآفة من اختبار المرشحين لوظائف الدولة واختيارهم من ذوي الفضل والدراية ، فبغير هؤلاء النخبة المختارين يمضي المركب بغير سائق ، وبهذه الوسيلة نحصل على الكفاة المدربين على الخدمة العامة .

لقد جرى الانجليز على هذه الخطة منذ زمن غير قصير . وجرى عليها الأمريكيون منذ عشرين او ثلاثين سنة ، وكلهم مسبقون اليها في الصين ، فإن النظام الصيني اصلح الأنظمة ، وبلاد العالم تستعيره منا اليوم .

ولما كنت في نانكنج رجوت مجلس الشيوخ ان يقتبس نظام الهيئات الخماسية فلم يفتنوا لمقصدي ، لأنه يقطع عليهم مدى نظراتهم الشخصية . لكن هذا الدستور الخماسي - ثمرة جهودي وتجاربي - أداة ضخمة . فمن كان عليه ان يقطع مئات الأميال في غير بطة ولا وناء فلا غنى له عن سيارة او طائرة يحكم آلاتها . ومن كان عليه ان يسير بالأمة على نهج الفلاح فلا غنى له عن الآلة الحكومية التي تضبط حركاتها .

تلك هي الآلة التي تدار بها شؤون البلاد . ولدينا عدا هذا الدستور الخماسي مبدأ جوهرى لاشتراك المواطنين المباشر في الحكومة المحلية ، فهذا الاشتراك المباشر هو الخلاصة الصادقة لحقوق الانسان ، قوامه الانتخاب والعزل والاقتراح والاستفتاء ، فإذا شبهنا الدستور الخماسي بالأداة فالحق المباشر هو مفتاح هذه الأداة ، ويحق لمن يملك الانتخاب ان يملك عزل من أساء ، ومن علم بشريعة صالحة فمن حقه ان يقترحها وأن يرجع اليه لسؤاله عنها ، وذلك هو نظام الاستفتاء .

قبس من صلاة

على ضريح عميد الأسرة الصينية القديمة « منج »

توجه به الزعيم الى روح العاهل « الخالد » بعد نجاح الثورة (١٩١٢)

وهنت اسرة « سنج » قديماً فاغنتم التتار ومغول أسرة « يوين » هذه الشجرة ليشيعوا الفوضى في هذه الديار ، وباءوا بغضب الناس والأرباب .

عندئذ ثبت يا صاحب الجلالة ، يا رافع دعامتنا ، تصد ذلك الغول ، وخرجت من خفائك تعيد ذلك التراث القديم .

وما هي الا سنوات اثنتي عشرة حتى جمعت اشتات الدولة وطهرت الديار من لؤثة التتار الصاخبين .

ولطالما حدث في تاريخ امتنا النبيلة ان اغار عليها برابرة الشمال فاستعبدوها لأمرائهم الصغار ، فلم ينتصر عليهم احد قط كنصرتك المؤزرة يا صاحب الجلالة ، ولكنه مجد لم تقو ذريتك على حفظه ، وأمانة عهدوا بها الى أناس اساءوا الرأي ونظروا الى أمديقرب ، فاطمعوا فيهم همج التتار من المشرق ومهدوا لهم أسباب القوة والجرأة ، فما عتموا ان تمرد المتمردون هنا وثم حتى انقضوا على مدينتك المقدسة فاخذوها ، ثم انحدروا من قمتهم الخسيصة الى ارجاء هذه التربة الطاهرة فدنسوا انهارها واوديتها وأعملوا في الرقاب فأس الجلاذ وسيف الفاتك المنتقم .

ونشط الأكرمون الغيورون من رعاياك فاجتازوا الجبال إلى كانتون والجنوب الأقصى ، وساورهم الرجاء ان ينقذوا بقايا التراث فلا يطبق عليه الخراب ، وتتابعت الضحايا وهلك من هلك راضياً في هذا الجهاد ، فلم يسكن غضب السماء ولم تنفع حيلة أبناء الفناء ، وكأنما هي صفحة محزنة ضمت الى سجل

سيرتك يا صاحب الجلالة ، ولا شيء !

واشدت وطأة الشريعة الواغلة وضاقَت شباكها ، فياللحسرة المرة على امتنا المسكينة وهي قابعة في الأركان تصغي ولا تنطق ولا ينطلق لها لسان ، وكأئنا الصقت السنتهم بالغراء بين أفواههم حيث سدت امامهم ابواب الفرج والنجاة .

وراح الآخرون يسبغون صفات الزيف على المكارم الباطلة والأمان الكاذب ، ومن ورائها حكمة تداس وآداب تهدر ووصايا تبتذل ، ودعواهم انهم يوقرون حكماءها المقدسين وأئمتها الملهمين .

كظموا أنفاس الناس ليكرهوهم على الطاعة ، وغلبت السيطرة المانشوية بالغيلة والحيلة فلم يعسر عليهم ان يبسطوا بأسهم ويطلبوه ثم انفجرت الثورة على الرغم من كل هذا الطغيان ، وتعاقب الثوار في كل مكان . . . وآل امرها نعم الى الهزيمة ، ولكنها اعلنت صوت الامة وكشفت عن مشيئتها فتسايرت بها الركبان .

ثم لاحت اشعة فجرنا ، وأذنت شمسنا بالطلوع . وبث نفحات الحياة في امة الصين انها تعارفت على حقوقها وأحست كرامتها ، وخارت قوى المانشويين انفسهم فلم يقدروا على حماية حوزتهم ، وزحف العداة الأقوياء على الأرض فنزل المانشويون عن خيراتها ليشبعوا مطامع جيرانها . ولئن كان ابناء الصين اليوم في نكسة لقد كانوا منذ القدم سلالة الأبطال الأشداء . فكيف بهم يصبرون على أرواح عظمائهم الذاهبين ان تلقى هذا الهوان وتنصب عليها سياط البلاء !

يومئذ هب حماة الوطن كالعاصفة او كالسحابة التي تبرز فجاءة في افق السماء ، فاستهلّت من كانتون ثم روعت بكين بقذيفة وويوية^(١) ، وانطلقت رصاصة هسوهسلين الى احشاء طاغية المانشو قبل عام ، ورفع هسونج شنج لي علم الحرية على نهر اليانجزي . فتعاقبت الوثبة بعد الوثبة خلال الديار . وعلم وصي العرش بما اعد له المجاهدون خفية فكشفت الثورة عن نفسها في كانتون ،

(١) حادثة وقعت سنة ١٩٠٥ .

وارتفعت العاصمة فنكلت بطائفة بعد طائفة ، وتقدم الى مكانهم صف بعد صف ، حتى انجلت الغاشية عن دولة جديدة وسلطان جديد . . .

. . . قيل قديماً إن طغيان البرابرة على بلادنا لم يكتب له قط ان يطول بعد مائة عام . ولكن هؤلاء المانشويين قد طال بهم الزمن مائتين وثلاث مئات . وعلم القضاء بالساعة الموعودة وانها في النهاية آتية لا ريب فيها . وها نحن اولاء نفتتح في آسيا الشرقية تجربة الحكومة الجمهورية ، وما زال العاملون من قديم موعودين بالنجاح القريب او البعيد ، وما من ريب في عقبى الصالحين بعد حين ، فما لنا نجزع اليوم وقد طال انتظار النصر المبين ؟

وسمعنا كثيراً بالذين صعدوا الى هذه القمة العليا يستلهمون وحيها عسى ان تساعدهم على الخلاص ، ولطالما ذرفوا الدمع السخين كلما نظروا الى ما تحتهم من الأنهار والأودية فأروها جاثية تحت اقدام الأجنبي الغريب . فالיום يتبدلون بالحزن سروراً ويطوون صدورهم على الغبطة بعد القنوط .

لقد ثابت الينا نفحة الروح من ضريحك في نانكين ، وها هو ذا التنين رابض في جلاله القديم ، وها هو النمر يجبل بصره في ملكه المعهود ، وكل ما حوله ساكن قرير .

ان جنودك قائمون صفّاً صفّاً على مقربة من الضريح ، وإنهم لينصتون ويتربعون . وها هو ذا شعبك يحج اليك ليرفع اليك انباء نصره ، وعلى مثواك حيث يستقر رفاتك الأقدس بريق جديد من نور المجد والبهاء ، جعله الله هادياً لذريتك فيما يلي من أيامها ، وسلام أيها الروح . . . تقبل منا هذا القربان .

عوارض الانحلال

من خطابه لأول جماعة الفها لإنقاذ الصين سنة ١٨٩٤

إن الأمور تسير في الصين على ضلال : فضائلنا الموروثة وآدابنا العتيقة تفسد كل يوم ، وجيراننا الأقوياء ينظرون إلينا من عل ويحتقروننا لاختلاف أهوائنا وتفرق قلوبنا ، وأبناء قومنا واثبون على مطامع الأنانية والمغانم العاجلة ، غافلون عن حالتهم في جملتها ، لا يخطر لهم على بال أن الصين إذا تمزقت بين الأقوام الأخرى شب اولادهم واحفادهم عبيداً مسخرين وضاعت اسراتهم بلا وزر ولا حماية . ما كانت الأثرة قط اشد امعاناً في الأثرة ، وما تبلبلت المقاصد قط كما تبلبلت اليوم في الأمة بأسرها . فكيف النجاة اذن من الكارثة ؟ اننا إن لم نثبت لتتساند وننهض بأنفسنا قبل فوات الحين فهذه الألوف من السنين التي سلفت لنا في السمعة والحضارة ، وهذه الأجيال التي تعاقبت على السنن الماثورة ذاهبة لا محالة ، صائرة الى الدمار لا مراء . من المسؤول عن هذا المصير ؟ من عساه أن يكون غير الصالحين العارفين بهذا المصير ؟

لا أمل في الرجعية

من كلامه عن الحل الصحيح (سنة ١٩٠٤)

منذ فتنة الملاكمين (البوكسر) تخيل الكثيرون أن حكومة المانشو اخذت تلمح علامات الزمن وتصلح من شأنها لتحسين أحوال البلاد ، واغثروا بمشوراتها ومراسيمها التي تذاع من حين الى حين وفاتهم أنها حروف ميتة لا يراد بها غير تهدئة النفوس الثائرة ، وان إخلاص المانشو في نية الإصلاح مستحيل لأن الإصلاح يقضي عليها ويستوعبها في بنية الأمة فتخسر كل ما في يديها الآن من الحقوق والمزايا ، وان أحلك الجوانب من حكومة المانشو لخلق أن ينكشف بعد

اليوم حين تبدو صحائف الدواوين وأسرارها في الضياء . فإن أصحاب هذه الدواوين المتجرة المتعفة تعرف كيف تزدلف الى أسرة المانشو وترشوها لتبقى في مكانها وتنعم بتجارة الغش والاختلاس .

من دستور الكومنتانج

كل شخص راغب في العمل بمبادئ الحزب ، والسعي في تنفيذ قراراته ، مستعد لإطاعة أصوله وتعليماته ، يجوز ان ينتظم في عضويته بناء على طلبه وموافقة الحزب ، بغير تمييز بين الجنسين .

ويشتمل الحزب على طائفتين من الأعضاء : طائفة الأعضاء المثبتين . وهي تتألف من كل شخص جاوز العشرين ومضى عليه سنة على الأقل عضواً تحضيرياً في الحزب ، بعد تزكيته من لجنة التنظيم وامتحانه أمام اللجنة التنفيذية ، ومراجعة اللجنة المركزية في البلد أو الجهة المختصة ، وتصديق اللجنة المركزية في الإقليم .

وطائفة الأعضاء التحضيريين وهي تتألف من كل شخص جاوز ست عشرة سنة يقدم طلبه وفقاً للإجراءات المقررة ، ويزكيه عضوان مثبتان تقبل تزكيتهما في اجتماع عام للجنة التنظيم ، ويجري امتحانه أمام اللجنة التنفيذية .

والأعضاء المثبتون لهم حق إبداء الرأي والاقتراح والاشتراك في انتخاب ذوي المراكز الإدارية في الحزب كما يحق لهم أن ينتخبوا لتلك المراكز. والأعضاء التحضيريون لهم حق إبداء الرأي .

وعلى كل عضو في الحزب مراعاة النظام الآتي :

- (أ) إطاعة دستور الحزب وتعليماته وقبول مبادئه .
- (ب) مناقشة المسائل بحرية تامة ، إلى أن يصدر الحزب قراراً فيها فيجب في هذه الحالة تسليمه بغير خلاف .
- (ج) المحافظة على أسرار الحزب .
- (د) ألا يهاجم عضواً في الحزب أو هيئة من هيئاته خارج مؤسساته .

(هـ) ألا يشترك في هيئة سياسية أخرى .

(و) ألا يشترك في تأليف هيئة منشقة داخل مؤسساته .

وللحزب رسالة تاريخية يؤديها ، وهي السعي في الوحدة والاستقلال
وسلام الوطن ، وكلها تتوقف على نتائج جهاده ، كما تتوقف نتائج جهاده على
اتباع النظام التام فيه ، وعلى الأعضاء أن يستقصوا غاية جهدهم لإنجاز هذه
الرسالة .

كل منظمة حزبية تشمل موقعاً من المواقع لها حق الإشراف على المنظمات
في أجزاء ذلك الموقع .

وجميع المنظمات تدين بالولاء لجماعة الحزب القومية ولغيرها من الجماعات
والوكلاء والمؤتمرات الذين يمثلون موقعاً تنتمي إليه . وتشترك المؤتمرات المحلية
والوكلاء المحليون في انتخاب الهيئة التنفيذية التي تباشر أعمال الحزب .

والهيئة العليا للحزب هي جماعة الوكلاء القومية التي تجتمع في الأحوال
العادية مرة كل سنتين ، وتدعى للاجتماع في الأحوال الاستثنائية كلما رأت اللجنة
التنفيذية المركزية ضرورة لذلك ، أو كلما اتفقت على ضرورة اجتماعها كثرة
اللجان الإقليمية واللجان التي في طبقتها . وتتولى اللجنة التنفيذية المركزية
وضع الإجراءات الخاصة بتنظيم أعمال الجماعة وانتخاب وكلائها ونسبة النيابة
فيها .

وتنطاط الواجبات التالية باللجنة التنفيذية المركزية :

(أ) تمثيل الحزب في علاقاته الخارجية .

(ب) تنفيذ قرارات الجماعة القومية .

(ج) تنظيم وإدارة الهيئات الحزبية التابعة .

(د) تنظيم إدارات اللجنة التنفيذية .

(هـ) الإشراف على مالية الحزب وأمانة صندوقه .

نشيد الحزب

سان مين شو آي

هدف جماعتنا
نوطد أركان الجمهورية
ونعقد أواصر الأخوة العامة
تقدموا يا رفاق
يا طليعة الأمة
لا وهن ولا مهل
بل جهاد متصل في سبيل مبادئنا
ثابروا على المهمة . وثابتوا على الأقدام .
ثابروا على الصدق ، وثابتوا على الولاء .
وبقلب واحد ، وبرأس واحد
سيروا إلى النهاية .

الوصية

منذ أربعين سنة وقفت نفسي لقضية الثورة القومية التي تتكفل للصين
بمركز بين الأمم على أساس الاستقلال والمساواة . وقد أقنعتني جملة تجاربي في
هذه السنين بأن بلوغ هذا المقصد رهين بإيقاظ الجماهير من أبناء امتنا والتعاون مع
كل امة من أمم العالم تعاملنا على سنة المساواة في الكفاح المشترك بيننا .

ولم تتحقق الثورة بعد . فلينظر زملائي جميعاً فيما دونته عن خطط التعمير
القومي والقواعد الأساسية التي يقوم عليها ذلك التعمير ، وفي البلاغ الذي صدر
من مؤتمر الحزب الأول ، وليعملوا بلا وناء لتحقيق جميع هذه الغايات . وينبغي
قبل كل شيء عقد مؤتمر قومي والغاء جميع المعاهدات المجحفة كما بينت اخيراً ،
وان يتم ذلك بأقل ما في الطاقة من التأخير .

هذه وصيتي ، وهذه رسالتي .

الكلمة الأخيرة

انتهينا من هذه الصفحات الى التعريف ببطل من أعظم أبطال الشرق في العصر الحديث . ولا نهاية لسيرة هذا البطل اذا أردنا ان نستقصي آثارها بعد حياة صاحبها ، ولكننا نستطيع ان نجترىء من السيرة بالقدر الذي انتهينا اليه ، فإن التعريف ببطولة الرجل لا يتوقف على الإحاطة بما حدث بعده . فهي بقية متجددة لا نهاية لها من الزمان .

والحقيقة التي لا مرء فيها أن تاريخ الصين الحديث لا يفصل بعد اليوم عن تاريخ سن ياتسن ، وما كان الشيوعون له من قادة الصين مبالغين اذ قالوا: به أحد رجلين لم تعرف بلادهم اسماً أقدس من اسميهما ولا عملاً اخلد من عمليهما ، وهما كنفشيوس في التاريخ القديم ، وسن ياتسن في التاريخ الحديث .

ولم يشيعه أهل الصين تشييع زعيم من زعماء السياسة في عصر ينقضي بانقضاء جيله ، بل شيعوه تشييع الخالدين ، وشادوا له ضريحاً^(١) أعظم من ضريح كعبتهم الوطنية في نانكين ؛ وهو ضريح عميد آل « منج » الذي حج اليه سن ياتسن بعد إعلان الجمهورية يرشده على أمانة الوطن لعهد الأسلاف والأعقاب .

ومن عادة أهل الصين أن يدلوا على تعظيمهم للدفين بتعظيمهم لنعشه . فلما نقل رفات الدفين المحبوب الى ضريح نانكين - بعد إعداده في خمس سنوات - تقسم أجزاء النعش مائة وخمسون من أقوياء الجنود ، وحملته السفينة الحربية الى ميناء نانكين ، ثم أبى مشيعوه من عالية القوم الا أن يترجلوا طول

(١) دفن سن ياتسن في ضريحه اول شهر يونيه سنة ١٩٢٩ .

الطريق ، والقيظ في أشد أيامه ، ومن المرسى الى أكمة الضريح خمسة أميال .

ودخلت ذكرى « الأب الكبير » في عداد الصلوات والعبادات .
فخصصت لذكره ساعة من صباح الإثنين في كل أسبوع ، ينحني الحاضرون فيها ثلاثاً أمام صورته ، رمزاً الى مبادئه الثلاثة ، ويرتلون نشيد الصين الوطني ويستمعون الى وصيته ويصمتون دقائق ثلاثاً في خشوع وسكون ، ثم ينصرفون .

ولما ظهر بعد وفاته أول دليل من أدلة الأعلام والمشاهير ، لم يكن اسم سن يا تسن بين اسمائه . فأوشكت ان تكون فتنة وأن يهجم الشبان الغاضبون على دار الدليل سخطاً على المكتب الموكل بجمعه ، فما ينبغي ان يحذف اسم الزعيم الخالد من سجل الأحياء ، وهو واهب الحياة للصين جمعاء .

وقد استحق الرجل ولا ريب هذا الوفاء من قومه ، فإنه قد نسي نفسه ليذكرهم ، ونسي - وهو الطبيب - أنه مريض عظم الجسد ليصحح ابدانهم ونفوسهم ، وفارق الدنيا وليس له من ميراث غير مكتبته ومسكنه ، ومعه ميراث آخر هو الذي استحق به ذلك الوفاء ، وهو ميراث اربعائة مليون عمل لهم ما لم يكونوا قادرين على عمله لأنفسهم ، وقلما يساويه ميراث عظيم من عظماء الأوطان .

وآية العظمة في موازين الإنصاف ان يعمل الإنسان عملاً لم يقدر عليه الملايين من قبله .

ليست آية العظمة ان يعمل كل شيء ، ولا ان يعمل كل ما اراد . ولو قيس عظمة الأبطال الأفذاذ بمقياس كهذا المقياس لما بقي في التاريخ عظيم واحد . فما من بطل يعفي الناس من العمل بعده ، وما من بطل ولا غير بطل حقق امنيته كلها في حياته ، وإغما البطولة ان ينهض فرد بأعباء الألوف ، وأن ينسى نفسه ليذكر الناسين وبنه الغافلين . وبهذا المقياس يرتقي سن يا تسن الى الذروة العليا بين ابطال الوطنية وأبطال الإنسانية ، ويستحق حقه من أمته وغير أمته ، وقد يكون حقه من أمته متصلاً بالمنفعة والأثرة ، أما حقه من غيرها فهو

حق الأمانة لنفسه ولأبناء نوعه ، ما دامت الثقة بالطبيعة الإنسانية شيئاً يعنيه .

وهذه الثقة - في رأينا - هي أنفس ما نفتنيه من تراجم العظماء ، فكل تراجم العظماء عبث إذا كانت خلاصتها أن العظماء ليسوا بعظماء ، وأننا نترجم لهم لنفضح عيوبهم ونقائصهم ونخرج منها بعزاء واحد لا يغتبط به محب لأبناء نوعه ، وهو عزاء الخسة بتلويت كل عظيم .

قال لي فتى ممن يسمون أنفسهم بالنقدة المحصين : إنك تكتب عن العظماء قصائد الثناء ، يعني انني أحفل بجوانب عظمتهم ولا أحفل بما فيهم من العيب والنقيصة .

ويصح ما قاله الفتى لو أنني أثني على العظماء لخصلة ليست فيهم ، أو أثني عليهم ولا أبين دواعي الثناء في أخلاقهم وأفعالهم . ولكنني أعود فأقول على فرض صحته : إنني أؤثر ان تكون تراجم العظماء قصائد ثناء ، على أن تكون قصائد هجاء بافتراء أو بغير افتراء .

وفي هذه السيرة بذاتها أنكر أسلوب الترجمة للتعظيم ودفع الملام لو أن قارئاً من قرائها يخرج منها وهو يرى أن سن ياتسن معظم لغير سبب ، ومعذور بغير عذر ، وموصوف بالخلائق أو المناقب التي لا تميزه من غيره ، ولا تفرده بملاحه بين خدام الأوطان خاصة في كل أمة وملة . فإن كان القارئ لا يرى هذا ويرى على نقیض هذا أن صاحب السيرة موصوف للتعريف به والتمييز بينه وبين أمثاله ، فليسم السيرة إن شاء قصيدة ثناء .

هي قصيدة ثناء ، وكل ما نكتبه عن العظماء هو على هذا الأسلوب قصائد ثناء .

فهرس كتاب بنجامين فرانكلين

| الموضوع | صفحة |
|---|------|
| « هذا الكتاب وهذا الرجل » بقلم حسن جلال العروسي | ٧ |
| تمهيد : بقلم عباس محمود العقاد | ٩ |

الجزء الأول - عن فرانكلين

| | |
|--------------------|-----|
| معالم الطريق | ١٩ |
| العالم | ٣٨ |
| الكاتب | ٥٥ |
| السياسي | ٧٠ |
| الفيلسوف | ٩١ |
| الانسان | ١٠٦ |

الجزء الثاني - من فرانكلين

| | |
|-------------------------------|-----|
| تمهيد | ١١٥ |
| تقويم ريتشارد المسكين | ١٢٠ |
| رسائل | ١٣٨ |
| خرافات وحكايات ذات مغزى | ٢٠٧ |
| علميات | ٢١٧ |
| اجتماعيات | ٢٢٩ |
| خاتمة | ٢٤١ |

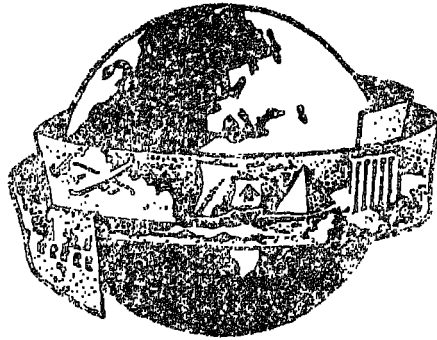
فهرس كتاب سان ياتسن

| الموضوع | الصفحة |
|--------------------------------|--------|
| كلمة عن كلمة | ٢٥١ |
| الصين | ٢٥٥ |
| لمحة تاريخية | ٢٥٧ |
| الصدمة | ٢٦٩ |
| المعتقدات والعادات | ٢٨١ |
| مذاهب السياسة | ٢٩٧ |
| ابو الصين | ٣٠٣ |
| من سنة ١٨٩٢ - ١٩١١ | ٣١٥ |
| ثقافته السياسية | ٣٢٧ |
| في الحياة البيتية | ٣٣٧ |
| من اعماله | ٣٤٧ |
| رئاسة الجمهورية | ٣٥٣ |
| مع الدول | ٣٧١ |
| الأحزاب والتلاميذ | ٣٨٣ |
| برامج الإصلاح | ٣٨٧ |
| من اقواله | ٣٩١ |
| ذكريات من كتاب صيني ثائر | ٣٩٣ |
| من تاريخ الثورة | ٤٠٩ |
| برنامج الثورة | ٤١٣ |

| | |
|-----|---------------------------|
| ٤١٩ | الثوار |
| ٤٢١ | مبادئ الامة |
| ٤٢٩ | مبدأ الوطنية |
| ٤٣٩ | مبدأ الديمقراطية |
| ٤٤٩ | مبدأ المعيشة |
| ٤٦١ | لوازم المعيشة |
| ٤٧١ | المساكن |
| ٤٧٧ | الحرب والسلم |
| ٤٨١ | دستور الهيئات الخمس |
| ٤٨٥ | قبس من صلاة |
| ٤٨٩ | عوارض الانحلال |
| ٤٩٣ | نشيد الحزب |
| ٤٩٤ | الوصية |
| ٤٩٥ | الكلمة الاخيرة |

طبع على مطابع
دار الكتاب اللبناني
ص. ب. ٣١٧٦
بيروت - لبنان

٢٣٧٥٣٧ - ٢٥٧٤٧٠



دار الكتاب المصري

طباعة - نشر - توزيع

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع
ت: ٣٩٣٤٣٠١/٣٩٢٢١٦٨ - فاكسميلي: (٢٠٢) ٣٩٢٤٦٥٧
صيب: ١٥٦ - الرمز البريدي: ١١٥١١ - بـرقـيـا: كتامـر

TELEX No: 23081 - 23381 - 22181 - 22481 - ATT: MR. HASSAN EL - ZEIN
FAX: (202): 3924657 CAIRO - EGYPT

**The Complete Works of
ĀBBAS MAHMOUD AL - ĀĀKAD**

Volume XXI

DAR
AL-KITAB
ALLUBNANI

Biblioteca Alexandrina



0305725